تركيا
في عهد السلطان عبدالعزيز
١٨٦٢–١٨٦٧

بنکەی ژین

بنکەی ژین

تركيا
في عهد السلطان عبدالعزيز
١٨٦٢–١٨٦٧

ملحق بها خارطة لم تنشر بعد
لشرق أرمينيا أو كردستان الشمالية

تأليف
فردريک ميللينگن (عثمان سيفي بک)
قائد سابق لفرقة في الجيش العثماني

ترجمة
الدكتورة سعاد محمد خضر
الأستاذ المساعد في جامعات بغداد، موسكو، صنعاء

السليمانية ٢٠٢٠

٩٥٦,١٠١
م ٤٧٧
ميللينگن، فردريک.
تركيا في عهد السلطان عبدالعزيز ١٨٦٢-١٨٦٧/ تأليف فردريک ميللينگن (عثمان سيفي بک؛ ترجمة د. سعاد محمد خضر. – ط ١
السليمانية: مركز ژين، ٢٠٢٠.
٢٢٤ص؛ ١٧,٥×٢٥سم + (١ خريطة، ٣ ملحق)
١. مذكرات- تراجم ٢. سعاد محمد خضر (مترجمة)
أ. العنوان

الاشراف العام للمطبوعات: صديق صالح

التسلسل: ١٧٨
الكتاب: تُركيا في عهد السلطان عبد العزيز ١٨٦٢-١٩٦٧
تأليف: فريدرك ميللينجن عثمان سيفي بك
ترجمة: د. سعاد محمد خضر
تنضيد: سَهند رفيق
تصميم: لاس
رقم الإيداع: ١٨١٦ لسنة ٢٠١٨ من المديرية العامة للمكتبات العامة
الرقم الدولي ISBN: 978-9922-9206-2-7
مكان الطبع: مطبعة ژين
سنة الطبع: ٢٠٢٠

ترجم الكتاب من هذا المصدر:
Frederick Millingen, LA TURQUIE sous le regne D ADUL-AZIZ 1862-1867, Paris, Librairie Internationale, 1868.

بنکەی ژین

مركز ژين للتوثيق والدراسات

العراق: إقليم كُردستان، السليمانية؛ الشارع ١١ پيرەمگرون، محلة ١٠٧ بَرانان،
رقم الدار ٣٧، بجانب مسجد الشيخ فريد، صندوق البريد: ١٤ بختياري
٠٠٩٦٤٧٧٠١٤٨٤٦٣٣-٠٠٩٦٤٧٧٠١٥٦٥٨٦٤-٠٠٩٦٤٧٧٠١٥٢٣٨٩٦
zheen@zheen.org www.zheen.org -

الفهرست

الموضوع	الصفحة
المقدّمة	٩
تنويه	١١
الفصل الاول: الأكراد، الدين، العادات، الوضع الإجتماعي والسياسي	١٣
الفصل الثاني: مقاطعات: وان وهكاري، موقعهما ومواردهما، سكانهما، وإدارتهما.	١٧
الفصل الثالث: مقاطعة قوتور، حياة المدير احمد آغا، وضع كتيبتي لدى تعييني لآمرتها، الجيش العثماني، العقيد مصطفى بك، حياته	٢٣
الفصل الرابع: قبائل ميلانية والشكاك، خلافاتهما ووصول عزمي باشا إلى وان، حياته ومن سبقه.	٣٠
الفصل الخامس: ادارة عزمي باشا، استدعائي لوان، المقابلة، الحل الذي قدّمه عزمي لقضية الميلانيين والشكاك، كلفوني بإحتلال قرية سيراي، الإجراءات التي إتخذتها، إحتلال ملا حسن الكبير.	٣٥
الفصل السادس: احمد آغا رئيس قبيلة الموكريين، استقبلت زيارته، أمرني بالإنسحاب من ملا حسن القرار الذي اتخذته، رحيلي إلى وان، سلوك عزمي باشا في هذه القضية، الدرس الذي يمكن ان يُستقى	٣٨
الفصل السابع: الحملة الرابعة في شرفهانه [شرفخانه]، عدم جاهزية تلك القرية، ظهور التيفوئيد، تلقيت امراً بالذهاب إلى قوتور، العقيد يعود إلى وان، اتخاذ مواقع الشتاء، يقوم بالتفتيش في الحملة الرابعة، التيفوئيد، ونسبه وتطوره، تقريري عن تلك الحالة.	٤٢
الفصل الثامن: تطور المرض، الإجراءات التي اتخذتها التقرير الثاني المُرسل إلى عزمي باشا، تقرير إلى القيادة العامة، إرسال الجراح إلى موش، إرسال الدكتور لافيني إلى باشقلا.	٤٦
الفصل التاسع: عزمي باشا يقرر ان يتصرف، اجراءات يتخذها، المشير يُعلم عزمي بتقريري، عزمي يرسل لجنة إلى قوتور، مناورات اللجنة، العودة إلى وان ولم	٥٠

تفعل شيئاً.
الفصل العاشر: الأسرائيليون في باشقلا، تجارتهم، قوتور: علاقاته مع المدير، عودته لبلاده، اغتياله في الطريق، يبحث البوليس بلا نتيجة، تدخلي، قبضت على المجرمين، البرهنة على ان المدير هو مدبر الاغتيال ٥٥
الفصل الحادي عشر: إرسال القتلة إلى باشقلا، استدعاء المدير أمام المحكمة في المقاطعة، باشا وان يعلن انه من الحق محاكمة المهمين، إرسالهم إلى وان، هروب المجرمين من السجون، حكاية أخرى على بلطجة المدير ٥٩
الفصل الثاني عشر: عقبات تمنع إرسال المدير إلى قوتور، عزمي باشا يتخطاها، عودة المدير إلى قوتور، رحيلي، وصولي إلى وان، استقبال عزمي، المدير يرسل اتهامات ضدي، عزمي بك ينزع القناع، لقاؤنا، تعليق وظائفي. ٦٣
الفصل الثالث عشر: مطاردة واتهام عزمي باشا، حاول اقامة مجلس للتحقيق ضدي، خطواتي أمام القيادة العامة، رحيلي إلى أرضروم، مطاردتي، عبورى الفرات سباحة، عودتي لأرضروم، وصولي ومثولي أمام المشير. ٦٦
الفصل الرابع عشر: مليمنلي، مصطفى باشا، حياته، استدعائي أمام لجنة، المشير يرسل نسخة من شهادتي إلى عزمي قرار المشير بإرسال تقرير للقسطنطينية لإتهامي بالفرار من الجيش، إجراءات اتخذتها، القيادة العليا للجيش ذُهلت، عزمي باشا من جديد، اعتراضي. ٧١
الفصل الخامس عشر: القيادة العامة تنتقل إلى ارزنجان، اسباب هذا الاجراء، فسادها، حسين دايم باشا، حياته ذهابه إلى القسطنطينية. ٧٦
الفصل السادس عشر: مقاطعة أرضروم، سكانها، منتجاتها ومواردها، أرضروم، الأكراد، الأرمن، عبوديتهم، هيليز غردلي محمد بك، اسماعيل باشا، ادارته، الفرس، تجارتهم ونفوذهم، الوضع السياسي للبلاد. ٨٠
الفصل السابع عشر: المشير يغادر أرضروم، رفض منحي الموافقة على الذهاب إلى القسطنطينية، هروبي عبر الجبال، صوفي محمد وعصابته، وصولي إلى ريزا على البحر الاسود. ٩٢
الفصل الثامن عشر: ريزا، رحيلي إلى تربيزوندا، وصولي للمدينة، رحيلي إلى القسطنطينية، وصولي وذهابي لرؤية فؤاد باشا، سلوكه وتجميد نشاطي، إستلامي امر الذهاب والعودة للجيش، مظهر التشريع. ١٠٠
الفصل التاسع عشر: اهانات موجهة لي، استقالتي، خطواتي لدى السير هنري ١٠٧

بولڤير، محاصرة منزلي، سجني، حال السجن، تدخل السفارة الانگليزية، الافراج عني، طلب الأسرائيليين يقدّم إلى فؤاد باشا، إجراءات اتخذتها، طرد اليهود.
الفصل العشرون: حال تركيا في مدة تولي عبدالعزيز الحكم، سلطة السلطان، سلطة الباب العالي، الصراع بين التاج والباب العالي، حياة عبدالعزيز، اولى فترات حكم عبدالعزيز ١١٨
الفصل الحادي والعشرون: حياة فؤاد باشا، محاولاته للاستيلاء على السلطة. ١٢٨
الفصل الثاني والعشرون: ادارة فؤاد باشا ١٤٩
الفصل الثالث والعشرون: رئاسة الوزراء ورشدي باشا، النفوذ الفرنسي، الموقف يسوء يوما بعد يوم، ثورة كريت، استقالة رشدي باشا، علي باشا رئيساً للوزراء، سفرة السلطان إلى اوربا، مشكلة كاندي ١٦٦
الفصل الرابع والعشرون: عرض سياسي موجز للمسألة الشرقية ١٨١
الملاحق ٢٠١
ملحق ١ ٢٠١
ملحق ٢ ٢٠٤
ملحق ٣ ٢١٤
الخارطة ٢١٥

بنکەی ژین

مقدمة

يُحِبُ الناسُ عادة الحديث عن تلك الاشياء التي لايعرفون عنها الاّ القليل. إنهم يستمتعون بما يُحَفِّزُ الخيال و يُثْرِي الفكر محاولين الوصول إلى المصادر العجيبة والمجهولة. علماً وإن الحياة من وجهة النظر المادية ليست سوى حَالَةٍ مِنَ المشاعر. وما يدفعنا لأحساس أكثر بالوجود، هي تلك الانطباعات التي يَخْلُقُها ما هو عجيب ومثير لحب الاستطلاع لدى الانسان. وكلما حَجَبَت غيوم الأسرار والجهل أنظار الأنسان، تأثر بما يعده من العجائب.

فهل يوجد بلد مثل تركيا، تغلفه الأسرار على الرغم من كثرة ما تحدثوا وكتبوا عنه؟ ومع ذلك وفي الأحوال، تعرف الجماهير عن الصين واستراليا، اكثر مما تَعْرف عن تلك الأمبراطورية. ومن وجهة نظر الجغرافيا، فقد تمت دراسة تلك المنطقة وبكل دقة بهذا الشكل أو ذاك. وبالنسبة للتأريخ، فنحن نعرف انه بقوة بعض الاحداث، تم إخضاع مناطق شاسعة كتلك للسلطة العثمانية. وبخصوص التجارة فنحن تقريباً نعرف منتجات البلاد الرئيسية وماهية الأدوات الضرورية التي يستخدمها السكان. ورغم جميع المعارف العامة التي نمتلكها بشكل عام حول تركيا، فعندما يقع حادث سياسي ما، أو أية حركة يمكن ان تثير أهتمام الجمهور، وتتطلب دراسة مُحددة حول الوضع الحالي لتلك البلاد، سنرى ان قلة قليلة من الناس فقط يمكنها ان يُقَدِّر الطبيعة الحقيقية او التوصيف الحقيقي لماهية تلك القضايا المهمة.

فاذا ما أردنا دراسة أسباب ضعف الامبراطورية العثمانية وإنهيارها، او معرفة تلك العوائق التي اعترضت تطوير الموارد التي وهبتها العناية الإلهية لتلك البلاد، فلن يتم ذلك الاّ بالتعمق في دراسة الادارة الداخلية للبلاد بكل تفاصيلها، بل وأسرار الجهاز الحكومي كذلك. وتجب دراسة تلك العلاقات القائمة بين الطبقات الحاكمة والمحكومة، وبين الحاكم وأتباعه، فهي ذات طبيعة تساعد على تطوير المجتمع أو تتسبب في تقويضه. لذلك قررت ان آخذ على عاتقي إختيار ذلك الطريق المجهول الذي لم يتطرق اليه احد حتى الآن، رغبةً في توضيح معارف القارىء وكشف حقيقة الاوضاع في تركيا، املاً في المساهمة بذلك إلى رفاه وتطور جميع مَنْ يعيشون حالياً في ظل الهيمنة العثمانية، ومن ثم رفاه الانسانية جمعاء وتطورها.

وفي الوقت الذي تتهدد الامبراطورية العثمانية احداث جسام نتيجة سياسة فاسدة يصر رجال الدولة اليوم على اتباعها، آمل ان ما انشره اليوم في كتابي هذا يعمل على جذب إهتمام المثقفين المتنورين في جميع البلاد، حيث يَتحَرَّقُون شوقاً لانتصار التقدّم والحضارة.

إن ما اهدف اليه هو عرض الوضع الحالي للادارة العثمانية. وأعتقدت انه مِنَ الضروري تقديم تفاصيل الاحداث التي لَعِبَتْ فيها انا الدور الرئيسي. وذلك لان النظام المتبع حتى في دراسة العلوم التجريدية هو الأنتقال من البسيط إلى المُعَقَّد. وأرى ان الوسيلة السهلة المنطقية في التعامل مع أي موضوع يتمتع بمثل تلك الأهمية هو البدء دون شك بتوجيه الجمهور عَبْرَ التفاصيل المُبَسطة لادارة المنطقة والفوج، وتحفيز الإهتمام تدريجياً للوصول إلى دراسة المقاطعات والجيوش، ومن ثم الأخذ بيده إلى ميادين الباب العالي والقصر الجمهوري.

إنها بديهية لايرقى اليها الشك حسب خبرتي، لأن السياسة الخاطئة التي تهدف إلى التغطية على الشرّ بدلاً مِنَ التخلص منه، تُؤدّي إلى ديمومة جِراح المجتمع الضارة. ولسوء الحظ، يتسبب الكذب والرياء في الابقاء على عبودية شعوب الشرق. في حين ان انتصار الحقيقة وحده هو مايعمل على تجديد الوعي وإتمام مهام جيلهم.

تنويه

ولما كان الهدف مِنْ هذا الكتاب يتطلب عرضاً صادقاً لتجاوزات السلطة والتعسف الذي أدى إلى سوء الاوضاع التي تعيشها البلدان الواقعة في ظل الهيمنة العثمانية، فقد أرتأى الكاتب انه من الضروري جداً، ان يُقدّم للقاريء عَرضاً مُختصراً للمناطق وللسكان، حيث تصادف ان تواجد بينهم فيها. وفي البداية، تبدو معلومات كتلك ضرورية لقراء الغرّب، كما لقراء الشرق، الذين لايمتلكون المعلومات الدقيقة الصحيحة حول تلك البلاد البعيدة التي بدونها تَتَعَذَّر عليهم متابعة خيط الاحداث بسهولة.

ولكي يستطيع الجمهور ان يعرف تماماً أهمية هذا الكتاب وقيمته، من الضروري اذن ان يتعرف على بعض المعلومات التي تخص الكاتب: انه انجليزي الاصل، واحد مُوَاطني القسطنطينية ويرتبط أُسرياً باولى الأسر الحاكمة في الامبراطورية، وشارك في حرّب القِرم، ولمرات عديدة في الجبل الأسود مونتينيغرو. ووجد نفسه ونتيجة لاحداث مُؤسِفة، مَجْبَراً على الاستقالة وترك الجيش. وكان يَعْتَقِد انه كان مخدوعاً باوائل المُبَشِّرين المُزَيفين بالنهضة التركية. وقد ضحى بسنى شبابه تأييداً لقضية يراها اليوم خاسرة مُدَانة. ولذلك وَجَدَ انّ من واجبه تقديم عرض صادق لِخبْرته الحزينة إلى الجمهور. ولأن الجمهور الغرّبي لايَعرَفه، ينشر الكاتب وثيقتين تُساعدان على معرفة من هو وماهي ماهيته.

من: العقيد، رئيس البعثة العسكرية الفرنسية

إلى: السيد موريسن وزير الولايات المتحدة المقيم لدى الباب العالي

باريس، ٨ آذار ١٨٦٥

السيد الوزير،

لقد عَلِمْت ان السيد عثمان بك فريدريك ملينجن، قائد فوج في الجيش العثماني، يوّد الالتحاق بالخدمة في جيش الولايات المتحدة الأمريكية.

انني انتهز الفرصة، لاقدّم لكم بعض المعلومات عن ذلك الضابط. لقد أتم دراسة متميزة في الكلية العسكرية في القسطنطينية. ولكنه عمل على صَقْل وإتقان مهنته العسكرية بالعمل المثابر الدؤوب والتطبيق العملي المتواصل. وهو ذكي جداً ويمتلك روحاً قوية مَقْدامة. وكانت خدمته العسكرية ممتازة اثناء حروب الشرق وفي مونتينيغرو. انه يُقَدِّر مِهْنَتَه كثيراً وينظر اليها باحترام.

وانا أعده واحداً مِنْ افضل الضباط الذين يُمكن اللقاء بهم حتى في اوربا. انه قادر على ممارسة قيادة سلاح المشاة، ويقوم بجدارة بمهام ضابط في الاركان، ويعرف جيداً عملية تنظيم الجيوش؛ هذا إلى جانب انه يكتب في سلاسة باللغات الانجليزية والفرنسية والايطالية.

وتقبلوا، سيادة الوزير، تأكيدنا على مشاعر الاحترام العميق،

و. دولالوب

مِن: السيد ج. ب. براون، القائم بأعمال الولايات المتحدة الأمريكية

إلى: الاميرال د. ثورتر

القسطنيطينية، ٢٠ آذار ١٨٦٥

عزيزى الاميرال،

سوف يترك احد اصدقائي، النقيب فريدريك ملينجن، الخدمة في الجيش العثماني متوجهاً إلى الولايات المتحدة للالتحاق بالخدمة العسكرية في جيش الاتحاد. لقد قضى هنا مرحلة طويلة مِنَ الخدمة العسكرية النشيطة. كما أنه يتقن اللغات الفرنسية والانجليزية والايطالية.

وآمل ان يجد له مكاناً هناك، حيث يمكنه ان يقدّم خدمة عسكرية جيدة. ففي حال ان يلتقي بك، ارجو مساعدته في الاتصال بالجنرال شيرمان الذي ترتبطه بك صلات وطيدة على ما أعتقد. وآمل ان يكون هناك مكان شاغر لِضَابط، وان اسمع عنه قريباً أخباراً متميزة عن آدائه. انه من شجاعة الاسد، ولسوف يثبت ذلك سريعاً عند الحاجة.

نحن جميعاً بخير. أرجو ان اسمع عنك دائماً بأنك مازلت معروفاً وشهيراً دائماً.

ابن عمك المحب: جون. ب. براون

الفصل الاول

الأكراد، دينهم، عاداتهم، وضعهم الإجتماعي والسياسي

بِوَجود شرخ وشيك في عام ١٨٦٢ في العلاقات الودّية بين الباب العالي وبلاد فارس، تجد الحكومة العثمانية ضرورة إحتلال مدينة قوتور وقلعتها [محافظة وان] في كُردستان، بُغْيَة الإبقاء على هذا المكان المهم على الحدود التركية - الفارسية في مأمن أمام جميع الاحتمالات. وكُنت في تلك المرحلة قائداً للقطاعات المتوجهة إلى مدينة قوتور، حيث تركت القسطنطينية في بداية شهر ابريل نيسان ١٨٦٢؛ وبعد رحلة مريرة شاقة دامت عشرين يوماً، وجدت نفسي مُقيماً معسكري في قلب كُردستان.

لقد أطلقنا اسم كُردستان على ذلك الجزء مِنْ تركيا الآسيوية والذي يمتد من الشمال إلى الجنوب، مابين جبال آرارات ومنابع الفرات، وصولاً إلى ضواحي بغداد، ومِنَ الغرْب إلى الشرق مِنْ تخوم آسيا الصغرى ولارستان على الحدود الفارسية. وقد اجتاح الأكراد تلك المنطقة منذ ثمانية قرون وأستقروا فيها. وكان ذلك البلد دوماً ومِن آن لآخر، عرضةً للغزو والاجتياح من قِبل الجيوش المُعَادية السنية والشيعية، ولم تبق لديه أية بقايا من عظمة ماضيه وتقدّمه. فقد نالت منه تلك الحروب الضارية المتواصلة مِنْ اجل التوسع بين الامبراطورية العثمانية والفارسية؛ تلتها مراحل انهاك وضعف مُتَبادلين، ووضعت الامبراطوريتين أمام مأزق إستحالة الاستجابة لإحتياجات املاكهما الشاسعة، وتأمين متعة التمتع بشبه الاستقلالية للمحافظات الواقعة على حدودهما. وخارج مفعول التأثير الفعال لحكومة مركزية، اصبحت تلك الشعوب الرُحَّل المتخلفة فَرِيسةً لصروف الدهر وتقلبات الحياة بكل اشكالها، ولاشكال المآسي التي تتسبب في حدوثها الفوضى الشاملة.. وتراهم احياناً ينخرطون في اقتتال فيما بينهم، تَخَلُّصاً من مطاردة حكام فارس؛ او يكونوا مضطرين في أوقات اخرى للهرَب في تخوم فارس تَخَلُّصاً مِن اطماع الباشوات. ودائماً وفي سبيل البقاء تراهم يَقْضون حياتهم في حالة انذار وتَرَقُّب دائمين، حيث يلجأون إلى القوة والعنف اذا ما دعت الحاجة إلى ذلك، وغالباً ما يستخدمون حِيَل المكر والخديعة والخيانة، ولكنك ستراهم دائماً شجعاناً، خفيفي الحركة، ماكرين وقساة: هؤلاء هم الأكراد، القبائل الرُحَل الذين يبلغ تعدادهم خمسة ملايين. وهم يعيشون رحَّلاً يتجولون في أرجاء تلك المساحات الشاسعة في محافظات تركيا وفارس الحدودية.

ومِنْ بين القبائل الكُردية الاكثر شهرة في العدد والعُدَّة وفي شجاعة مقاتلها، قبيلة الحيدرانيين، الذين يقطنون السهول الواسعة في أبّاه Abaah، الواقعة بين وان، وبايزيد، والجلاليين، والزيديين، والمامانليين في مقاطعات أرضروم، وقارص و الشمسيكليين، والشكاك في مقاطعات هكاري في وان وجزء

من بلاد آذربيجان الفارسية. ولانسى كذلك البلباس في رواندوز والسليمانية. وتبلغ مساحة جبال درسيم، وهي فرع من جبال طوروس، وتقع بين خارپوت وآذربيجان؛ ستين فرسخاً وبضع فراسخ، ويمكن عدّها مونتينيغرو آسيوية. وتحمي تلك الجبال اكراداً رائعين، أشِدّاء؛ استطاعوا الصمود في وجه حملات الحكومة العثمانية لإخضاعهم، استطاعوا الصمود بسبب حصانة وقوة مواقعهم هناك.

ويعتنق الأكراد بشكل عام الدين الاسلامي. ومن بين الفرق المذهبية الاربع المعروفة، يتبعون المذهب الشافعي، وهو لايختلف كثيراً عن المذهب الحنفي، سوى في بعض الطقوس الدينية: وينتشر المذهب الحنفي، بشكل واسع في تركيا ومصر عامة. ورجالات لدى الأكراد هم مشايخهم الذين يتمتعون بنفوذ كبير غالباً ما يستغلونهم في بعض التوجهات السياسية وأحياناً بَحْثاً عن الثروة. وهم الفقهاء الحُجَّة، وهم الوحيدون المتعلمون في القبيلة. ومن بينهم يُوجد المتبحرون في الدراسات اللاهوتية والقانون والادب العرَبي والفارسي. اما محيطهم غارقٌ في ظلمات الجهل التام. ونادراً ما ترى كُردياً يقرأ او يكتب. ويوجد واحد او اثنان في كل قبيلة يعرفون الكتابة، ويقومون بجميع المعاملات والصفقات والمُخالصات. وتتداخل اللغة الكُردية في اللغة الفارسية، ومع ذلك ظلت لغةً متميزة ومُختَلِفة. وليس لها أدب سوى بعض الأعمال التي نُشرت مؤخراً. وتستخدم اللغة الكُردية في تدوينها الحروف العرَبية. ويعرف الأكراد اللغة الفارسية جيداً ويتحدثون بها ويدونون بها ويستخدمونها بشكل عام.

ويرتبط المالك جداً بما يملك، خاصة اذا ما كانت تلك الملكية أموالاً منقولة؛ لانه يستطيع التصرف بها في اي وقت كان عندما يحلو له، وينقلها من مكان إلى آخر اذا ما اقتضت الضرورة ذلك. وعلى العكس، اذا ما كانت الملكية حقلاً او منزلاً او اي شكل آخر من اشكال الأموال غير المنقولة، يرى الكُردي ان علاقة الإهتمام والفائدة التي ترَبطه بتلك الأموال غير المنقولة؛ علاقة تجعله عبداً لها. ذلك هو منطق الكُردي الذي يَحْتَقِر المنشآت الدائمة الثابتة. فهو يعد ان مِلْكِيتهُ محصورة في قطيعه، وخيمته، وسلاحِه.

ونتيجة واقع الحال ذاك، نجد ان المساكن في كُردستان ليست سوى حُفر أو فجوات في الارض تحيطها جدران من الاحجار المرصوصة الواحد فوق الآخر ويبلغ ارتفاعها ستة أقدام تقريباً. وترتكز عليها جذوع الاشجار ومازالت بعد تحمل اوراقها تصطف سقفاً يغطى بالطين ويتركون فتحه في السقف لتكون شُبّاكاً او فتحة مِدْخَنَةً.

وتقيم الأسرة كلها وقطعانها وضيوفها تحت ذلك السقف في اختلاط عميق عجيب، حيث تشمل الحماية للجميع بالتساوي. ويُحاوِل كلٌ ان يُظهر لمن يجاوره بعض الوّد في مساهمة مشتركة لتأمين الراحة والرضا للجميع، وهو الطريقة الوحيدة لحماية انفسهم من ضراوة الفصول. ويحوّل النقص العام في التهوية والنظافة تلك المساكن إلى أماكن عَفِنة لا تطاق؛ لدرجة ان مالكيها لايقضون فيها سوى شهور الشتاء الثلاثة او الاربعة مَخافَةَ البرد القارص الذي يلف تلك المنطقة

في الشتاء. ومع أولى تباشير الرّبيع، تترك القبائل كلها تلك الاكواخ، لتذهب وتقيم حيث المروج الخضراء اليانعة المليئة بالمراعي لقطعانها. وهنا يَنْصُبُ الكُردي خيمته لتجتمع الأسرة جميعها في حمايته وحيث ترعى قطعانه حولها في حرية؛ وحيث يظهر الكُردي سيداً كبيراً في خيمته الكبيرة الفسيحة من الصوف الاسود الجميل حيث تغطي حوائطها الحصير المجدول جيداً تتخلله خيوط الصوف في جميع الالوان والرسوم المتنوعة. وتتغلغل النسائم القادمة مِنَ الوديان عَبْرَ نسيج تلك الحُصران لِتملأ ارجاء الخيمة، ولِكَي تُخَفف من سورات القيظ داخلها. وفي الداخل، تفصل ستارة من الحصير الحريم عن الجزء المخصص للرجال. ولا يُخْفِي الكُردي نساءه عن انظار اصدقائه ومواطنيه، الاَّ ان ذلك مُحَرَّم على العثمانيين و على موظفي الحكومة.

ويُعْد فصل الصيف، فَصْلَ الاعراس والاحتفالات والتجمعات المعتادة من قبيلة إلى أُخرى، ويعد الفصل الامثل للإنتقام والمفاجآت والغزوات التي تدفع بالقبائل ان تكون دائماً على استعدادٍ حَذِر، وأن نِساءَه وكلابه على كف عفريت، والخيول دائماً مُسرجة، والاسلحة تحت الوسائد. ومن صفات الكُردي القناعة والزهد، وقليلون منهم يتناولون اللحوم مرتين أو ثلاث في العام. وغِذاؤهم الاعتيادي الحليب ونوع مِنَ الجُبْن يسمى ژاژك.

وتتركز تجارتهم في بيع المواشي والزبد بكميات كبيرة، إلى جانب الصوف والسجاجيد الجميلة والاغطية المزركشة بنقوش مُخْتَلِفة وجواريب الصوف. وكل ذلك جزء من الصناعات التي تقوم بها النساء. اما بالنسبة للزراعة، فهي معدومة تقريباً؛ لدرجة انهم يشترون القمح الضروري جداً لغذائهم من المقاطعات الفارسية المجاورة بأثمان باهظة. ومِنْ طباع الكُردي البُخل الشديد، فهو يجمع ماله ويحتفظ به. ويملك اثرياؤهم المعروفون بأنهم اكبر الاثرياء مبالغ تصل من عشرة آلاف إلى ثلاثين الف جنيه استرليني.

ومنذ إعادة تنظيم الامبراطورية بتدشين السلطان محمد الثاني؛ لم تهتم الحكومة العثمانية كثيراً بتطوير كُردستان. وفي ظل ادارة حكم اسعد باشا الرهيب حاكم ارضروم، انتهت حياة كثيرين مِن الباشوات و البكوات على حبل المشنقة او بتجرُّع السم. ولم تكُن الجهود التي بذلها لإخضاع القبائل الكُردية الرُحل بالشيء البعيد عن مثل ذلك العنف. وحيث ان الوضع على الحدود التركية-الفارسية لايَسُّرُ جداً. وأن الحدود مفتوحة على طول امتدادها وبلا حراسة؛ وتَخترِقها القبائل ذهاباً وإياباً بكل حرية، وهذا يتسبب في إستحالة مطاردة عدو لايخاف على شيء يفقده لِيُدَافع عنه، فهو يلملم خيمته ولا يترك اي اثر يدل على ان احداً كان يعيش في ذلك المكان أو مرَّ من هنا.

وقد دَفَعَت مذبحة العشرة الآف من النسطوريين على يد القائد الكُردي المعروف بدرخان بك؛ الباب العالي إلى إرسال حملة بالضرورة، في عام ١٨٤٧ ضد كُردستان. واذ تجرَأَ بدرخان على

ملاقاة القوات النظامية العثمانية والاشتباك بالاقتتال معها، مالبث ان تجرع وجيشه الكبير الهزيمة. واضطر إلى الاختباء في قلعة الجزيرة، حيث استسلم بعد ذلك، وتم إرساله سجيناً إلى القسطنطينية. ودفع نقل ونفي الرؤساء الرئيسيين المُتمردين في المقاطعات الأخرى إلى احترام سلطة الامبراطورية على البلاد. ومع ذلك، لم يستغرق ذلك الخضوع للسلطة وقتاً طويلاً، لانه بعد مدة قصيرة من الوقت اعقبت انسحاب قوات الحملة، عادت النفوس الهائجة لإثارة الاضطرابات من جديد، وذلك باستعادة طبائعهم التقليدية في إثارة الفوضى وعمليات السلب والنهب. واليوم، لا يُظهر الأكراد الاطاعة مؤقتة واسمية: اذ تقبلت الحكومة وجود قادتهم المتعاقبين واعترفت بهم، ويتقاضون رواتب بهذا القدر او ذاك وفقاً لأهمية قبائلهم.

وتُقدَّر الضرائب بمبلغ محدد مُتفق عليه بين القبيلة والحكومة ومُساوياً للضريبة الشخصية التي تقررها وزارة المالية في مجمل قيمتها. وتقدر الضريبة على قطعان الماشية بشكل منفصل، ولكن طبيعتها كطبيعة الضريبة المُقررة على غيرها، مع بعض الاختلاف، ومع ذلك وحيث اضطرت الحكومة مُجْبَرة على القبول باستلام ما يقرره رؤساؤهم ان يدفعه رؤساؤهم للحكومة وليس القبول بما يجب ان تتسلمه حَقَّاً لها. اما ضريبة العُشر، فَتُقَدَر بنفس الطريقة. ولكن الأمر يختلف بالنسبة للقبائل الاضعف والاكثر خضوعاً للسلطة الشرعية. فرّبما يتم تقييم الضريبة بثلاثين قرشاً على الرأس اي مايساوي ستة فرنكات ونصف الفرنك. وتتغير الحسابات بالنسبة للقبائل الاكثر عدوانية، فهي لا تدفع الا نسبة مما يتسلمونه. وهكذا، لايدفع علي اغا رئيس قبيلة الحيدريين، للباشا حاكم وان الاّ ضريبة تساوي فقط المبلغ الذي حدّدته الحكومة راتباً له، حيث يقوم بوظيفة المدير التي يقوم بها طواعية.

والتجنيد العسكري، لم يكن يوماً قضية تلك القبائل الرُّحل. فالأكراد يكرهون الخدمة العسكرية، إضافة إلى انهم يرفضونها وبعناد رفضاً باتاً. وإضافة إلى ذلك تراهم يساعدون اعداداً كبيرة من الهارّبين من الخدمة العسكرية، ويهيئون لهم المأوى، ويُسْبغون عليهم حمايتهم مادامو موجودين في أراضيهم.

الفصل الثاني

محافظات: وان و هكاري: مواقعها، مواردها، سكانها، واداراتها

تتكون محافظة وان من: محافظة وان نفسها، ومن محافظة هكاري التابعة لها. وتكون تلك المقاطعة جزءاً من كُردستان انظر الخارطة. وتحدها من الشمال حدود بايزيد ومن الجنوب جبال هكاري، وشرقاً محافظة أذربيجان وغرباً نهر الفرات. وبسبب موقعها الخاص تتمتع بحالَةٍ من الهدوء التام، فهي تَبْعُد كثيراً عن المراكز التجارية، وتَبعُدُ كذلك عن الطرق التي ترّبط آسيا الوسطى بالبحر الاسود. وإلى جانب ذلك، كانت الطبيعة كريمة جداً معها، اذ وهبتها عناصر كثيرة تعد مصدراً للكثير من الرفاه والنَّماء.

ومناخها معتدل ولطيف، ولا تصل برودتها في الشتاء مطلقاً إلى شدة وقسوة البرودة التي تلف منطقة أرضروم ونادراً ما يسجل الترمومتر ست درجات لأكثر من ثلاثين او خمس وثلاثين درجة مئوية. وارضها خِصْبة متنوعة الغرس والنباتات، تُغطى المناطق المحيطة بالبحيرة. وتنمو فيها أشجار الكمثري والكرز، والمشمش وتظلل تلك المناطق اشجار الفواكه إلى جانب تلك البقول والخضروات والفواكه الآسيوية، هذا إلى جانب محاصيل الحبوب الوفيرة وخاصة في المناطق المحيطة بالبحيرة. ويعد قمحُ عادل جواز الناصع البياض من افضل الأنواع الفاخرة. ويتم تصدير ماشيتها إلى سوريا وآسيا الصغرى لتوفير اللحوم لسكانها. وإلى جانب ذلك، يتم تصدير الاصواف والزبد وهي بضائع تتوفر بكميات هائلة. وهكذا يمكننا ان نقدر ان تكاليف المعيشة هناك مُيَسَّرة رخيصة فأقَّة[1] الخبز تساوي سبعة عشر سنتاً، واقَّة اللحم ثلاثون سنتاً تقريباً.

ولايعد هكاري بنفس مستوى رفاه محافظة وان، فهي بلدٌ جبلي مُجَدِب تكاد بصعوبة ان تسُّد حاجات سكانها. ولكنّها في مقابل ذلك تمتلك ثروات معدنية هائلة. ونبدأ بمنجم كبريت والزرنيخ الاصفر ومنجم حَجَر الشَّب، ومنجم الرصاص. وتوجد مناجم الحديد والفحم في كل مكان. وتم اهمال منجم النحاس لعدم وجود مُلتَزمين ماهرين يباشرون العمل فيه. كما قامت الحكومة وفي وقت ما باستغلال منجم للزرنيخ. ولا تفتقد وان وجود المعادن فيها بدورها. وهناك منجم رائع للكبريت على مسافة اربعة فراسخ تقريباً. من مدينة وان. وقد اكتشفت بنفسي منجماً

---

[1] الأقة = ١٢٥٠.

للفحم الحجري ليس بعيداً عن تلك المدينة. ويوجد منجمان آخران من الفحم في منطقة نوردوز Nordous. إلى جانب استغلال مقلع للجرانيت لاغراض البناء في المدينة.

ومع ذلك، تُعْد تلك المُميزّات شيئاً ثانوياً من واقع الأمر المقارنة بالتسهيلات الكبيرة التي تقدّمها المنطقة للتجارة والصناعة واستغلال جميع تلك الثروات؛ وذلك نتيجة لطبيعة تضاريس تلك البلاد. وتقع مدينة وان على بعد كيلومتر واحد فقط من بحيرة تحمل نفس الاسم. ويُطل عليها جبل يُعْد قلعة حقيقية للدفاع عنها. بل ويمكن ان يعد طريقاً حصينا للقدرة العثمانية في آسيا. ويسيطر المكان سيطرة تامة على السهل المحيط بها، بحيث يصبح المكان، موقعاً ملائماً للرمي بأنواعه مما جعل الإقتراب من ذلك الموقع عمليةً صعبة جداً، بل ويمكن ان تمتد فعاليته إلى منطقة البحيرة وما يحيط بها. وتكون البحيرة مُسطحاً مائياً رائعاً يبلغ قُطرُه ثمانية وستين فرسخاً.

ويمثل اطول قسم منه مابين وان و تطوان إمتداداً يبلغ تسعة وعشرين فرسخاً صالحاً للملاحة. ويبلغ عُمقها في بعض الاجزاء اربعة وثمانين قدّماً. وتوجد موانئ وخلجان تهيئ امكانيات مناسبة للملاحة. اما المياه فشديدة الملوحة، وتحوي نسبة كبيرة من بيكربونات الصوديوم. ولاتُستخدم في الوقت الحاضر تقريباً للملاحة. وطريق المواصلات الوحيد يتألف من قاربين كبيرين قبيحي الشكل من الصعب السيطرة عليهما. ومن النادر اللجوء اليهما رغم مَجَاديفهما واشرعتهما. وتتواجد الاسماك باعداد كبيرة جداً في بُحيرة وان، وهي من نوع الرِبَكة. ويباع المحصول للفلاحين بالمزاد مُقابل مبلغ الفي جنيه استرليني سنوياً. اما النترون كربونات الصوديوم والذي يحصلون عليه بالتقطير، فَيُعْد احدى البضائع التجارية المطلوبة في سوريا.

تلك هي في بضع كلمات الفوائد القليلة المكتسبة من بحيرة وان، او بالاحرى القليل مما يمكن استخراجه من تلك البحيرة التي تقع في مركز نظام كبير من الروافد والتوابع. ويعيش على سكانها البالغين مائتي الف نسمة رغم وجودها في بلد قليل السكان كآسيا. واي ميدان رائع نراه مَعْروضاً أمام عبقرية الانسان الذي يمكنه اقامة سلسلة من طرق المواصلات التي يمكن ان تربط بحيرة وان بنهر الفرات وبذلك سوف تفتح طريقاً مباشراً بين تلك المناطق والخليج الفارسي. وبتقربه للمسافات تضع جميع تلك المناطق في صلة مباشرة بالبحر الاسود.

والحيوانات الاليفة في كُردستان، هي نفسها تقريباً الموجودة في مختلف بلدان اوربا؛ الحصان، الحمار، البقرة، الجاموس، الكلب، القط، الدجاجة، البط، الاوز والدجاج الرومي. ولدى بعض تلك الحيوانات صفات مختلفة تفرض مع ذلك ملاحظاتها في طبيعتها وشكلها، ولدى البعض الآخر في الطريقة التي تستخدم بها.

والحصان الكُردي، رغم انه خليط من الفصائل العربية والتُركمانية، يقدّم بذلك فصيلاً خاصاً. انه جميل، قوي، متوسط الحجم، اكبر من الحصان العربي. ولكنه في هيئته العامة اقل رشاقة واقل

كمالاً من الحصان العربي. ويستخدم الكُردي حصانه للرُكوب وللمعركة. ولكن ذلك الفصيل في تناقص مستمر، ونادراً ما نجد لدى القبائل خيولاً ذات قيمة. في حين ان الحمار حيوان نادر في كُردستان. وهو يُستخدم في نقل الحمولات. في حين تتواجد البغال بكثرة خاصة في مناطق الحدود مع فارس. وتشكل البغال بضاعة تجارية مهمة لدى الفرس؛ كما انها ضخمة، قوية وغالية الثمن.

أما الابقار، فهي صغيرة الحجم، ولكنها قوية وجميلة: وتتمتع بخاصية لانجدها في أي مكان آخر. ويمكننا عدّها خاصية خاصة لابقار تلك المناطق ويستخدم الأكراد تلك الابقار كالدابة التي تحمل مختلف الاثقال والحمولات يبلغ وزنها أحياناً الثمانين كيلوغراماً. وتوضع الاحمال على ظهرها، وتتقبل البقرة ذلك في هدوء. ويُربط الخُرْجُ على بطونها، وعلى مؤخرتها. وأثناء التجوال المتواصل للقبائل الكُردية تحمل الابقار المؤن والثروات والاشياء الثمينة. وعلى ظهور تلك الحيوانات المُسالمة يضع الكُردي نساءه وأطفاله. ولقد صادف والتقيت عند أحد المعابر قوافل الابقار تلك، تقودها النساء وتنقل المؤن وأطفال القبيلة. ويقدّم ذلك الجمع مَشْهداً مؤثراً مِن البساطة البدائية. في حين يستخدم الأرمن الابقار في شؤون الزراعة.

ويتمتع الجاموس بأحجام متناسقة ويستخدم حليبه للتغذية. وهو وحده الذي يقود العَرّبة، ولا يوجد حيوان آخر غيره يقوم بذلك؛ انها خاصته. والعرّبات المقطورة تلك قديمة قدّم الطوفان ويتم قطرها بصعوبة كما لو كان ذلك طريق السحر. وفي البلاد الاكثر تَحَضُراً مِنْ كُردستان، يعتقد الرجل انه يجب ان يكون مُسلحاً بجميع الأدوات المتاحة كالعصا والسوط والكرّباج، في سبيل تحفيز الحيوان وتشجيعه وهو مُقَيد بنير عبوديته. ولكن في كُردستان حيث يبدو الانسان اكثر تحضراً او الحيوان اكثر ذكاءً. فلا توجد حاجة للجوء إلى الوسائل القسرية او العنف، لان الموسيقى هي التي تُستخدم بدلاً مِنَ السوط.

والعملية في مُجْملها مِنَ السهولة بمكان: يقف الكُردي فوق عرّبته، ويشد اللجام ويدندن بأغنية جميلة وتبدأ بعدها الجواميس بالسير. ولايقاف تلك الحيوانات الموسيقية، يتوقف الكُردي عن الغناء وتقف الحيوانات مكانها في الحال. ذلك هو التعامل المتكامل مع الحيوانات؛ وهو تعامل مجهول تماماً في أصقاع اخرى مِن المعمورة. انه استخدام الغناء والموسيقى في الزراعة والصناعة.

والقطط هنا ذات جمال واضح، وفراؤها وثير مع ذيل رائع. وتوجد خَّصلة من الشعر مثيرة عند الاذن. انها القطط التي يسمونها خَطأً في اوربا قطط الانجورا. ومدينة وان مهد تلك الحيوانات الاصيلة، ولكنها اصبحت نادرة، بسبب تصديرها المتواصل.

وكُردستان غنية بالحيوانات المتوحشة ومن جميع الأنواع: فهذا البلد بؤرة للذئاب والدببة والخنازير البرّية والثعالب. والفهود كثيرة العدد وفراؤها الثمين ثروة للتجار ويطلقون عليه اسم

ڤاچارك Vachark،* اما طير الحجل فيتواجد بأعداد كبيرة جداً وأراه كثيراً على مائدتي. والبط بدوره وفير العدد جداً. في حين ان الغرّبان شريرة ولها أضراراً كبيرة للحقول.

وان الاحاطة التامة بعدد سكان اي بلد يفتقد المَعلومات الاحصائية، وحيث اغلب سكانه رحَّل مُتنقلون دائماً، تعد ضرباً مِن المستحيل. وقد استندت على معلومات مُستقاة من مصادر موثوقة جداً، وعلى كثير من المعارف التي حصلت عليها وهي تستحق الوثوق بها. بل واعتماداً كذلك على المفاهيم التي توفرت لديّ نتيجة علاقاتي بذلك البلد واعتقدت انها قريبة من التصديق، وأراني اقدر عدد السكان في مقاطعة وان بنحو اربعمائة الف نسمة. وينقسم المسلمون إلى جنسين متميزين: الاتراك الذين يقيمون بشكل عام في المدن، والأكراد. ويمكن عدّ طائفة الأرمن ثلث مجموع السكان.

وتمثل التجارة والعمل في الحقول النشاطات التي يقوم بها الأرمن. ومع ذلك يُثْزلُ بهم اشقياء الأكراد مختلف ضروب المضايقة والمناكدة من جهة، إلى جانب المضايقات التي يمارسها ضدهم كل فردٍ كان من اولئك الذين يعملون في المرافق العامة مِنْ جهة أخرى. ويدفعهم ذلك للتوجه إلى القسطنطينية بحثاً عن العمل والحماية. وتتجه قَوافِلُ كبيرة من هؤلاء الفلاحين نحو العاصمة، وتبقى النساء والاطفال لحراسة الاكواخ حتى عودة رَبّ الأسرة الذي يرسل لهم مدخراته مِن وقت إلى آخر للقيام باودهم. وقد تأكد لي في قرية قوندوز، احدى القرى الأرمنية، انه مِنْ بين الثمانين اسرة الذين يعيشون فيها، بَقى في القرية رَبّ الأسرة لخمسين اسرة فقط. وتكفلت الطائفة بباقي الأسر.

ويبلغ تعداد المسلمين سُدس مجموع عدد سكان المدن، وحكامهم لايرجحون الإهتمام بهم اكثر من إهتمامهم بمواطنهم المسيحيين. فالجميع يعانون مآسي العبودية، فيما عدا بعض الأسر المحظوظة. ويتم انتزاع المسلمين الخاضعين للخدمة العسكرية قَسْراً من بين أُسرِهم. ولكنهم لايذهبون إلى العمل لحسابهم الخاص كما يفعل المسيحيون، ولكن لقضاء الخدمة العسكرية طوال خمس سنوات، تاركين وراءهم عوائلهم تعاني الفقر والحرمان ومحرومين من اي سند او معين. وهم يعانون اوضاعاً قاسية مؤلمة اكثر مما يعاني الأرمن. ولان المسلمين يفتقدون حماية المشايخ رجال الدين لهم أمام الحكومة، فليست لهم اية حقوق يتمتعون بها في أية اتفاقية يتم ترتيبها. بل انهم يتعرضون دوماً لإعتداءات وتجاوزات الباشا، مدير الادارة، بل ومن بسط جندي دونما رادع او عقاب.

ومدينة باشقلا، عاصمة مقاطعة هكاري، تقع على بعد ثمانية عشر فرسخاً من وان، في إتجاه الجنوب- الشرقي وبالقرب من منابع نهر دجلة. وهي مقر الملازم اول احد الباشوات من مدينة وان. ويبلغ تعداد سكان تلك المقاطعة مائتين وعشرة الاف نسمة، نطرح منها ستين الف نسطورياً والفين من اليهود، فالباقي معظمهم من القبائل الرُحَّل.

---

* المقصود هنا -من دون شك- الوَشْقْ. (مركز ژين)

ويعيش النسطوريون منغلقين، مُحصّنين خلف ممرات جبالهم، وحيث يمارسون حياةً مُستقلّة يعتنون بقطعان مواشيهم ويتصدون لهجمات جيرانهم. ومنذ عدة سنوات يبدو وكأنهم يوّدون في يوم وليلة ان يضعوا حَدّاً وبشكل نهائي لدفع الضرائب المتراكمة عليهم لوزارة المالية الامبراطورية. وحُجّتهم في ذلك فقرهم المُدْقع. ورئيس تلك الطائفة هو البطريك النسطوري الذي يتوارث ذلك المنصب. ويدّعي ذلك البطريرك انه ينحدر مباشرة من سلالة المسيح. ويعرفه اتباعه بأسم مار شمعون. وقد منحه السلطان الراحل عبدالمجيد الوسام المجيدي إعترافاً بمقامه الرفيع. ويقيم البطريرك في حوش حنه، واحدة مِن اكثر المناطق الجبلية وعورة في المقاطعة. وتقيم الجالية اليهودية في مدينة باشقلا، حيث يعيش تجارها على التبادل التجاري القائم بين مقاطعة سلماس الفارسية الحدودية وبين القبائل الكُردية.

اما ادارة تلك المقاطعات، فهي في نفس مستوى الادارات في جميع المقاطعات الأخرى في الامبراطورية. ولسوء الحظ، فأن الإنتهاكات فيها اكثر وضوحاً، وكذلك كل اشكال الاهانات. وبسبب بُعد تلك المناطق عن الحكومة المركزية، يعد بعض الافراد ذلك ذريعة لاستغلال النفوذ واقتراف مختلف انواع الإنتهاكات المُنْحَطة وابشع اساليب الظلم. وقبل قيام فؤاد باشا بتدشين الاصلاح المالي الجديد، كانت الضرائب تتكون كما في كل المناطق بضرائب مباشرة؛ ضريبة العُشر وضريبة الرأس والضريبة على الماشية وكان تحصيل تلك الضرائب من الصعوبة بمكان، والدليل تلك الضرائب المتأخرة المتراكمة على مَرّ السنين والاعوام لدرجة اصبح تحصيل تلك الديون ضرّباً من ضروب الخيال اكثر من كونها حقيقة واقعة.

وخارج نطاق الضرائب القديمة، توجد ضرائب وِفْقاً لهذا النظام الجديد على الملح والتمباك. وإلى حد ما، كان لذلك الترتيب الجديد مؤيدوه، أي، حول تفعيله في تلك المناطق من الامبراطورية حيث ان منْ يقومون باعمال التجارة والزراعة لايستعملون الملح الا في الاستخدامات اليومية. ومع ذلك فحين يتعلق الأمر بالسكان الذين لايعملون في التجارة او الزراعة، ولايملكون من مُقَومات العيش سوى قطعانهم، تأخذ القضية وضعاً مُغايراً تماماً، اذ يعدون ان ذلك الاجراء ما هو الا خرقٌ للاقتصاد السياسي ونتيجة افلاس ودمار السكان الذين وقعوا ضحية له.

وفي واقع الأمر، يزداد استهلاك الملح بكميات كبيرة لدى السكان الرُحل، الذين يعدونها من اولوية الضرورات للحفاظ على صحة القطعان، ثروتهم الرئيسة، وفي كُردستان فهم يُقدرون بشكل عام ان كل نعجة من نعاجهم تحتاج في السنة إلى نحو ثلاث اقٍ من الملح سنوياً.

واستناداً على تلك المعطيات يمكننا الاستنتاج ان ثمانية المليون نسمة من السكان الرُحل عرّباً واكراداً يتجولون مابين حدود جيورجيا والخليج الفارسي، ويمتلكون ما يبلغ الاربعين الف نعجة بإعتبار خمس نعاج للفرد على اقل تقدير. وتبلغ كمية الملح اللازمة للتعامل مع قطعان

الماشية، مائة وعشرين مليون أقَّة، بمعدَّل ثمن البيع بالمفرق عشرين پاره [يعني نصف قرش للأقة]، وتنتظر الدولة اذن عائداً يبلغ ثلاثة عشر مليون وثلاثمائة الف قرش وبعض الفرنكات.

وبأستخدام عملية حسابية شبيهة بالسابقة والحقيقية نظرياً والزائفة عملياً، تصور الوزير فؤاد باشا امكانية التأثير في عقول وآراء الرأسماليين الدقيقين جداً في قضايا الاستدانة في كلّ من باريس ولندن. ومع ذلك يجب الاخذ بنظر الاعتبار العقبات التي تعترض تنفيذ اجراءات كتلك لتحقيق العوائد الخيالية الا وهي:

١. تشتري شعوب كُردستان ما يحتاجونه من الملح من بلاد فارس، حيث جبال الاملاح المعدنية الشاهقة ومسموح لهم بشراء كل مايحتاجونه. ويدفعون لحكومة فارس پاره لكل اقة مستخرجة، اي ما يساوي نسبة واحد على عشرين بالمائة من السعر الجديد المقترح في الإصلاح المالي المذكور.

٢. ان الحدود التركية- الفارسية ليست محددة تماماً بانتظام ومدياتها ليست مُؤمنَّة الحراسة، فمن المستحيل تماماً ممارسة اية رقابة على القبائل المتجولة والتي لا تترك اية مستمسكات او اية مرتكزات يمكن تأسيس نظام رقابي فاعل على تلك الحدود.

٣. ليس من دواعي الشرف والامانة والانسانية ان يفرضوا على تلك الشعوب شراء مادة مهمة كتلك بسعر مضاعف او بثلاثة اضعاف، فهي ليست مادة ترفهية، إنما هي مادة ضرورية لا غنى عنها لوجودهم.

٤. وفي النهاية فان ذلك الاجراء المالي يؤدي إلى نتيجة طبيعية الا وهي زيادة التأثير والدسائس من فارس في كُردستان.

وتدلل تلك الاحداث بوضوح على ان حالة للأمور كهذه لاتتلاءم ومصالح وشرف الحكومة الامبراطورية. وهذا الجدل تتحكم فيه بالمثل وتؤثر فيه النتائج العملية: ذلك لأن سكان آسيا لايبدو انهم قلقون البتة من هذا القانون المالي الضريبي. ورغم جهود السلطة يتواصل إستيراد الملح من بلاد فارس على مستويات اوسع مما كان عليه الحال من قبل. وخلال شهر ابريل ١٨٦٣ فان اكراد قبيلة مەرگەوەر Morgour، الذين اقاموا في منطقة تبعد ثمانية فراسخ من وان حملوا في معسكرهم قافلة من سبعمائة بقرة تحمل مِلْحاً. ويتواصل ذلك التهريب على طول الحدود رغم الاوامر الحكومية الصارمة والمتكررة.

الفصل الثالث

قضاء قوتور، حياة المدير احمد آغا، اوضاع فوجي لدى وصولي، الجيش العثماني، حياة المقدم مصطفى بك

يتبع قضاء قوتور محافظة هكاري. ومدينة قوتور مركز القضاء تقع على مسافة ثمانية عشر فرسخاً إلى الشرق من وان وعلى مسافة اثنى عشر فرسخاً من باشقلا مقر إقامة باشا هكاري. ويتكون هذا القضاء منْ ثماني عشرم قرية، سكانها اكراد من قبيلة شَمْسكي. ويبلغ تعدادهم من سبعة الاف إلى ثمانية الاف نسمة. وتقع المدينة وسط الوادي، على مفترق طرق تربّط اذربيجان المحافظة الفارسية، بأرمينيا. وتوجد بها قلعة صغيرة وثكنة جنود ونحو ثلاثمائة منزل. وجزء من سكانها اكراد والجزء الآخر من الأرمن. وكان الاستحواذ على ذلك المكان موضوع نزاع بين الدولتين المتجاورتين. وبسبب ترسيم الحدود اخضعتها اللجنة المختلطة منذ عام ١٨٥٠ لسيادة الباب العالي.

وفي عام ١٨٤٨، كانت اللجنة الدولية المختصة بترسيم تلك الحدود المذكورة تقيم في قوتور، حيث تم اخضاع تلك المنطقة إلى سلطة رجل كبير السن يُدعى مقصود آغا، والذي كان خادماً لدى خانات البلاد*. وقد استغل قِلّة سلالة تلك الأسرة وانتزاع السلطة. فعند وصول اللجنة إلى المدينة، نرى مقصوداً الرجل الذكي المسلح بذلك الدهاء الذي يميز جنسه، وعندما استوعب الإمتيازات الكبيرة التي يمكنه الاستحواذ عليها، تمسك بالقضية العثمانية وبدأ باعلان اخلاصه للحكومة. وأخذ يجمع الأدلة والبراهين الضرورية ليثبت كيف ان تلك الاراضي تعود حَقّاً لتركيا. وجاهد كذلك في ان يكْتسب ثقة واهتمام وعطف المفوض العثماني درويش باشا، الذي غمره بحمايته؛ وقدّمه واوصى به لدى الحكومة وقام بتعيينه مديراً او وكيلاً للوالي على تلك المقاطعة. وعندما يقوم موظفو الحكومة من وقت إلى آخر بزيارة تلك الضواحي، تقام لهم حفلات استقبال فخمة تعبر عن الإهتمام الزائد وبكل شفافية لمن يقوم بحمايتهم. ولم يأل احمد باشا ذلك الداهية الكُردي جهداً، ولم يوفر حِيلةً للحصول على الدعم، أو لتكميم أفواه اولئك الذين سيكونون تحت سيطرته. واستطاع بتلك الوسائل ان ينجح في تحقيق شهرة واسعة بأنه الرجل الشجاع المخلص والتابع المتفاني.

وقدر قائد فرقتنا الجنرال عزمي باشا، في احمد آغا رجله الذي يريد. فاستدعاه إلى وان وقدّم له بيديه الوسام المجيدي، ومنحه مَرْتبَة حاجب القصر.

---

* خان: لقب إمارة عند الاتراك المغول. [المترجمة]

ومع ذلك، كما هو الحال دائماً في تلك البقاع من العالم، كان على السكان الفقراء والمسافرين المساكين سيء الحظ، استعادة وتعويض مصروفات المدير، باستخدام المثل القائل بضرورة دفع ثمن الاوعية المكسورة. وقد اصبح احمد آغا، في الواقع يتمتع بسلطة مطلقة، وطاغية في بلاده؛ يتصرف على هواه بممتلكات وشرف وحياة السكان. ولكن ذلك لم يكن كافياً ليوفر له عوائد الامير؛ فَجَمَعَ حوله حُثالة القبائل المجاورة وكوّن عصابة من القتلة المأجورين، وزرعهم في كل طريق ليقوموا بالنهب والسلب والابتزاز والذبح لكل مسافر ولغيره من الضحايا الآخرين الذين يَمُرُّون بتلك الطرق، والذين يتمتع المدير جداً بالتضحية بهم.

ولنترك الآن المدير مشغولاً بمتابعة اشباع رغباته؛ اعتقد انه من الضروري وقبل ان نواصل ذلك الحديث، ان اصف حالة واوضاع القوات تحت امرتي. انا اقود الفوج الثالث من الكتيبة الرابعة للمشاة في جيش الاناضول؛ والمعروف اليوم بالفيلق الرابع. ويبلغ تعداد فوجي نحو ستمائة جندي. وخارج ذلك العدد كان يوجد فيلق مسلح بالبنادق يؤدون الخدمة العسكرية في منطقتي أرضروم ووان. وهم شباب اقوياء البنية، في غاية الطاعة والاستسلام. وتلك صفات نادرة جميلة للجندي التركي. ولكن نتائج ذلك تدعو دائماً إلى الاسف. فالمبالغة في تلك الصفات تؤدي في الغالب إلى نقص الكفاءة والكرامة. وبالفعل، فان احتمال المتاعب والحرمان مِن واجبات كل عسكري. ولكن اذا ما كان العُرى والبؤس التامين مِنْ نتائج جشع الافراد الذين يستحقون وضع القيود في ايديهم بدلاً من وضع الرُتب على الاكتاف. فكيف لنا ان نعد الاستسلام من فضائل الخُلق؟ ابمثل تلك الصفات استطاع الجندي الفرنسي ان يرفع عالياً اسم بلاده بين الامم، او امكانية الانكشارية في التوجه إلى فينيا؟ ولكن كما هو حال جميع الحكومات الشمولية، يأتي التوجه السيئ او الجيد من فوقٍ دائماً. ولا ندعى ان اسباب ذلك التخلف يعود للتابعين، ولكن أسباب ذلك التخلف الاخلاقي المعنوي، إنما تجيء من لدُن القادة. اولئك القادة بفسادهم وطغيانهم المنهجي، الذي يثير مشاعر الضيق والجنون اكثر فأكثر، والمتزايد يوماً بعد الآخر، ضد شعب وجنس كان في يوم من الايام واحداً مِنْ أقوى دول العالم.

لقد كانت أحوال جنودي مُزْرية ومثيرة للشفقة. فثلثاهم لايَرتَدُون ملابس داخلية، وبنطلوناتهم مهترئة بالية ذهب لونها. ولم يكن لديهم جوارب عندما يشتد البرد، ومن يراهم يظن أنهم شحاذون وليسوا جنوداً. واقع غريب، الا انه مليء بالعِبَر. وخاصة نعيش تلك المحنة ونرى ان فؤاد باشا يعلن في الصحف ان الجيش العثماني، وقَبْلَ ادارته، لم يكن مطلقاً في حالة من الازدهار كما هو حاله الآن. وصدَّقتهُ اوربا كلها في ذلك الادعاء لأنها لم تتعرف على صورة اخرى بديلة.

ولم تكن حُصَصُنا التموينية بأفضل حال من ملابسنا الرثة. وكانت تربط جنرالنا العَتِيد علاقة حميمة، فكان يرسل لنا من الطعام الكفاف الذي لايسد الرمق بل انه الحرمان. وكنا نبقى

لثمانية أيام بلا خبز لدرجة انني اجد نفسي مضطراً بابتزاز القرى المجاورة بالضرائب والسبب[٢] في ذلك الباشا ومجهزو المؤن.

اما بالنسبة للراتب، فلم تتسلم كتيبتي رواتبها لِستة وعشرين شهراً سابقة في الوقت الذي لم تتسلم فيه الكتيبة الثانية من الفرقة، حيث نُعسكر في بايزيد، لم تتسلم رواتبها منذ أربعة وثلاثين شهراً. ويمكننا ان نرى من هذه القصة ان العدوى شاملة وقد عرضت احوال جنودي هذه مطالباً ببعض التحسينات، الاّ ان جهودي جميعاً ضاعت هباءً.

وقبل وصولي لِتسنُم قيادة الفرقة، كانت تلك الفرقة تحت قيادة المقدّم السابق تجهل تماماً الإهتمام بالتعليم النظري للضباط وضباط الصف لدرجة ان القليل منهم فقط كان يعرف العقيدة المُتّبعة في الفرقة او الحركة العسكرية والمناورة. في حين كانت الخدمات الداخلية والخارجية مَجهولة تماماً. في الوقت الذي نرى فيه ان نزوة ومزاج القائد المصدرَ الوحيد للادارة والانضباط.

وتعمل الدراسة العسكرية، على خلق جيش قادر على تحقيق النجاح في أية مهمة كانت تتطلبها الدولة أو أية مهمة أخرى تُؤمّن لتلك الدولة السلامة والامن. وأن الانضباط اساس قوة كل جيش. لذا يُعْد التعليم العسكري والانضباط عماد المؤسسات العسكرية. ولكن ذلك بالذات ما يفتقره الجيش العثماني، حيث ان قادته يعدون التعليم العسكري والانضباط ترفاً لا حاجة لهم به؛ بل ويعدونه عائقاً أمام تحقيق نزواتهم و اختلاساتهم بحرية تامة؛ وبدلاً من ان يكون وسيلةً ضرورية لِتمتلك البلاد جيشاً قوياً قادراً على الدفاع عنها ضد اعداء الخارج وعلى الابقاء على النظام والاستقرار في الداخل.

وهناك أسباب عديدة وراء ذلك التخلف المقيت الذي جاء نتيجة اهمال الدراسات النظرية العسكرية، ومِنها اولاً: البلادة والغرور والتعالي من الاولويات التي تجدها لدى كبار الضباط الذين تراهم مُخَدّرين في سبات و تراخ مثاليين. فهم يعتقدون ان مايقلل من هيبة الرجل العظيم وجود هموم حياتية اخرى سوى العناية بالمظهر والطعام والعيش في سعةٍ ورغد، والبحث عن اسرع الطرق والوسائل الاكيدة لتكديس الثروات. وبسبب ذلك التراخي والتأثير الفاسد يكاد التعليم النظري ان يَنْعَدم تماماً في قاموس الجيش، ويتم التدريب في فوضى وإهمال والقليل من الروتين

---

[٢] لايمكن مطلقاً تقديم صورة عادلة حقيقية عن حالة الفوضى والاهمال واللاّإلتزام التي تسود اجواء القيادة العثمانية المسؤولة عن تموين وتجهيز المؤن لسد حاجات تلك الجيوش. ففي ذلك العصر وفي عام ١٨٦٢، كانت القوات التي تقوم بالعمليات في مونتينغرو، تعاني من جميع اشكال الحرمان والبؤس. فالكتائب الكثيرة المُكدسة كان افرادها يتضورون جوعاً، وأثار خبر وصول تعزيزات جديدة من اسطنبول، القلق فهم سيعانون بدورهم من الحرمان ويرون انهم مجموعة من سيء الحظ يجب ان تتقاسم معهم لقمة الخبز وذلك بدلاً من الفرح لمجيئهم. ومع ذلك فان ذلك قد حدث في الوقت الذي تدور فيه العمليات على بَعد فراسخ منهم.

يقوم به الضباط المرؤوسين. والسبب الثاني لذلك الجهل التام يتركز في ان الجيش العثماني لم يعمل على تطبيق وتفعيل المعارف والعقيدة العسكرية مطلقاً. بل ان عدم وجود مؤسسة ضرورية لنشر التعليم النظري بين الرتب الدنيا احد الاسباب الرئيسة التي أدت إلى عدم استطاعة الجيش التركي الوصول إلى درجة الكمال، رغم ان عمره يمتد إلى أربعين عاماً، وجعلت منه جيشاً لايستطيع ان يتفوق على عَدُوٍ متمرس في الحرّب يتقن المناورة وفنون القتال.

اما السبب الثالث، والخاص جداً الذي يرمي إلى إبقاء على وضع مؤسِف، إنما جاء نتيجة طبيعية للنظام المتبع لتوزيع قوات الجيش العثماني على مجمل امتداد اراضٍ شاسعة، ففي واقع الأمر نجد أنّ الفِرقَ والكتائِبَ معزولةٌ احداها عن الأخرى، بعيداً عن رقابة قادتها في المركز وتبقى الكتيبة مسؤولة عن نفسها، وحيث انها تبقى في نفس الموقع لسبع او لثماني سنوات لا تنتقل ولا تتغير. اما النتيجة المُتوقعة، فهي اهمال تلك القوات التي تتناقص معنوياتها وتَفْسدُ مَعارفِها العسكرية اكثر فأكثر..

وحقيقة الأمر، تتطلب الابقاء على المعنويات والاعراف والخِبرات المكتسبة في المؤسسات العسكرية لدى جميع افراد الجيش في مختلف فيالقه؛ ويتطلب الأمر ان يقوم الجنرالات والقادة بإرسال متواصل لضباط يقومون بالتفتيش على مظهر الجُند، وعلى تدريبهم وتعليمهم وادارة القَطّعات، وليكن انجاز مثل ذلك الأمر على مراحل مُتباعِدةٍ حتّى. ولكن، اذا كان مثل ذلك الاجراء يضمن للجندي الاوربي حياةً بلا حرمان، وللجيش انضباطاً وقوة، فأنه في تركيا وسيلةً تُستَخدم فقط للابقاء على قيمة ومظهر الجيش في عيون العامة، وفُرصةً للحصول على بعض المساعدات من حصّة المعسكر او لِكَسب بعض المال. وهؤلاء المفتشون يكونون عادة من الضباط المُقَرّبين جداً للجنرالات. وان بعثات كتلك تعد مصدرَ دَخْل، واختيارُ الجنرالات لهم دليل على الحظْوة لديهم والفضل من لَدُنْهم؛ ولاجل ان تكون تلك الامتيازات التي يحصلون عليها مقابل خدمات سوف يقدّمونها لهؤلاء الجنرالات مُسْتَقْبلاً. وحال وصول ذلك المبعوث إلى المعسكر يصبح محط انظار الجميع يقدّمون له فروض الاحترام والولاء، وهو أقل مايمكن ان يظهره الضباط لرسول الباشا الامين! ومن جانبه يتخذ المبعوث مظهراً معيناً ويتصرف بشكل يوحي بأهمية مكانته، حيث يتمتع بحماية السلطة العليا له.

وانطلاقاً من ذلك، فهو يكُيل الوعود بتحقيق العدالة ومراعاة الاعتبار والرعاية والكثير من الوعود للجميع. وبعد ان يطمئن لنجاحه حيث ان الجميع عاملوه باحترام وحصل على بعض العملات الذهبية، يعود لرؤسائه ويقدّم التقارير التي تحوي معلومات مُطمئِنة حول اوضاع القطعات التي ادعّى انه قام بتفتيشها ويُطلقون التصريحات المُتَضمنة، بأن جميع الجنود وضباطهم مستعدون لتقديم الخدمات المختلفة لرؤسائهم الذين يَدعون لهم في صلواتهم ليل نهار ويطلبون من العناية الآلهية ان يمد الله في عمر الباشا، ويكيلون المديح ويُدغدغون عواطفهم وغرورهم الخطير، تاركين الامور تسير من سيء إلى اسوأ.

فتلك القطعات المنتشرة والمقسمة إلى كتائب عديدة متفرقة، محرومة من وجود مركزية يمكن ان يقدّم بعض الإمتيازات كإكمال التعليم وانعاش الامكانيات وتحفيز المعنويات عبر اتصالات مُتبادلة في معسكرات تدريبية مثلاً. وتراها متروكة مهملة تُدَبِّر امكانياتها واحتياجاتها الخاصة بعيدة عن التوجه السليم والرقابة النشيطة المتنورة ومُنقادة في ذلك لِقَادةٍ يعدون الجهل اقوى سند لسطاتهم ومكانتهم بين العامة. وتجدُ قطعات الجيش نفسها تعيش تحت وطأة ظروف غير مُواتية فمن السهل اذن استيعاب وتفهم كيف ان قِسْطاً من التعليم والثقافة العسكرية يمكن ان يؤدي إلى بعض التقدّم في صفوف الجيش.

ومهما كانت الصورة التي قدّمتها حول حالة التعليم في الجيش العثماني قاتمة كئيبة ومُقْلِقة تبدو حالة الانضباط السائدة في الجيش اكثر إيلاماً وتدعو للأسف. ويفتقد الجيش العثماني ذلك القانون الذي هو حَجر الزاوية في تنظيم الجيوش الحديثة، اذ توجد مصالح خاصة ووجهات نظر ضيقة ومحدودة تتضارّب دوماً وتعارض اصدار قانون يماثل القانون السائد في جميع جيوش اوربّا. وبِحُجَّة ان القانون العسكري يعارض قوانين القرآن فقد ظل الجيش دونما اية قوانين والدولة دونما سند او قوة.

ويتكون التشريع الذي اصبح اليوم اساس القانون العسكري للانضباط؛ من مجموعة من التنظيمات والقرارات لاصدار بعض القوانين التي تنظم حقوق التقدّم وتنظم المعاشات. تلك القوانين التي يضعها وزير ما ويمحوه آخر؛ إلى جانب تلك المراسيم التي تُصدرها مجالس الجيش على هواها في مواجهة احتمالات وحاجات اللحظة. وهكذا يبدو ذلك الجيش تحت تأثير الاهواء والنزوات تجمعاً لاناس محرومين من فوائد التعليم يعيشون في قلق، ومعرضين لملاقاة العوائق في كل خطوة، يمكن ان تسيء لمسيرتهم وتزرع الاخطار في طريقهم.

في حين نجد ان المراتب الدُنيا محرومة من كل قانون ولا اية نظم توضح لها خطاً لمسيرتها ومجريات سلوكها، ودافعاً لانجازها لواجباتها. وستجد تلك الطبقات الدنيا نفسها مضطرة آنذاك للكذب والدسائس والدناءة حتى تمكن من اكتساب العطف والقبول من لدن رؤسائها الذين تضع اهواؤهم ونزواتهم القوانين. اما الرؤساء من جانب آخر، فيتصرفون كأسياد وجبابرة ولايجدون ما يمنعهم من تحقيق ارادتهم ونزواتهم المكبوتة على حساب حقوق مرؤوسيهم ولايقومون بأي عمل سوى استغلال القوات تحت امرتهم ومعاداة وازعاج اندادهم وزملائهم.

واذا ما اضفنا إلى كل ذلك التأثير المنافي للاخلاق نتيجة الميول السلوكية الشرقية التي تؤدي وهي تنتشر الخطايا الدنيئة وتسمح بالحط من قيمة الفرد، سنتمكن آنذاك بتكوين فكرة صحيحة وعادلة عن النظام السائد في الجيوش العثمانية.

وتدلل حالة مؤسفة كهذه وبوضوح على الاسباب الحقيقية وراء الانكفاءات التي حطمت الجيوش العثمانية في آسيا الصغرى أثناء حرّب القِرْم. والقوات التي حارّبت فوق هضبة قارص Kars وآربتچاي

Arpatchai خلال الحملات الثلاث: ١٨٥٣، ١٨٥٤، ١٨٥٥، حيث يبلغ عددها التسعين الف جندي ذا تسليح كاف، فهي قد تَراجعت وتقهقرت عدة مرات، أمام جيش القوقاز الروسي، رغم ان تعداده لايتعدى نصف تلك القوات العثمانية، أي مايساوي اربعة واربعين الف جندي فقط، بل واصبحت تلك الاحداث دروساً بليغة توضح لنا نتائج الجهل والفوضى. اما في ميادين المعارك المكشوفة، نرى ان الجيوش العثمانية التي كانت تتمتع قديماً بالكفاءة، لم تعد تتحمل صدمة مواجهة عدو يجعل من معارف التكتيك والانضباط منطلقاً اساسياً في قتاله. وعندما استطاع الجيش التركي استعادة رَوْنَقَ رايته التي رفرفت اثناء حصار سيليستره Silistrie وقارص، فتعود الاسباب مطلقاً إلى كفاءة او قدرات قادته وباشواته.

وما شَكَوْتُ يوماً في أثناء مدة قيادتي من الضباط الذين اظهروا رغبة فعلية في التعلُم والوصول إلى الكمال. وكانوا منضبطين جداً، طائعين ويستحقون الاحترام، ولكن لم يعاملهم احد مطلقاً كضباط يستحقون التقدير والاحترام، إلى جانب انهم كانوا يكنون لي الود كالوالد. ونفس الشيء بالنسبة للضباط الاقل مرتبة تحت امرتهم والجنود ايضاً. والجميع كانوا رجالاً يتصرفون جيداً بشكل عام وقادرين على تقديم الخدمات للدولة شريطة ان تكون القيادة على قدر من المسؤولية الجِدّية. واستناداً إلى خبراتي، فإنني استطيع ان أؤكد على ان جماهير الشعب اناس هادئون، اذكياء ويحسنون التصرف. وأمام الحكم المطلق لحكومتهم، يمكننا منطقياً ان نستنتج ان تلك الحكومات نفسها بسخافاتها وفسادها اصبحت العقبة الحقيقية التي تعرقل كل اصلاح او كل تحسين جذري للأمور.

ومع انني قمت بعمليات التطهير بشكل واضح وتفصيلي طالما سمحت بذلك حدود العمل فأن وضع الجيش العثماني، وصفات واخطاء الجندي وجميع من يشغلون المراتب الدنيا في تراتيب التسلسل العسكري، فستبقى الصورة غير كاملة اذا ما لم اقدّم لقرائي هنا مخططاً اولياً سيساعدهم في المقابل على تقدير وتقويم ماذا كان عليه ضباط القيادة العامة لذلك الجيش. فالمقدّم مصطفى بك مثلاً مِن فرقتي، كان من اخلص الناس الذين يمكن ايجادهم في هذا الفصيل من الناس: اولئك المختلسون، الجبناء والجهلة الذين تسببوا في هزيمة الجيش في كرسي اثناء حرّب القِرْم.

ومع اني قمت بعلميات لتطوير الجيش بشكل واضح وتفصيلي كلما سمحت بذلك حدود العمل فان وضع الجيش العثماني وصفات واخطاء الجندي وجميع من يشكل المراتب الادنى في تراتيب التسلسل العسكري، ستبقى الصورة غير كاملة، اذا مالم اقدّم لقرائي هنا تخطيطاً اولياً سيتمنون بواسطته في المقابل من تقدير ماذا كان عليه ضباط القيادة العامة لذلك الجيش. والمقدّم مصطفى بك مثلاً من فرقتي، كان من اخلص الناس الذين يمكن ايجادهم في هذا الفصيل من الناس: اولئك المختلسون والجبناء والجهلة الذين تسببوا في هزيمة الجيش في قارْص اثناء حرّب القرم.

ومصطفى بك، مُتَكَبِر ومتعجرف وظالم مع مرؤوسيه. وكان ذليلاً ومرناً وجشعاً، كما في كردستان والقسطنطينية بالمخادع والخطير جداً، كما كان مكروهاً من جنوده، ومرفوضاً من

الجماهير. وبخصوص الامور العسكرية، يجهل مصطفى بك وجود كلمة الاستراتيجية ولاتتجاوز مفاهيمه التكتيكية كلمتي: الأمن منتشر، والأمن مُسْتَتب.إنها مفردات يستهلكها ويكررها في حديثه حتى يستعرض ثقافته. وفي واقع الأمر، فأن مفهوم الشجاعة والاقدام يجعل منه سانچو باشا،[٣] حيث اصبحت قصصه وخزعبلاته مواضيع تسلية بين جنوده.

ورغم كل تلك النواقص، فقد كان مصطفى بك، ذا ذكاء خارف وحذق لاذع ويمتلك ذاكرة قوية مما كان يمكن ان يجعل منه كاتباً ادبياً كبيراً لو توفرت الدراسات اللازمة للقيام بذلك.

بنگەی زین

[٣] نسبة إلى بطل قصة شِرفَانْتِس دون كيشوت.

الفصل الرابع

قبائل الميلانيين، الشكاك، خصوماتهم، وصول عزمي باشا إلى وان، حياته وحياة من سبقوه

كانت قبائل الميلانيين والشكاك من بين القبائل التي خضعت لباشوية وان، وهي من القبائل الاكثر تمرداً وعداوة وخِصَاماً. وموضوع الخلاف والشجار يحركهم منذ عام ١٨٦٠، لأن الميلانيين يمتلكون اراضي سيتمانيسه Setmanisse، وهي بلاد تكسوها المراعي ويمتلك سكانها الفاً وثلاثمائة خيمة[٤] وتستطيع تلك القبيلة ان تجمع الف مقاتل معروفين بين القبائل بفروسيتهم، فهم فرسان متمرسون. ورئيسهم عمر آغا، رجل شجاع ويتمتع بصفات حميدة، إلى جانب ان القبيلة كانت تثير مشاعر القلق والرعب بين جيرانها.

وتثير ثروة ونفوذ الملانيين شهوة وغيرة القبائل الأخرى والتي قررت القضاء عليهم. وتلك القبائل فكانت الشكاك، ويترأس تلك القبيلة عمر كوبر Keur Omar، رجل قلق ومتمرد. وقبيلة المنطور وعلى رأسها احمد آغا، رجل ماكر ومراوغ. واخيراً قبيلة التاكوروس، وهي لاتتمتع بنفس اهمية القبائل الأخرى. وتقيم تلك القبائل الاربع المتجاورة في المناطق مابين وان و قوتور، حيث كانت مسرحاً لغزواتها ومعاركها.

وفي عام ١٨٦٠، تم عقد حلف سري بين القبائل الثلاث للعمل على حرمان الميلانيين من مراعيهم الغنية في سيتمانيسه وتقديمها للشكاك الذين يودون بشدة الحصول عليها. وتم عقد حلف سري بين القبائل الثلاث. ويمثل تلك القبائل في مجلس وان العديدون من حماتهم وانصارهم، فاخبروهم بالخطط التي تتطلب تمكين قبيلة الشكاك من إمتلاك سِتْمانيسه، ورغبة الآخرين الشديدة في الانتقام من اعدائهم ورؤيتهم يتجرعون الهزيمة قانعين فقط بالغنائم التي يمكن ان يحصلوا عليها حينذاك. واجمعوا على تأييد وقبول ذلك المشروع في وان شريطة ان يتقاسم الباشا ومختلف اعضاء المجلس مبالغ طائلة. وما ان تم تأمين مصالح جميع الاطراف المتعاقدة حتى بدأوا بالتفكير في تنفيذ الخطة.

ومع انه قد تم اتخاذ قرار بتقسيم الغنائم، فقد برزت أمامهم مع ذلك صعاب عملية تتضارّب مع تنفيذ المشروع وفي حقيقة الأمر، كيف يمكن طرد الميلانيين من بلادهم دونما تقديم الاسباب الموجبة؟

---

[٤] لم يكن للاكراد آنذاك منازل، ويُقدّرون قوة القبيلة بعدد خيامها. وهكذا يقولون ان القبيلة تحتوي الفاً خيمة او الفين وهكذا. وكلمة خيمة تماثل كلمة منزل.

وقد فكروا في الأمر و توصلوا إلى الخطة التالية: استغلال جولة سوق يقوم بها باشا وان بجولة في مقاطعة المحمودية الواقعة مابين وان وستْمانيسَّة، بحجة حل بعض القضايا العالقة بين الحكومة والقبائل، مثل: بداية التسجيل لتأدية الخدمة العسكرية وتنظيم زيادة الضرائب.

وستقدّم تلك المقترحات أمام رؤساء القبائل، وسوف يتظاهرون برفضها. وبعد ذلك يكونون تجمعاً من ممثلين لجميع القبائل، يعمل على ايجاد الوسائل التي تمنع تنفيذ اوامر الباشا. ومن ثمَّ، ذهب احمد آغا، الرجل الماكر رئيس قبيلة المنطور، ليزور عمر اغا، رئيس قبيلة الميلانيين. واعلن له اعتزاز وتقدير جميع القبائل لشجاعته واقدامه، والثقة التامة اللانهائية في شخصه. وانهم قد قرروا الهجرة إلى بلاد فارس يفضلون الموت على تقديم اي فرد منهم للعثمانيين. وبالنتيجة، عرضوا عليه ان يكون على رأس الحركة الوطنية وان يعلن للباشا ذلك القرار الذي وافقت عليه القبائل. وكان من السهل ان يقع عمر آغا، في الشرك، فهو معروف باستقامته و اخلاصه. وما ان عرض عمر آغا القرار على الباشا حتى انسحبت جميع القبائل المتحالفة من الموضوع برمته، وتوجهوا مباشرة إلى الباشا يقدّمون له احتجاجاتهم ورفضهم لما قدّمه عمر أغا واعلنوا ولاءهم وطاعتهم الخالصة له، وانكروا اية مشاركة لهم مع قبيلة الميلانيين في معارضتهم لارادة الحكومة. وتم التخلي بهذه الطريقة عن عمر آغا، ليواجه وحده غضب الباشا الذي سوف يعاقبه حتماً لعدم تجاوبه مع الحكومة، ويُجْبر القبيلة على ترك الارض نهائياً لتأخذها قبيلة الشكاك ورئيسها عمر كور.

ونجحت تلك الخطة الماكرة نجاحاً باهراً. وقام اسماعيل باشا بجولته في المحمودية حيث رفضت القبائل ومجلسها مقترحاته وعلى رأسهم عمر آغا. وانفض الاتباع المزيفون من حوله ليتقبل وحده غضبة الباشا الذي اصدر فرماناً غيابياً يقضي بان تترك قبيلة الميلانيين الارض العثمانية في الحال. واحس عمر آغا المسكين بالخديعة وبالمؤامرة التي حاكوها ضده وتراجع عن تصريحاته واعلن خضوعه طالباً الرحمة والعفو من الباشا. ولسوء الحظ، لم تكن تلك اللحظة المناسبة، حيث كان قد قدّم ارض ستمانيسه إلى آخرين والتزم بكلمته. ولم يعد يستمع لاي رجاء او ضراعة، بل ارسل كتيبة غير نظامية انضمت لقوات القبائل المتحالفة من الشكاك والمنكور وغيرها مكونين قوة كبيرة من الفرسان اوكل اليها طرد الميلانيين نحو الحدود الفارسية. ونصب عمر آغا معسكره وسط سهل سراي Serai الفسيح على بعد فرسخ من الحدود الفارسية، وراي اعداءه والخونة يتوجهون في صف قتالي نحوه. ولم يرغب في ان يترك فرصة الانتقام ممن خدعوه وان يوغل سيفه في دمائهم قبل ان يترك لهم ارضه ومنزله. فقام بسرعة في جمع مقاتلين وكون منهم فيلقين: الاول كبير العدد، ومن واجباته القيام بهجوم مزيف ضد خطوط الاعداء، والثاني يتكون من حوالي مائة من الفرسان النخبة يقفون بجانبه استعداد لتلقي أمره في توجيه الضرّبة القاضية. والتحم الجيشان وبعد الصدمة الاولى، اندفع عمر، سهمه في يده، واخترق مؤخرة جيش

الاعداء، واستدار وفرق صفوفهم والحق بهم الهزيمة. وفي هذا الالتحام استطاع عمر ان يقتل بيديه الابن البكر لاحمد اغا رئيس المنطور صاحب الخدعة والمؤامرة، الذي كانت سبباً في كل مآسيه وبفضل ذلك الإنتصار اصبح الميلانيون احراراً في التقهقر إلى بلاد فارس من غير ان يتوقعوا اي هجوم غادر، حاملين معهم ثرواتهم ومصطحبين قطعانهم.

على اي حال، لم تكن الهجرة إلى فارس سوى بداية لتقلبات الزمن على تلك القبيلة المطاردة، وعند وصوله استقبلوه واتباعه استقبالا اميرياً وحصلوا على هدايا تسمى الخُلْعة وهي نوع من اللباس الاحتفالي يقدّم عادة في الشرق للشخصيات البارزة. وخصصت لهم اراضي، وكل شيء حينذاك كان يعدهم بمستقبل افضل. ولسوء الحظ فليس هناك من هو اكثر تقلباً من افق السياسة الفارسية. فقد ادارت ثروات عمر آغا الكبيرة راس شاهزاده،[٥] حاكم خوي، والذي ارسل ذات يوم في طلبه ويسأله اين خبأ ثرواته الطائلة. ولم تُرْعب التهديدات عمر آغا، وقاموا بتعذيبه وفارق الحياة بين ايدي سفاحيه بعد ان فقأوا له عيونه؛ ودون ان يفقد حزمه وعزمه او يروى جشعاً لشاه زاده. وانزلوا نفس العقاب بالعديد من اهله ومواطنيه.

وبعد ان فتكوا بالميلانيين وعذبوهم ونهبوهم، قرر الميلانيون اخيراً العودة الى تركيا املاً في الاستقرار نهائياً فيها. وفي تلك الاثناء، في سنة ١٨٦٢، كان رسول باشا حاكماً في وان، وهو من اصل كُردي، كبير السن، محترم وشجاع. واستقبل ذلك الحاكم الميلانيين جيداً، رغم معارضة اعضاء المجلس الذين شاركوا في المؤامرات القديمة لطردهم. ووعدهم ان يبذل ما في وسعه لكي يستقروا ويعيشوا في رفاهية. وأثارت تصرفات الباشا الطيبة تجاههم حفيظة القبائل الأخرى المتحالفة وعدوها نذيراً. فأغارت القبائل على الميلانيين الذين اصبحوا ضعافاً وفقدوا كل شجاعة، وذلك من اجل طردهم خارج الحدود. ولكن الميلانيين الذين تجرعوا الهزيمة وفقدوا الكثير لم يخرجوا خارج حدود البلاد.

لقد دفعت تلك الحادثة كردستان لحمل السلاح: وتقاطر اصدقاء القبيلة المعتدى عليها من جميع الجهات، والتحق الانصار بالقبائل المتحالفة. وانقسمت آنذاك البلاد إلى معسكرين متعاديين. والحكومة التي كانت بدورها فريسة نفس الخلافات، انقسمت كذلك إلى قسمين متعارضين: العسكريون الذين كانوا يدافعون عن الميلانيين فقط لمجرد معارضة الادارة المدنية، والسلطات المدنية التي جعلت الشكاك قضيتها، حيث كانوا يرتبطون مع اسلافهم. ولم يرغب اي جانب ان يتخلى للجانب المقابل عن مطالبة في النفوذ والسيادة والتفوق. اما باشا وان فانه حينذاك بدلاً من ان يتخذ بشجاعة جانب احد الطرفين المتعاديين، كان يتخبط ويتردد فزاد في

---

[٥] يمنح لقب كهذا للامراء في بلاد فارس كما في تركيا من ذوي الدماء الملكية؛ ويعني ابن الامير او شاهزاده. واغلب الحكام الفرس من ابناء الأمراء شاهزاده والحكومة مُجْبَرة على الانفاق عليهم. فمثلاً: فتحعلي شاه الحالي خَلَّف وراءه ٤٣ ابناً او شاهزاده.

صعوبة الموقف، وعلى تسريع امكانية وقوع اضطرابات جدية وخطيرة وشيكة. وكان المشير،[٦] قائد عام قوات الاناضول، يشعر بالقلق أمام تطورات تلك الاضطرابات. وبتلك المناسبة قرر استدعاء عزمي باشا إلى وان، كان يقود الفرقة العسكرية في خرّبوت. وسوف يحل ذلك الضابط محل جنرال الفرقة محمد باشا وهو ضابط شجاع كبير السن؛ يَحُلُّ محله في قيادة القوات المتمركزة في مقاطعة وان. علماً أن محمد باشا كان قد قدّم الكثير من الخدمات الكبيرة في معركة الدانوب، ولكنه لم يكن بقادر على انجاز متطلبات اللحظة.

وكان عزمي باشا، قائد فرقتنا الجديد من الشخصيات المهمة التي عاصرت وعاشت تلك الاحداث التي اقوم بتدوينها. فمن الضروري اذن تقديم نبذة عن حياة ذلك الضابط ومآثره الكبيرة التي قدّمها في مهنته واكثر صفاته التي ينادون بها وتستحق ان اذكرها للقاريء. وسيرة الحياة تلك تحوى الكثير من الدروس وكذلك معظم الاحداث والتصرفات التي تملؤها تتطابق لسوء الحظ مع العديدين من كبار الشخصيات في الامبراطورية العثمانية. وعزمي باشا، واحد من عمداء الجيش العثماني. وداخل الخدمة في عهد السلطان محمود، بصفة كاتب في الفوج، والمسؤول عن المراسلات وحسابات الجيش. وبرعاية بعض الاصدقاء وجد طريقه بعد قليل من الوقت، عندما تم قبوله ضابط مراقبة في الكلية العسكرية الامبراطورية التي تم تأسيسها مؤخراً.

وعزمي، اذ وجد الاهمية آنذاك في اهتمام الحكومة بإرسال بعثات الشباب إلى اوربّا، قدّم نفسه طالباً لمثل بعثة كهذه. ولكن لان كبر سنه تقريباً يمنعه من القيام بذلك اي بدراسات منتظمة، قرر السفر إلى اوربّا لدراسة وفحص مختلف النظم والتنظيمات المستخدمة في المدارس من اجل تطبيقها فيما بعد، في الكليات والمدارس العثمانية. وهكذا، وبهذه الطريقة كان ينوي ترتيب اقامة طويلة في اوربّا للحصول على معرفة ولو سطحية بلغة اجنبية. وصفة كتلك كما يعتقد تُرْضيه لانها تقدّم له اهمية في المستقبل تضاهي تلك التي يتمتع بها شباب تربّى ونشأ في اوربّا.

وتحققت امنياته؛ وعاش عامين في عاصمتين من عواصم العالم المتمدن. وسنحت له الفرصة لزيارة ومشاهدتها جميع المؤسسات والعجائب التي تمتلكها تلك البلدان. وفي نفس الوقت حصل على بعض التطور في معرفته باللغة الفرنسية، حيث يتمكن اليوم وبشكل كاف ان يعبر ويتحدث بها. ولدى عودته القسطنطينية عملت الحكومة ان تضعه في موقع يخدم فيها وطنه بشكل جيد فعينته مديراً للكلية العسكرية ومنحوه رتبة عقيد.

وبمثل تلك الحسابات غالباً ما تُحرم الحكومة الامبراطورية من كوادر مناسبة والسبب بسيط جداً. وهو عندما يتم إرسال اناس إلى اوربّا لم يحصلوا على دراسات كافية روحية وعلمية،

---

[٦] رتبة المارشال قائد عام الجيوش التركية.

فكيف يمكن الادعاء اذن بانهم يقدّمون للمجتمع العثماني رجالاً يمتلكون المباديء الاخلاقية والشرف، او للدولة موظفون مخلصون ومستنيرون؟ فاذا ما وُجد شاب لايخضع لنظام فاعل تربّوي تثقيفي من بلاده، ويترك ذلك الشاب حُرّاً وعلى هواه وجابه منذ طفولته جميع انواع الميول السيئة ويجد نفسه فجأة وسط عاصمة اوربّية حيث يفيضُ الشر كما يفيض الخير؛ افليس من المؤكد اذن وبسبب ميوله ان يتصل ذلك المرء بكل ماهو فاسد وضار بدلاً من الاستفادة بفضائل الثقافة والتنوير الحضاري؟ يجب ان تعترف العقول حتى ذات الميول السيئة، بحقيقة واقع كان وسيظل لسوء الحظ، واخشى قول ذلك، مصدراً للكثير من المآسي بالنسبة لتركيا.

وفي الحقيقة، ما ان بدأ عزمي عمله، دَشَّن نظاماً فاسداً لدرجة انهم اقالوه وحرموه من الرّتب العسكرية. وبعد مرور بعض الوقت، هَلَّت على حياته نِعَمَ الرحمة والحلم وجاءت لنجدته في تكتم وهدوء. اذ كانت هناك شخصية متنفذة اهتمت لامره، واعادت له كرامته وحقوقه بعد لأي وبصعوبة بالغة؛ ومن ثمَّ ارسلوه إلى بلاد العرّب برتبة عقيد.

وأختفت اخباره إلى حين، وحتى ذلك الوقت الذي اصبح فيه بفضل حُماته جنرالاً يقود فرقة ورئيساً للمجلس العسكري لجيش بغداد، مع انه لم يقم حتى ذلك الوقت بقيادة كتيبة مقاتلة او حتى فرقة للمتبارين. وما ان استقر عزمي في ذلك المنصب الرفيع ظنّ آنذاك انه اللحظة المناسبة للعودة إلى ممارسة عاداته السيئة دونما عقاب. ولكن لحسن الحظ، كان المشير نامق باشا المعروف بالنزاهة والعدل من بين رجالات تركيا، كان القائد العام لجيش بغداد. وذات يوم، ولأنه لم يستطع تقبُل عصيان عزمي باشا ودسائسه، حضر للمجلس فجأة وجرّد عزمي من مناصبه وطرده من الغرفة وانذره بمغادرة بغداد خلال اربع وعشرين ساعة. وهرّب عزمي إلى سوريا، وحيث يقيم حُماته الذين لم يتخلوا عنه. وتم تعيينه في قيادة القوات المتمركزة في حلب. وتميز عزمي في مهمته الجديدة هذه بالقيام بعمل ذي طبيعة مختلفة.

وقام بتجرّبة حديثة بعد كل شيء معتقداً ان التمتع بسمعة سيئة ليس دائماً ذات فائدة او نفع -ولو صدقنا ذلك- فقرر القيام بدور مختلف؛ وبدلاً من ان يكون مذنباً اصبح واشياً. واتهم حاكم حلب باستغلال نفوذه والاساءة علنا، مدعياً انه يمتلك البراهين المؤكدة على ان ذلك الحاكم قد نهب مليوناً في الاقل. وتم استدعاؤهما إلى القسطنطينية وتمت مواجهتها أمام لجنة خاصة. ولكن رغم جهوده ومحاولاته المستميتة، لم يستطع عزمي ان يتوصل إلى تأكيد ادعاءاته. ونتيجة لتلك القضية الشهيرة التي حدثت في عهد وزارة رشيد باشا. وحيث ان الحكومة لم تستطع كيف تتصرف مع عقلية مضطرّبة ومتمردة؛ ورغم انها رغبت جداً في ابعاده عن العاصمة باي حال، قررت الحكومة إرساله إلى جيش الاناضول. وجاء ذلك القرار لسوء حظ جنودي، بل لسوء حظي شخصياً. ووقعنا اخيراً ضحية حماقته وفساده.

الفصل الخامس

ادارة عزمي باشا: إستدعائي إلى وان، الاستقبال الذي لقيته؛ الحل الذي قدمه عزمي لقضية الميلانيين والشكاك؛ مطالبتي بإحتلال قرية سراي Serai؛ الإجراءات التي اتخذتها، إحتلال الملا حسن الكبير

أرَّخَت نهاية شهر حزيران ١٨٦٢، دخول عزمي باشا إلى مقاطعة وان. ومنذ البداية كانت ادارته تليق فعلاً بمن سبقه. وكان محمد باشا الذي سبقه يستند إلى انظمة مازالت قائمة وبالتوازي مع السلطات المدنية، كما كان قد وقع عقوداً سنوية في سبيل إدامة عيشه وبقاء تلك القوات. ولكن عزمي باشا جاء ليُلغي كل تلك العقود ليُوقّع بدوره عقوداً جديدة. وأعلن في القيادة العامة بأنه يعد المكاسب الجديدة التي سوف تنتج عن ذلك التغيير لصالح الخزينة العامة.

وفرض زيادة سنتيم واحد على الامة من بضاعة ما وسنتيمين على الامة مِنْ بضاعة اخرى، مُعتقداً انه سيحقق بذلك مكاسب للخزينة بعد الغاء العقود القديمة. بل انه حتى لم يتورع عن ايجاد اشخاص يُوقع معهم تلك العقود الجديدة. وأدى ذلك إلى خلق اوضاع تسودها الفوضى ويُغلفها الغموض، ولم يعد يتوفر للقوات من المؤن الاّ القليل مما لا يكاد يكفي ليقيم اوَدَ تلك القوات التي تكاد تتصوّر جوعاً، فقد تناقصت كثيراً كميات المؤن نقصاناً كبيراً.

وادى اعلان تغيير القيادة المصحوبة بسوء النية من جانب الضباط الميالين للدسائس والمداهنة والمشاحنات والوشايات المصحوبة باتهامات وعداوات وهذا ما اوقع الفرقة في جو من الفوضى وعدم الارتياح. وكان نتيجة طبيعية لعدم كفاءة القيادة وعدم نزاهتها. وأثناء تلك الاحداث في مقاطعة وان، كنتُ في قوتور منشغلاً بشؤون كتيبتي. وكان وصول القيادة الجديدة كان حدثاً ملأً نفسي بالحبور، رغم انني لم أكن أعرف عزمي باشا شخصياً؛ ولكن اسمه، كان مألوفاً لدي فقد كان مُرتبطاً ببعض الذكريات عائلية قديمة. وارتبط سروري ببعض تلك الذكريات العائلية، وقد اجد نفسي بين ايدي صديق، ضابط كنت اظن من قبل يتمتع بقدر من التقدير. والباشا من جانبه، وقد علم بوجودي في قوتور اعلن عن رغبته في رؤيتي وارسل لي رسالة يدعوني فيها لقضاء بعض الوقت في وان إلى جواره.

وتركت قوتور، تاركاً قيادة الكتيبة إلى العقيد وذهبت إلى وان، واستقبلني الباشا الكبير السن، واعرّب عن سعادته وتشرفه بمعرفتي واستقبلني واغرقني بكل فروض الاحترام والتشريف.

وعزمي، كونه كغيره من الرجالات الكبار الذين اعرفهم كان يعيش في سعة ورغد دائمين. ومائدته دائماً ثرية ومجهزة جيداً: وحتى لو ذهب إلى بلد بعيد، لم يكن يحرم نفسه من وسائل الترف ورغد العيش؛ وهذا ما يوفره المال والذوق الرفيع. وقضيت في وان شهراً كاملاً واغرقني الباشا بعطفه وكرمه وفتح لي صدره وباح بأسراره. وانا من جانبي، حاولت ان أبدي استحقاقي لتشريفه لي وانشغلت بإنجاز كل ماكنت قادراً على انجازه.

وخلال إقامتي في وان، سنحت لي الفرصة سماع بعض الآراء قبل ان يتم حل قضية الميلانيين والشكاك، وبشكل نهائي. وكان عزمي باشا، كما هو حال غيره من السلطات العسكرية، كان يناصر فكرة ارجاع جميع الحقوق للميلانيين واراضيهم جميعاً. ولهذا السبيل، استخدم كل نفوذه وكذلك كل ما في وسعه. ولكنه لم يحصل على النجاح في ذلك الأمر؛ ولا موافقة سلطات وان، الاّ بالاتفاق الذي يدعو الشكاك للتنازل عن نصف الارض في ستمانيسه إلى اصحابها القدامى الميلانيين. وإستناداً على ذلك القرار، يقوم احد اعضاء المجلس بتحقيق ذلك الترتيب. وفي الوقت نفسه، صدرت لي اوامر بسفري إلى سراي من اجل إحتلال تلك القرية ومنع حدوث اية اضطرابات اثناء تحقيق الإجراءات التي كانت الحكومة قد أوقفتها مؤقتاً.

وصدرت الأوامر إلى قوتور بإرسال اربع سَرَايا، لإحتلال قرية سيراي. واستدعاني الجنرال في حضور الحاكم رسول باشا واوكل لي مهمة مراقبة إقامة القوات المتوجهة للقرية، طالبين مني في نفس الوقت وبشكل حازم مراعاة السكان بشكل كبير والا اسمح بأي حال من الاحوال ان يحدث شيء يجرح مشاعرهم. وفي حالة القرية المذكورة فانها لن تستطيع ان تستوعب إقامة جميع القوات؛ دون ان يتسبب ذلك في ازعاج السكان. ولكنهما تركا لي قرار التصرف في إرسال قسم من جنودي إلى قرية مجاورة.

وتوجهت في طريق سراي مُزَوَّداً بتلك التعليمات. وسراي قرية نسطورية، تقع على بعد خمس فراسخ من قوتور وعلى بعد ثلاثة عشر من وان، على طريق البقريد الذي يمرّ بهاتين المدينتين. ويتمتع ذلك المكان بأهمية كبيرة اذ يقع في منطقته تكون فيه الحدود الفارسية التي يتكون فيها نتوء جبلي يخترق الارض العثمانية، عاملاً بذلك على تسهيل ذهاب وإياب القبائل الكُردية المتواصل: وهو موقع في غاية الاهمية كونه نقطة ارتكاز للقبائل المتصارعة.

وقبل ان اتوجه إلى مقصدي صادفت في الطريق وفداً رفيع المستوى من القضاء وعددٍ من كبار الشخصيات من سكان سراي يتوجهون مَسْرعين على ظهر خيولهم نحو وان. وعندما رأوني مع اتباعي توقفوا والقيت عليهم التحية وانا اقترّب منهم؛ وسالتهم عن وجهتهم اجابوني بغضب صاخب قائلين بانهم ضاقوا ذرعاً من تلك الزيارات المتكررة للقطعات العسكرية، وللاكراد، ولغيرهم من مختلف الاشكال ممّن يمرون بالقرية؛ وانهم لم يعودوا قادرين على تحمل مثل تلك المضايقات. واضافوا، انهم قرروا عرض متاعبهم أمام باشوات وان. وحاولت اقناعهم بعدم جدوى محاولاتهم

ومؤكداً لهم تعاطي معهم واخبرتهم بالمهام التي تم تكليفي بها. سألتهم العودة، وتقديم المساعدة حول اقامة القطعات في القرية حيث ستحل قريباً فيها وظلت جميع محاولاتي بلا فائدة وواصلوا هم طريقهم إلى وان، حيث كانوا يأملون ان يُقدّم حماتهم من ذوي النفوذ، حتى يتمكنوا من تفادي مصائب الإحتلال. ورجعوا بعد بضعة ايام إلى القرية. دونما تحقيق الاماني.

وعندما وصلت إلى سراي، إتخذت في الحال جميع الإجراءات الضرورية لأقامة الجنود ولكنني وجدت حال وصولي، إستحالة إستيعاب تلك القرية لجميع القطعات دون أن يتسبب ذلك في إثارة ضيق السكان وضيق رجالي في نفس الوقت. وقررت حينذاك ان اجمع نصف جنودي في كتيبة تتوجه في طريق وان نحو قرية، الملا حسن، حيث سيقيمون مقر أركان قيادتهم، وهي تبعد عن قرية سراي بثلاثة فراسخ.

واذ وصلت القطعات في المساء، ولم يقم احد بأتخاذ اية اجراءات لاستقبالهم ولاقامتهم، او تجهيز المؤن لهم، وجدت ارجاء سفر المفرزة إلى الغد حتى تمكن من إحضار وتجهيز المؤن والذخيرة للجنود الذين سيبقون في سراي. وناشدت كرم السكان واستطعت الحصول على الدقيق، والقمح، والزبد مجاناً. وبأختصار حصلنا على مؤن كاملة تكفي شهراً. اما موقع القرية فيتمتع بجميع الشروط التي تجعله موقعاً عسكرياً بامتياز. فالقرية تقع اسفل منحدرات تلة صغيرة، وتسيطر على مدخل واديين وكذلك طريق وان. ومساكنها افضل من اي مكان آخر، وتقدّم مناطق إقامة مُريحة مشبعة جيداً بالهواء. ويوجد نبع ماء في قمة التلة. وإلى جانب تلك الإعتبارات، يستجيب وبشكل رائع إلى متطلبات اللحظة. وفي واقع الأمر، تقع بين قبيلتي تَركەور و مَركەور، وتضعهما في موقف حرج يستحيل عليهما فيه توحيد قواتهما في غزوات النهب والسلب. وبعيداً عن جميع تلك المكاسب، فان ما دفعني لاختيار تلك القرية، هو ان القُرى الثلاث الأخرى القريبة من سراي، غير صالحة للعيش فلا يوجد فيها مياه للشرّب ويأخذون المياه من مستنقع آسن.

وسوف تثبت الأيام والأحداث ان مخاوفي وتقديراتي كانت صحيحة جداً مع الأسف.

الفصل السادس

احمد آغا رئيس قبيلة المنكور، استقبلته وقدم لي امرا بضرورة الجلاء عن قرية الملا حسن، القرار الذي أتخذته، ذهابي إلى وان، عزمي باشا يتمسك بموقفه في هذا الأمر، النتيجة المعنوية التي يمكن إستخلاصها

احمد آغا، رئيس قبيلة المَنْكور وقائدها، واحد من الشخصيات البارزة بين شعب القبائل الرُّحل تلك. وهو معروف بذكائه وتقلبه، ويعرف جيداً كيف يلعب دوره الشخصي الرئيسي بين رؤساء القبائل لعشرين سنة. وهو وسيط بين السلطة والقبائل يمتلك القدرة على ان يفرض عليهم نفوذه ويديرهم وكيف يكتسب ولاءهم. واعتبره الباشوات رجلاً لايمكن الاستغناء عنه لتحقيق سياساتهم، فالقبائل تخشاه لأهميته ولكنهم يكرهونه لدسائسه وطموحاته. وبفضل عملائه وانصاره، يمارس دون ان يترك خيمته نفوذا كبيراً في جميع شؤون وان ويؤمن له ثرواته الضخمة مَنْ يستمع اليه.

وتقع قرية ملا حسن داخل حدود سلطة احمد الكبير ويسمونه عادة احمي، ويقيم على بُعد مسيرة ثلاثة ارباع الساعة من هذه القرية. ولكنني كنت في أمس الحاجة لتأمين ما يقيم أودَ جنودي؛ استخدمت نفس الطريقة التي استخدمتها في سراي؛ اي أناشد الناس طالباً منهم ذلك. وارسلت بهذا الخصوص رسولاً إلى احمي، اطلب رؤيته في نفس المساء. ولم نمض ساعة حتى رأيت احمي قادماً نحوي في موكب كبير. واندهشت لزيارته المفاجئة، وفكرت انه ربّما لم يستطع ان تيسلم رسالتي الا اذا كان ذلك اثناء مجيئه في الطريق، وسألته عن سبب الزيارة؟

أجابني بأن خبر وصولي قد ملأه حبوراً فوجد نفسه مُجْبراً على المجيء لتقديم فروض الاحترام والولاء، ولكنه يرى ان من واجبه ان يبذل ما في وسعه ليقدّم كل خدمة للجيش وان يهيء كل مايمكن لهذه البلاد ان تقدّمه له. ثم اردف بشكوى مطولة حول فقر السكان، وان ذلك هو من الاسباب الرئيسية، وان الإحتلال سوف يسحق هؤلاء الفقراء؛ ويرى أن عليَّ ان ابحث عن مكان آخر اكثر ملائمة لاقامة قواتي.

وكنت اعرف انه رجل دسائس كبير قديم، ومن ثم قررت وقْف الحديث واعلمته بأنني سأكون راضياً جداً ومرتاحاً لكل ما سوف يقوم به لتموين قواتي، وانه يجب ان يعرف في الوقت نفسه، ان تحركات الجيش الامبراطوري لاتهمه تلك الامور في شيء ونصحته بالإهتمام بقبيلته وقُطعانه بدلاً من ان يتدخل في شؤون تفوق تماماً قدراته.

وما ان انهيت حديثي، حتى هب احمي واقفاً واخرج برقية من عزمي باشا، وقال لي في لهجة ساخرة ممزوجة بالانتصار والتهكم: "سيدي، يجب ان ترحل القوات." ويمكن لك ان تتصور دهشتي ومشاعري التي أحسست بها أمام إهانة كهذه. ومع ذلك، وانا اقرأ البرقية لمعت في ذهني فكرة للخروج مِنَ المأزق. لقد لاحظت في تلك البرقية، ان عزمي باشا قد قدّم سبباً للانسحاب من ملا حسن، لان تلك القرية تبعد مسيرة ثلاث ساعات من سراي، فذلك يمنع تمركز القوات، وثانياً لاتحوى تلك القرية الا خمسة عشر منزلاً.

والحالة هذه، تجب ملاحظة كيف ان هذين السببين خاطئان ومتناقضان. فأذا افترضنا ضرورة تمركز القوات فذلك شيء ضروري، فكيف الحال وقبل ثلاثة ايام فقط، الحَّ عليَّ الباشوات بضرورة مراعاة سكان سراي والإهتمام بمشاعرهم؛ وتركا لي كل الخيار في معرفة ما اذا كانت تلك القرية تستطيع مثلاً ان تستوعب جميع القوات؟ فالتناقض اذن واضح خاصة انه لم تقع اية احداث تتسبب في مثل ذلك التغيير للاجراءات المتفق عليها. ثانياً: الادعاء بأن قرية ملا حسن لاتحوي سوى خمسة عشر منزلاً ادعاء كاذب؛ وقد وقع الباشا ربّما ضحية دهاء احمي؛ عندما ابلغه ان تلك القرية تحوي فقط خمسة عشر منزلاً. وكان يجب على الباشا ان تعرف بوجود قريتين بنفس الاسم تبعد الواحدة عن الأخرى مسيرة عشرين دقيقة فقط: قرية ملا حسن الكبير وتحوي ستة وثلاثين منزلاً والأخرى ملا حسن صغير وتحوي خمسة عشر منزلاً.

والحالة هذه وقد اغفل احمي ذكر قرية ملا حسن الكبير، ذات الستة والثلاثين منزلاً فقد خدع الباشا. ولكن بالنسبة لعزمي باشا، فأن الأمر الذي اصدره يعد إحتقاراً. ولكن الا نرى ان هذه الاحتقارات والاوامر والاوامر المضادة والمتناقضات الخالدة؛ كل ذلك يؤدي إلى إعاقة وشكل حركة الجيوش وعمل الادارات التركية؟ الا يعود لمثل تلك المتناقضات والحماقات المشابهة، لحدوث تلك المذابح وتبادل اطلاق النار في دمشق؟

واذا اعتقدت بان ماحدث من كل ذلك هو مجرد احتقار، وإيعاز ما حدث من خلاف إلى اكاذيب احمي والمَنْكور، ارتأيت ان افضل ما اقوم به، هو تعليق تنفيذ الأمر الصادر والذهاب حالاً إلى وان لعرض تلك القضية شخصياً أمام عزمي باشا كما عرفته جيداً. وكنت متأكداً من ان كشفي حقيقة الاوضاع للباشا ستدفعه لتقدير دوافعي ومن ثم تأييد تصرفاتي.

وفي الحال تركت احمي واعلنت رغبتي في الذهاب إلى وان وطلبت اعداد تقرير يوضح ان قرية ملا حسن الكبير تضم ستة وثلاثين منزلاً والفرق بينها وبين قرية ملا حسن الصغير ذات الخمسة عشر منزلاً. ووقع جميع الضباط ذلك التقرير كما جرت العادة. واخذت معي تلك الوثيقة التي تؤكد كلامي، وتركت ملا حسن في وقت مبكر حيث وصلت بعد بضع ساعات وذهبت مباشرة لرؤية عزمي باشا.

واثناء حديثي معه، حاولت ان اوضح له تفاصيل ذلك التعقيد واعرّبت عن وجهة نظري بهذا الخصوص وشرحت له الانطباع السيء الذي ستنتشر بين هؤلاء السكان المتوحشين بعد طرد القوات مِن قرية إلى اخرى كما لو كانوا عصابة من الغجر او المجذومين، وإغلاق جميع الابواب في وجوههم. بل جاء وفد يمنع دخول قواتنا إلى سراي، حيث وجّه لنا الرئيس في لهجة جارحة وغير مهذبة أمراً بالرحيل. وان احداثاً كهذه تمس جدياً هيبة الحكومة ومصالحها.

ويبدو ان عزمي قد أحس بصدق منطقي وآرائي، فاعلن تأييده لتصرفاتي واكد ان القوات ستظل في ملا حسن وفقاً للاجراءات القديمة. ولكن ذلك القرار لم يستمر طويلاً اذ ما لبث ان تغيرت الامور. وفي الواقع وبعد مرور عشرة ايام، التقيت الباشا في الطريق حيث اوقف سيارته وتبادل معي بضع كلمات قائلاً لي انه قد ارسل اوامره إلى نائبي الذي تركت له القيادة في ملا حسن، بضرورة اجلاء الموقع والذهاب إلى سراي. ولم استطع الاجابة على ماقاله، ولكن واجبي يفرض عليّ عرض واقع الامور كما رأيتها واعرف تفاصيلها وان يتصرف الباشا بدوره كما يريد. ومع ذلك، يجب ان نلاحظ آنذاك ومنذ تلك المرحلة ان علاقاتي مع عزمي باشا قد شابها بعض البرود، وغير موقفه مني. فهو بدلاً من ان يرى في اداة سلبية مطية عبدةً لرغباته، وجد رجلاً هادئاً اذا كان كل شيء يسير في تناسق مع الشرف والواجب، ويجده رجلاً متمرداً وعنيداً في كل أمر يبتعد عن الشرف والواجب.

ومنذ تلك اللحظة اصبح يعاملني ببعض التحفظ. وعندما وجْدني لايمكنني ان اكون الرجل الذي يريد استغلاله في اول فرصة ثم ابعدني تماماً. ومن جانبي، أوّد ان اعترف بأن ذلك الحدث قد ازال اوهامي تماماً، وكشف لي حقيقة الباشا الذي لم أعد أُكِنُّ له اي احترام، او تقدير، وزادت ظنوني وشكوكي والريبة بكل أنواعها، فأثارت حفيظتي جداً.

وتساءلْتُ في واقع الأمر، كالكثيرين مِنْ قرائي عن ماهية تلك العلاقة التي يمكن ان تربط الرجلين، عزمي وأحمي رئيس قبيلة المنْكور. ومهما كانت الدوافع التي كانت وراء تصرفات عزمي بخصوص الانسحاب، فقد كان من المحتمل جداً نشوء علاقة بين الرجلين؟ ثم إرسال البرقية بيد احمي مباشرة يعد امراً خطيراً، فإلى جانب خرقِه للقانون العسكري والإجراءات العسكرية فان ذلك يخلق شكوكاً من كل نوع حول أحمي.

واستناداً إلى القوانين المعمول بها في الجيش العثماني كما في الجيوش الأخرى النظامية، يجب ان ترسل الاوامر المرسلة من شخصية اعلى رتبة إلى شخصية ادنى رتبة وبالعكس، يجب ان تُرسل عبر القنوات الشرعية، اي عن طريق الضباط المرافقين في المعسكر فكيف يمكن لعزمي باشا ان يقفز فوق ذلك كله وتحت إمرته وسلطته فوج من الخيالة، والايجد سوى ذلك الكُردي احمي ليرسل اوامره مباشرة اليه؟

ومن جهة اخرى، فأن هذا الكُردي نفسه هو الشخص الوحيد صاحب المصلحة من هذا الانسحاب من ملا حسن. فإحتلال ذلك الموقع يعد موضع اذلال لشخصه أمام باقي القبائل التي تراه رجلاً قوياً أمام السلطة، تلك القوة التي صنعت له هيبته وقوته. اضف إلى ذلك، فاذا ما تجاوزت القوات المتعارضة، فسيتم التداخل في شؤون القبائل وسيخلق ذلك فرصة أمام الفقراء بإمكانية إرسال الشكاوي والبحث عن ملاذ تحت رآيتنا ضد مظالمه وضد استخدامه للعنف تجاههم.

فإذا ما اعتبرنا ان احمي هو الاكثر ثراءً بين هؤلاء الأكراد، والاكثر كَرَماً اذا ما كان ذلك ضرورياً لنجاح مشاريعه. واخيراً، اذا رأينا ان عزمي باشا قد قدّم طوال حياته مختلف البراهين على جشعه، فسوف نضطر إلى إستخلاص ان السوق بين هذين الرجلين قد تم ترتيبه بسهولة، احدهما يستلم امر الانسحاب بيد، والآخر يتسلم المبلغ المناسب بيد.

نظرية كهذه، هي الوحيدة المقبولة التي تشرح بسهولة ووضوح تصرفات عزمي بعد وصولي إلى وان. واذْ رأى الحقيقة والصدق في كلامي، اضطر ان يتراجع بضع خطوات وليقدّم لي بعض التطمينات ولكي اغلق فمي واعلق عملية الإحتلال بضعة ايام. ولكن ولاؤه من جهة اخرى تحت ضغط التزاماته مع احمي، وَجَدَ نفسه مُجْبَرْاً لارضائه. بل ان الباشا أتخذ من معارضتي له حُجَّة لابتزازه وهذا ما اضطر رئيس القبيلة الكبير ان يخضع لذلك الاستغلال. ولكن ماتلي ذلك سيوضح بل سَيلقي الضوء على تلك النتائج المثيرة للغضب بسبب جلاء جنودي.

الفصل السابع

السرية الرابعة، تستقر في شيروانه، تلك القرية موبوءة، انتشر فيها وباء التيفوئيد، وصدرت لي اوامر للذهاب إلى قوتور. وذهب العقيد إلى وان، حيث قام بتفتيش على السرية الرابعة. الثالوث في وان، اختيار مشتى الجنود بالتيفوس، تطوراته تنذر بالخطر، تقريري بهذا الخصوص

إستناداً إلى الأوامر التي صدرت عن عزمي باشا، قام نائب الضابط بسحب السرية الثالثة من قرية سراي، في حين ارسل السرية الرابعة ليقيم في قرية تقع على الطريق من وان إلى قوتور. وهي قرية صغيرة، شيروانه تضم اثنى عشر منزلاً فقط، وتقع على بعد ساعتين ونصف إلى الشرق من سراي. وتشبه تلك القرى الصغيرة التي تحدثت عنها في الفصل السابق. ولايمكن الاقامة في منازلها لان أوضاعها العامة أسوأ من غيرها في كل الاحوال. ولكن السبب الرئيسي لعدم إحتلالها هو، هواؤها الفاسد المشبع بالرواتح الكريهة المنبعثة من المستنقعات والمياه الآسنه التي تحيط بها. ويتسبب هواؤها الموبوء بالعفن في انتشار حمى التيفود. ولسوء الحظ، كانت لمخاوفي اسبابها، ولم تمض عدة أيام على إقامة السرية الرابعة في قرية شيروانه الصغيرة حتى ظهر وباء التيفوس بين الجنود. وبما ان الوباء في البداية لم يتطور لدرجة تنذر بالخطر، اكتفينا بنقل المرضى المصابين بخطورة إلى المستشفى المركزي في وان. وحدثت تلك الاحداث في بدايات شهر تشرين الثاني.

وذات يوم، استدعاني عزمي باشا لاخباري بان العقيد مصطفى بك، قائد حامية قوتور، قد طلب التمتع باجازة يقضيها في وان لزيارة اسرته. وأصدر لي أمراً بالذهاب إلى قوتور. وإذْ كنت اشعر بالقرفِ من طريقة تصرف ذلك الباشا، الا انني كنت سعيداً بالرجوع ثانية إلى قوتور، ورغم الشعور فيها بالحرمان والنفيالا انها تقدّم لي فرصة تنشق هواء نظيف، بعيداً عن الدسائس والمؤامرات التي تملأ أجواء ادارة وان. وكنت آمل ان اقضي الشتاء بين جنودي، حيث ساقضى وقتي في رعايتهم.

ودعت الباشا، واسرعت في طريقي نحو قوتور، حيث وصلت بعد الغد، وكان مصطفى بك ينتظرني بفارغ الصبر وكان مُستعداً للرحيل. وبعد وصولي بربع ساعة، اسرع بامتطاء حصانه متوجهاً نحو وان. وكان عليه ان يمر بقرية شيروان في طريقه، حيث قام بزيارتها وتفقدها والتفتيش على السرية والتعرف على احوال ذلك الموقع.

ولنذكر ان تلك السرية قد اصيبت بداء التيفوئيد، وحيث تم إرسال خمسة جنود من بين الخمسة والسبعين جندياً، إلى مستشفى وان، وتوفي احدهم بعد ذلك. وعرض الضباط والجنود

احوالهم على مصطفى بك راجين منه انقاذهم من ذلك الطوفان وتظاهر العقيد بالتعاطف معهم ومع عذابهم ووعدهم بكل انواع النجدة حال وصوله إلى وان. إستطاع الهروب منهم بسرعة تاركاً اياهم يتجرعون قدرهم الفظيع. وما ان وصل مصطفى بك وان، انشغل بهمومه التي شدّته بعيداً عن التفكير في مصير الجند. واثناء إقامتي في وان، احسست بتلك العلاقة المتينة المتزايدة بين عزمي باشا ومصطفى بك. وقد بدأ العقيد تلك العلاقة بالاتصال بسكرتير عزمي باشا ديوان افندي، وغمره برسائل تتغزل به وتفيض أدباً ومودة. وأوصى ديوان افندي من جانبه بالعقيد مؤكداً للباشا باندفاع وحرارة ان مصطفى بك سيظل العبد المُخلص لسيده، فقد كان يقضي الايام الطوال يصلى لله القدير لحماية الباشا ويدعو له بحرارة من صميم القلب.

ومظاهر كتلك ملأت صدر الباشا بالحبور وكان يبتسم مُدَلِّلاً بذلك على القبول والرضا. وتم اعلام مصطفى بك بسرور الباشا. ومصطفى بك تشجع بهذا النجاح واراد ان يصل بسرعة إلى نتائج ذلك الانتصار، فقام باتخاذ وسائل هجوم اكثر قوة وتأثيراً، وبدأ بإرسال قوافل الخضروات والفواكه والشاي والسكر وغيرها من البضائع التي كان يستقدّمها من بلاد فارس ويُسرع في الحال بإرسالها إلى وان. ولم يكن عزمي قادراً على مقاومة تلك الجهود المدروسة وما لبث ان اصبح الصديق المقرّب للباشا. فذلك العقيد يعرف كيف يتعامل مع الناس وكيف يحصل على المنتجات الثمينة في البلاد وهذا ما جعل منه رجلاً يستحق الإهتمام الاكبر والمجاملات الخاصة. وبوصول مصطفى بك إلى وان تكون الثلاثي الانتفاعي في الحال: عزمي بك، مصطفى بك، وديوان افندي. وكانت جميع الطرق ممهدة أمام ذلك الثالوث حول جميع التحالفات والمعاملات: عقود تجهيز المؤن وقد رأينا كيف يتصرفون بها، ادارة فيلق الخيالة ادارة المستشفى، واخيراً انشاء ثكنات الجيش، وكل ذلك ساعدهم ليعرفوا كيف يتحولون إلى مليونيرات.

ولنترك جانباً رغباتهم المعادية لي ومحاولاتهم اشراكي في تصرفات رؤسائي سواء كانت سيئة او حسنة، ومع علمي بان الحكومة لن تُحمّلني مطلقاً اية مسؤولية، الا انني كنت قد اتخذت بحزم قراري وانا ابتعد عن قوتور، بالاّ اتخطى حدود التزاماتي وواجباتي، ومُؤمِنا بان الافراط في الاندفاع شيء يتسحق اللوم. ومع ذلك، فبعيد الاختلاسات التي قام بها رؤسائي وبعد ان رأيت كيف يموت جنودي جوعاً وفقراً، وبعد ان غمرني الفزع للدمار الذي فتك بجنودي ادركت انه من واجبي ان اتحدث لان الصمت على مايدور ويحدث يعد جريمة وخيانة ضد الحاكم وضد الانسانية، وقررت آنذاك ان ادافع وبشدة عن قضية جنودي.

يبدأ الشتاء في تلك النواحي في اواسط تشرين الثاني، حيث تستعد القبائل للعودة إلى ديارها، فيجب اذن ان يُخلى رجالها اماكن سكناهم، ليغتصبوا بعد ذلك من جنودي مرابع الشتاء. وصدر لي امر في العشرين من تشرين الثاني ١٨٦٢ من قبل عزمي باشا يطلب مني ترحيل سرايا نصف الكتيبة

الايمن المتمركزة في قرية سراي و شيروانه إلى وان، حيث ينبغي ان تقضي هذه السريا الشتاء، واستناداً على تلك الترتيبات، تبقى في قوتور السرايا الاربع المكونة لنصف الكتيبة الايسر.

وبينما كنت ادبر ترتيباتي واتخذ الإجراءات لتنفيذ الأمر، استقبلت في بداية الليلة شخصاً جاء على عجلٍ من وان وقدّم لي وبعنف امراً شفهياً يعلن ان الجنرال قد غيّر اجراءاته. واصدر لي امراً بارجاع السرايا الاربع اليمينية إلى قوتور، لتقضي الشتاء هناك، وتحت امرتي، في حين تتوجه السرايا الاربع، نصف الكتيبة الايسر إلى وان وتأخذ مكانها. ورغم الفوضى التي نتجت عن الاوامر المتضادة دائماً، كان تنفيذ الاوامر واجباً مع ذلك.

ومنذ الغد، ارسلت وبسرعة سرايا نصف الكتيبة اليسرى والتقت مساءً والسرايا الاربع اليمينية المتوجهة لدخول قوتور. وفي هذه السنة، يُشكّل البرد والشتاء ظروفاً قاسية ومؤلمة لاولئك المساكين ذوي الملابس المُهَلهلة. وكان جنودي يشكون مُرَّ الشكوى من ذلك الأمر.

فاذا ما تذكرنا الترتيبات التي أدت إلى الانسحاب من قرية ملا حسن، يبرز ذلك التساؤل عن ماهية ذلك السبب الاستراتيجي الذي تطلب استبعاد كتيبة كانت على مقرّبة خمس ساعات تقريباً من وان، وهي نقطة موضوعية حساسة، وإستقدام الكتيبة الأخرى، التي كان علها ان تقطع مسيرة اضافية على المسافة للوصول إلى وجهتها. ومازالت غرابة تلك الخطة، تحمل في طياتها طابع الخطط الأخرى التي تَزْخر بها سجلات الوقائع العسكرية للباشا. ويتلخص حلُّ ذلك الاشكال في بضع كلمات.

في السرايا الاربع التي تكون نصف الكتيبة الايسر، كان هناك نقيب يدعى بكر آغا، قائد السرية الخامسة وكذلك ضابطان برتبة ملازم اول، كان قد اختارهم العميد ليتبعوه؛ وهم عيون له في زوايا ادارته. وكان دائماً يستخدمهم في المهام السرية، حُرّاساً واداريين لميزانية الفوج؛ وقد اظهروا في هذه المهام دلائل على مهارتهم وقدرتهم في عمليات التزوير والغش التي سببت في إثارة كراهية وإحتقار الجميع لهم.

وفي حالة الكراهية للاشياء، تتطلب ميزانيات وان عملاء ثانويين من نفس الطينة، يمكن الاعتماد علهم. ويتطلب تشييد الثكنات كذلك مَهَرةً وقادرين على الحفاظ على مصالح المقاولين. ومن اجل مهمات كتلك، لم يكن في الامكان ايجاد من هم افضل لهذا، ومهما كان الثمن اصرت الادارة على ان يكون هؤلاء الملازمين في وان من اجل تسيير اعمال ومصالح ذلك الثالوث المذكور اعلاه.

ذلك كان السبب اذن في تفضيل نصف الكتيبة الايمن الذين كانوا جميعاً ضباطاً رائعين مخلصين نظيفي الايدي وغير قادرين على الدخول في اروقة مصالح الثالوث او تحقيق مكاسب كبيرة لهم. ونتيجة تلك الحقائق كان الاعتقاد أنه اذا كان إحتلال شيروانه من اسباب ظهور وباء التيفوس والوفيات التي تلت ذلك، يمكن ارجاع ذلك كله إلى استبعاد القوات وإرسالها إلى قوتور والتي اصيبت بدورها بحمى تيفوئيد ومما لاشك فيه، انه في واقع الأمر، اذا كانوا قد استدعوا تلك

السرايا إلى وان بدلاً من قوتور، لوجود الجنود المرضى استطاعوا ان يجدوا مأوى في مستشفى جيد، وطبيبين مع مختلف انواع العلاج والأدوية ومقتضيات الراحة التي تتوفر في مدينة مأهولة. وما كان لذلك الوباء ان يفتك بتلك القدرة التي فتك بمن كانوا في قوتور، حيث اهملونا وتركونا للبؤس والدمار. فمما لاشك فيه اذن، هو ان الفساد كان سبب ومصدر الوباء، وتطوره وانتشاره والارواح الكثيرة التي حصدها. وفي نفس اليوم الذي وصلت فيها السرايا الاربع إلى قوتور، قدّم لي الملازم أول قائد السرية الرابعة تقريراً حول احوال الجنود وعرض لي وجود كثيرين من الجنود مصابين بالتيفوئيد حيث كان وراءهم اثنان من الجنود يصارعون الموت بين ايدي فلاحي شيروان.

وفي الحال، ارسلت ضابط صف وبعض الجنود ليقدّموا لهذين الجنديين الرعاية اللازمة التي يمكن تقديمها لهما، وطالبت بإرسالهما إلى المستشفى حال إستعادتهما بعض القوة. اما بالنسبة للمرضى الآخرين القادمين الينا، فلم يكن هناك مايمكن تقديمه لهم، والبديل هو رعايتهم والعناية بهم داخل المستشفى وذهبت لمعاينة ذلك المبنى المستشفى فلم اجد من اثاث سوى بعض الفُرش والوسائد وأرواب الاطباء الذين لايتعدى عددهم العشرة، وبعض ادوات المطبخ. اما بالنسبة للدواء، فلا يوجد في الصيدلية سوى كمية معينة من شراب التمر هندي، وكميات من اكسيد المغنسيوم، وبعض العيّنات، ونبات الخباز والزيزفون الطبي. وللمبالغة في سوء الحظ، فان جَرّاح الكتيبة لم يكن ماهراً جداً في مهنته، فقد كان حلاقاً وتخرّج اثناء حرّب القرم؛ ومع ذلك فيجب ان نذكر له انه كان يجاهد ليقدّم افضل ماعنده.

ولم يتطور الوباء كثيراً في ايامه الاولى، ولكن وفي اليوم التاسع ازدادت حالات الاصابة بالتيفوئيد فقط في حدود السرية الرابعة، ولم يصل بعد لاصابة السرايا الأخرى. ولم تعد اسرة المستشفى كافية لاستقبال المرضى، وحيث اصيب عشرون من جنود السرية. ووجدتُ نفسي آنذاك مُضطراً للاستعانة بسكان المدينة الذين قدّموا لنا الاغطية والسجاجيد والوسائد حيث ساعدنا على تلبية حاجات تلك اللحظة. ولحد ذلك الوقت لم تتعد الوفيات الاثنين من الجنود.

ومع ذلك بدأت نُذُر الخطر تدق، بسبب تصاعد وتيرة المرض ومنحى تطوره. فاسرعت بتقديم تقرير[٧] عن المرض وماحدث إلى عزمي باشا في التاسع والعشرين من تشرين الثاني حيث عرضت فيه احوال القوات وخطورة الحالة. ولكن لسوء الحظ، كانت لعزمي باشا خططه التي تشغله بدلاً من الرد، حيث لم يتم اتخاذ اي اجراء. اما نحن فكنا بالكاد نتلقّ اخبار وان او اتصالات بها. ويبدو انَّ ان الأمر والاوضاع تدل على انهم نسّوا وجودنا تماماً.

---

[٧] الصورة ٣.

الفصل الثامن

تطور المرض، الاجراء الذي أتخذته، التقرير الثاني المرسل إلى عزمي باشا. تقرير إلى القيادة العامة، إرسال جراح إلى موش، إرسال الدكتور لاڤيني إلى باشقلا

لم تمض عشرون يوماً منذ ارسلت تقريري الاول، حتى بدأ التيفوئيد، ينتشر بشدة بين افراد السرية الرابعة، ومن ثم انتشر الوباء بين افراد السرايا الأخرى. ولم تعد القاعة تتسع للمرضى المصابين واضطررنا إلى إعداد مستشفى ثان. وتوجهنا للسكان مرة أخرى للتبرع بالسجاجيد والاغطية ومختلف أنواع الفراش.. الخ. وارسلت أُناساً إلى خوي اقرّب المدن الفارسية للحدود لِشراء بعض الأدوية؛ وقمنا بعمليات تطهير واسعة لتنظيف وتنقية اجواء الغرف.

وتعود تلك الإجراءات إلى مبادرة الدكتور ارتوم، طبيب الحجر الصحي في قوتور، الذي تأثر كثيراً من احوال المرضى المزرية وتعاطف معهم، مؤمناً بأن واجبه يفرض عليه نجدتهم وتقديم العون لهم. ولكن ماذا يفعل الطبيب اذا ما افتقد وجود تلك الأدوية التي يجب ان يقدّمها لهم. وانا كنت غالباً ما ارافق طبيب المستشفى في زياراته، واشهد ان الصيدلي لم يستجب لخمسة او اربعة طلبات ولم يرسل الأدوية لانه لم يكن لديه شيئاً منها. وغادر المستشفى ودموعه تترقرق في عينيه بسبب ذلك البؤس وبسبب وزيره الذي لا نفع فيه. واعترف لي بأن عواطفه لاتسمح له بان تطأ قدّمه ارض ذلك المستشفى الذي لايقارن الا بمجزرة. وبهذا، فقدنا ايضاً تلك الراحة المعنوية التي يمكن للطبيب ان يمنحها لمرضاه.

ولايمكن التحدث بصراحة عن حالة المستشفى المؤسفة، وبؤس المرضى الاّ بعرض الصورة الواضحة الفاضحة والمؤسفة لغرف المستشفى المكتظة بالجثث. فقد بلغ عدد المرضى في مرحلة ما ثمانين جندياً، علماً بأن تعداد السرايا الاربع لايتعدى مائتين وسبعة وثمانين جندياً، لايكاد ينام نصفهم الا على الحصير. وعدد كبير منهم تنقصه الملابس الداخلية والقمصان وحيث يغطون عريهم بالمعاطف العسكرية. وتفتقد الغرف التهوية الكافية، وتُسمِّم اجواءها الغازات المنطلقة من المرضى. ان هذيان اولئك الذين يصارعون الموت، وبكاء المرضى وهذيانهم يَهُز اقسى القلوب الباردة.

ومن صفات ذلك الوباء الواضحة، ان الوفيات لم تصل في البداية الى اكثر من ثلاثة الى عشرين مريضاً خلال اسبوع واحد. ولكن في مرحلته الثانية من الانتشار وصلت نسبة الوفيات ثلاثة اضعاف

نفس العدد من المرضى. والسبب ان اكثر المرضى قد عانوا من الانتكاسة، وخرجوا من المستشفى وهم في دور النقاهة ليعودوا اليها مرضى بعد عدة ايام. وكانت تلك الانتكاسات دائماً قاتلة.

وانقضى عشرون يوماً منذ تقديم تقريري الاخير لعزمي باشا ولم اتلق رّداً، ولم يتم اتخاذ اي اجراء لنجدتنا ومساعدتنا في هذه المحنة. وحتى ذلك الحين، كانت الوفيات قد بلغت الثمانية. وفيما عدا اولئك الذين كانوا في دور النقاهة، بقى في المستشفى كذلك اكثر من ثلاثين مريضاً. وارتأيت آنذاك ضرورة تكرار محاولاتي أمام الباشا وارسلت له تقريراً آخر في الرابع والعشرين من ديسمبر[٨] يعرض له واقع حالنا وفي نفس الوقت، اقلقتني اوضاع الامور تلك، واعتقدت ان من واجبي تقديم تقرير آخر للقيادة العامة،[٩] لكي يتعرفوا على حجم مطالب وشكاوي جنودي واملاً في الحصول على مايعمل على تحسين احوالهم.

وفي سبيل البحث عن مساندة لمحاولاتي أمام عزمي باشا، والحصول على مصرف ماء، يساعدنا عند الحاجة في اقرّب وقت ممكن، قرّرت آنذاك إرسال طبيبنا الجراح، عثمان افندي، إلى وان. واعتقدت ان ذلك كان قراراً سليماً واجراءً جيداً، دفع طبيب الحجر الصحي للقيام بمسئوليات عمله حتى عودته من وان. وغادر عثمان افندي حاملاً رسائلي وقائمة مُفصّلة لجميع الاحتياجات الضرورية للمستشفى. وخابت مع ذلك آمالنا مرة اخرى؛ لأن الطبيب الذي ذهب إلى وان. عثمان افندي، قد طلب من المسؤولين السماح له باجازة خاصة للذهاب إلى موش. وبدلاً من التفكير و الإهتمام باحوال الجنود، وتقديم الطلب بإرسال النجدة لنا، انشغل باعماله وشؤونه الخاصة: وكان قد تم استدعاء شقيق الطبيب الاصغر، للخدمة العسكرية تلك السنة في أرضروم، مسقط رأسه. وكان ذلك الشقيق يساعده في تسيير شؤون أسرته ومراعاة مصالحه الأخرى. وحيث اراد ان ينقذه من الخدمة العسكرية بايجاد بديل له. ويكلف البحث عن الادلاء في وان غالباً حيث لايمكن ايجاد بديل يقل سعره عن سبعة او ثمانية الاف قرش بديل يقل سعره عن سبعة او ثمانية الاف قرش اي ما يساوي تقريباً ٢٠٠٠ فرنك. ولانه مبلغ كبير لم يكن عثمان افندي مستعداً لدفع مثل ذلك المبلغ رغم حبه لشقيقه. وقرر نتيجة لذلك ان الافضل ان يذهب لموش المدينة التي تقع على بعد اربعة واربعين فرسخاً من وان في الطريق إلى أرضروم، و كان يعتقد انه سيجد هناك البديل المناسب، من بين المهاجرين التتار والشراكسة، من الذين تدفعهم الفاقة لقبول نصف ذلك المبلغ المذكور اعلاه ليكون بديلاً لكل شخص في الخدمة العسكرية.

لذلك، ذهب إلى معية الباشا وسجد بين قدّميه وعرض عليه خطورة الموقف متوسلاً اليه ان يشفق على اسرته وعلى اولاده. ولم يستطع عزمي باشا ان يقاوم تلك التوسلات ومنحه الموافقة على

---

[٨] انظر اعلاه، في الفقرة الرابعة.

[٩] انظر الفقرة رقم ٦.

التمتع باجازة مفتوحة لكي يذهب ويطمئن على رعاية شؤونه الخاصة. وغادر الجراح في الحال ولم يعد الاّ بعد انقضاء شهر كامل، وحيث نسى تقريري وأوراقي الأخرى وترك بهذا المرضى يساعدون انفسهم بانفسهم. وهنا نرى، انه لكي يوفر الف قرش، او ثلاثة الاف قرش اهمل كل اعتبار اخر وتناسى تقدير الواجب والمشاعر الانسانية. وكيف ان الباشا نفسه، وبحركة طائشة لايمكن وصفها، لم يستطع ان يتحمل المسؤولية الخطيرة التي لايمكن ان تنتج الا عن تصرف كهذا التصرف السخيف.

ولكن ماذا كان سيقوله أقراني، اذا ما اعلنت ان تصرفاً كهذا عمل على حرماننا من كل عون ومساعدة، وان الباشا وفي هذه اللحظة بالذات سيقترف ذنباً اكثر قبحاً؟ هذا اذا لم يكونوا يعرفون بوجود رجل عمثاني مدَّع او اذا ما شككوا باقوالي، سيميلون آنذاك إلى اعتبار ذلك الرجل الذي لقبه بجنرال الفرقة، كما لو انه رجل معتوه، وهارّب من مستشفيات المجانين.

كان يوجد في وان آنذاك طبيبان، احدهما طبيب فيلق الخيالة في حامية وان، والثاني كان طبيب كتيبتي السنيور لاڤيني من جنوا وقد التحق بخدمة العثمانيين منذ حرب القِرم، انه رجل مخلص جداً في عمله ويمتلك خبرة عمل طويلة. وعند وصوله إلى وان، اختاره عزمي باشا، لكي يقدّم لابن اخيه فائق افندي، دروساً في علم النبات. وهكذا ظل الدكتور لاڤيني طوال الصيف مع ابن شقيق الباشا، وحيث كان يستغل اوقات فراغه في الابحاث العلمية. كان ناظم باشا، حاكماً لولاية هكاري ويقيم في باشقلا. وكانت زوجته تعاني كثيراً من مرض في القلب ولمدة طويلة. ورغم جميع انواع الرعاية والعلاج كانت حالتها تزداد سوءاً يوماً بعد يوم. وتوجه ناظم باشا إلى عزمي باشا متوسلاً اياه ان يرسل اليه وبسرعة الدكتور لاڤيني ليعالج زوجته. ومن ثم غادر الدكتور لاظيني بسرعة إلى باشقلا بأمر من حازم باشا بالبقاء اكبر وقت ممكن يرغب فيه الحاكم.

ويجدر بنا هنا ان نلاحظ باديء ذي بدء، ان عزمي باشا كان قبل إرسال الدكتور لاڤيني إلى باشقلا، يعرف بالوباء الذي يطيح بجنودي: اولاً، عندما ارسلت خمسة من مرضاي من قرية شيروانه إلى مستشفى وان، وتلك حالة لايمكن ان ينكرها الجنرال القائد. وثانياً، عن طريق التقرير الذي ارسله مصطفى بك في المدة التي وصل فيه إلى وان ليقوم بتفتيش على السرية الرابعة. واخيراً عن طريق اول رسالة اخبرته فيها عن تفشي الوباء بين جنودي.

ومن المستحيل بالطبع انكار مثل تلك الحقائق، فماذا تعني اذن تلك التصرفات؛ فاذا كان الطبيب يتسلم راتباً شهرياً مقداره ثلاثة الاف فرش ليعالج حصراً القوات العسكرية، فكيف بهم يفضلون إرساله إلى السيدة تاركاً وراءه جنوداً مرضى بعيدين، ممن كان يحب جلالة السلطان ان يسميهم بابنائه المفضلين البررة، والذين يموتون مُهملين ومحرومين من كل عناية؟

وبحرمان جنودي من الطبيب الذي كان يعالج زوجة الباشا، وبدون مساعدة جراح سافر إلى موش، وصلنا إلى ذروة معاناتنا وعذاباتنا أمام عدد مرضاى الكبير. وفي المدة التي تفصل مابين

إرسال طبيب إلى وان وانتظار مساعدة الجنرال، وهي مدة تصل إلى خمسة عشر يوماً، فقدت اكثر من ثمانية وعشرين جندياً بمعدل اثنين يومياً. وقد أذهلني وارعبني ذلك الدمار فقررت بسرعة إرسال احد ضباط الصف مع تقرير اخر في الثالث من يناير انظر اعلاه، لخَّصتُ فيه للباشا مُحتوى تقاريري السابقة وما آلت اليه احوالنا.

وعم الرعب كما يحدث ذلك بالطبع في مثل تلك الظروف. فقد انهار الضباط وغرقوا في اليأس ولم نستطع ان نجد رجالاً للحامية، او للقيام بالخدمات اليومية. ولفّ اليأس جنودي الضعفاء تماماً ووجدت نفسي مُجبراً من اجل الحفاظ على قواتي، على القيام بما يكفل تقوية معنويات رجالي، وذلك بمطالبة الفلاحين بتكفين ودفن جثث رفاقهم.

بنگەی زین

[١٠] انظر الفقرة رقم ٦.

الفصل التاسع

قرار عزمي باشا بالتصرف، الإجراءات التي اتخذها، يتحدث المشير مع عزمي باشا، عن التقرير الذي ارسلته، إرسال اللجنة إلى قوتور، مناورات اللجنة، العودة دون انجاز اي شيء

بعد ان اهمل عزمي باشا تماماً جميع مطالبي، عاد من عدم إهتمامه وقرر ان يُدلِّل على انه مازال حياً يُرزق. ولكن الموقف الذي وجد نفسه فيه لسوء حظه كان غامضاً ولا انفكاك منه، فقد اصبح من المستحيل تصحيح الاضرار التي تسبب في حدوثها. ولم يجد مخرجاً للتخلص من الادانة سوى الكذب وممارسة المكر والدهاء لابقاء تبعة اخطائه الخاصة على أكتاف الآخرين. ولان الجريمة تستدعى الجريمة، فقد ادت خيانته لمسؤوليته إلى ظهور سلسلة لاتنقطع من الاثام الكبار.

وتم إتخاذ قرار بإرسال احد مرافقي الباشا الذي تظاهر بانه يجهل تماماً اخبار الوباء الذي فتك بالعديد من جنودي؛ ومكتفيا هكذا بقيامه باجراء شكلي لاحد واجباته بإرسال المرافق للتفتيش على حامية قوتور. امَّا بخصوص تقاريري ومطالبي فقد تقرر انكار كل شيء وبشكل قاطع. واكتفى مسروراً باتخاذ ذلك القرار لمقدرته على القاء توابع الموقف هكذا وبكل بساطة عليّ، واصبح انا المسؤول، حيث انه ادعى انني لم اقمْ باخطار رؤسائي بتلك الاحداث الخطيرة.

وذات يوم بعد الظهر، جاءني كامل افندي، حاملاً رسالة في التاسع من يناير ١٨٦٣ انظر اعلاه. تقول الرسالة انه ارسل مرافقه لتفتيش الجنود تحت امرتي؛ متفادياً اية اشارة تذكر إلى الوباء والدمار الذي احدثه.

وبعد ان قرأت الرسالة، اسرعت بمرافقة الزائر إلى المستشفى لكي يرى بأم عينيه مالم استطع ان اصفه له. ورغم الدور الذي كان عليه ان يلعبه، لم يستطع المرافق كتمان انفعاله الشديد لدى رؤيته حالة المرضى المزرية تماماً. وبعد ان انهى عملية التفتيش على القوات، غادر كامل افندي، إلى وان حاملاً للباشا رسائلي الصادقة المرئية والتي املتها خطورة الظروف، إلى جانب وصف صحيح لاوضاعنا تماماً وذلك لتبرير الشكوك التي يمكن للباشا ان يغلف بها حقيقة وصدق تقاريري. وتوحي تلك اللامبالاة وعدم الاكتراث والكسل، وتأتي الجهود الاضافية المتأخرة والتي فقدت جدواها، انما توحي بالتخبط والمشاكل والمصاعب التي اوقعته فيها ادارته السيئة والتي يحاول جاهداً ودونما جدوى التخلص من متاعبها.

واخيراً، وفي الثاني والعشرين من يناير ارسل عزمي باشا عن طريق صيدلي الى كتيبتنا اثنى عشر سريراً وبعض الأدوية، ورسالة مؤرخة في الحادي والعشرين من يناير[11] حول تلك الإرسالية. وفي تلك الرسالة، اخبرني بانه بدأ يستمع اليّ، وانه، وفي تلك اللحظة بالذات كما ذكر في التقرير الشفاهي الذي اسمعني اياه مرافقه، قد عرف بما هو ضروري للمستشفى، ولذلك اسرع بإرسال الأسرة والأدوية، الخ. ونلاحظ هنا ان عزمي باشا باتخاذه ذلك الموقف الحازم لانكار كل شيء وباصراره قد حاول الايحاء في تلك الرسالة بانه لم يسمع ولم يعرف مطلقاً اخبار الوفيات بين الجنود، وانه ما كان يعرف ذلك مطلقاً، لولا ان اسعفه الحظ بإرسال مرافقه الذي قدّم له تقريراً وافياً ومفصلاً عن تلك الاوضاع وطلب مني في نفس الوقت، إرسال امر إلى الدكتور لاڤيني بضرورة الأسراع للعودة إلى قوتور في اقرّب وقت حيث لايمكن الاستغناء عن تواجده هناك.

ومنذ ذلك الوقت، لم يوفر الباشا طريقاً لتقديم المساعدة، وتوفير احتياجات الجنود. وعلى اي حال، ومخافة ان يوجد مايمكن ان يعيق الطبيب ويبقيه مضطراً بجانب زوجة الباشا، ومخافة الا يعود الطبيب بسرعة إلى قوتور، اتصل بي عزمي باشا بعد ثلاثة ايام يقول لي انه قد ارسل أمراً[12] للدكتور لاڤيني طالباً منه مغادرة باشقلا في الحال والذهاب الى مباشرة أمور مرضاه. ورغم تلك الاوامر الحاسمة، لم يظهر لاڤيني الا بعد عشرة أيام، اي بعد وفاة زوجة ناظم باشا. ورغم ان عودته جاءت متأخرة، الا انها كانت انذاراً ببداية اختفاء الوباء. وبفضل الإجراءات التي اتخذت، توقفت الوفيات بعد ايام، كما سارت اوضاع المرضى في طريق التحسن.

لقد بلغت خسائرنا اثناء فورة الوباء درجة خطيرة جداً حيث اغتال الموت اربعة وخمسين جندياً شاباً من اجمالي عدد يصل إلى مائتين وسبعة وثمانين جندياً. ذلك إلى جانب وفيّات مماثلة تصل إلى عشرين بالمائة وهو مالا يحدث الاّ في ظروف استثنائية.

وبينما كان عزمي باشا يبحث عن الوسائل التي تساعده على التخلص من تبعات التصرف المعيب الذي اقترفه، وكنا نحاول تجميع قوانا ونسيان مآسينا، وقع ما فاجأ الباشا وكان مصدر تعقيدات كبيرة. ولنتذكر بهذا الصدد ان النتائج المؤسفة لتصرفات ادارة عزمي باشا السيئة قد دفعتني الى لاعتقاد ان من واجبي إرسال تقرير بهذا الخصوص إلى القيادة العامة بأرضروم.

وقد ارتأى المشير بعد تسلم رسائلي ان من المناسب إرسال نسخةً من مطالبي وشكاواي إلى عزمي باشا، مُذيّلة ببعض الملاحظات. وقد حرص المشير على عدم ذكر ما يمكن ان يُدلل على انه قد تسلم ايّاً من رسائلي، والا يعرّب عن اسفه لما حدث لنا، وذلك عندما اكتفى بالاعراب عن رأيه

---

[11] انظر: الفقرة رقم ٩.

[12] انظر: الفقرة التاسعة.

لعزمي باشا وإثارته ضدي مع اتخاذه موقفاً حِيادِيّا حَذِراً. مكتفياً ببعض كلمات المتعاطف والتشجيع لنا. ويمكن تصور غضب عزمي باشا عندما علم بأنني قد تكلمت مع القيادة العامة.

ولانه يتحلى دوماً بالمكر، فقد التزم الصمت التام حول ذلك الموضوع، منكراً عدم علمه بأي من تصرفاتي. ويبدو انه كان ينتظر ان يرد لي ذلك بموقفٍ مُقابل حتى جاءه الوقت المناسب ليجد الوسيلة التي دفعتني للندم على خطوتي المُتهورة. ولحسن حظي كان لي بعض الاصدقاء المطلعين على تصرفات عزمي، وقالوا لي ان بريد أرضروم يحوي رسائل مهمة وان الثالوث المعروف عقد اجتماعاً سرياً مغلقاً. وكان ذلك الخبر يكفيني لاتخذ حَذَري. واستعد لمواجهة الاعداء الذين مالبثوا ان ظهروا.

وذات يوم، شاهدنا في الوادي عن بُعد تواجد حشد من الخيالة متوجهين نحو قوتور. واسرع احدهم متقدّماً القافلة ومتوجهاً نحو مقر اقامتي ليبلغني بان عزمي باشا قد ارسل لجنة خاصة مكونة من عدد من الضباط على رأسهم العقيد مصطفى بك تتوجه نحو قوتور، حيث سيقيم اعضاؤها في مقر اقامة المدير.

وقمت بما يحدث عادة في ظرف كهذا وذهبت للقاء اللجنة، ومن ثم ذهبت مع فيلق من الضباط في زيارة رسمية لها في نفس الليلة. وقدّم الي مصطفى باشا رسالة من الباشا يقول فيها انه ارسل لجنة لاتخاذ جميع الوسائل اللازمة في المجال الصحي للقضاء نهائياً على وباء التيفوئيد وللمساعدة على شفاء من هم في دور النقاهة. وفي نفس الليلة في واقع الأمر، عقدت جلسة مع ضباط الكتيبة في منزل المدير حيث تقيم اللجنة: وكانت تلك اللجنة تتكون إلى جانب مصطفى بك رئيساً لها؛ تتكون من عقيد وثلاثة من ضباط الخيالة والسيد كامل افندي مُمَثِلاً للباشا.

وتم عقد الجلسة في القاعة الكبرى، حيث يعقد احمد آغا اجتماعاته عادة، ويعرض احكامه وقراراته، ويستقبل ضيوفه. وعند وصولنا، استقبلنا احمد بك وحيّا الضباط بأدب رفيع. ومن ثم جلس القرفصاء من جديد ليدخن غليونه الطويل، مرسلاً نظرة ثاقبة على الحضور مَوَجّهاً كلمة لطيفة ترحب ببعض الاعضاء المفضلين. وانقضت عدة دقائق لنتمتع بشرّب فنجان من القهوة، وتأمل تفاطيع العقيد السامية وحركاته.

وبعد ان انتهى ذلك المشهد في صمت وتأمل، قام مصطفى بك ووجه حديثه الينا وهو يحاول اقناعنا بان الباشا قد تألم كثيراً وكان يشعر بالقلق والاضطراب أمام آلام اولاده الاعزاء. وفي محاولة اخرى للتأثير في مشاعر الحضور وحثهم على تقدير عظمة وقوة سيده عزمي باشا، والذي يعده سيده الاوحد. وانه ليس فقط رئيسه الجنرال، بل انه بالنسبة اليه رئيسه المارشال ووزير حربيته بل ورئيس وزرائه. وتوقف فجأة، ربما مخافة ان يستمر مندفعاً في استرساله ليقول ان عزمي هو سلطانه بل نبيه.

وبعد ان انتهى من تمجيد مثالهِ الاعلى وبالشكل الذي يريد قدر المستطاع، دخل اخيراً في صلب الموضوع. وقال، "مع ان القدر هو الذي يتحكم وحده في قصة الحياة والموت، الا انه توجد

مع ذلك مسببات وعوامل ثانوية تؤثر في وجودنا هنا على الارض." كما انه يرى ان رطوبة اجواء المعسكر من الاسباب الرئيسة للوفيات الحالية. ولان فخامة الباشا يهتم كثيراً بذلك الواقع، ومن اجل الحفاظ على حامية قوتور، فقد ارتأى من الآن فصاعداً إرسال وثيقة يوقعها جميع الضباط إلى القيادة العامة تؤكد على ان سبب الوفاة يعود إلى رطوبة اجواء المعسكر، ولذلك امر ببناء معسكر جديد لحامية قوتور. وكانت المذكرة المذكورة قد تم اعدادها مُسبقاً، وتتضمن تلك العبارات. وبعد ان ذكر مصطفى بك ان التخصيصات قد أعدَّت القى بها وسط القاعة؛ وقال اذا ما كان هناك ضباط لديهم ملاحظات حول ذلك الموضوع فهو حر في عرضها ومن ثم نبدأ التوقيع، وفقاً لاوامر الباشا الذي كان يصر كثيراً على ان يوقع جميع الضباط على تلك الوثيقة.

وتمكنا وبكل سهولة ان نستشف ذلك المكر والدهاء في تدبير مناورة كهذه. والحق يقال، ان الوباء كان في طريقه آنذاك للاندثار. فلماذا اذن إرسال لجنة كتلك وسط كل ذلك الصخب والضحية؟ لذا سوف اقدّم باختصار حلا لذلك اللغز: كُنتُ قد وجهت اتهاماً لعزمي باشا لكونه السبب الرئيسي لانتشار الوباء والوفيات بين جنودي في تقريري الذي ارسلته الى القيادة العامة. وهو في المقابل، كان يهدف بكل بساطة إلى محو آثار تقريري المذكور الموقع مني ومن جميع ضباطي. ثم يجلِبُ الانتباه إلى التقرير الذي اصر على توقيعه من جميع الضباط وحيث يصر على ان الوفيات كانت بسبب رطوبة اجواء المعسكر وليس بسبب اهمال وعدم الاهتمام وسوء تصرف ادارته. وبعد ان حقق ما اراد، توجه ضدي موجهاً الاتهام بانني واش وانه يؤكد على ذلك بابراز ذلك التناقض الواضح بين تقريري الاول وتلك الوثيقة الحالية التي ادَّعوا انني قد وقعتها.

ساد صمت عميق عقب تلك الخبطة الموجزة التي قدّمها العقيد. وتبادل الضباط النظرات دون ان يجرؤ احد ما على طلب الكلام. واضطررت آنذاك ان اخرق ذلك الصمت واتحدث عن الاوضاع. التقطت الوثيقة من على الارض والقيت نظرة على الوثيقة وتوقفت عند جملة تقول: تعد رطوبة اجواء المعسكر سبب انتشار الوباء وكثرة الوفيات. فاخذت قلماً وغيرت ترتيب الجملة باضافة كلمة. التي اصبحت تقول، ان الرطوبة واحدة من الاسباب وليس السبب الرئيسى. ومن ثم سلمت الوثيقة لمصطفى بك. وتفحّص مصطفى بك الوثيقة، ولاحظ تغيير الجملة حيث عدها هجوماً على مفتاح الموقف، وصعقته الدهشة. وعلى اي حال، فقد بدأ حديثه بقوله "ان ملاحظتي تؤدي إلى الاستنتاج بوجود اسباب اخرى إلى جانب الرطوبة،" وطلب مني شرحاً للاوضاع. وقد قدَّرت اللجنة صحة ذلك الأمر وادرجته في التقرير الذي سوف يُقدّم للقيادة العامة.

لم يعد أمامي ما يدفعني للتردد، وجاءت لحظة المواجهة المكشوفة مع الاعداء. وقفت، وبدأت حديثي بقولي: إنَّ ظهور وباء بين قواتي، حدث طبيعي وممكن الوقوع. ولكن عندما يقوم المسؤولون عن توفير الحياة الكريمة للجنود، بخيانة واجبهم واهمال جنودهم فتلك جريمة مثيرة

للغضب. وبالنسبة لي كوني قائداً لحامية قوتور، فقد قمت بواجبي على افضل وجه عندما ابلغت رؤسائي باوضاع الجنود. فاذا ما كان اولئك المسؤولون مشغولين بامور بعيدة تماماً عن حياة الجنود، ولم يبذلوا اي جهد في سبيل راحتهم، فليذهبوا للجحيم لانهم مسؤولون عن كل ماحدث. واذا كان اهمالهم قد تسبب في وفاة هؤلاء الضحايا فهم خونة لبلادهم. واذا ما كان تصرفهم نتيجة جهل بالامور، فمن واجبهم ترك مراكزهم لمن هم اكثر قدرة للحفاظ على مصالح الدولة. وبعد ان انهيت خطابي، توجهت لضباطي و منعتهم من التوقيع على اية وثائق من هذا النوع، لانها مجرد فخ يقدّمه اشرار جبناء متآمرون. ومن ثم غادرت الغرفة مع جميع ضباطي، تاركين اللجنة تتدارس نتائج ذلك الانقلاب في المواقف.

وكانت دهشة اللجنة كبيرة جداً في واقع الأمر، حيث افحمها ذلك التصرف الحدّي. وارتأت اللجنة انه لم يعد أمامها ما تفعله لإنجاز مهمتها وقررت العودة إلى وان لتوضح لعزمي باشا فشل مهمتها. وعلى ذلك انهم عزمي باشا، الغاضب تانيباً شديداً، وقال انه يخجل ان يرى رجالاً مهمين يمتلكون جميع الامكانيات ولم يستطيعوا الايقاع بذلك الرجل ووضعه على الطريق المرغوب وادرك بانه لم يعد أمامه مايقوم به الآن، وان افضل موقف هو انتظار فرصة ملائمة للانتقام من تلك الاهانة، واجباري آنذاك لسحب جميع التهم التي وجهتها اليه رسمياً وجميع تقاريري كذلك. ولم تتأخر تلك الفرصة من الظهور وسيستطيع عزمي باشا إستغلالها وان ينتقم بالطريقة التي يرغب فيها.

بنکەی ژین

الفصل العاشر

الأسرائيليون في باشقلا، تجارتهم، وصول التاجر اليهودي موشو إلى قوتور، علاقاته بالمدير، عودته الى بلاده، اغتياله في طريق العودة إلى الديار، تحقيقات الشرطة لم تصل إلى أية نتيجة، تدخلي، القيت القبض على القتلة، ادلة تشير إلى ان المدير هو من دبر عملية الاغتيال

كنتُ قد تحدثت في الفصل الثاني عن الأسرائيليين الذين يقيمون في باشقلا، عاصمة اقليم هكاري. وتعود اصول الجالية الأسرائيلية المقيمة هنا إلى سكان سلماس المدينة الفارسية التي احتضنتهم سنوات طوال. ويبلغ تعداد الجالية اليهودية هنا خمسة الاف إلى ستة الاف نسمة. اما اسرائيليو باشقلا، فهم فرع او بالاحرى مجموعة من هؤلاء، ساعدهم المفاوضون الأسرائيليون القادمون من بلاد فارس على الاقامة في باشقلا؛ من اجل تسهيل العمليات التجارية بين القبائل. وتقوم تلك التجارة على تبادل البضائع المُصنعة في بلاد فارس مع المواد الخام بين كُردستان؛ إلى جانب بعض الأعمال المصرفية الصغيرة. ويستورد اليهود في بعض أيام السنة، البضائع الفارسية من المحافظات الحدودية كما الاقمشة، والمفروشات الحمراء، والجزمات والاحذية الجلدية الحمراء ومناديل العنق والاصباغ والشاي والسكر. ويعد الأكراد تلك المواد بضائع تَرفيّه، يدفعون ثمنها بالبضائع الحية، بالصوف، بمختلف انواع الجلود، وبالزبد، وبالماشية وأحياناً يدفعون المال نقداً كذلك.

وفي نهايات آذار ١٨٦٣، ذهب احد هؤلاء المفاوضين ويدعى موسو موسى من مواطني باشقلا؛ ذهب إلى قوتور، المدينة التي كان يزورها سنوياً لانجاز معاملاته التجارية. وأثناء اقامته في المدينة، جاءني يطالب ببضع مئات من القروش ثمناً لمواد استهلاكية كان قد جَهَّز بها الكتيبة في سفرة سابقة، وقد جمع المفاوض مبالغ اخرى مختلفة مِن زبائنه واصبح لديه مبلغ اثنين وثلاثين الف قرش، اي مايساوي نحو ثلاثمائة جنيه استرليني.

وقبيل سفره، ذهب موشو ليقدّم تحياته للمدير ويودعه كما كانت عادته دائماً، حيث كان يهتم بتلك العلاقة، اولاً لانه كان احد زبائنه وثانياً لانه كان رئيساً للمقاطعة. واذا ما صدقنا كلام عائلة المفاوض، وارميني قوتور، علمنا ان موشو كان يخاف المغامرة، ويقطع ذلك الطريق حاملاً ذلك المبلغ الكبير. فأودعها احمد آغا مُقابل وصل المبلغ، وحيث التزم احمد آغا، باعادة المبلغ عندما يراه في باشقلا، حينما يقوم بزيارة باشا مقاطعة هكاري في عيد الاضحى؛ وهي زيارة يقوم بها سنوياً. وإستناداً إلى رواية اخرى، رفض المدير العرض، مُعْلِناً انه لايحب تحمل مسؤولية اموال الآخرين، ولكن ماهو مؤكد

في هاتين الرواتين هو ان احمد آغا، اصبح يعرف المبلغ الذي يمتلكه المفاوض، هذا إلى جانب انه كان يعرف يوم وساعة مغادرته.

وغادر موشو، قوتور، يرافقه ثلاثة من اليهود يعودون إلى سلماس، وتوجه الجميع نحو باشقلا، وفي اليوم الاول، لم تقطع القافلة الصغيرة الا مسافة ثلاثة فراسخ، وتوقفت لتقضي الليلة في قرية گيرليفيك Guierlevik، في اراضي مقاطعة قوتور [انظر الخارطة] وفارقه رفاقه في صبيحة اليوم التالي ليأخذوا الطريق إلى سلماس. في حين اختار موشو دليلاً كُردياً شاباً يرافقه، والتزم بتوصيله سليماً معافى. وواصلت القافلة الصغيرة سيرها حتى مفترق الطريق مابين سلماس وباشقلا. وهناك انقسم الركب، وذهب التجار الثلاثة إلى سلماس وواصل موشو ودليله الطريق إلى باشقلا[١٣] وواصلا السير معاً، حتى وصلا إلى قرية كيراتور Kiratour التي تبعد مسافة رّبع ساعة على الجانب الايسر من الطريق. وطلب موشو من دليله ان يواصل السير آنذاك بهدوء حتى يذهب إلى القرية لقضاء بعض الامور، ولم يتأخر بعد ذلك في اللحاق به، وفجأة، دّب الهلع إلى قلبه عندما رأى ثلاثة من ازلام المدير: حَسّو لو گيفنجي اوغلو Hasso Le Guievendji Oghlou واثنين آخرين. وحاول موشو ان يجد خلاصه في الركض بعيداً وهو يصيح بأعلى صوته متوجهاً نحو الغدير الذي كان قد وصله منذ دقائق وحيث توجد خلفه قرية كيراتور، ولكن مالبث ان امسك به الاشرار وقيدوه وقادوه إلى حيث يوجد حماره وامتعته و دليله.

وهنا ظهرت وبشكل خاص مهارة المدير؛ حيث كانت التعليمات ان يتم قتل اليهودي بعد ان يجتاز حدود قوتور، ويبعد مثل ذلك التصرف الشُبهات عن احمد آغا، وتتوجه الظنون والشكوك إلى سكان المقاطعة المجاورة. واختبأ القتلة في مكان آمن، والتزموا الحيطة حتى غروب الشمس. وعندما لف الظلام القرى، قتلوا الضحية حيث قادوه إلى مكان يسمّى شْكَفتي اغَلي Chikiefti Agheli وحيث كان ينتظر الضحية أرّبعة أشرار آخرون من ازلام احمد آغا. وهناك اغتالوا المفاوض اليهودي وقطعوا اوصاله ورموا باجزاء جسده بين الصخور. في حين قدّموا امواله وامتعته إلى المدير احمد آغا. وكان موشو شاباً في الثلاثين من عمره، جميل المظهر وبوفاته ترك وراء والداً كبير السن وزوجة وثلاثة اطفال يتامى؛ ليتجرعوا مرارة البؤس والفاقة.

وانقضت عدة أيام ولم يعد موشو إلى ذويه. وتوجهت عائلته ورفاقه إلى الباشا، حاكم هكاري، مطالبين اياه بالقيام بتحقيق حول اسباب تلك الغيبة. وارسل حازم باشا في الحال بعض رجال الشرطة وكل ذلك كان بلا جدوى. ووجد الباشا نفسه آنذاك مضطراً ان يُلقى القبض على

---

[١٣] راجع التحقيق في ملحق الكتاب.

رؤساء ورجال القبائل المجاورة للمكان الذي اختفى فيه التاجر. وتفرض القوانين السائدة مثل تلك الإجراءات، وهي تقضي بإدانة جميع سكان كل قرية تحدث على حدودها أية جريمة.

وخلال شهر، ذهبت هباءً جهود السلطات المدنية للتوصل إلى القتلة. ومع ذلك انتشرت الاشاعات السوداوية في قوتور مُتهمة المدير بالاشتراك في قتل اليهودي وأيد ضباط كتيبتي والجنود الذين يعرفون المنطقة جيداً، ذلك التوجه. وعندئذ، استقبلت ذات مساء، اثنين من اليهود الذين سجدا عند قدّمي متوسلين أياي ان امنحهم مساعدتي وحمايتي بصفتي ممثلاً للسلطان. وقالا إنهما جاءا إلى قوتور، بحثاً عن بعض آثار مقتل قريبهما التاجر موشو، وان القتلة يعرفون سبب وجودهما هنا، وان حياتهما في خطر لانهما متأكدان أنهما سوف يقتلان اذا ما تجرءا للعودة إلى ديارهما. بل اعلنا انهما متأكدان تماماً من مشاركة المدير احمد اغا في مقتل المفاوض، وإنما هو انه القاتل الحقيقي له. ولتأكيد تلك التهمة، قالا إنه في نفس اليوم كان المدير يتجول في السوق والتقى السفاح ورفاقه وقال لهم: الجميع يتهمكم بمقتل اليهودي، واجابه القتلة بقولهم: ليسعد الله ايامك، نحن لا نخاف شيئاً بفضلك.[١٤]

أكد اليهوديان انهما قد سمعا تلك الكلمات بأنفسهما في احد المحال، حيث كانوا يختبئون. واضافا ان القتلة، قد عادوا إلى المدينة ومعهم النقود، وذهبوا للسوق للتسوق وليقضوا الليلة بالمدينة. ولم تترك جميع تلك المعلومات ادنى شك حول وجهة النظر الحقيقية التي يجب الانطلاق منها لمواجهة تلك القضية. وقَدَّرْتُ في الحال اهميتها؛ فصوت الانسانية الجريح، وعذابات العديدين من الأبرياء الذين يتألمون داخل السجون بل وشرف سيّد البلاد، دفعني لاختيار الطريق الذي سوف اسلكه في ظرف كهذا. وفي الحال قررت اعلان حصار للمدينة بالشكل الذي يمنع دخول كل شخص وخروجه، ولكي اضع المدير واتباعه في موقف يستحيل فيه قيامهم بأية مقاومة وضعت حامية مدفعية في قلب المدينة، في الوقت الذي ارسلت فيه دوريةً لالقاء القبض على القتلة.

وفي الوقت الذي اتخذت فيه تلك الإجراءات، ارسلت دوريتين إلى القرى التي يقيم فيها شركاء القتلة مع امر بالقبض عليهم واجراء التحقيقات اللازمة. وبفضل تلك الإجراءات، اعتقلت الدوريتان اربعة مجرمين آخرين واصطحبوهم صبيحة اليوم التالي. وهكذا وفي بضع ساعات فقط القيت القبض على سبعة مجرمين واعتقلتهم في سجن القلعة.

وفي نفس اليوم كُوِّنت لجنة تحقيق عسكرية تتكون من ضابطين وملازم اول، واثنين من ضباط الصف وبدأت التحقيقات تحت أمرتي[١٥] مع المجرمين. في بدأية الأمر، ابدى القتلة بعض العناد،

---

[١٤] راجع التحقيقات في ملحق الكتاب.

[١٥] انظر: الملحق التحقيق وترجمة جداول الأعمال.

وانكروا نهائياً أية علاقة لهم بالقتل. ولكن فيما بعد، وبعدّ ان تبادلوا فيما بينهم القيام بتلك الجريمة، انتهوا بالاعتراف بانهم قتلة التاجر اليهودي. بل واعلنوا ان المدير احمد اغا قد اعطى الاوامر بالقتل، وبعد انجاز الجريمة قدّموا الأموال وامتعة المفاوض اليهودي للمدير. وكان المدير قد طالب بالاجتماع معهم في بيته وطلب منهم ان يُقسموا على القرآن بعدم ذكر اسمه كمشارك في الجريمة. بل انه وعدهم بمساندتهم، وفرص حمايته عليهم ضد اي شيء او اي احد كان.

ويمكن لاي كان ان يتصور مدى القلق الذي تملكه بعد اعتقال شركائه واعلان خيانته لمسؤولياته، وهذا ما وضعه في موقف مُقلق وحرج تماماً. وكان كل شيء فيه يشى بجريمته: وضعه العام، ونظراته القلقة، ووجهه المتجهم ومشيته المتأرجحة. ولم يجرؤ على مواجهتي او الوجود حيث اكون. بل حاول وبشكل غير مباشر تغيير مسار العدالة او جعلي اميلُ لصالحه. ولكنه راي ان كل ذلك بلا فائدة، وحاول بعد ذلك ان يورطني بالفساد. فحاول ان يفتح لي طرْقاً، وارسل لي احد الأرمن ويُدعى اڤيدس Avediss وعرض عليَّ مبلغاً مقداره مائة وخمسين جنهاً تُركياً شريطة الا ارسل للسلطات المحلية التقرير الذي اقرته لجنة التحقيقات. وقد ساعدته محاولات مماثلة فيما بعد على انقاذه من سلطة مجلس وان، ولكن تلك المحاولات لم تستطع إنقاذه في وقتنا هذا من نتائج وتبعات جرائمه الخطيرة.

الفصل الحادي عشر

إرسال القتلة إلى باشقلا، استدعاء المدير للمثول أمام محكمة المقاطعة، باشا يطالب بضرورة محاكمة المجرمين، إرسالهم إلى وان، اعلان براءة المدير، عودة المدير إلى قوتور، هرب القتلة من السجون، قصص اخرى تؤكد على إجرام المدير

عندما علم، باشا هكاري، ان الجيش قد القى القبض على القتلة، وهو عملية لم تستطع الشرطة ان تقوم بها خلال شهر كامل، احس ببعض القصور وأقرَّ بان تدخل الجيش يعدُّ خرقاً لامتيازاته. وفي واقع الأمر، ارسل لي[١٦] رسالة مؤرخة في الحادي عشر من آذار، يشكو فيها من قيام السلطة العسكرية باعتقال القتلة. وطلب مني إرسالهم اليه في اقرّب وقت ممكن، وباغلاق ملف التحقيق، لم يعد أمامي الا ان اقوم بما يريد الحاكم وسارعت حينذاك بإرسال المتهمين إلى باشقلا. وفي نفس الوقت ارسلت نسخة من التحقيق والتقرير الموقع من جميع اعضاء اللجنة. وارسلت نسخة ثانية مماثلة إلى حاكم وان الذي هو في نفس الوقت حاكم مقاطعة هكاري، ونسخة ثالثة مماثلة إلى عزمي باشا، رئيسي المباشر.

وعند وصولهم إلى باشقلا، اعاد القتلة أمام ناظم باشا ومجلسه نفس الشهادة، التي ادلوا بها أمام اللجنة العسكرية. وقد رأى الباشا ان الجميع دون اي استثناء قد إعترفوا على المدير احمد اغا شريكاً لهم، فاعتقد ان من واجبه استدعاء المدير للمثول أمام المحكمة. وفي رسالة مؤرخة في السادس عشر من آذار[١٧] طلب مني ناظم باشا ضرورة سفر المدير إلى باشقلا، وكذلك اعضاء مجلسه والخدم الذين طلب منهم تسليم رُفات اليهودي. وقد تم تحقيق ذلك الأمر كذلك.

وعند وصولهم باشقلا، تم القاء القبض على المدير واعتقال خدمه. لقد كان تصرف ناظم باشا في تلك القضية يتطلب منا الوان المديح والتقدير. وثبت ان ذلك الباشا يحترم العدالة ويُقدر سعادة السكان الذين يعيشون داخل اراضيه. وارسل في رسالة سريعة،[١٨] يشكرني فيها للموقف الذي اتخذته في تلك القضية، ومعبراً عن رضاه التام لكل الإجراءات التي اتخذتها بخصوص تلك القضية.

---

[١٦] راجع: الوثيقة رقم ١١.

[١٧] انظر: الوثيقة رقم ١٢.

[١٨] انظر الوثيقة رقم ١٣.

واعتقدت انه من المفيد ان ارفق بالوثائق الحقيقية الموجودة في ملحق الكتاب، الرسالة[١٩] التي ارسلها ناظم باشا والتي يكشف محتواها اهمية تلك الحقائق التي ادلى بها القتلة أمام محكمة باشقلا، وسوف يهتم قرائي بمثل تلك المعلومات، مِمَّن يودون معرفة تفاصيل الدراسة التحليلية لمختلف الظروف المحيطة بالجريمة.

وكان كل شيء يسير على مايرام الى حد الآن، فاذا ماتركوا القضية تأخذ مجراها أمام حكم سلطات كفوءة، اي أمام مجلس باشقلا. وقد قرر المجلس رعاية اولاده اليتامى، وضرورة معاقبة القتلة العقاب الذي يستحقونه. ولكن مع الاسف، ذهبت جهود العدالة ادراج الرياح أمام الجهود التي بذلها عزمي باشا، إلى جانب فساد مجلس وان. فقد ارتأى عزمي باشا ضرورة مساعدة المدير احمد آغا ومحاولة تبرئته لانه اذا ظهر ان ذلك الرجل الذي يحميه ويُكرِمه رجلاً افاقاً ومجرماً، فسوف يبدو سعادته متورطاً وسمعته تكون عُرضة لكل اسباب التعريض بها. لقد استخدم كل نفوذه في واقع الأمر لدى حاكم ومجلس وان، واستطاع التوصل إلى اصدار قرار بعرض القضية أمام محكمة وان. ووجد حاكم باشقلا نفسه مُجبراً على الاستجابة لرئيسه وارسل المتهمين إلى وان حيث سيتم فصلٌ من اغرّب الفصول في تأريخ القضاء الحديث.

ومنذ وصول المدير إلى وان، وبدلاً من القائه في السجن، تم إسكانه في سكنٍ لائق جداً لدى اكثر الاعضاء ثراءً واكثرهم فساداً في المجلس، وحيث يلقى الرعاية والإهتمام التامين وتم احضاره مرتين او ثلاث أمام المحكمة، حيث تعرض لاستجواب شكلي وتحقيق ظاهري اعلنت المحكمة المتفانية! جداً انه بإعتبار الشهادات التي ادلى بها المتهمون قُطّاع الطرق والقتلة، لاتتمتع بنفس قيمة شهادات الناس الشرفاء، فهي لاتكفي لتجريم او ادانة المدير احمد آغا. وتتساءل في اي قانون قديم او حديث، مدني او ديني، استطاع المجلس العظيم ان يستقي محوراً قانونياً قضائياً كهذا؟ فالتنظيمات كانت آنذاك القانون الاساسي الذي يُطبق بكل امانة في جميع محاكم الامبراطورية!

وبعد ان تم اخلاء سبيله بعد النطق بذلك الحكم، اظهر لنا سلوك المتهمين صورة التناقضات القائمة المستديمة. وقد تَصَّور مجلس وان بعد اقرار براءة المدير، بانه ليس مُجبراً على اعادة احمد آغا إلى وظيفته قبل ان يحصل على كفالة مسؤولة. وذلك شذوذ غريب! فهناك شخص ما، تم اعتباره قادراً على حكم الولاية، يجب ان يُقدّم للسلطات ضمانة مسؤولة! وها هو احمد آغا، وقد اخلى سبيله، ولم يُعاقب اي من شركائه. فقد بقوا في السجن مع امكانية فرارهم متى شاؤوا. وبعد انقضاء ثلاثة اشهر لم يبق واحد منهم خلف القضبان.

---

[١٩] انظر: الوثيقة ١٤.

وعندما كان المدير، باقياً في وان، بسبب قضيته، حدث في قوتور مايمكن ان يثير وهم القارئ، بعرض واضح لاوضاع تلك البلاد. فالبلطجة واضحة في جميع مفاصِل النظام ويعمل الجميع بشكل مكشوف وذلك بفضل الرحمة المُدانة، وتواطؤ السلطات.

لاتعرف تلك الشعوب كلمة العدالة وتجهل معناها، فلا غرو اذن ان تكون تلك الإجراءات القوية التي قمت باتخاذها ضد القتلة قد اطلقت لي شهرة انتشرت حتى في المقاطعات المجاورة في فارس وفي كردستان. اما الفرس الذين يستخدمون لغة فخمة ثرية، قد الصقوا بي لقب الاسد شيَر في حين الصق بي الأكراد لقب كوردقران اي مُدمر الأكراد. وذات يوم، بينما كنت انتزه على طول شاطئ قوتور، اقترّب مني ثلاثة من بلاد فارس وفي خجل شديد القوا انفسهم عند اقدامي. وسألتهم، ما هو الدافع الذي جاء بهم نحوي؟ أجابوني بوجود اسد في قوتور، ولما تم الاعتداء عليهم وسلب اموالهم وامتعتهم منذ ثلاثة شهور في الجوار من تلك البلدة. جاءوا اليّ ليتمرغوا في التراب أمامي لاحصل لهم على العدالة والرضا.

وسألتهم ما اذا كانت لديهم ادلة او اشارات للتعرف على المعتدين واستعادة املاكهم. اجابوني بان ادلتهم ايجابية جداً وانه يكفيهم ان يرسل معهم واحد من شرطتي. استجبت لطلبهم وارسلت معهم شرطيين لمطاردة اللصوص. وفي صبيحة اليوم التالي، عاد الجميع ومعهم حصانان من خيولهم المسروقة. وصعقت عندما عرفت ان خيولهم كانت بين قطعان الملا حاجي، وهو رجل كبير السن واسمه وحده يمنع اية شبهة ويستحق كل ثقة!

ووصلتني معلومات حول تلك الحادثة، وعلمت مع دهشتي الكبيرة ان من يسمى الملا حاجي كان ببساطة عم موخو احد قتلة التاجر اليهودي، واحد قطاع الطرق الذين يثيرون الرعب في جميع انحاء البلاد. وبفضل ذلك العم، تم تأمين ملجأ للقتلة وصندوق توفير لتأمين مجتمع قطاع الطرق هؤلاء، الذين يضعون لديه ويُخفون ما يجنونه من غاراتهم. فقد كان الملا حاجي وولداه ومُوخو قطاع طرق، ومما لاشك فيه فهم من ازلام المدير احمد آغا، الذي آواهم ونشر عليهم حمايته في مقاطعته. وبعد ان تأكدت تماماً من ذلك الأمر، استدعيت المجلس الاداري للاجتماع واخبرتهم بالموضوع. وطلبت منهم في نفس الوقت، ان يقدّموا تقريراً يؤكد ان هؤلاء متورطون في مقتل التاجر اليهودي موشو، وكذلك في الهجوم قبل سنتين على قافلة فارسية، نهبوا اموالها ومقتنياتها وأساؤوا معاملة افرادها، بل انهم قاموا مؤخراً بالاعتداء على المواطنين الفرس شيمو و محمد علي، وابراهيم؛ وسلبوا اموالهم و مقتنياتهم منذ اربعة اشهر. وقد تم اعداد ذلك التقرير[٢٠] ووقعه جميع افراد المجلس. ومما يزيد من اهمية ذلك التقرير ان المدعو هيرد آغا عم المدير قد وقعه. وعندما اصبح بين يديّ تقرير كهذا، ارسلت في الحال كتيبة من

---

[٢٠] راجع: التحقيق مع موشي في محضر المحاكمة.

[٢١] انظر: التقرير رقم ١٥.

اربعين رجلاً وستين مدفعياً ليقوموا بالهجوم المفاجئ على القرية واحضار جميع سكانها مع القطعان والامتعة إلى قوتور.

ولدى عودة الكتيبة، تم القاء القبض على الملا حاجي وابنائه. وفي نفس اليوم تم فصل املاكهم وامتعتهم عن القطعان والممتلكات العائدة للقرويين الآخرين، وتم عرضها للبيع في مزاد علني في حضور المجالس المدنية والعسكرية. ومخافة اثارة عمليات انتقامية من قبل المدير و ازلامه بمنع المشترين من الظهور، كان من المستحيل على جمع اكثر من ثلاثين جنيهاً استرلينياً قدّمتها للمواطنين الفرس على شكل تعويض. وعاد اولئك المساكين إلى بلادهم وهم يحملون انطباعات جيدة حول اقرار عملية العدالة لدى الروم العثمانيين.

الفصل الثاني عشر

عقبات تعرقل عودة المدير إلى قوتور، عزمي باشا يتخطاها ويتغلب عليها، المدير يعود إلى قوتور، رحيلي، ذهابي إلى وان، استقبال عزمي لي، المدير يكيل لي الاتهامات، عزمي يرفع القناع اخيرا، لقاؤنا، عزلي من جميع اختصاصاتي

بعد الاعتراف ببراءة المدير احمد آغا، بكل ما تعنيه الكلمة، وَعَدُّهُ انساناً شريفاً كان من المنطق ان يعود لوظيفته حاكماً للمقاطعة وبشكل مشرف اكثر مما كان عليه سابقوه. ومع ذلك فقد واجه صعوبة كبيرة للقيام بذلك الاجراء، اذ اصبح من الصعب اعادة المدير إلى عمله بعد ان بَرْهنتُ وضباطي جميعاً، وأعلنا انَّ المدير سفاح ورئيس عصابة من قطاع الطرق. ولم يتأخر المكر السيء لعزمي باشا من الظهور محاولاً ايجاد وسيلة ملائمة لتخطي مثل تلك العوائق مُبتكراً خطة مزدوجة لانقاذ رجله والانتقام ممن تجرأ على اتهامه بانه المسؤول عن وفيات جنوده. وفَكَّر في اللجوء إلى واحدة من تلك الوسائل الميكيافيلية التي يستخدمها اناس بلا مباديء وبلا ضمير من اجل انجاح خططهم، فقد قرر عزمي باشا تدميري ومهنتي مهما كان الثمن. واستدعى المدير احمد اغا وابلغه بالخطة كالاتي:

ان الخوف الذي تملك القائد عثمان بك عملَ على كشف جرائمك وبرهن انك من قتل التاجر موشو، وتدخلي القوي فقط هو من انقذك من السجن والاعدام. وذلك الشخص نفسه كانت لديه الشجاعة والجرأة ليذكر أمام القيادة العامة، بانني كنت السبب في وفاة اربعة وخمسين جندياً لاقوا حتفهم هذا الشتاء في قوتور، ضحايا البؤس والاهمال الذي تعيشه القوات وكلانا، كنا حاميين ومحميّين فأنت متهم بقتل اليهودي ويجب علينا ان نخرج ذلك العدد الكبير من الجنود. ويجب علينا ان نخرج من ذلك المأزق، باي ثمن كان، والانتقام لمصالحنا وشرفنا وكما انقذتك يجب ان تساعدني في تحقيق خططي، وارسلت ضابطاً اثق فيه ليتسلم القيادة في قوتور، بدلاً من عثمان بك الذي تم استدعاؤه إلى وان. وعند وصولك إلى قوتور ستجد من يقدّم لك المساعدة التامة من قبل القائد الجديد. وسترسل لي باقرّب فرصة، طلبات موقعة من قبلك ومن المجلس يتهمون عثمان بك بكل التهم المتاحة. وعندما تصلني تلك التقارير، سوف اريه كم كان مجنوناً لمحاولته اختراق قوتنا وهو يدافع عن يهودي بائس وعن بعض الجنود.

واستناداً إلى تلك الخطة، ولثلاثة ايام قبل مغادرة المدير مدينة وان، وصل فجأة إلى قوتور احد قادة الكتيبة يرافقه مرافق عزمي باشا، وقدّما لي رسالة[٢٢] يُعلمني فيها الباشا انه كان قد قام في فرصة سابقة بخطوات رسمية لمنحي اجازة اقضيها في أرضروم. ولكن سيادته واثق تمام الثقة ان موافقة كهذه لن تتأخر كثيراً لكي استطيع الذهاب إلى أرضروم ومواجهة القيادة العامة. ولذلك يطلب مني الأسراع في الوصول إلى وان لتنظيم اموري والاستعداد للرحلة. وطلب مني في نفس اليوم تسليم القيادة مؤقتاً للضابط الذي ارسله إلى قوتور ليحل مكاني.

ويشير اسلوب الرسالة تماماً على اضطراب كاتبها، فهي المتاهة والغموض والتعقيد. وتحمل تلك الاسباب والاستنتاجات الدهاء والمكر. وبالتأمل في تلك الوثائق، يملؤنا الاسف على امبراطورية نرى كبار موظفيها مشغولين بالتلاعب وحياكة الدسائس والمؤامرات بدلاً من تحفيز الشبيبة وتشجيعها، هؤلاء الذي نقوم باعدادها لخدمة السلطان، وبدلاً من اظهار الحب الابوي لمن هم امل ودعامة الوطن المشترك ولكننا نرى آخر خلف لجيل فاسد يعملون على دمار بلادهم إلى آخر مدى.

ولانه تم تعييني رئيساً للكتيبة بفرمان امبراطوري، ولذلك لايستطيع عزمي باشا ان يعزلني الا بالقيام باجراءات طويلة رسمية يتطلبها نظام الجيوش. لقد كانوا يعرفون جيداً حب واحترام الجنود والشعب لشخصي. ولم يجد الباشا أمامه من وسيلة، الا بابعادي عن قوتور اولاً، ثم البحث عن تهم متنوعة يلصقونها بي لاتخاذها حجة لمثولي أمام محكمة تتبع عدالته الخاصة. اذ ذاك ادركت خطورة موقفي وخطورة القرار الذي سوف اتخذه، وقررت السفر على اية حال. لقد اتعبتني حياة اقضيها بين حثالة الجنس البشري. وأمام استحالة نجاح محاولاتي لتحسين حياة السكان المساكين او مصائر رفاق في السلاح في تلك النواحي، وانتهزت الفرصة لاذهب إلى وان او في الاقل امكانية ان اكون على مسيرة يومين فقط من المقر العام ومن القسطنطينية.

وتركت قوتور في الثامن من ابريل ١٨٦٣ في نفس الوقت الذي دخل فيه المدير احمد اغا، منتصراً من الجهة الأخرى للبلدة. وتبقى ذكرى وداعنا مع جنودي ورفاقي حية دائمة لن تمحي من قلبي او ذاكرتي، وستظل نظراتهم الحزينة المحبطة ورضوخهم للامر الواقع ستظل صورة حية أمامي.

وفي الحادي عشر من الشهر، وصلت إلى وان، وذهبت مباشرة في الحال للقاء عزمي باشا الذي تظاهر باستقبالي استقبالاً ودياً حافلاً، وطالباً مني البقاء لديه حيث بذلك ما امكنه ليوفر لي الراحة حتى انه قدّم لي غرفته الخاصة لاقيم فيها.

أخاف اليونانيين حتى عندما يقدّمون القرابين للآلهة. لمعت في ذهني فجأة تلك الابيات الشعرية الخالدة للشاعر اللاتيني في نفس اللحظة. وادركت كم يجب عليَّ ان اتفادى الثعبان، الذي يريد ان

---

[٢٢] راجع: التقرير رقم ١٦.

يلدغني وينفث سمومه فينا، حتى لو تظاهر بالمداعبة في البداية وشكرت الباشا على اهتمامه، وانا ابتعد عن شباكه. ووجدت منزلاً بالقرّب من قلعة وان. لاقيم فيه، حيث استطيع ان انعم بالهدوء حتى يساعدني في ترتيب اوضاعي بشكل افضل وفي طرف كهذا، وان احتفظ بحرية بحركتي وتصرفاتي.

وبعد ستة أيام من وصولي إلى وان، ووفقاً للخطة المرسومة، ارسل لي المدير عزمي باشا وثيقة تحمل توقيعه وتواقيع جميع اعضاء المجلس، ويشكو في تلك الرسالة من تصرفاتي بخصوص قضية المفاوض اليهودي موشو، ويتهمني ورجالي بانني سرقت خيولاً واستملكناها، وكذلك رماحاً وجواهر وممتلكات اخرى اثناء التحقيقات التي دارت في المنازل بأمري. وظن عزمي باشا اخيراً، انه قد اقتنص اللحظة المناسبة بهذا التقرير، لينتزع القناع ويهاجمني علناً. استدعاني وقال: ايها القائد، وصلتني من قوتور تهم خطيرة تدينك بخصوص تصرفاتك اثناء قيادتك حامية المدينة. ثم تابع حديثه متنقلاً من لهجة مرنة والتهذيب إلى الشدة والقسوة المصحوبة بالتهكم مستطرداً، ثق مع ذلك، انني سوف ابذل جهدي للحفاظ على شرفك في هذه القضية قدر استطاعتي. وعند نطقه تلك الكلمات لم استطع ان اخفي اشمئزازي وقلت له: ايها الجنرال، فيما يخص شرفي، ارجوك وفِر ذلك الجهد، لانني لست من بين اولئك الضباط الذين طردوا من الخدمة بسبب السرقة. [وهي اشارة إلى من سبق الباشا في وظيفته]. غضب عزمي وقال: ايها السيد، انت متهم، وتقع عليك مسؤولية خطيرة، وانا اعفيك من جميع وظائفك.

ساد الصمت بعد ذلك التصريح. وبعد تحدٍ لم يبق أمامي الاّ ان جميع الوسائل الضرورية اللازمة حتى لا اقع صريع ذلك الصراع. وسيكون من المفيد هنا ان اتحدث عن تلك الغرابة في ان يقوم المدير احمد آغا، السفاح القاتل الذي حُوكم أمام محكمة عسكرية، ومن ثم أمام محكمة مدنية، ان يقوم مستنداً إلى سلطته وإلى تأثير رسالة واحدة وقعها، بتوجيه الاتهام إلى ضابط اعلى منه مرتبة باقتراف الذنب واستبعاده من جميع وظائفه. ومثل حدوث ذلك بخمسة عشر يوماً، تمت تبرئة ذلك من اناس غير كفوئين فشهاداتهم لاتكفي للادانة. اننا نخجل من الحديث عن اقتراف تلك السيئات من قبل اناس يدوسون بالاقدام على كل ماهو مقدس ومحترم تماماً في القوانين التي تحكم المجتمع.

الفصل الثالث عشر

اضطهادي على أيدي عزمي باشا، محاولة انشاء لجنة تحقيقية ضدي، قمت بخطوات أمام القيادة العامة، السفر إلى أرضروم، مطاردتي، عبرت الفرات سباحة، الوصول إلى أرضروم، مثولي أمام المشير

منذ ذلك الوقت وعمليات الاضطهاد كانت تطاردني دائماً. وقد دشن عزمي باشا عَهداً من الازعاج، عندما سحب وصيفي الجندي. وبعد عدة ايام تم القاء القبض على خادمي على يد جنود الباشا واودعوه السجن. ووجد فيضي باشا حاكم وان في هذا التصرف خرقاً للحق المدني واعترض على عدم شرعية تصرف كهذا، وامر بالافراج عن خادمي. وحاول عزمي باشا ان يحصل على بضعة أيام اخرى عن طريق التفاوض.

وأثناء ذلك، تم تعذيب خادمي حيث كانوا يأملون انتزاع بعض الاعترافات عسى ان ينفعهم دليلاً لادانتي ولكن جميع تلك الجهود ذهبت هباءً. فلم يكن لديه مايكشفه لهم، وقاوم جميع اشكال التعذيب التي تعرض لها على ايديهم. وعرفت في نفس الوقت ان الباشا كان قد طلب من المشير قائد الفرقة الرابعة، بعض السلطات لتكوين لجنة تحقيق بخصوص قضيتي، وسوف تعرض نتائج تحقيقاتها للقيادة العامة ومن اجل موافقته وتصديقه عليها.

ولم يكن يوجد أمام عزمي باشا افضل من تلك الخطة ليديرها. وكان محاطاً بقيادة اركان تتكون من العقيد صالح بك، فاسق قديم، كان قد حوّل لحسابه مبلغ الف وخمسمائة جنيه استرليني من صندوق الفرقة، ومن المقدّم حسين بك الذي استولى بدوره على ثمانمائة جنيه من الصندوق، واخيراً العقيد مصطفى بك الذي كان كاتم سِرّه وصديقه المباشر، يساعده قائد عام يشبهه تماماً، وهكذا يستطيع الباشا ان يفعل بي مايشاء.

وفي واقع الأمر، كانوا يعتقدون ان الوثيقة الموقعة من ازلامه يستطيعون بواسطتها تقديم البراهين على جميع انواع التهم الموجهة ضدي، وكان الباشا يتوقع ان يضعني بذلك في اكثر المواقع حرجاً. وخيّروني بين أمرين، اما ان اوقع على وثيقة اتبرأ فيها من جميع تقاريري السابقة التي كنت قد اتهمت فيها الباشا بانه السبب في وفاة جنودي، او يرسلون للمشير جميع التقارير الموجهة ضدي في حالة الرفض. ووجود وثائق كهذه مُصدَّقة من الباشا وموقعة من بعض الضباط، لها وقعٌ كبير ويمكن للقيادة العامة ان تعدها وثائق لا غبار عليها.

وأمام امر كهذا، اصبح بقائي في وان سبباً لتعرضي لدهاء المدير وما يمكن ان يحيكه ضدي. لم اتردد في البحث لي عن ملجأ. في أرضروم مهما كان الثمن. فقررت اللجوء إلى اتخاذ اقصى اجراء ولكن في خطوة احترازية، اعتقدت انه يجب علي في باديء الأمر، إرسال رسالة[٢٣] للمشير القائد العام، طالباً منه السماح بالذهاب إلى أرضروم حيث جرت اتصالات على اعلى مستوى تتطلب تواجدي هناك بأسرع وقت. وكان يمكن لتلك الرسالة ان تقرر واحدة من نظريتين، اما ان يستجيب المشير في الحال بالموافقة او بالرفض؛ وحيث تساعدني الاجابة على الرسالة في الاعتراض على ان يكون حكمي هو عدوي الشخصي، أو ان يتعامل المشير مع الأمر بكل حرية. وبتأخر الاجابة، ينبغي حينذاك أن اتقدّم للمثول أمام القيادة العامة. وقرار كهذا، انما يبرره اهمال المشير للاستماع إلى شكاوي مرؤوسيه.

ولكي ندرك جيداً صحة وقوة ذلك المنطق الاخير، تجب هنا ملاحظة انني كنت قد ارسلت منذ اربعة أشهر واحدة من رسائلي مؤرخة في السابع والعشرين من ديسمبر، و ٩ يناير [انظر اعلاه] ورسالة اخرى في الثالث والعشرين من فبراير و ٧ مارس [انظر اعلاه] ولم تتم الاجابة على أي منها. وندرك آنذاك انه لن يجيب الا اذا ما اراد ان يقوم بذلك. وهكذا يحرم الباشوات انفسهم من حق منع الآخرين من التدخل كما يحلو لهم في شؤونهم الخاصة.

ولم تخطىء حساباتي لان رسالتي المؤرخة في ١٦ ابريل إلى المشير لم تتلق اي رد حتى العاشر من مايو يوم رحيلي إلى أرضروم: هدف رحلتي. وقبيل سفري، ولاكمال الشكليات، ذهبت لمقابلة عزمي باشا، لاعرض عليه انه مادام لم يعد لدي اي عمل في وان، ولانني لست مجرد عابر بالمدينة، اود ان احظى بالموافقة على السماح لي بالذهاب إلى أرضروم. ولكن الباشا رفض ذلك تماماً ولم يسمح لي بحجة انه لم يتلق من القيادة العامة الموافقة على هذا الأمر. وكنت اعرف جيداً طبيعة الموافقة التي كان الباشا الماكر ينتظرها بفارغ صبر. ورأيت من جانبي استخدام المكر بدوري. وتظاهرت باللامبالاة و انا انسحب وارتضيت بقدري، وكنت قد قررت تكثيف اجراءات الرحلة لدرجة انني كنت قد اكملت كل شيء، وانتظرت حلول الظلام لانطلق في سبيلي. بعد ساعتين من غروب الشمس، اتممت تجهيز قافلة صغيرة تحمل امتعتي. وتركت مسكني في سكون وهدوء تامين. وكان أمامي طريقان متوازيان من وان إلى أرضروم وموازيان لشاطيء البحيرة. تسلك القوافل الطريق الايمن لانه مريح. في حين ان الطريق الايسر الموازي للشاطيء الأيسر، وعر وصعب، ويمر بين خاصرة جبال هكاري والبحيرة.

وواتتني فكرة للرد على عزمي بما لاينتظره مني، ووجهت امتعتي عبر الوادي، واخذت طريق الجبال يصحبني احد خدمي. ولكي لا اترك خلفي اي اثر يدُلُ على طريقي الذي اخترته، اذ كان هناك من يطاردني.

---

[٢٣] راجع التقرير رقم: ١٧.

اتخذت حذري وابتعدت عن اوائل القرى الواقعة على ذلك الطريق وواصلت رحلتي طيلة الليل وخلال اليوم التالي حتى وجدت نفسي في سبع وعشرين ساعة قد قطعت اربعة وثلاثين فرسخاً عندما وصلت إلى الجهة الأخرى من البحيرة، في نقطة التقاء الطريقين المتجهين لأرضروم ومن ثمَّ عبرَ الفرات. وبالقرب من تلك المنطقة توجد بلدة كبيرة للارمن وتسمى كوبه Koppe، تقع على المرتفعات المشرفة على وادي الفرات. وتصورت وانا على هذا البعد من وان، اني ابتعدت عن الاخطار. وقررت ان آخذ وجيادي قسطاً من الراحة لخمس ساعات او ست قبل عبور النهر. وبعد ان ارتحت وانتعشت قليلاً وزال تعب الطريق، توجهت لزيارة مدير تلك الناحية لاتجاذب معه اطراف الحديث. وكان المدير من اصول كُردية، ووجدته رجلاً نشطاً بالغ الحيوية. واستقبلني بحفاوة وقدّم لي غليونه الخاص وبعض العصائر. ودار الحديث بيننا حول احوال البلاد، الباشوات، والقبائل وخلافاتها. وكان المدير رجلاً ذكياً فائق الحيوية ويبدو انه اراد ان يتحدث بالسوء عن الحكومة، ولكنه وجدني ضابطاً ذا رتبة عالية فاصبح يزن كلماته ويتحدث بحذر.

وبينما نحن نتجاذب اطراف الحديث، دخل علينا رئيس الطائفة المسيحية لوكيايا والقى التحية المعتادة[٢٤] واعلن ان هناك عشرة جنود جدد وصلوا من وان يطالبون ببعض الجياد في الحال. ويمكن تصور شعوري آنذاك لِسماعي ذلك الخبر وشعرت برجفة تغزو جسدي كله وارتأيت ان التعقل واجب جداً في تلك اللحظة في ظروف كهذه. وبهدوء تام قلت للمدير يجب ايجاد تلك الخيول للجنود، فربّما توجد أمامهم مهمة عاجلة. وفي نفس الوقت، قمت بنفس الهدوء ولم يبدُ عليَّ ايُّ اضطراب بدعوى انني يجب ان اذهب لاعدَّ عشائي. وعندما خرجت من الغرفة، امسكت بسرعة برئيس الطائفة واوجزت له موقفي واستحلفته بكل عزيز لديه أن يؤخر الجنود ساعتين في الاقل حتى استطيع تدبير اموري وان اعبر الفرات في الوقت المناسب واتفادى مطاردتهم. واعطيته قطعتين ذهبيتين وكانتا كافيتين ليقول لي: انه سيبذل ما في استطاعته لتأخرهم وطلب مني الأسراع بالرحيل.

ويمكن تَخَيُّل موقفي الحرج آنذاك، حيث كان عبور الفرات قبل ان يعبره من يطاردني يعني لي السلامة. وعلى العكس، اذا امسكوا بي في الطريق، فسيعني ذلك نهايتي. فكرت، يسلمونني حيّاً إلى اعدائي؟ هذا ما لايكون مطلقاً. وان حدث، فكم سيكون ذلك انتصاراً لعزمي ان اقع بين قبضتيه وتحت سلطته، وسيقدّم له هروبي دليل ادانتي.

وتبلغ المسافة بين كوبه والمعبر الذي يخترق الفرات، أمام قرية قرەغيل Karaghil، ثلاثة فراسخ وهي مسافة يمكن ان تقدّم للمطاردين فرصاً كثيرة للامساك بي، ولكن كان هناك في الطريق ما عمل على تسهيل هروبي، فقد كانت توجد تلة كبيرة ما بين الطريق الذي اسلكه والبلدة. واستفدت كثيراً من ذلك المرتفع الجبلي واختفيت بعيداً عن عيون اهل البلدة وقطعت مسافة كيلومترين دون ان يراني

---

[٢٤] شكل من اشكال التحية العرّبية، تمنيات.

احد. وبفضل ذلك المرتفع الجبلي قطعت مسافة كبيرة في الوادي، ورآني اعدائي فبدأوا المطاردة. والقيت نظرة من وقت إلى آخر على تلك البلدة ورأيت اعمدة الدخان ترتفع بعيداً وتزداد ثم تقترّب بالتدريج. ولمحت فارسين يتوجهان بسرعة نحوي في الطريق الذي اسلكه، سارعت الخطى في محاولة لأسبقهم. وكنت القى نظرة من وقت إلى آخر خلفي، وشاهدت ثلاثة فرسان آخرين يسرعون ويجاهدون في اللحاق برفيقهم اللذين سبقاهم.

ووجدتني حينذاك على بعد اربعة كيلومترات من النهر. ومخافة الا اجد المعبر عبر النهر، قررت ضرورة ان اسبق الفرسان، بمسافة كبيرة حتى استطيع تأمين عبوري قبل وصولهم. واسرعت بجوادي جعفر باقصى سرعة، تاركاً خادمي خلفي لمصيره الخاص: فقد كنت احتاج بضع دقائق للوصول إلى شاطئ الفرات. وبهذا انقضت ساعة منذ تركت بلدة كوبة.

وعند وصولي إلى النهر، وجدت أمامي عقبة من اخطر العقبات: فقد كان المعبر المكون من طوّافة فوق عدد من القرّب موجوداً على الشاطيء المُقابل لسوء الحظ. افترسني قلق شديد، وضرّبت الارض بشدة بقدّمي وصحت بأعلى صوتي وبكل قواي طالباً من صاحب الطوافة ان يأتي بسرعة وينقذني. ولكنه مع الاسف لن يصل الا بعد نصف ساعة يقضيها في عبور النهر والمجئ نحوي. القيت نظرة على الوادي ورأيت بفزع ان اعدائي يقترّبون اكثر فأكثر، واسلحتهم تلمع بوضوح تحت اشعة الشمس. لم يعد أمامي اي سبب للتردد، فأخطار النهر لايمكن ان تُقارن بما كان يمكن ان يحدث ولايمكنه تفاديه، فيما لو حدث ذلك اللقاء. ولم افكر، وقبلتُ بقدري، وارتميت في النهر وانا على ظهر جوادي متمسكاً بقوة بارداقه. وكان الفرات في تلك المنطقة يبلغ مائة واربعين متراً، وفي تلك الفترة من الزمن ترتفع مياهه كثيراً، بسبب ذوبان الثلوج. وبفضل العناية الالهية، كنت سعيداً جداً لبلوغي الشاطيء المقابل سليماً مُعافى. حتى ظهر الجنود الذين يطاردونني على الشاطيء المقابل. واد وجدوا فرستهم قد افلتت منهم، تعالى صياحهم يطالبون صاحب الطوافة بالذهاب اليهم ليساعدهم على عبور النهر.

لقد اصبح منع عبور الاعداء في الوقت الحاضر، اهم مايجب القيام به. وقررت آنذاك اللجوء إلى الحيلة لاجعل ذلك الأمر مستحيل الحدوث. اقترّبت من صاحب الطوافة، واعطيته ريالاً فضياً، تفاجأ الرجل، واثناء ما كان يتأمل لمعانه بين يديه، سحبت بسرعة حبل طوافته بكل عناية، وتركتها تنساب وراء التيار. وهكذا، تركت الجنود والطوافة وصاحبها يحُلون مشاكلهم، وليتفقوا معاً بعد ذلك كما يحلو لهم. وتوجّهت مسرعاً بحصاني على الطريق نحو قرية تبعد كثيراً عن الطريق الرئيسي حيث كنت ابحث عن بعض الراحة من متاعب وارهاق ذلك اليوم الذي لايُنسى.

وكان اليوم التالي هو اول أيام العيد الكبير، وتوجهت نحو آرضروم مع حلول المساء. وذهبت مباشرة على حالي هذا ودون ان ابدل ملابسي، ذهبت للقاء المشير. وكان المشير في ذلك اليوم في

قمة تألقه ولياقته وعظمته في ملابسه الفخمة وعندما التفت اليّ، رماني بنظرة ازدراء على شخصي الضعيف. بل وجعلني ادرك انني اخطأت بالذهاب اليه في ذلك الوقت واقلاق راحة القيادة العامة بعرض شكاواي، وحيث كانت العادة عدم الإهتمام بها. ومع ذلك فقد استمع تماماً إلى تقريري كله وأعرّب ببعض كلمات من شكوكه حول إمكانية البرهنة على مثل تلك الاتهامات ضد اي باشا. ومن ثمّ، انهي المقابلة بأدب، ووعدني بالإهتمام بشكواي وأخذها بنظر الاعتبار منذ اللحظة التي ناشدت فيها حياده وعدالته.

الفصل الرابع عشر

ميلمنلي مصطفى باشا، قصة حياته، استدعوني أمام لجنة، ارسل المشير نسخة من شهادتي إلى عزمي باشا، اقترح المشير إرسال تقرير إلى القسطنطينية لابلاغهم بأنني فار من الخدمة، الإجراءات التي اتخذتها، حيرة رئيس الاركان، مناورة جديدة مع عزمي باشا، اعتراضاتي.

يقود المشير مِيلْمِنْلي مصطفى باشا، الجيش العثماني من الاناضول، منذ أعوام ١٨٦١-١٨٦٤؛ فهو واحد من نتاجات القدر الغريبة التي يحلو له احياناً ان يبدعها: ويقدّم لقب ميلمنلي دليلاً على ذلك. وكان مصطفى باشا من سكان مدينة ميلمن في أسيا الصغرى وكان والده يرعى قطعان غنم البك حاكم تلك البلدة. وأثناء مدة إحتلال جيش ابراهيم باشا المنتصر للاناضول، كان يعتقد انه من ضروب الحذر، التأكد من خضوع البلاد المحتلة بأن يأخذ لديه ابناء كبار الشخصيات رهائن، ليكون ذلك برهاناً على اخلاصهم لقضيته. وقد استلم بيك ميلمن كما غيره من بكوات بلاد الاناضول، امراً بإرسال ابنه رهينةً في المعسكر المصري. ولانه لم يكن يريد ان يحرموه من ولدِهِ الوحيد الذي يحبه كثيراً. ولكي يبقى ابنه بجواره، فكر في القيام بعمل ما، فأخذ يبحث في البلدة كلها عن شبيه لولده حتى يستبدله به ويقدّمه لابراهيم باشا. وبعد بحث طويل، وجد البيك ضالتَّه وفي شخص ابن الراعي ضوبان، حيث وجد فيه شبهاً كبيراً بابنه. وفرح البك كثيراً، وتبنى الشاب ولقبه باسم مصطفى واقام الاحتفاليات الشكلية المطلوبة المصاحبة لذلك. ومن ثمَّ ارسله إلى ابراهيم باشا. وظن ابراهيم باشا، ان رهينته ابن لافضل البكوات في الاناضول، فأقام له استقبالاً حافلاً واسبغ عليه لقب عقيد في الجيش المصري. وبذلك احتل الشاب القادم مركزاً رفيعاً ومرتبة رفيعة بجوار ابراهيم باشا. وفيما بعد قلَّده قائداً لكتيبة من الفرسان ساهمت في معارك في هانا Hanna ونزيب Ne`zivb. ولكن ابن القدر هذا، المتقلب كالدهر كان ايضاً ناكراً للجميل، وترك من اسبغ عليه كل ذلك الكرم، مصطفى باشا هذا، الذي لم يكن آنذاك سوى مصطفى بك، وذهب للالتحاق بمعسكر الاعداء. وكان من مسؤوليات مصطفى بك حينئذ ان يراقب تحركات الجيش المُحاصر اثناء حصار سان جون داكْرْ Saint Jean D`acre الا انه رافق كتيبة كلها والتحق بالمعسكر التركي، مقدّماً لابراهيم باشا على انه لم يكن مجرد مُدَّعٍ وانما اصبح مصطفى بك الخائن.

وعلى اية حال، لم تكن تلك نهاية القصة التي وصل اليها الجيش العثماني عندما اعتقدوا انهم يرونَ فيه مواطناً وطنياً وخادماً مخلصاً للدولة، هو الشخص الذي خان علمهُ. ولكي يكافئونه على ذلك الانجاز الباهر منحوه مرتبة عميد قائد لواء. ومنذ عام ١٨٤٠ وحتى مدة حرّب القرم، تَسَّنم مصطفي باشا قيادات ثانوية في البوسنة والهرتسك والبانيا. وخلال معركة الدانوب، وجد نفسه في كالافات Calafat؛ ومع نهاية الحرّب عيّن جنرال فرقة ورئيس مجلس الجيش في روميلي، ثم تمت ترقيته إلى رتبة مشير جيش الاناضول عام ١٨٦١. ولم يُسجل تأريخه ايّ انجاز عسكري واضح لتبرير ترقيته تلك. وقد اصبح اليوم مصطفى باشا الآن قائد الجيش التركي في شوملة Choumlah، وهو فيلق مسؤول عن مراقبة مايحدث في صرّبيا وبلغاريا.

ورغم ان حظ مصطفى الجيد قد رفعته إلى اعلى المستويات، فلم تتغير صفاته و عاداته التي توضح دناءة نشأته. كان قليل الذكاء، وغير قادر على امتلاك اية مشاعر رفيعة، وينقصه الميل إلى مظاهر الابهة والعظمة والذي يدلل على حب الجمال وعلى كل مايثير الإهتمام. ويبدو قويّ البنية ولكنه كما لو كان يختار القوة. وينحصر اهتمام مصطفى باشا بخزانته، فهي مثلهُ الاعلى الذي يَضحى بكل شيء لاجلها. ودائماً ما ينظم الباشوات مآدب تدل على الكرم وحيث يجد الاجانب والفقراء مكاناً حولها. وتلك عادة شرقية تكلف الكثير ولكن مصطفى باشا يتصرف كالاجانب، فهو لايستقبل احداً على مائدته. ونحن نجد جميع رجالات القسطنيطينية يقوم على خدمتهم دستة من الخدم في الاقل، ووجود الحاشية شيء لابد منه وتتطلبه العادات وتفرضه اوضاع البلاد حينذاك، ولكن لايقوم على خدمة مصطفى باشا سوى خادمين. وقد ساعد نظام البُخل الدنيء ذاك مصطفى باشا ان يُؤمِنَ لنفسه دَخْلاً يبلغ ستة آلاف جنيه سنوياً. وفي كل مرة، يجد فيها امكانية الحصول على اي شيء مُقابل المال، يفتح مصطفى باشا خزائنه، وجعل من سلوك تفضيل المصلحة ان يصل إلى اعلى مستوياته لدرجة يجد ان من حقه استعادة ما سبق واعطاه للاخرين. وظلت الحيلة والدسيسة هما الميدان الذي استطاع فيه ذكاؤه المحدود تحقيق تقدّم كبير.

في أول أيام تواجدي في أرضروم، لم يحدث ان سمعت كلمة واحدة بخصوصي، ولكن بعد انقضاء عشرة ايام، طلبوا مني المثول أمام مجلس تحقيق لكي اجيب على بعض الاسئلة. واستجبت للامر وذهبت للمثول أمام ذلك المجلس وتمت قراءة التهم الموجهة اليّ من قبل المدير احمد آغا، مع كل التعليقات والملحقات التي اعدّها عزمي باشا. واعتمدت اللجنة فقط على تلك الوثائق، وهناك سؤال لكل فقرة وقد جهزت اجاباتي وطلبوا مني التوقيع على اجابة كل فقرة. وكانت اجاباتي صريحة تماماً وشجاعة كما تملها عدالة كل قضية.

من حيث المبدأ، لاتتمتع تلك اللجنة باية شرعية، ليس فقط لانها لا ترتكز على اسس متينة الا انها مصحوبة مع ذلك بسلطات تتفق والقانون العسكري؛ ومن ثم فإن كل ذلك كان فخاً قد

نصبوه لي. وقد استخدموها باديء الأمر وسيلة لجمع المعلومات اللازمة حول قيمة وقوة جوهر التهم التي وجهتُها، ويمكنهم تحذير المذنب [يقصد احمد آغا]، ويمنحونه الوقت الكافي لكي يتمكن بسهولة من تحضير الدفاع عن نفسه. انها عجرفة تليق فعلاً بسلوك الباشوات.

ويقول واقع الأمر، انه بعد انتهاء التحقيق فإن المشير، بدلاً من ان يتخذ الاجراءات اللازمة لدى وزير الحرّبية للحصول على السماح بنظر القضية، ارسل شهادتي واجاباتي إلى عدوى، مُشاركاً بتلك الخطوة مصالحهم. ولكن ذلك لم يُرض عدوى، فارسل احد مرافقيه، ولديه بالطبع شؤون سرية يبحثها معه ويخاطر كلاهما بتدوينها فكان الاختيار الافضل ان يكون التواصل عبر وسيط. وقام الوسيط عندما عاد إلى أرضروم كل ما يعمل على تعظيمه وانه واحد مِنْ عجائب الدنيا السبعة، بل انه الاستقامة مُجَسدة.

وبوجود مثل تلك الاشارات وغيرها، رأيت الافق قد تلبَّد بالغيوم، وان التحالف ضدي قد اكتمل. فقررت مطالبة المشير بتقديم اجابة رسمية حتى اعرف كيف اتصرف. وسألته اذا ما كان قد اتخذ الإجراءات اللازمة ليحصل على امر وزير الحرّبية للبدء في الاعداد لنظر قضيتي. اجابني انه لم يقم بذلك بعد، ولكنه سوف يقدّم الطلب في اول بريد يرسله اليه. واقترح ان يقدّم للوزير تفاصيل الموضوع. حينذاك، اعربت للمشير عن رغبتي بتقديم تقرير صريح واضح حول التُهم التي وجِّهتها إلى عزمي والتهم التي حاكها ضدي، وبدون اية اشارة للطريقة التي تركت بها مدينة وان. ورغم ان ذلك أمر ثانوي، فلايمكن ان يكون مدعاة لوقوف الوزير ضدي، وتضاف بذلك نقطة لصالح عدوي. وقلت له حينئذ، اذا كان سيادته يهتم حقيقة ان يقدّم تقريراً صادقاً، رجوته ان يتفضل بذكر هروبي الذي كان مُبَرراً تماماً بواقع انني لم اتلق رداً من القيادة العامة على جميع رسائلي. وبدأ لي ان الباشا لم يَتَقبّل جيداً ذلك المنطق، واعلمني انه كان مُضطراً لذكر الحقائق كما كان يعرفها، او انه تظاهر بأنه كان يعرفها: اما بخصوص الصمت تجاه تقاريري وعدم الإهتمام بها، ارتأى انه من الافضل الا يقول شيئاً.

ولتوضيح القصة، يجب ان اقدّم لقرائي نبذة عن الوضع الحالي للقضية ومختلف وجهات النظر حولها، فهي كانت موضوع الصراع بين الطرفين. بالنسبة لي، لم انرعج مطلقاً من الاتهامات التي دبّرها عزمي باشا او المدير احمد آغا. لكن اهم ما في الموضوع، هو حقيقة انني جئت دون تسليمي امراً خاصاً من القيادة العامة. ولم يستطع اعدائي رغم الوشاية، ورغم القائهم التُهم جُزافاً، لم يستطيعوا ان يجدوا ثغرة سيئة في سلوكي. وقد اختاروا اذن قصة سفري من وان بدون اذن كما افضل طريقة هجوم عنيف ضدي ويهدموا فوق رأسي المعبد، الذي يحمي حقوقي المهدورة، ودم جنودي، ودم المفاوض اليهودي الذي تم اغتياله. واتهموني بالفرار من الخدمة العسكرية والنظم العسكرية لا يمكن خرقها دون عقاب. وارتأوا من المناسب حينئذ استبعاد جميع التهم التي وجهتها سابقاً ضد عزمي باشا

بخصوص وفاة جنودي والاختلاسات وذكروا فقط في التقرير التهم التي اعدّها عزمي ضدي مع اضافة حالة خطيرة هروبي. وكانوا بتلك الطريقة يأملون موجهاً بأنني قد فرّرْتُ من الخدمة. ووزارة الحرّبية من جانبها لم تأخذ بنظر الاعتبار مطالبي العادلة، واصدرت أمراً بالقبض عليّ.

وسوف تبدأ القضية هكذا بالقائي بالسجن في واقع الأمر. وكانوا يظنون بل مُتاكدين بانهم ينقذون بذلك سمعة عزمي، المشير، احمد آغا، والادارة كذلك، ودون ان يعلم احد في الخارج بشيء بسبب عدم تسرّب الاخبار. وتجدر الاشارة الى انه كيف يتبعون السياسة ذاتها، بل ووصلوا بها إلى النهاية من لَدُن فؤاد باشا نفسه، منذ ان وصلت القسطنيطينية.

ولكي انقذ نفسي من ذلك الموقف السيء وارد الضرّبة، ارتأيت ان افضل طريقة تكون في تجديد عرض اتهاماتي رسمياً. وبدا وبهذا الإجراءات عملت على خلخلة دسائس المشير، فهو لايريد مطلقاً ان يذكر جرائم زميله، ولكنه وجد نفسه مُضطراً بل مُجبراً بهذه الخطوة على إرسال اتهاماتي واتهاماته إلى القسطنيطينية. وحتى تلك اللحظة، لم اكن قد قدّمت تقريري المفصل حول سلوك عزمي باشا، واذ حققت هدفي لان الفقرات التي دونتها ضد عزمي باشا كانت في غاية الاهمية لدرجة انها قد حركت بعض الإهتمام والاثارة في الوزارة. وفي نفس اليوم، قدّمتُ مذكرة بتأريخ ٢٥ حزيران و ٧ تموز ١٨٦٣ [انظر: اعلاه]؛ وتتكون من ست فقرات عرضت فيها السلوك الاجرامي لعزمي باشا وبكل التفاصيل المثيرة.

ومن الصعب وصف مدى غضب وامتعاض المشير عند تسلمه تلك المذكرة. ورغم برودة المعتاد ورّباطة جأشه، اشتعل وجهه غضباً، ودمدَم ببضع كلمات لم افهم منها شيئاً، ولكنها كانت علامة على ضرورة انسحابي من الغرفة وانا راضٍ جداً للتأثير الذي خلقته.

وخلال بضعة أيام، ساد القلق في القيادة العامة للجيش، ولم يعرفوا اي جانب يختارون. هل يُرسلون المذكرة إلى القسطنطينية، وهذا يعني انني انتصرت، ام يحفظونها ولا يرسلونها، فيعني ذلك انه متورط. وعلى اي حال، ولان العناد جوهر سلوكهم، فقد اتفقوا على ان افضل اختيار هو اعادة نفس المناورة القديمة بإرسال نسخة من الاتهامات المقدّمة رسمياً إلى عزمي باشا. ويعتقدون انهم بذلك يساعدونه على تحييد وتخفيف اثر تلك الإجراءات الجديدة إلى جانب كسب بعض الوقت. ولكن هؤلاء التعساء الذين يفتقرون لاقل مفاهيم الشرعية، لم يشكوا مطلقاً بانهم يضعون بمثل ذلك الاجراء ذاته سلاحاً رهيباً بين يدي.

واذ امسكت بالمشير في نفس الوقت الذي كان يدوس فيه باقدامه القوانين، عندما ارسل وثائقي إلى عدوي، ذهبت لرؤيته لاقدّم اليه اعتراضي الآتي: تنص الحياة العسكرية التي نفخر بالانتساب اليها على وجود طريقين لا ثالث لهما في ميدان تعامل الضباط مع مرؤوسيه. فاذا ما تقدّم احدهم بطلب اليه، وكان تحقيقه في مجال اختصاصه، اصبح واجبه المقدس الاستجابة والعمل على

تحقيق العدالة وعلى العكس، اذا كانت سلطاته محدودة، يجب عليه ان يرفع الأمر من تلك الحالة إلى رؤسائه المباشرين. وهكذا، كان من واجبكم عندما قدّمت لسيادتكم شكاواي مدونة ثم شفاهية، كان يَتَحَتَّمُ على سيادتكم ان تتحقق العدالة، وذلك بتكوين لجنة تحقيق كان يمكنها النظر في قضيتي وان تقرر ماتراه بخصوصها، وبما يتفق والقوانين السائدة. ولما كان سيادتكم لاتمتلكون سلطة تسمح لكم بتكوين لجنة تحقيق كتلك بدون تفويض مسبق من وزارة الحرّبية. فسيادتكم حينئذ مُجبر على رفع الأمر إلى وزارة الحرّبية وتنتظر قرارها. وها أنا منذ شهرين في القيادة العامة ولم يحدث شيء بخصوص قضيتي. وخلافاً لذلك، قمتم سيادتكم باحتضان وتفضيل قضية عدوى، وتلك هي حال الامور، إذن أرى نفسي مُجبراً ان اعلن لسيادتكم انني قد فقدت الثقة في عدالتكم وحيادكم. ومنذ الآن، فأنني ارفض وساطتكم في هذه القضية، واطالب بالسماح لي بالذهاب إلى القسطنطينية حيث ستجد قضيتي حلاً عادلاً هناك فقط.

وقد اندهش المشير نفسه من طريقة كهذه في الحديث، واجزل لي وعوداً وردية وهو يقول بانه سوف يبذل قصارى جهده لصالحي، وسينتظر لشؤوني بحيادية تامة، وانه عندما ارسل شهاداتي إلى عزمي باشا، فانه كان يهدف فقط إلى لحصول على شهاداته ليرفقها مع شهاداتي لإرسالها جميعاً إلى القسطنطينية. اما بخصوص قضية سفري فهو لن يسمح باي حال بحدوث شيء كهذا. وعرفت قيمة مثل تلك الكلمات، وانسحبتُ اذ ذاك وانا مقتنع اكثر من اي وقت مضى ان ضرّبة حاسمة يمكنها وحدها إفشال الدسائس التي حاكوها ضدي.

الفصل الخامس عشر

انتقال القيادة العامة إلى ارزنجان، اسباب ذلك الاجراء، فساد القيادة العامة، حسين دايم باشا، حياته، سفره إلى القسطنطينية

انقضت شهور ثلاثة، ولم يتم اتخاذ اية اجراءات اولوية بخصوص القضية. وهكذا يمر الوقت بلا فائدة. وأثناء ذلك الوقت حدث ما كان يرمى بقضيتي في طيّ النسيان، وتأخيرها شهرين او ثلاثة أخرى. وذلك ماحدث، فقد انتقلت القيادة العامة إلى ارزنجان. ان عملية نقل قيادة عامة من مكان إلى آخر خطير ودقيق وتتمتع باهمية خاصة. ويحدث ذلك بسبب جلاء مؤقت او نهائي لموقع استراتيجي مناسب يمكن للجيش ان يناور ويتدرّب ويتصرف في حدوده. علماً ان الأماكن التي يمكن اختيارها موقعاً للقيادة العامة محدودة، حيث تحدد الموقع الطبيعة الجغرافية للمنطقة. واولويات الاعتبارات اللازمة لاقامة موقع القيادة العامة ان يكون في مركز مختلف مناطق العمليات دون ادنى شك.

وأرضروم، هي احدى تلك المناطق التي توحّد وبإمتياز جميع الشروط اللازمة لتوفير متطلبات القيادة العامة للجيوش العثمانية التي تعمل على جهات جورجيا وبلاد فارس. وتؤدي جميع الطرق القادمة من داخل آسيا الصغرى، وشواطئ البحر الاسود، من جورجيا وبلاد فارس تؤدي إلى هضبة أرضروم و تتجمع هناك. انها المدينة المركز. والها يتوجه الفلاح ليبيع نتاجاته زمن السلم، وسوقاً يجد فيها مايكفي حاجاته واحتياجاته. وفي زمن الحرّب، تتوجه نحوها قادة الجند، ويتم توفير المؤن والذخيرة للجيش.

وقبل مرحلة تنظيم الجيوش النظامية في تركيا، كانت الانكشارية يعرفون جيداً أرضروم، حيث يلتقون ويتجمعون. وظلت أرضروم المقر الدائم للقيادة العامة لجيش الاناضول، فيما عدا مدة قصيرة قبيل حرّب القِرم. وتوضح جميع تلك الاعتبارات جيداً اهمية أرضروم. ونحن نود اذن ان نعرف كيف واجه جنرالنا رغم كل ذلك تلك القضية من وجهة نظر مغايرة تماماً. ولانه لايمكن التوصل إلى اسرار تلك الاستراتيجية الرفيعة التي لايستوعبها جميع العقول، قررت ان اقدّم هنا بعض الايضاحات حول ذلك الموضوع.

كنت قد اشرت خلال كتابي هذا، إلى العقلية المشاكسة بين السلطات المدنية والعسكرية في جميع انحاء الامبراطورية، وكذلك تلك العدائية التي تضُر استقرار ورفاه البلاد التي كانت دائماً مصدر قلق الحكومة المركزية التي تتلقى دائماً سهام الاتهامات واحتجاجات الباشوات، ولاتعرف في نهاية المطاف كيف تتصرف وإلى اي جهة تستدير.

ولم يشُذ مصطفى باشا عن القاعدة العامة، وكان عليه ان يخوض صراعاً مع خيرالدين باشا، حاكم أرضروم حيث وصلا في نزاعهما إلى شد الشعر وسب احدُهما الآخر، باللصوصية والنصب. وانتصر مصطفى باشا على غريمه، وبشكل ادّى إلى عزل خيرالدين باشا وتعيين اسماعيل باشا الالباني. وعلي تذكير قرائي، بأنَّ اسماعيل باشا كان حاكم وان، وهو الذي باع اراضي قبيلة الميلانيين إلى قبيلة الشكاك بعد ان طردها من اراضيها.

ومصطفى باشا المسكين، وهو يرى ان شيطاناً يطرد الآخر، ندم ندماً كبيراً على ذلك التغيير بعد فوات الاوان. ووجد نفسه في موضع يستحيل فيه عليه ان يشكو من جاء بعد خيرالدين او يشي به، ووجد نفسه مُجبراً نتيجة كل ذلك على ان يتصرف بحذر وامانة، وتاركاً للحاكم الجديد حرية التصرف كما يريد. وبدلا من ان يشكو القادم الجديد، وجد انه مِنَ الافضل ان ينسحب جانباً، والندم يتاكله.

لقد كان ذلك هو السبب وراء اقتراحه لوزير الحرّبية بنقل القيادة العامة إلى ارزنجان. وتقع تلك المدينة على بعد ستة و ثلاثين فرسخاً جنوب غرّب أرضروم. وحُجّتّه في ذلك ان الأمراض تنتشر في أرضروم اكثر منها في ارزنجان، إلى جانب انها تتمتع بمناخ معتدل، وسوف تعيش القوات في افضل الظروف الصحية.

ولكي يصبغ خططه باللون العسكري، اضاف ان البرد المتواصل في أرضروم طيلة السنة فيما عدا أشهر ثلاثة او اربعة للصيف. ولايسمح مثل ذلك المناخ للقوات بالقيام بالمناورات العسكرية او اكمال تدريبها. [ولعل المشير قد اراد بذلك ان يشير إلى ان الجيوش الروسية لن تستطيع التدريب على الاسلحة بسبب البرد الشديد طيلة العام].

وقد وجدَ فؤاد باشا، القائد العام ان تلك الخطة رائعة ووافق مؤيداً على انتقال القيادة العامة. إلى جانب السخف الذي يتصف به اجراء بهدف إلى ترك مدينة مُهيأة طبيعياً سلفاً لتكون مقراً للقيادة العامة لاي جيش، اذن تجدر الاشارة إلى انه بهذا الاجراء يُعرّض للخطر كذلك مصالح وشرف الحكومة الامبراطورية. ويلحق ذلك الاجراء اضراراً بالخزانة العامة لان صيانة القيادة العامة والحفاظ عليها سوف تتسبب في زيادة مصاريف الدولة بما يوازي ثلاثة ملايين قرش سنوياً بسبب اختلاف اسعار المواد الغذائية والمؤن. وتسيء إلى هيبة وشرفها الامبراطورية؛ لانه في مثل ذلك الوقت اظهرت روسيا اهتماماً خاصاً بممتلكاتها فيما وراء القوقاز، حيث ارسل احد اعضاء الأسرة الامبراطورية، الدوق ميشيل الكبير، ليتولى بنفسه قيادة الجيوش الروسية. وبذلت تلك الدولة جهوداً فائقة لتأمين تفوق جيوشها في جورجيا. في حين انه وفي هذا الوقت بالذات، وكما ترى، تفكر القيادة العامة في الابتعاد إلى موقع على بعد ست وثلاثين ساعة من الجبهة؛ أي الهروب والانزواء في قرية كُردية بائسة وحيث يتمكن في حرية ودون أية مشاكل او مضايقات ان يتذوق ملذات قطوف حدائق ارزنجان.

ولما كانت مصالح وشرف الدولة في تركيا مجرد يوتوبيا، فمشيرنا مادى جداً لكي يؤمن بالافكار. فقد كان هو ورئاسة اركانه ينتظرون منذ مدة وبفروغ صبر، الأمر بالموافقة على انتقال القيادة العامة. وكانت ارزنجان تبدو لهم الدورادو الغرّب وسعد أباد الشرق، فهي مشروع اطماعهم وجشعهم. أيّ حصار هذا كان يداعب انظار الباشا الجشع وفي بلد سيكون سيّدها المطلق!

وارزنجان، قبل انتقال القيادة العامة كانت مجرد مديرية يديرها مدير. وسيكون ذلك المدير شخصية مهمة بمساعدة المشير الذي يحميه. يُكلف ذلك اللقب ثلاثة الاف جنيه استرليني. ومع ذلك فبدون وجود باشاليك اي اقطاعية كبيرة، فما جدوى وجود باشا؟ ولكن حل تلك المشكلة قد تم بسهولة وبواسطة استقطاع اراضٍ من المقاطعتين المجاورتين خرّبوط و ديارّبكر واصبحت ارزنجان مقاطعة جديدة وتتكون من ثمانية عشرة محافظة. وتقدّم المحافظات الثمانية عشرة مساحةً كافية لارضاء الاتباع الذين انيطت بهم ادارة تلك المحافظات. علماً ان مبلغ المئتين او الثلاثمائة جنيه استرليني لايشكل صعوبة في اختيار شخصية المدراء. وهكذا، اصبحت وسائل الاستغلال المتنوعة تلك؛ حصاده الاول، ولان الدخول السنوية الكبيرة ستتكون من التلاعب في خزانة وسوتها المقاطعة، في شكل المضارّبة في اسعار المواد الغذائية ومختلف انواع المشاريع التي يتعامل معها المشير بكل حرية وكما يريد بعد تخلصه من كل منافسيه.

ولقد وصل الفساد والفوضى ذروتهما كما ترى. واخيراً، فان عزمي باشا ومجموعة وان اصبحوا فرعاً من فروع مجتمع كبير بدأ يتجذر في أرزنجان وهنا، وكلما حانت الفرصة، ترى الناس شيباً وشباناً، صغاراً وكباراً يمتهنون السرقة. وبنساب وبشكل غير ملحوظ مليونان او ثلاثة من القروش في متاهة حسابات كتيبة المدفعية. واصحاب تلك الفوضى العقيد، مَربوطجو- مجيد بك، واثنان من قادة الكتائب، وبعض الضباط من رُتب مختلفة. وقد القِيَ جميع هؤلاء في السجن. وكان وراء ذلك التصرف العادل، تدخل حسين دايم باشا رئيس مجلس الجيش. وبذل مصطفى باشا من جانبه، كل ما في وسعه ليمنع ذلك الاجراء؛ وفي نفس اليوم الذي غادر فيه حسين دايم باشا إلى القسطنطينية قام بتحرير جميع اولئك الانذال الذين يستحقون السجن واعادهم إلى مراكزهم العسكرية. وتصرف كهذا بعيد عن التصديق. ومن بين ذلك الجمع المنحرف، يعد ظهور شخص امين ظاهرة فريدة.

فكان من المستحيل عليَّ ان اترك تلك الفرصة ولا اتحدث عن واحد نادراً ما نلتقي بهم في الشرق، عن شخصية رجل نبيل وضابط حقيقي يدعي حسين دايم باشا؛ جنرال يقود فرقة، ويتراس مجلس الفيلق الرابع. وهو شركسي الاصل من قبيلة بيرزكس العريقة. وعندما كان في سن العاشرة او الحادية عشر ذهبت اسرته إلى القسطنطينية. ومن ثمّ دخل القصر الامبراطوري غلاماً في خدمة السلطان محمود. وعندما رأي رؤساؤه جمال تقاطيعه ومظهره المميز، وجهوده إلى دراسة الموسيقى في القصر هادفين إلى ان يصير كما دونيزيتي Donizetti او راقصاً مثلاً. ولكن ذلك الجبلي الشاب، ثار على فكرة

اعداده موسيقياً، وكسر بغضب بوقَه أمام انظار سيده، واعلن إن اجداده لم يعرفوا سوى مهنة السلاح. ودفعته حماقة كتلك ليبدأ حياته في صفوف الكتيبة جندياً بسيطاً.

وكانت اولى الحملات التي شارك فيها ضد الجيش المصري في سوريا وآسيا الصغرى. واظهر تميزاً في عمليات الحملات التي توجهت لاخضاع البانيا. واثناء حصار قارص ذاعت شهرة حسين باشا وحصل على رتبة جنرال كتيبة وبعدها قائد فرقة وكذلك دفاعه الواضح في طاهماس ومع كتيبته ضد جميع القوى من يمكن اعتباره انجازاً عسكرياً واضحاً. ووقع صريع ذلك ستة الاف جندي روسي، ملئوا الحُفر والاخاديد وداخل الميدان. وكان حسين حاضراً دائماً هناك لصد اية هجمات جديدة حيث ينقض مندفعاً على العدو دونما تفكير.

وبعد السلام، اصبح حسين باشا مسؤولاً عن قيادة حملة ضد گرافو Gravho في مونتيغرو، عام ١٨٥٨. ولكنه كان مضطراً ان ينفذ الاوامر والخطط السخيفة التي اصدرتها المحكمة العليا في القسطنطينية. وقد مُني حسين باشا بهزيمة كاملة في تلك المعركة خسر فيها نصف جيشه. وفي تلك الاثناء، كان لي شرف القيام بالخدمة العسكرية، تحت امرة ذلك الضابط المميز، وحيث كنت اقوم باعمال رئاسة الاركان. ومنذ ذلك الوقت توطدت بيننا صداقة ودية، وارتبطت بشخص حسين باشا الذي كان من اندر الرجال الذين عرفتهم بين مواطنيه. ووضعته ميوله الليبرالية على رأس مؤامرة للفدائيين وقعت احداثها عام ١٨٥٠ في سبيل الحصول على حقوق دستورية للشعب العثماني، واصلاح التجاوزات التعسفية التي اساءت في السنوات الاخيرة لحكم السلطان عبدالمجيد. وكشفت الخيانة المتآمرين، وحكم على حسين باشا بالسجن المؤبد، ذلك الرجل الذي انقذ وصان شرف الجيوش العثمانية، ودافع عن حقوق الامة وهو يقاوم تعسف الاستبداد وظل سنتين سجيناً في قلعة سان جون داكر.

وكان يجب انتظار مجيء السلطان عبدالعزيز ليحرر واحداً من المدافعين عن الامبراطورية، ومحا بذلك الاجراء العار الذي لحق بالحكومة التركية جراء ادانة حسين باشا. وساهم ذلك في زيادة شعبية السلطان الجديد حال جلوسه على العرش.

وقد تم استدعاء حسين دايم باشا إلى القسطنطينية، وأُعيدت له جميع وظائفه واختصاصاته وتم إرساله إلى الفيلق الرابع رئيساً للمجلس و نائباً في القيادة. ولكننا نراه و بعد سبعة اشهر، وقد وجد استحالة كبح زمام الفساد والخطايا التي تشوه سمعة الجيش. وبدلاً من ان يكون وجوده مدعاة لادانة ومعاقبة المفسدين، ارتأى الاستقالة والتخلي عن القيادة والعودة إلى القسطنطينية. واغضب رحيل مثل هذه الشخصية الغضب لدى الطيبين والغيظ لدى المشير واتباعه.

الفصل السادس عشر

مقاطعة أرضروم، سكانها، منتجاتها، مواردها، أرضروم، الأكراد، الارض، عبوديتهم، هيليز غيردي، محمد بک، اسماعيل باشا، ادارته، الفرس، تجارتهم وتأثيرهم، سياسة البلاد

مقاطعة أرضروم واحدة من المقاطعات الكبيرة التي تكون الامبراطورية العثمانية؛ ومن اهمها كذلك. فأراضيها ممتدة ومواردها كثيرة. وتتكون من عدة سناجق: قارص، بايزيد، وچلدر وموش. ورغم ان مقطاعة وان تتصل مباشرة بالحكومة المركزية، فإنها تتعلق بباشا أرضروم وذلك لبعض الاعتبارات. ومِنْ ضروب المستحيل، محاولة تقديم صورة صحيحة لتقسيم الاراضي السائد حالياً في تلك المقاطعة والكتابات التي تناولت الوضع الاداري والسياسي لمنطقة ما، يجب عليها مقدّماً تقديم نبذة عن التقسيم الجغرافي والاداري لاراضيها. وجميع الكتاب الذين تناولوا الكتابة عن احوال تركيا، حاولوا دونما شك اتباع ذلك المنهج فلا بديل عنه. والهدف هو التوصل للمعرفة التامة باحوال بلدما. ومع ذلك، ففيما يخص تركيا، توجد صعوبات عملية تواجه ذلك النهج ولايمكن التغلب عليها.

والواقع، ان المناطق الواقعة تحت السيطرة العثمانية لم تخضع حتى ذلك اليوم إلى تجزئة منهجية او إلى تقسيم للاراضي ينسجم وشكلها الطوبوغرافي. ومن جانب آخر، يبدو ان مباديء الادارة الثابتة والدائمة والتي تعمل على تسهيل العلاقات بين الادارة والرعية وتعمل على تطور الحياة الكريمة العامة؛ يبدو انها غير معروفة تماماً وتسود الفوضى العارمة الامبراطورية من اقصاها إلى اقصاها. وفي كل وقت، وتحت اية حجة تتغير الادارة وتتبدل و تنقلب راساً على عقب.

اصبح الباشوات مثلاً في اوسكوب Uskup عاصمة المقاطعة في البانيا والتي تحمل نفس الاسم، اصيب بالحَّمى وبدأ في ازعاج الباب العالي الذي يراعى ويجامل باشواته، امر بنقل مقر الحكومة إلى پيزرند Pizrend على قمة جبل. وقد عمل بهذا الاجراء على الاخلال بنظام المقاطعة، ولكي يوفر على الباشا مشقة تناول جرعة من الكينين. وكانت مدينة اولْتُو عاصمة سنجق تشيلدر، مقاطعة أرضروم مقر الباشا الحاكم. وبسبب الحُميَّات التي تسود ذلك البلد، تم اختيار اردهان الواقعة على الحدود التركية-الروسية، على بعد مِنْ تلك المقاطعة، فإختيارها قد تمّ مقراً مستقبلياً للادارة.

فاذا ما ارادوا منح باشاليك لاحد المقرّبين بأي ثمن، يعزلون احد الباشوات، ويقومون باستقطاع اجزاء من اراضي المقاطعات القريبة وينشؤون فيها مقاطعة جديدة للباشا المُقرّب. فهم لايهتمون مطلقاً بالنتائج المترتبة على ذلك الاجراء والاضطرابات التي تؤثر في الادارة وفي البلاد.

والمهم ان الباشا اصبح له مكان وتكونت مقاطعة ارزنجان بهذه الطريقة من اجل ارسلان بك، الذي كان قديماً وكيل الوالي.

تلك التغييرات، إلى جانب تحويل بلغاريا إلى محافظة الدانوب، قد حدث كلها في ظل ادارة فؤاد باشا المستنيرة. وبفضل نظام كهذا، والافضل ان نقول في غياب وجود اي نظام، من الطبيعي ان تتجمد الأعمال، ولا تعرف الادارة او الرعية اين يديروا وجوههم وسط تلك الاحوال المتقلبة. فلنتوقف اذن عن تقديم تفاصيل تقسيم اراضي مقاطعة أرضروم، ونبدأ الحديث فقط عن الوضع الإجتماعي الحالي.

وتحد شواطيء الفرات مقاطعة أرضروم من الشرق، وجبال لازستان جيورجيا الروسية ومن الجنوب مقاطعات ديارّبكر وخرّبوت. ويبلغ تعداد سكانها تقريباً مليونا وثمانمائة الف نسمة من اعراق مختلفة: يأتي الأكراد الاكثر عدداً بالدرجة الاولى حيث يبلغ تعدادهم ثمانمائة الف، ويقيمون في عدة مدن ولكنهم يفضلون حياة الترحال التقليدية. ويأتي بعدهم الأرمن الذين يطلقون عليهم صفة السكان الاصليين للمنطقة، ويقيمون في عدة مدن وقرى، ويبلغ تعدادهم ستمائة الف نسمة. ثم اللاز، وهم شعب مسلم يعيش في المناطق الحدودية مع لازستان و عددهم مائتا الف نسمة والمائتا الف الباقية كانت من نصيب الاتراك العثمانيين الذين ينتشرون في المدن الرئيسية.

كانت الوسيلة الرئيسية لتوفير الحياة للاكراد تتركز في رعاية وتربية الماشية. وتتوزع الزراعة بين الأرمن، اللاز، والاتراك. ويهتم المسلمون بالتجارة الداخلية بالقطاع وبعض فروع الصناعة في حين ان تجارة الجملة الخارجية يقوم بها الأرمن حصراً. وتشمل منتجات البلاد في سناجق: قارص، وأرضروم، وبيبوت، واولتو، الحبوب واخشاب البناء والصمغ النباتي المعروف في اروبا باسم صمغ الكثيراء، في حين ان منطقة تورّتون Tortoun، تنتج الفواكه بجميع انواعها، العسل، الشمع، والذرة، الاصواف والجلود، الزبد والدهون وهي منتجات تفيض بها البلاد، وينتج سهل موش، كمية كبيرة من التبغ الذي يستخدم للاستهلاك المحلي. اما الصناعة في تلك البلاد، فهي بنفس المستوى التي تتمتع به في اجزاء الدباغة، واللحوم المقددة والمقانق. ومقانق أرضروم مشهورة في طول البلاد وعرضها، وهي فرع من فروع التجارة الذي يدر ارّباحاً كثيرة.

وعدم توفر الاخشاب بشكل تام من الاسباب التي تعرقل تطور الحياة في البلاد. ويمكن للمرء ان تسير في هذه البلاد مسافة ثلاثين واربّعين فرسخاً ولاتجد سوى وديااً وجبالاً خالية تماماً من الخُضرة. وما يبعث على الاسى ان ذلك ثمرةٌ من ثمرات التكاسل وبرّبرية السكان. لانه اذا ما درسنا طبيعة التربّة الانتاجية، سوف نرى انه لا المناخ ولا التربّة يمنعان ان تنتج البلاد الغابات الكثيفة والتي يعود سبب عدم وجودها إلى اهمال الادارة وهمجية التخريب التي تمارسها القبائل الرحل

المتنقلة في ارجاء البلاد. وتقول القصص الشعبية المتوارثة وذكريات الناس ان وادي أرضروم وعلى طول شواطئ قرهصو كانت تغطيه الغابات الكثيفة. في حين ان الناس اليوم والفقدان التام للاخشاب اللازمة للتدفئة، تراهم مجبرين لحماية انفسهم من البرد القارص، ويستخدمون النفايات بعد ان يضعونها في قوالب كما الطابون، ويجمعون اثناء شهور الصيف كمية كبيرة منه يرصونه على ابواب منازلهم على شكل اهرامات. ويعود مثل ذلك الاستخدام حصراً لسكان كُردستان الشمالية وفي ارمينيا.

ولان المنازل كانت توجد تحت سطح الارض، كما ذكرت ذلك من قبل، فأن رؤية اهرامات النفايات تلك تُعلن بان هناك مدينة او قرية في ذلك المكان.

ويمكن الحصول على اخشاب البناء في غابات الصنوبر الواسعة التي تغطي جبل سوانليداغ Soanlidagh، الواقع على الطريق من قارص إلى أرضروم، على بعد ستة وعشرين فرسخاً من أرضروم. ويوجد الفحم الحجري في وادي پاسان Passin، بالقرب من أرضروم، وفي ضواحي اسپير Ispir؛ توجد بقايا آثار مناجم الحديد، ومنجم الكهرمان الأسود الذي يستخدم في أرضروم لصنع فم مِبْسِم الغليون وغيره من مواد الزينة؛ ومناجم النحاس في گوموشخانه، ومعدن Madanne المعروفة وغنية جداً. تلك هي الثروات المعدنية التي عرفتها.

وتقع مدينة أرضروم على سفح الجبال التي تحيط بهضبة أرضروم من جنوبها الشرقي، ومشيَّدة على ارض بركانية، تغمرها المياه المعدنية الكبريتية. ومن المخاطر التي تهدد سكانها الزلازل التي تتكرر كثيراً. وفي عام ١٨٥٧ وقع زلزال عنيف ذهب ضحيته بضع مئات من الناس تحت انقاض المنازل والاثار العامة التي انهارت. وطارت شهرتها في الشرق كله، بسبب مناخها الصحي ومياهها الصافية الرقراقة. ولكنها سُمّيت سيبريا آسيا الصغرى لقسوة شتاءها؛ حيث تنزل درجات الحرارة إلى عشرين درجة او اربع وعشرين تحت الصفر.

ومن وجهة النظر التكتيكية لايمكن الاقامة في أرضروم بسبب ماهو اقوى: اذ يُطلّ عليها من الشمال والجنوب جبلان يبعدان كثيراً الواحد عن الآخر ليتقابلا وسقوط احدهما يعني اجلاء المكان لامحالة. وتضم أرضروم سبعين الف نسمة، وفيها ثمانية مساجد رئيسية وواحد وعشرون مسجداً ثانوياً وثلاثة اسواق. والانشاءات متينة جداً، فقد شيّدت جدران المنازل السميكة من الحجر وذلك لحماية السكان من البرد القارص لمناخات ذلك المكان.

وقد ذكرنا ان الجزء الاكبر من السكان في أرضروم من الأكراد. وهم يتجمعون في قبائل رُحَّل، كما في غيرها من اراضي كردستان، ويمارسون حياة الترحال والمغامرة التي كرستها تقاليد الاجداد. وفيما عدا بعض المناطق التي تجرأ الأكراد واقاموا فيها في المدينة او في ضواحي موش Mouch،

حيث يقدّمون صورة مجسمة للتصرفات البرّبرية التي وصفها كْسِنْفون* وحتى مُعاصرونا.

السرقات والاغتيالات احداث يومية في المناطق التي يعيش فيها ذلك الشعب. وقبل يومين من مروري بوادي هيتز الواقع بين الفرات واراكس، قامت قبيلة خورشيد بيك التي نصبت خيامها في تلك المنطقة، قامت باغتيال ثلاثة من المسافرين على الطريق. وتتكرر تلك الحالات في محافظة موش، بشكل عام وضحاياها بشكل عام من الأرمن. ويعد الأرمن عبيداً لجيرانهم الأكراد العنيفين. وهناك قبيلة كردية ما تعتقد ان هذه الأرمنية او تلك تابعة لها بل ملكها. ومن وقت إلى آخر، تقتحم القبيلة القرية وتطالب بفدية. او ترسل للقرية المذكورة عدداً من الماشية ليقوم سكانها بتربيتها ورعايتها على حسابها خلال فصل الشتاء، ودون اي مقابل على حسابها سوى التضرع لتفادي غضبهم او محاولة اشباع جشع اسيادهم. ان اقل رفض او تقاعس عن تنفيذ تلك الاوامر الحاسمة، سيكون جزاؤه الانتقام ومائة الف شكل من مظاهر العنف. وفي اكثر الحالات، يتسبب العصيان في الموت او الابادة.

واثناء اقامتي في قوتور، وقع حادث كشف لي صورة لتلك الحالة المأساوية المؤسفة للاوضاع: رجل في السبعين من العمر حضر مع اخيه آكو، رئيس الطائفة الأرمنية، الذي حدثني بأن أخاه واسرته بقى مع عشرين اسرة ارمنية اخرى، لدى قبيلة شكاك الكُردية التي يترأسها عمر كور. والسبب ان رئيس القبيلة ارسل اليه يطلب مبلغ عشرة جنيهات تركية وكمية من القمح. ولم يستطع ان يقدّم له كل مايملك لاشباع متطلبات رئيس القبيلة، وحاول ان يوضح له إستحالة تحقيق ذلك. ولان التمرد يقابله عقاب شديد، قام رئيس القبيلة بطرد الشيخ وعائلته من القرية، وحرقوا منزله ونهبوا جميع ممتلكاته.

لقد فرضت عليّ مآسي هؤلاء السكان ضرورة وضع حد لتلك التجاوزات بإنقاذهم من تلك العبودية. واعتقدت انه يجب اذا نجحت في تجميع تلك الأسر المنتشرة بين القبائل واسكنتهم قوتور، فسوف تتكون كتلة بشرية قوية متماسكة، يمكنها بمساعدة حماية الجيش ان تتمتع بالهدوء والحياة الكريمة، وهي ضمانات رسمية تساعدهم على تحقيق تلك الحياة. واقترحت على هؤلاء المساكين ان يقدّموا عريضة بذلك المعنى طلباً يقدّم لحاكم المقاطعة؛ ووعدتهم بانني سوف أساند بنفسي تلك الخطوة أمام المسؤولين، وكذلك لدى المونسنيور إجْنَاتِس اسقف وان. وقام

---

* كسنفون: ولد في اثينا حوالي ٤٣٠ق.م، لعائلة من الفرسان في مجلس الشعب من إرخيا. عمل كسنفون تحت امرة ملك اسبرطة التي كانت القوة الكبيرة الرئيسية في العالم اليوناني. انه محارّب وشاعر ومؤرخ. وفي احدى الحملات عبر بلاد مابين النهرين واستخدم اسم ميزوبوتاميا على بلاد الرافدين بلاد مابين النهرين. يقدّم في بعض كتبه صورة للحياة اليونانية الخاصة. وافضل اعماله الحوار بين هيرو المستبد والشاعر الغنائي سيمونيس، حيث يظهر الخط الفكري في قصة سيف ديموقليس. [المترجمة]

الأرمن بتلك الخطوة، وأرسلوا وفوداً لدى اخوانهم في الدين يدعونهم للمشاركة في مؤتمر قوتور. ولكن الأكراد الذين عرفوا دوافع ذلك الاجتماع، هددوا الأرمن بأنه اذا ما تجرأ احد الذهاب إلى هذا المؤتمر فسوف يمزقونه إرّباً. وغالباً ما كان القيام بذلك يتبع اي تهديد، واضطر الأرمن إلى الخضوع للقوة وقبول مصيرهم الحزين الموسف.

وكان سنجق موش على وجه الخصوص، ومحافظة أرضروم عادة، مؤخراً حتى ذلك الوقت مسرحاً ممنهجاً لجور وظلم الأكراد تجاه الأرمن وفي زمن إقامتي في أرضروم وقع حدثٌ خطير يدلل عرضه للقراء صورة لتلك العبودية التي يعاني منها سكان تلك المناطق.

وهيلزغيردلي محمد بك Helezghirdli، رئيس قبيلة مامانليس Mamanlis، رجل مرموق في كردستان، وشاب قوي وبعد افضل فارس بين القبائل، وهو محارّب مقدام بارز بين أقرانه من المحارّبين، الذين خدموا في صفوف الجيوش العثمانية خلال الحرّب الأخيرة. ومنذ ذلك الوقت، كان محمد بك يتمتع بالنفوذ وبسلطة معروفة لدى سلطات البلاد، لكونه رئيس القبيلة ومدير مدينة ومحافظة هيليزغيرد. المُطلة على الفرات. ويحمل وسام المجيدية وصليب سان لازار الروسي، إلى جانب انه يتمتع بسلطة مُهَيمنه على السكان. ورغم ان محمد بك هذا يمارس السلوك العفوي والصريح لرجل الحرّب، فقد كان يُحبُّ ان يلعب قليلاً دور السيد المستبد وينطلق متهوراً لاشباع ميوله نحو الجنس اللطيف. ولانه غير راض تماماً عن حريمه، كان ضعيفاً أمام الأرمنيات اللائي يعشن في القرى الواقعة في حدود سلُطاتِه. ولا توجد اسرة ارمنية لم تعاني من مختلف انواع الابتزاز و العنف بسبب الفتيات والاخوات او الزوجات، واللائي يقوم الرئيس باختطافهن. ولا تعود النساء إلى اسرهن الاّ بعد الخضوع لكل مظاهر الاذلال والتجاوز.

واعترضت الجاليات الأرمنية ضد مثل تلك التصرفات، وارسلوا عام ١٨٦٤ وفداً إلى حاكم أرضروم، لكي يضع حداً لتلك التجاوزات؛ ولكي يستدعى محمد بك أمام المحاكم لكنْ يُحاسب على تصرفاته. وتم استدعاء الحاكم المذنب. وبدلاً من النظر في القضية والاستجابة لمطالب الأرمن، حاول بذلك جميع الوسائل وتقديم الوعود وتوجيه التهديدات لاقناع الوفد بالصلح مع محمد بك وسحب الشكوى. وقد قبلوا بالتسوية، فاسباب التخويف والرعب قائمة إلى جانب إستحالة تحقيق العدالة، وتم اجبارهم على قبول ذلك الاختيار.

وقد ارتأى الباشا حاكم أرضروم، ولاهداف سياسية بحتة، ان يتظاهر بالحلم والتساهل مع المذنب والا يكون عادلاً مع الأرمن. وانطلاقاً من ذلك المبدأ، فأن كل من قدّم خدمات للامبراطورية يجب ان يتمتع بمعاملة خاصة؛ ولان رأي الباشا يتحدد بصرف النظر عن كل مايمكن ان يدين انساناً بسبب التجاوزات عندما يمكنه ان يقدّم خدمات استثنائية للجيوش العثمانية في حال نشوب نزاع مع روسيا. ولا توجد سياسة اكثر خطأً من سياسة كهذه، لا تُؤخذ نتائجها في الحسبان.

وفي الواقع، ومع الطريقة الحالية لاعلان الحرّب، فان المكاسب التي يأملون الحصول عليها من حفنة من المحارّبين لاقيمة لها ويمكن حسبانها دون اي مبالغة بانها لاتساوي صفراً، اذا ما قورنت بالتحركات الحاسمة التي تستطيع تحديد مصر اية معركة.

والحاكم وهو يود تقيدم دليل على نفاذ بصيرته وحصافته، لم يشك بأي حال من الاحوال ان سياسته تلك قد تؤدي إلى إثارة اعداء متطرفين للحكومة العثمانية، وسيكون موقف الأرمن موقفاً مبرَّراً اذا ما قاموا مع إقتراب الجيوش الروسية برّبط قضيتهم مع قضية الروس وجعلها قضية مشتركة ونظروا اليهم كونهم محررين لهم. افلا يتعادل ذلك التحول لصالح الجيش الروسي مع كل الخدمات التي يتوقعونها من محمد بك واكراده؟ وفي خطوطنا الخلفية واثناء الحرّب الاخيرة، وبعد معارك بايندير Baiandir، وانجه دره Indje-dere، افليس هؤلاء الأكراد هم انفسهم الذي قتلوا جنودنا ونهبوا مؤننا؟ العدالة وحدها تجرد اعداءنا من سلاحهم وتخلق اصدقاء لنا؛ لان سياسة كتلك لا اخلاقية وتافهة في نفس الوقت. ولكن، تمت ترقية هيليزغيردلي محمد بك إلى رتبة باشا نتيجة سلوكه الجيد وليذهب الأرمن إلى الجحيم.

وقد أثارت تلك الفوضى حتماً، اضطرابات خطيرة. ففي محافظة موش وحيث تعداد الجالية الأرمنية كبير، اندلعت المقاومة العلنية عام ١٨٦٣ ضد ظلم واضطهاد الأكراد لهم. ولكن هناك من عارض تلك المقاومة. فقد هبت الجماهير وقرروا إرسال وفد إلى القسطنطينية، ليعرضوا مشاكلهم واحوالهم السيئة على الحكومة الامبريالية، واذا امكن ان تتخذ الحكومة الامبريالية، واذا امكن ان تتخذ الحكومة اجراءات تنهي احزانهم ومعاناتهم. وتسلم الوزير الكبير فؤاد باشا عريضة الشكوى بلامبالاة ولم يعرها الاهمية التي تستحق. وبعد ان تضرع ذلك الوفد وتوسل دونما اية نتيجة ايجابية، اضطر إلى مخاطبة الوزير بقوله، انه اذا لم يحصل السكان على رد ايجابي سيضطرون آنذاك لترك البلاد والهجرة إلى روسيا. وذلك افضل لهم من المعاناة تحت سيطرة واستبداد الأكراد. وقد انزعج الوزير من ذلك التصريح الذي لم يكن سوى التعبير عن حقوق مشروعة؛ واجابهم بغضب، وانهم يستطيعون الذهاب اينما شاؤوا فابواب روسيا مفتوحة لهم. ولدى عودة الوفد اتخذت ثلاثمائة اسرة قرار ترك الوطن والهجرة إلى جورجيا فذلك بالنسبة اليهم افضل من الخضوع لعبودية لاتُحتَمَل.

تعرض الأرمن المقيمون في مقطاعة موش في عام ١٨٦٥ إلى تجاوزات وعنف جديد. وساد الذعر لدى الأرمن في كردستان كلها. فأرسلوا وفداً جديداً يتكون من ٢٤ نائباً يمثلون الاربّع وعشرين مدينة من ارمينيا. وكان من واجب ذلك الوفد ان يقدّم لصاحب السعادة السلطان طلباً لاقرار العدالة التي رفضها الوزير حتى ذلك اليوم. وتم تقديم ذلك الطلب لجلالته في ٣١ مارس عام ١٨٦٥؛ وسلمه بدوره إلى ممثليه فؤاد باشا. وبدلاً من ان يُصغى الوزير لشكاوي السكان، ويسلك سلوكاً تفرضه القوانين

واحترامها ومصالح الامبراطورية؛ القى القبض على خمسة عشر عضواً من الوفد لانهم تجرؤوا على إثارة غضبه بعرض الأمر على السطان. و بوجود البراهين على الظلم الممنهج الذي يبدو افظع مما يقوم به الانكشاري، فمع ذلك يحلو لهم تمجيد تطور تركيا واصلاحات التنظيمات.

وفي مدة اقامتي في أرضروم، كان الالباني اسماعيل باشا حاكماً وقد ذكرته في كتابي هذا. واسماعيل باشا نموذج غير معروف لعموم قرائي واظن انهم يودون الحديث عن حياته وصفاته التي لاتختلف عن صفات غيره من الباشاوات الذين يقومون بادارة شؤون المحافظات الامبراطورية. وهو كهل في الستين من عمره تقريباً، وقضى معظم حياته في بيركوفسكا Bercovska شمال البانيا، المقر الاقطاعي لاسرته منذ عدة قرون. وقد وضحت الثورات التي حدثت في اجزاء الامبراطورية الادارية، لاسماعيل ان الزمن قد تغيَّر وان الأمراء الاقطاعيين لن يستطيعوا الاستمرار في ممارسة حياة اميرية على حساب عبيدهم الذين يقيمون في املاكهم وفي المناطق التابعة لهم. واذ تقبل اسماعيل الاوضاع الجديدة، ادرك ان افضل طريقة لان يخلق لنفسه مستقبلاً ويجمع المال هي في التداخل والاندماج في النظام الاداري الامبراطوري. وارتاى انه وهو يمارس المكر والدهاء ويسلك طريق ودهاليز السياسة الماهرة، سوف يتمكن من جمع ثروة لنفسه ولحلفائه تماماً كما كانوا يتصرفون في ظل النظام القديم.

ترك اسماعيل، مسقط رأسه وجاء إلى القسطنيطينية ونجح وهو يتداخل في دهاليز احد الاسياد؛ ونجح في الحصول على لقب باشا وعلى منصب الحاكم لمقاطعة وان. واثناء ادارته شؤون تلك المقاطعة، رأينا كيف ادار مشكلة العداوة بين قبيلة الميلانيين وقبيلة الشكاك؛ فقد أدارها لصالحه الخاص وقد تحدثت في الفصل الثالث عن تفاصيل ذلك الشأن. ودخل الباشا في مَعْمَعَان العمل بفن وحرفيّة ما لم نتوقع بعد من رجل قضى حياته داخل قصر اقطاعي. ان شهادة امين آغا رجل اعماله هي الجهة الوحيدة المسؤولة التي تستطيع ان تدلي بشهادتها على النجاحات التي توَّجت اول اعمال اسماعيل باشا اثناء ادارته شؤون وان. وفي حوار اجريته في أرضروم مع امين آغا، آنذاك مديراً في الشرطة، قال لي خمسمائة جنيه عثماني، استطاع ان يحقق الفاً وخمسمائة جنيه عثماني؛ استطاع يحقق الفاً وخمسمائة جنيه عثماني مكسباً صافياً، وانه استطاع ان يشتري بذلك المبلغ ارضاً في بلاده. فاذا ما كان ذلك الدخل لدى سيادته قد استطاع ان يحصل على مكاسب كهذه، فكم ستكون المكاسب التي تنتظر الباشا؟ لقد وصلت مدخراته عشرين الف جنيه، المبلغ المعروف، في الحقبة التي قام فيها بادارة البلاد. وهكذا، يجب الاّ تنتابنا الدهشة عندما يدور حديث عن الاحوال المأساوية التي تحيط بالزراعة، التجارة، والصناعة في تلك المناطق. ويمكن ان نتساءل كيف ان الغبار والحجارة لم تنهها بعد اطماع مثل تلك الادارات؟

وعندما قام اسياده في القسطنطينية بتثمين قدُرات اسماعيل الادارية العليا، اسرعوا بالطبع لاستغلال مواهب نادرة كتلك، وتم تعيين اسماعيل في الحال حاكماً على مقاطعة وخرّبوط الغنية. وبعد

مرور سنتين، وبعد عزل خيرالدين باشا سوى اسماعيل باشا، افضل من يستجيب لوجهات نظره، فعينه حاكماً على تلك المحافظة المهمة لملء المكان الخالي في حكومة أرضروم. وخارج الهدر ومراوغات الادارة. للباشا خطاياه وعاداته المنحطة جداً إلى جانب خموله وبلادته، ممّا تشلُ حركته وفعله في كل مكان، فيما عدا حالة الطمع والجشع وحدها يمكنها ان تحركه وتثيره وتدفعه للتصرف.

واصبحت أرضروم في ظل ادارة كهذه، ملجأ للاشرار والعصابات اليائسة. تتوافد عليها من المحافظات المجاورة في بلاد فارس وروسيا حيث ينعمون بالحرية وعدم العقاب على جرائمهم واستغلالهم، يختبئون و تحتضنهم مدن أرضروم ويرتبطون بعلاقات عديدة في جميع ارجاء البلاد. يترصدون رحيل المسافرين، ينقضون عليهم و يعودون بغنائهم إلى ملاجئهم الآمِنة المريحة في مختلف المدن.

وفي حين تسير الأمور على هذا النحو، فالحاكم الذي يبدو رصيناً، رابط الجأش لايهتم كثيراً بتوفير الامن والحياة الكريمة للسكان. يخرج اسماعيل ظُهر كل يوم على متن جواده المُتعب بدوره بسبب حمله الثمين، ويسير في أنَفَةٍ وكبرياء في خطوة متوازنة، ٣٨ خطوة في الدقيقة، والباشا نصف مُخدر من فرط الفجور والفسق نصف نائم، يتقدّم في ثقة وسط خدمه وجنوده.. الخ، الذين يتسارعون ليواكبوا سيادته ويلحقوا به حتى قصر الرئاسة ساعة وصوله. وهناك يبقى سيادته نحو ثلاث ساعات، يُدَخن عدة غلايين ليعود بعد ذلك إلى مقره الخاص متبوعاً بنفس الموكب وبنفس الاحتفالية. واذا وصل بيته، يدخل مباشرة إلى الحرملك، وبعيداً عن العيون الراصدة يقضي المساء والليل بطوله في السكر والعربدة القاتلة، بصحبة عملاء لذته الجبناء. وقد ترك الباشا حريمه لخمس عشر سنة قضاها في رحلاته الدائمة ولذلك لم تكن هناك علاقة دائمة بين السيد وبين عبيد رغباته.

وتجارة الترانسيت الفارسية المصادر الرئيس لثروة أرضروم؛ كما هو لكل البلاد الواقعة على طريق القوافل من بايزيد وحتى طرابزون. وللعلم باهمية تلك التجارة، تجب معرفة انه من المائة مليون فرنك التي تمثل القيمة الكاملة للبضائع الصادرة والواردة خلال عام ١٨٦٤ من مدينة أرضروم، ولم تساهم المحافظات العثمانية سوى بخمسة عشر مليون؛ والباقي البالغ خمسة وثمانين مليوناً تمثل حصرياً التجارة بين بلاد فارس واوربا. وقد أثارت تلك التجارة غيرة روسيا، التي حاولت تحويل الطريق إلى جانب جورجيا، على حساب المحافظات العثمانية. ومنذ حرّب القرم، بذلت تلك الدولة قصارى جهدها لاجبار القوافل الفارسية على إتخاذ طريق جورجيا الذي يتوجه مِن نَخچوان، على الحدود الروسية- الفارسية، يتوجه على تفليسن ومن هناك يصل إلى البحر الاسود، حيث تنتظر القوافل السفن. وتم تعبيد الطريق، وانشاء خانات على طول طريق القوافل واعداد الخيول وغيرها من دواب الركوب ويوضع كل ذلك تحت تصرفها وتصرف تلك التجارة وذلك بفطنة وحصافة الحكومة الروسية. ومع ذلك فان تلك الجهود التي نجحت في كل مكان، لم تلق الا نجاحاً بائساً هنا.

لقد قاومت عادات الشعب الفارسي وإحكامه المسبقة جميع الاحلام التي راودت الروس بذلك الخصوص. وهذا ما تسبب في وجود ظاهرة تُعارض تماماً المباديء التي تدير وتنظم آخر المشاريع التجارية في كل مكان. ودفعت الخرافة والتطرف لدى الفرس إلى اعتبار الشعوب الأخرى غير مؤمنة بل ومُدَنسة. ومن المحرمات، وجود اي اتصال مع السنة الكفرة والمسيحيين واليهود. وسوف يصيب الدنس كل فارسي غنياً كان او فقيراً، اذا ما استخدم بطريق الصدفة كوباً استخدمه شخص ما من دين او عقيدة اخرى مختلفة. ولا يقدّم الفارسي غليونه او نرجيلته الا لضيوف يتمتعون بالتميز كونهم فُرْساً، فهم الا نظف والا نقي كما هو عليه. وتحتفظ الأسرة بأدوات منزلية وغلايين يستعملها الضيوف الغرَباء من عقيدة اخرى. وتحفظ الأدوات المنزلية المخصصة لاستعمال المؤمنين الحقيقيين بعيداً عن اي دنس. وكما يفعل الأسرائيليون يمتنعون عن تناول اللحم والخبز وكل غذاء آخر، اذا ما اعده غير المؤمنين. وذلك تصرف حصري مُعادٍ للمجتمع إلى جانب انه فعلاً كان سبباً رغم جميع الجهود التي بذلتها روسيا لتغيير طريق تجارة فارس إلى جورجيا، علماً أنَّ جزءاً كبيراً من تلك التجارة محفوظ لتركيا.

وفي الواقع يتركز ذلك التأثير الديني للفرس من أساس سياسة اتبعها الفرس ومفيدة جداً لتجارتهم. ويتطلب ذلك اقامة خانات و محلات على طول الطريق من حدودهم وحتى تربيزونده. فأستناداً إلى عاداتهم وحاجاتهم، لايقومون حالياً بالمعاملات التجارية، وتجارة سلعهم الغذائية والمؤن إلا مع المفاوضين الفرس المقيمين على طول الطريق وعبر منطقة كبيرة من آسيا الصغرى. وتنقل بضائعهم قوافل يمتلك جيادهم الفرس ويقودها مواطنوهم. هكذا ترتكز تجارتهم ومصالحهم على اسس مُربحة ومُفيدة لتجارة الترانسيت. فمن الطبيعي اذن ان الفُرس لم يُعْطوا آذاناً صاغية للمحاولات الروسية ورفضوا إتخاذ طريق جورجيا لانهم سيضطرون آنذاك ان يتعاملوا مع نظم الجمرك، ومقتضيات الصحة، والرقابة إلى جانب تحمل الرسوم ومصاريف الطريق..الخ، في حين لايتطلب طريق أرضروم كل ذلك. فلا توجد طريق معبد، او طريق مواصلات، فمن غير الضروري اذن تحمل وجود مثل تلك الإجراءات. ونرى اذن ان الحرية التامة الممنوحة للفرس مع بلادة الحكومة، والخوف من الدنْس بالاتصال مع الاغراب، اصبح حتى ذلك الوقت عقبة أمام امكانية نجاح مشاريع روسية. بل وتلك الحقيقة ذاتها كانت السبب ان تركيا استطاعت الحفاظ على منافع وامتيازات تجارة تعدها كالحياة، وهي اسناد لذلك الجزء من آسيا الصغرى.

ان المنشآت العديدة التي أقامها الفرس لتسهيل تجارة الترانسيت وقوافلها جعلتهم يتمتعون في البلاد بذلك النفوذ الذي تمتلكه في كل العصور تلك الاجناس التي تمتهن تجارة وصناعة متطورة. فأرضروم اصبحت مركزاً كبيراً للمستودعات والمخازن، حيث يوجد كذلك ثلاثة عشر خاناً، تكاد تكفي احتياجاتهم، واكثر من ثلاثمائة محل يديرها تجار فرس. والنفوذ الذي يتمتعون به غالباً ماينفع الطريق أمام تجاوزات كبيرة نتيجة ذلك الصعيد إلى جانب إحتكار سوق المدينة

على حساب الاتراك ولصالح باشا أرضروم، الذي يشارك فقط من يقدّم له اكبر عرض. وتسود العاصمة وجميع مقاطعات الامبراطورية ترتيبات خاصة ليبقي ذلك الاحتكار للفرس حصراً. ويُحدِد باشا أرضروم، في اتفاق تام مع القنصل الفارسي للمدينة، قيمة التعرفة على هذه البضاعة او تلك، وبسعر اقل من قيمتها الحقيقية. وسوف يستحيل بذلك على التاجر العثماني بيع او شراءها تلك البضاعة وسيضطر آنذاك إلى الخضوع لادارة الحاكم.

وهكذا، فان الفرس لا يُلاقون اية إعاقة او تدخل، يستفيدون من كونهم اجانب، يشترون بضائع الفلاحين باسعار زهيدة ليبيعونها بعد ذلك في سوق أرضروم بالاسعار التي يريدون. ولايستطيع التجار المحليون خرق التعرفة، وأمام استحالة بيع او شرائه اي شيء، يجدون ان اللُقمة يتم اختطافها من افواههم في الوقت الذي يزداد فيه ثراء الباشا وثراء الفرس على حدْ سواء.

وهذه التعاملات البارعة وصلت إلى اقصى درجاتها اثناء إقامتي في أرضروم، حتى ان المدنية كلها تقريباً غارقة في الظلام نتيجة الاختفاء التام للدهون والشموع مِنَ السوق. وكانت تلك الظاهرة بسبب التعرفة الجديدة على الدهون واسماعيل باشا، روبرت هودان* الجديد، يَشْغل الناس بروائعه، فيغرق في الحال المدينة في الظلام، ثم إشاعة النور في كل مكان بفعل فاعل، او بفعل السحر ولانني لا أحب ان أبقي دون إضاءة، ولا أود المعاناة من نتائج مثل تلك الحيل، ورغم كوني جندياً لجلالته، اضطررت ان اذهب في زيي الرسمي بصحبة بقال فارسي، لكي احصل مهمات حدث على الشموع وقد تم تقديم تلك الخدمة لي. وهكذا تمتعت ومن معي بقضاء الليلة على ضوء شمعة. ونحن نعلم جيداً ان مثل ذلك النظام الاقتصادي قد عمل على افلاس قسم كبير من التجار المحليين لدرجة سمعت البعض يقول، بدلاً من رَبط الشريط حول الرأس، من الافضل إعتمارُ القبعة الفارسية المدببة، فيمارسون آنذاك تجارتهم كما يحلو لهم.

ان العرض الذي قدّمته حول الادارة واوضاع البلاد يوضح ابعاد السياسة التي كان يجب ان تسود. لقد تعرض السكان للسلب و النهب نتيجة الاحتياجات الروسية في الوقت الذي يتعرضون فيه للظلم والافقار على ايدي حكامهم وتجاوزاتهم. ولم يعودوا يعرفون من يكرهون اكثر ومع ذلك كان الباشوات ماهرين جداً في اللعبة حتى انهم نجحوا في التغلب على الروس في ذلك الميدان بممارستهم الضغط والمذلة. لقد اصبحت الغالبية العظمى من السكان مُنحازة حالياً لهيمنة موسكو. والذي يوضح ذلك الميل في افكار الناس، انه بعدما تمركزت اجزاء من القوات العثمانية بعد الاستيلاء على قارص، وتحصنت في موقع دَعْه بوينو Deveh boinu الرائع، هادفين لمنع اقتراب جيش موراڤييف المنتصر من المدينة. فذهب وفد يتكون من وجهاء أرضروم ومن جميع الطوائف والشرائح. يترأسهم المسلمون؛ لملاقاة قائد الجيوش

* روبرات هودان، ولد في مدينة بلوا، وهو احد الحواة جمع حاوي الفرنسيين الذي استطاع تقديم حيل ومشاهد خيالية وصوراً خيالية مستخدماً يديه واصابعه. [المترجمة]

الامبراطورية سليم باشا، واخبروه ان سكان أرضروم كان يستحيل عليهم مقاومة الجيش الغازي وانهم مستعدون لفتح ابواب المدينة ولن يُطلقوا طلقة واحدة. ولما كانت الحكومة ارادت القضاء على ميول كهذه قامت في الحال بتهجير ونفي اكثر اعضاء الوفد، وهو قرار سليم، الا انه لم يمنع ان يوضح التوجه النفسي للسكان وبكل قوته أمام المراقب المحايد.

وتزايدت لسوء الحظ تلك الميول منذ الحرّب، وفي آسيا، جورجيا، والقوقاز حيث يتمسك السكان من دين آخر او جنس آخر بمنطق قد انتشر بشكل عام ويستحق منا دراسة جادة. انهم يقولون بصراحة ان روسيا بعد صراع هائل ضد اربّع دول كبيرة خرجت ولم تتأثر الا جزئياً. وحتى لو كانوا يعيشون هزيمة، منذ اصبحت روسيا اكثر قوة بمقاومتها ومقدّمة بذلك للعالم برهاناً جديداً على تفوقها. فاخضاع شاميل Chamyl وغزو القوقاز الغربي، وتدمير قبائل الچركس، والقاء الرعب والفزع في قلوب شعوب آسيا، بلورت قوة روسيا، موضحة انه لافائدة من بذلك اي جهد لمقاومة نفوذها. وتلك كانت الآراء التي تقابلها في كل مكان بين تلك الشعوب، وهي آراء كان على الحكومة العثمانية أن يحاربها ويجتثها بالعمل على نشر مظاهر الحياة الكريمة في المناطق التابعة لها، وتأمين مكاسب لسكانها في شكل ادارة صحيحة عادلة مستنيرة وتنشيط جميع ميادين التطور فيها.

وفي ذلك الوقت، من سخافات الحكومة انها عدت الأكراد اعداء وقحين ومتوحشين وللاكراد مواطنون يقيمون في جورجيا يتواصلون دائماً معهم. ويقيم مواطنوهم هؤلاء اتصالات وعلاقات حميمة مع السلطات الروسية على الحدود. ومنشآتهم على الارض العثمانية، تجبرهم على اظهار مظاهر الولاء للحكومة ا لتركية. ولكن ذلك لم يمنع الأكراد من احتقارهم لها وكرههم لها من صميم القلب. ان الضعفاء والسخفاء ينتهون دائماً بان يتم احتقارهم حتى من جانب من هم ادنى او حتى من اتباعهم. والأرمن مثلاً من جانبهم، يتعرضون للاذلال الدائم بسبب جنسيتهم وعقيدتهم وقوميتهم، واصبحوا بذلك انصاراً معروفين لروسيا. ويذهب الاكليروس ورسلهم ويجيئون باستمرار إلى المقاطعات الروسية الحدودية، وهم يهاجرون وباستمرار إلى تلك المناطق.وقام الأرمن اثناء حرّب القرم بانشاء معسكر كبير فخم يستخدم لاستقبال القوات الروسية، وحيث سيقيمون عند دخولهم وان. ولكنهم اعلنوا انه خان ويُستخدم للمعاملات التجارية ؟ ولايمكننا ان نرى دليلاً افضل من ذلك للتدليل على انتماءاتهم؟

اما بالنسبة لسكان البلاد الاتراك، فقد تم تدمير معنوياتهم وهويتهم، وامّحي تفانيهم لنظام ادارة فاسد، كان قد تم فرضه عليهم. والخطوة التي اتخذها وفد أرضروم بعد حصار قارص، دليل يثير الإهتمام. واذا ما اضفنا إلى جميع اسباب الانهيار المعنوي ذاك، وضع الجيش المثير للشفقة والمسؤول بشكل خاص عن الدفاع عن تلك المناطق والاهمال الكامل لتلك الحدود، وحيث لم يقوموا بانشاء اية

تحصينات بصد الاعداء وانقاذ الارض؛[٢٥] لاستطعنا ان نقدّم للقاريء، صورة حقيقية مؤسفة يمكن ان تصل اليها اية امبراطورية تعتمد الفساد والجبن المحرك الوحيد لادارتها. ان حقائق كتلك يجب ان تثير اهتمام اولئك الذين يهمهم مصير الشرق المستقبلي.

ويتظاهر وزراء السلطان من آن إلى آخر رغبة في الخروج من حالة البلادة واللامبالاة المليئة بالذنوب، والإهتمام بتلك الإجراءات التي كان الواجب ان تكون الهدف الدائم لاهتماماتهم. ومنذ تلك الاحداث، ارتأت الحكومة التركية ضرورة التغيير الكامل لكل الموظفين الذين كانوا نَكْبَةً على كردستان وعلى الأرمن. ونعرف جيداً مشاريع التغيير تلك ونعرف كل اهمية نولها لانصاف الحلول التي يستخدمونها لذر الرماد في العيون والتظاهر بالاستجابة للراي العام، ومن ثمّ يتركون الامور على وضعها السابق. فيغيرون الناس؟ فيؤخذ حسين مكان حسن؟ وتبقى الشؤون جميعاً وللاسف عند نقطة الانطلاق الاولى. وسياسة كتلك تخدم وبأمتياز مصالح الوزراء: ففي نفس الوقت الذي يتخلصون فيه من مطالب الشعب المظلوم، يجدون فرصة يستغلونها لتوزيع الوظائف والمناصب على المفضلين لديهم وعلى الزبائن. انه التغيير الكلي الذي يجب ان يطال النظام نفسه قبل كل شيء ومن ثمَّ مجموع العاملين.

وفي نفس الوقت عام ١٨٦٦، قامت حملة ضد القبائل نصف المستقلة المقيمة في جبال كوزان، احد فروع جبال طوروس. وقد رفضت تلك الشعوب الخضوع للذل والمتطلبات المتزايدة باستمرار للحكومة التركية. واستطاع السُلطان ان يُمْلِي شروطه على سكان الجبل هؤلاء وبقوة السلاح. وقد احس السلطان بسعادة اكثر مما احس بها في كاندي Candie ويعتقدون انه لاتوجد جريمة تضاهي رفض مطالب خزينة الدولة. ومن يستجيب لذلك الشرط يعني ان الباب العالي يعده من الرعية المخلصة وكل شيء مسموح به: سرقات، اغتيالات، اعمال شغب وهجوم ما شريطة انه بدون كل ذلك لن ينال منصباً في السلطات المحلية.

من المحتمل، ان الكوزانيين المساكين قد ارادوا ان يهتموا بشؤونهم بانفسهم، وهنا يمكن الخطأ الذي ارتكبوه. انه المال الذي يجب توفيره للوزراة؛ لتفادي التصرفات المرفوضة. والرأسماليون لايتعاملون مطلقاً ولايؤمنون بالاستدانة والدّين. فيجب اذن البحث عن المال في ميادين اخرى.. افما كان من المفيد القيام بعمل سريع ضد القبائل المتوحشة واعادتها إلى جادة الصواب؟ تلك القبائل التي احرقت واسالت الدماء في محافظات كُردستان؟ وارمينيا؟ ولازستان؟ بالطبع لا. فالتوافق تام ومكفول بين السلطات والاشرار، المصدر الداعم لاستغلال يدر الارباح.

---

[٢٥] منذ سنة تقريباً قامت الحكومة التركية باجراءات تهدف إلى القيام بذلك؛ لماذا لم تفعل ذلك من قبل؟ في الوقت الحاضر جاء ذلك متأخراً جداً.

الفصل السابع عشر

المشير يترك أرضروم، رفض طلبي بالذهاب إلى القسطنطينية، هروبي عبر جبال لازستان، صوفي محمد و أشقياؤه، وصولي إلى ريزيه على البحر الاسود

وصل بريد القسطنطينية أخيراً حاملاً الأمر الذي انتظروه طويلاً بنقل مقر القيادة العامة إلى ازرنجان. وبدأت قوات الاركان العامة تحركاتها في الثامن والعشرين من يوليه تموز ١٨٦٣، في حين ان المشير لم يرحل الا في ٢ آب. وقبل ان يترك المشير أرضروم. ظننت بهذا الخصوص ان اذهب اليه للحصول على السماح لي بالذهاب إلى القسطنطينية واعلنت لسيادته انه لافائدة من اتباع القيادة العامة في رحلاتها وتحركاتها. إلى جانب انني لم احصل على شيء حتى الآن ولم تتقدّم قضيتي قيد انملة عما كانت عليه منذ يوم وصولي أرضروم. ورجوت الباشا ان يوافق على سفري للقسطنطينية. ولكن البريد حمل الرفض البات لطلبي بالسفر ومرفقاً مع الأمر بالموافقة على النقل إلى ارزنجان. وكان ذلك الرفض هو ما حصلت عليه من مصطفى باشا إذ يجب ان لا اقترف ايّ خطأ، وكانت اللحظة مؤاتية جداً لي. وبما ان المدير بدأ عُدْوانياً جداً اكثر فأكثر دفعني ذلك لارى انه من الافضل ان اذهب مباشرة إلى القسطنطينية تاركاً ورائي الباشا وبطانته يتلاعبون ويتآمرون كما يحلو لهم. وإلى جانب الاضطراب والفوضى اللذان سيترافقان حينذاك وتحركات القوات قد خلقت طريقاً ذهبياً لخروجي وهروبي إلى القسطنطينية. وبقائي طويلاً بالقرب من القيادة العامة كان يعني ببساطة الخضوع لتحمل مصير مؤسف. وخبرة ثلاثة شهور اظهرت لي بوضوح ان انتظار الحصول على تحقيق العدالة من ذلك الرئيس او تلك الادارة ليس سوى التعلق بالاوهام. وبدلاً من تحقيق العدالة لمطالب جنودي ومطالبي، كانت جهود المشير تنصب في الواقع لتدميري حفاظاً على مصالحه الخاصة ومكانته. فالافضل لي اذن، ان استغل الظروف، وبدلاً من اعيش في محيط الخداع واصبح ضحية له، يجب على الا اهتم به او ببطانته، تماماً كما فعلت مع عزمي.

ولمعت في ذهني فكرة: انني لم اقدّم من باب الحذر تقريراً إلى وزارة الحرّبية من قبل للتأكيد على حقوقي وعلى المطالبة بتحقيق العدالة. اذ ذاك من الصعب تبرير الخطوة التي قررت انجازها، ولن يكون في مقدوري الدفاع عن موقفي؛ من الان فصاعداً؛ مبرراً ان صمت الحكومة نفسه بخصوص مطالبي، دفعني لاتخاذ ذلك القرار ولان المشير مصطفى باشا لم ير من الضروري ان يجيب في الحال على رسالتي فقدّم خدمة جليلة لي باستهتاره هذا؛ وكان سبباً يُبَرر رحيلي من وان

آنذاك. ولكن منطق كهذا لا يُبَرِر رحيلي من أرضروم. وردي على ذلك قولي لنفسي في نفس الوقت انه اذا كان الباشوات يدوسون بالاقدام على القوانين العسكرية. وان أيّ فرد يشعر بقوته للدرجة التي لايعاقب فيها على افعاله، لماذا يجب ان اخاف اذا ما تصرفت بنفس القوة وخاصة اذا ما كانت مصالح خطيرة تتعرض للخطر كشرفي وحتى وجودي نفسه يتطلب ذلك؟ كلما كان المرء يتسنَّم مناصب عُليا في الهرم العسكري، كلما زادت مسئوليته أمام القانون. فها هو جنرالُ فرقة، ومشيرٌ لايهتمان بقانون او دستور فلماذا يكون لقائد كتيبة ما قانون؟ فحتى خطي هومايون گولخانه والتنظيمات، وكذلك خطي همايون لعام ١٨٦٥، يعلنون مبدأ المساواة أمام القانون. ايمكن ان تكون تلك القوانين مجرد كلمات مرصوصة؟

وبعيداً عن كل تلك الاعتبارات كنت واهماً كأكثر جماهير تركيا واوربا أمام اشاعات تتردد حول النوايا الحسنة التي تُحفز الوزير فؤاد؟ اقول كنت واهماً يدغدغني امل في ان كشف طبيعة كطبيعة ذلك الرجل التي تؤكد لي لطف سيادته؛ وانه حتى لو قرروا عقابي آنذاك بسبب رحيلي إلى أرضروم، ولكنت قبلت ذلك العقاب عن طيب خاطر، ليقيني بأن كل من يقترف جُرماً ما يجب ان يواجه العقاب في حين ان كل ضحية سوف تنال حقها العادل. وفي نفس الوقت ارى ان جميع النظريات محتملة ومع ذلك يجب ان آخذ في الحسبان النظرية القائلة باستحالة تحقيق العدالة.

وفي هذه الحالة لم يبق الا ان اقدّم استقالتي محتفظاً بحقي في الابتعاد وانا مرتاح الضمير. واقول انه ومن خلال عملي تصرفت كما ضابط وقمت بما يقوم به كل رجل شجاع يدافع عن جنوده. واذ قررت اتخاذ ذلك الموقف قررت ان يكون اليوم بعد الغد هو الذي اخترته للتنفيذ.

وكان الثاني من آب موعد سفر المشير إلى ارزنجان، وارسلت لي المعتمدية خيولاً حتى ارافق الباشا في سفرته. وتقضي خطتي التي اوقفتها حتى اتمكن من الهروب بتضليل المشير ببقائي يوماً في المؤخرة، واذا ماسبقني بمرحلة تظاهرت بانني اتبعه حتى اجد الفرصة لاتخاذ طريق البحر. ويوم رحيل الباشا، ارجعت الخيول التي كانوا قد ارسلوها لي بحجة انها ليست في حالة جيدة وطالبت بإرسال خيولٍ غيرها تكون في حالة جيدة. وفي الغداة، وقد استلمت الخيول القادرة على تحمل مشاق مغامراتي، تركت أرضروم. واول مأوى يرتاح فيه المسافرون المغادرون أرضروم، كانت قرية اليِجه، قرية على بعد ثلاثة فراسخ وسط وادٍ يمتد سبعة فراسخ حتى سفح جبل خوشاپونار. ويخترق نهر قَرَهصو الوادي من الشمال الشرقي وحتى الجنوب الشرقي.

وقبل الوصول لقرية اليجه، انضم اليّ وانا في الطريق بعض الكتاب وموظفون آخرون ليرافقوا القائد العام، الباشا وعددهم اربعة، إلى ارزنجان. ولم يشكوا ابداً انني اتوجه نحو طريق آخر، وتصوروا وهم يعرضون على شراكتهم في الرحلة انهم يقدّمون لي خدمة. وقبلت العرض وانا احاول الا يبدو علي ما اخفيه. وتضايقت جداً فقد كنت اعدّه عائقاً أمام تنفيذ مشاريعي.

وقبل غروب الشمس، وصلنا اليجة، قرية ارمنية صغيرة، تحوى مائة عائلة. واثناء انتظارنا اعداد الخدام الطعام العشاء، كما يحدث عادة في الشرق، اخرج رفاق الطريق من حقائبهم صناديق مغلفة بعناية تحوي الراكي وهو نوع من شراب معروف بماء الحياة. وعرض رفاقي عليّ تلك البضاعة المهرّبة على استحياء، ولم يكونوا يعرفون اذا ما كان منظرٌ كهذا يمكن ان يجرح مشاعري. ومهما كانت عاداتي تجاه الشراب فان الفكرة التي راودتني ان حلفاء كهؤلاء سيكونون في هذه الظروف افضل من غيرهم لتسهيل هروبي. فتراست تجمع رفاقي في حيوية ولأبين لهم كيف تشرّب الزجاجة كلها. واذرايتهم قد تناولوا الكثير من الشراب واصبحوا سُكارى، نهضت، وتركت رفاقي بين ذراعي باخوس Bacchus* ومورفيه Morphee** وذهبت لاقوم باعداد ترتيبات رحلتي. وبحثت عن دليل يعرف جيدا ذلك البلد الجبلي، حيث سأتخذ طريقي هارّباً. وبعد ان اعددت كل شيء، دخلت خيمة الرفاق، حيث انسحبوا بعد ان شرّبوا وتناولوا الطعام وتعبوا واستغرقوا في نوم عميق. واخذت حاجياتي في رفق وهدوء ووضعتها على الخيول وانطلقت في طريقي. وكانت قافلتي تتكون من عريف، رجل شجاع مخلص، وخادم، ودليل وست خيول.

ومن اليجه يبدأ طريق طرابزون وسوف يتبعه الباشا وبطانته وصولاً إلى ارزنجان. ويتوجه الطريق نحو الجنوب الغربي بدلا من الطريق الذي اخترت اتباعه نحو الشمال حيث يصل إلى محافظة اسپير وإلى سلسلة جبال جميل داغ. واعتقدت بذلك انه باتخاذنا طريقين مختلفين في اتجاهين مختلفين، فاننا بذلك نبتعد اكثر فاكثر، وتقل خطورة امكانية متابعتي كما كان الحال اثناء رحلتي من وان إلى أرضروم. وفيما عدا ذلك هناك من خدم مغامرتي كثيراً، انها تلك الصعاب والاخطار التي يمكن مواجهتها في جبال لازستان القاحلة والفظيعة لدرجة ان اي شخص لا يمكنه ان يصدق ان اكون قادراً لان اتجرأ وحدي عبر طريق كهذا.

وفي منتصف الليل، وقد اخذت الطريق صوب اسپير، وعبرت في الظلمة نهر قرةصو، حيث وجدتُ نفسي في الفجر على بعد ستة فراسخ من اليجه، على الجبال التي تكوّن الجدار الشمالي لهضبة أرضروم. وفي السفح الآخر من الجبال، كانت قرية اوچكيلسي، اول مكان مأهول قابلته في اليوم التالي. ومنها اخترت دليلاً جديداً. ثم تابعت لبعض الوقت احد فروع نهر چولوك ووصلت في المساء إلى قرية

---

* باخوس، اله الخمر لدى الرومان، ابن الاله جوبير كبير الالهة و سيميلي يقابل الاله ديونيسوس في اليونان. وماتت والدته بالصاعقة قبل ان تنهي حملها وظل الطفل في فخذ والده حتى لحظة الولادة. وساعد جوبيتر في حرّب الالهة ضد العمالقة واثناء المعركة كان سيد الاوليمب يثير شجاعته وهو يصيح: حسناً، حسناً، كن شجاعاً باخوس وظلت تلك الحملة الصَّيحة التي ترددها كاهنات باخوس. وكان اسم باخوس يستخدم مرادفاً للخمر: المتعبدون، الأنداد، والأطفال، وخُدّام المعبد. وتوجه له تماثيل في اللوظر وفي مدريد، والفاتيكان. [المترجمة]

** مورفية، اله الاحلام، ابن الليل والشمس اسطورة. [المترجمة]

ريزيه،[٢٦] حيث المسافة بينها وبين أرضروم تبلغ اثنى عشر فرسخاً، وقضيت الليلة فيها، ثم واصلت طريقي تاركاً ورائي مدينة اسپير على يساري. وفي مثل هذه الظروف من دواعي الحذر دائماً الابتعاد عن المناطق المأهولة. ونحو المساء وصلت إلى شواطئ نهر چولوك.

ينبع نهر چولوك في جبال طوروس، ويجري من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، مواصلاً جريانه في اتجاه متوازٍ لجبال لازستان والبحر الاسود حتى ارتفين، ومن هناك يتجه فجأة نحو الشمال ويذهب ليصب في البحر الاسود في ضواحي باتوم. وتغمر مياه نهر چولوك السفح الشرقي من جبال لازستان، وهو صالح للملاحة فقط بدءاً من ارتفين رغم تياراته سريعة الجريان، وما ان حلّ الليل، كان يجب على ان ابحث عن مكان مناسب في هذه الجهة من النهر، وحيث تستطيع قافلتي وانا ان نرتاح قبل ان نعبر النهر ونواجه شعب ومنحدرات جبل جميل داغ.

لاتوجد قرية، ولاحتى كوخ في تلك الوهاد الموحشة، وحيث يتكون مجرى النهر وضفافه من كتل ضخمة من الاحجار الكبيرة. في هذا المكان المنعزل الكئيب، بحثت كثيراً لاجد ملجأً في اعماق واد صغير وسأكون سعيداً بذلك حيث لايرى فيه سوى ظلال بعض اشجار البندق وبعض التبن الذي جمعه الفلاحون وبعض العشب لخيولي. فتلك هي المصادر الوحيدة التي يمكن لتلك الاماكن ان يُقدّمها. وتمددت على الارض مُلْتفاً بمعطفي وشعرت بجوع قاتل وبآثار تعب كامل، وتناولت عشائي المكون من خبز يابس اسود من الشعير وتوابل البصل. وقضيت ليلة في العراء، ووسط ذلك النوم العميق، جاء ذلك النوم العميق ليضع حداً لجميع مباهجي. وفي صبيحة اليوم التالي، قمنا واعدادنا اسرجة الخيول وبدأنا في خفة في الصعود على جبل جميل داغ ونحن نجاور السيل العنيف في سالازور.

لاشيء يمكن ان يعطي فكرة او يقدّم صورة، والتأثير البالغ الذي يقدّمه منظر ذلك المضيق العميق المنحوت بين قمتين عاليتين، احداها على اليسار مكونة جميل داغ والثانية على اليمين مكونة همشين داغ. ولاتكاد ترى السحب من وراء هاتين القمتين.

وابتداء من طريق چولوك الوعر فهو يمتد على طول شطآن سيول مخيفة ويتجول بعد ذلك إلى مستنقع او طريق ضيق جداً منحوت في الصخر، تدعمه جذوع الاشجار حيث يصبح المسافر ودابته معلقين بين الحياة والموت. وقطعنا اكبر مسافة من الطريق مشياً على الاقدام، وكنا حذرين جداً كما يتطلبه الوضع في حال كهذا. وبعد اربع ساعات من مسافة مضنية وصلنا اخيراً منهكين من التعب إلى قرية سالازور الواقعة على مسافة تمتد إلى ثلثي ضواحي الجبل تقريباً.

وتطلبت القافلة ساعتين من الراحة لاستعادة الانفاس والشعور بالانتعاش. ثم استأنفنا طريقنا من سالازور حتى منطقة توزيع المياه وحيث بقي أمامنا من الوقت ساعتين كاملتين سيراً.

---

[٢٦] يجب عدم الخلط بين هذه القرية ومدينة ريزية على البحر الاسود.

وبعد تلك القرية يتسع الجبل، ويمتد طريقنا في تلك المناطق المرتفعة وسط اراضي مزروعة بالحجارة، تحيطه جبال عامودية مكونةً قمم تلك الجبال. ووجدنا انفسنا على ارتفاع ثلاثة الاف متر فوق سطح البحر. ومع ان الحرارة شديدة جداً، فعندنا ما وصلنا إلى القمة كانت دهشتنا كبيرة لرؤية بحيرة جليدية وسط مدرج صخري. وسوف يدهشنا كذلك ان تلك المنطقة المعزولة في المعمورة، لم تكن ابداً محرومة من الحياة كما كنا نظن، حيث رأينا خمسة مخلوقات تتراكض وتتدحرج على الصخور على طول الشاطيء المقابل للبحيرة، ويبدو كما لو انها قد اختارت ذلك المضمار حتى تلهو وتلعق، انها خمسة من الدببة. وقامت قافلتنا باصدار اصوات عالية حادة، اخافت تلك الحيوانات واسرعت راكضة على السفح المقابل واختفت. وبعض طلقات من البندقية ساعدتها على الاختفاء تماماً، وبفضلها بقينا اسياداً للمكان.

ومع اقتراب الليل ازدادت شدة البرد وحدّتُه، مما منعنا من التوقف في هذا المكان حيث نرى الطبيعة تتصور أمامنا في مظهر هائل مخيف، فأسرعنا للنزول بحثاً عن مأوى قبل حلول الليل. واخبرني دليلي ان المكان الوحيد لقضاء ليلتنا هو حظيرة صغيرة تقع على مسافة من قمة الجبل. فقررت آنذاك ترتيب نزولنا متوجهين بسرعة إلى ذلك المكان باسرع مايمكن.

ومع حلول الليل، وصلنا إلى تلك الحظيرة، وماكِدْت اترجل مِن فرسي حتى تقدّم نحوي ثلاثة اشخاص وفقاً لعادات البلاد ليساعدوني على الترجل. وكنت متعباً منهوكاً حتى انني في البداية لم اهتم كثيراً بهوية من جاء لاستقبالنا، ولكن ما ان مرت بضع دقائق حتى قال لي الدليل مضطرّباً. وفي حالة توجُّس، باننا قد وقعنا بين ايدي اشقياء يتراسهم صوفي محمد الشهير الذي يُجسِّد الفزع في تلك النواحي. وان كل ما يحيط بنا في هذا المكان يعود اليهم. وقد اذهلني ذلك الرأي فلزمت الصمت محاولاً اظهار بعض الشجاعة. وتجولت نظراتي تتفحص المكان حولي للتأكد من تلك الحقيقة. واخذت الاحظ الجماعات المختلفة الواقفة هنا وهناك يتهامسون بصوت خفيض فيما بينهم. وهناك في الاكواخ وخلف اكوام الحجارة رأيت بعض الرؤوس المغطاة تنظر إلى بخوف وفزع. انهن اولئك الرشيقات نساء القبيلة وقد تركن القرية ليلا ليقضوا الليلة مع ازواجهن وعشاقهم. وشعرت انني قوى بمافيه الكفاية بعد دقائق معدودة من التخبط، وقررت استخدام الجرأة. واقتربت من احدى الجماعات الاقرب من مكاننا وسألتهم اذا ما كان رئيسهم صوفي محمد، بينهم الآن. وبعد ان تفحصوني من رأسي إلى اخمص قدَمي، أجابوني بأن محمت ليس موجوداً هناك الان، وانه قد ذهب لبعض شؤونه، ويعتقدون انه لن يعود قبل انبلاج الصبح.

توجهت اليهم وقلت لهم ان نصيبي وقِسْمتي قاداني في شعاب ذلك الحبل و رَمَياني بينهم، وانني سعيد ان اقضى الليلة بينهم وفي اكواخهم. وبدا ان تلك الكلمات قد نالت رضاهم واقتربوا مني اكثر راغبين في المودة. ويبدو ان شخصيتي الودودة الجريئة قد اثرت فيهم وطمأنتهم بعض

ظهوري المفاجئ بينهم. واشعلوا ناراً كبيرة حيث تدَّجلت، وجلسنا حولها. ولتبديد اي بذرة شك قد ساورت ربّما نفوس مضيفينا العنيفين؛ قصصت عليهم ان اختراقي للجبل كان مجرد مغامرة فهناك اعدائي الذين يقتفون اثري واجبروني البحث عن ملجأ في القسطنطينية. وطلبت منهم آنذاك في هدوء هل يمكن لديهم مايمكن ان نتناوله، ولانني ورجالي لم نتناول شيئاً جيداً منذ بضعة أيام وأننا نشعر بالضعف التام وقد استجابوا لرغبتي بشكل رائع، لانه بعد بضع دقائق فاجؤونا بتقديم طعام لذيذ جداً. لم يشعر هؤلاء المساكين بأي حرج وهم يعيشون فوق قمة الجبل وقدّموا لنا طعاماً فاخراً: الحليب واللبن الرائب وقطع اللحم المقدد المُعَد جيداً مع البيض.

وأثناء وجبة العشاء التي قدّموها لنا داخل احد الاكواخ دخلت معهم في حوار مثير للاهتمام جداً. لقد اردت اشباع فضولي حول طريقة حياتهم، والاسباب التي اجبرتهم على ممارسة وجود كهذا. لقد قالوا لي ان العديدين من بينهم ينتمون لاُسر كبيرة، لانهم لايمتلكون الوسائل ولا أسس النفوذ الكافية حتى يتلافون الجندية، هربوا لاجئين إلى هذا الجبل. حاولت آنذاك ان اوضح لهم انه رغم نفورهم من حياة الجندية، فهي ليست سيئة إلى هذا الجد. وانه من الافضل لهم ان يخدموا بلدهم خمس سنوات بدلاً من ان يقطعوا هذه الجبال طيلة العمر. واجابوني بقولهم اذا كان الباشوات والضباط يعاملون الجنود كما يجب ان يُعاملوا، لما كان أمامهم سبب للتخويف من الحياة العسكرية؟ وذلك ليس هو الحال في الواقع، فمن الافضل لهم ان تنتهي حياتهم في هذه الجبال بالقرّب من اسرهم ولا ان ينتهوا ضحايا ظلم هذا الباشا او ذاك البك؟

وكان ذلك الرّد ليفتح الباب أمام جَدَلٍ ربّما لن استطيع الخروج منه باية فائدة. ففضلت ان انهى ذلك واغيِّر الموضوع، فطلبت منهم ان يحدثوني عن صوفي محمد الذي سمعت عنه الكثير. تقدّم احدهم يُدعى رجب، وبد الحديث بقوله ان صوفي محمد كان طالباً في كلية اللاهوت في مدينة ربزه.

قبل عدة سنوات حدثت مشادات مع اسرته اثارت غضب والديه اللذان حاولا الاعتداء على حياته ذات يوم وهو في السوق. ولكن محمد كان مِقداماً ولاينحني أمام اي شخص، دافع عن نفسه وبدلاً من ان يقع ضحية قتل ثلاثة من اعدائه. ودفعه ذلك آنذاك ان يلجأ إلى لجبال ليتمكن من الافلات من إنتقام اعدائه الكثيرين. ولكن هؤلاء كانوا يتمتعون بسلطة كبيرة في المجلس الاداري للمقاطعة فقد كانوا بالفعل اعضاء فيه. واستخدموا نفوذهم لاستصدار امر بالقبض عليه فاصبح محمد بذلك خارجاً على القانون. ولان السلطة التنفيذية كانت مسؤولة عن القاء القبض عليه، فقد دخل في اشتباكات عديدة مع الشرطة لتجنب مطاردتهم. واثناء الصيف هجم على القرية واجتاح وانتهك ونهب ممتلكات اعدائه. ولكن في الشتاء وجد نفسه مُجبراً على ترك تلك المناطق العالية من جبال لازستان وذهب لينضم إلى الچركس في حملتهم ضد اهل موسكو الكفرة.

واذ وجد اعداؤه استحالة التخلص منه، قرروا ان يعقدوا تسوية معه. وتظاهر الحاكم بانه يمنحه عفواً تسوية معه. وتظاهر الحاكم بأنه يمنحه عفواً عاماً تاماً شريطة ان يمارس حياةً شريفة. وقبل محمد العرض وعاد إلى اسرته. ومحمد الذي كان قد تعب من حياة فرضت عليه، وقع سريعاً في الفخ. لقد كان ذلك العفو فخاً نُصب له لينالوا منه بسهولة ويتخلصوا منه. وذات يوم، وكان محمد مشغولاً بالعمل في مزرعته وبجانبه ابنته، امطره الاعداء بطلقات متزامنة، لم يصيبوا الاب قتلت ابنته. ومحمد الذي كان لايفارق سلاحه، انتقم لوفاة ابنته وقَتل اثنين من مهاجميه، ومن ثم هرّب إلى الجبال. ومنذ ذلك الوقت، عاش صوفي محمد على رأس عصابة من قطاع الطرق يبلغ عددهم الثمانين، واعلن حرّبا لاهوادة فيها على اعدائه. واضاف محدثي قائلاً، وفي هذه الليلة بالذات خرج للهجوم على قافلة قادمة محميّة ببضائع تعود إلى اعدائه.

وجاء النوم ليضع حدا لمحادثاتنا بعد متاعب واحداث اليوم فقد نعمت براحة لم يُقلقها شيء حتى الصباح. ومع شروق الشمس، ودعت اصحاب المكان الذين حرك لدى مصيرهم المحزن مشاعر ندم مرير. وحقيقة الأمر انه مهما كان اللوم الذي نكيله لهم على حياة الاجرام تلك ومعاناة هؤلاء المساكين، فمن المؤكد ان مسؤولية ذلك كله تقع على عاتق الحكومة بِظُلمها وعدم احقاق الحق وسوء النية التي عملت على اثارة كل تلك الفوضى. ويمكن ان نستنتج من هذه الحقائق انه من حدود بلاد فارس إلى سواحل البحر الاسود تنتشر الجرائم وقطع الطرق في تلك البقاع، كثمرة للفساد الذي تشارك فيه الحكام الذي يضاف إلى ظلمهم وطغيانهم. فانتشار الجريمة والعصابات سببه المباشر الادارة السيئة للبلاد. فاليونان، وايطاليا، وتركيا يقدّمون برهاناً على حقيقة تلك البديهية. ومع ذلك، فلكي نكون عادلين يجب علينا ان نقول ان انتشار الجريمة في اليونان وجنوب ايطاليا سببه عدم قدرة السلطة على اصلاح تلك الاحوال، في حين تقف تركيا على قمة هرم الاجرام وتتشارك فيه مع اللصوص.

وفي ذلك اليوم، وصل بنا الطريق عبر سلسلة مخيفة وهي تشبه كثيراً تلك السلسلة التي قطعناها ونحن نصعد السفح الآخر. ومع ذلك ففي هذه البقعة وبسبب رطوبة البحر الخضرة مزدهرة فالبلاد غنية بانواع الخضروات، والجبال بقممها الصغيرة والكبيرة مغطاة بالغابات مقدّمة منظراً من اروع المناظر. وتبلغ المسافة بين آخر ملجأ لنا وبين مدينة ريزه سبعة عشر فرسخاً، واقتنعت بانني قطعت جزءاً من هذا الطريق واجلت دخولنا المدينة للغد، ولم اجد وانا في الطريق منزلاً او اية منطقة مأهولة. ومع حلول الليل، اضطررت انا وقافلتي ان نُخَيم وسط الغابة، وكان سقفي اوراقاً تغطي فرع شجرة سنط. وفي تلك الليلة كان الزهد والصيام إجبارياً وتناولنا عشاءنا خبز الذرة. ولكي نحمي انفسنا من الحيوانات المفترسة المنتشرة في تلك البقاع، اضطررنا ان نشعل ناراً كبيرة كنا نغذيها طيلة الليل. وقد حمتنا النار من البرد والرطوبة كذلك.

ولانني كنت اود انهاء مغامراتي بفروغ صبر، استأنفت الرحيل مع بزوغ الفجر. والتقينا ونحن سائرون في طريقنا بافراد من الشرطة كانوا يطاردون صوفي محمد. وقالت الشرطة انه كان قد هاجم قافلة قادمة من ريزيه. وانه قد كوَّم جميع البضائع وحرقها مع الاقمشة الفاخرة واشعل فيها النيران. وصرف ادلاء القافلة بعد ان منحهم المال، وابتعدوا مع دواب الركوب. طريقة جديدة وكريمة لممارسة قطع الطريق. ودخلت مدينة ريزه على البحر الاسود، واضعاً بذلك حدَّاً لرحلتي عبر جبال لازستان.

بنگەی زین

الفصل الثامن عشر

ريزه، رحيلي إلى طرابزون، وصولي إلى تلك المدينة، رحيلي إلى القسطنطينية، وصولي للقسطنطينية، قدمت نفسي إلى فؤاد باشا، اوقفوا نشاطي، استلمت الأمر بالانضمام للجيش، سمة غريبة للتشريع

تقع مدينة ريزه `Rize، على بعد ثمانية عشر فرسخاً إلى الشرق من مدينة طرابزون Tre`bizonde؛ في مَوقع لا اجمل ولا اروع. وتمتلك تلك المدينة مرسىً واسعاً افضل من مَرسَى مدينة طرابزون. وتضاريس ذلك المرسي والصخور التي تتطاول قمتها المدينة، تساعد على انشاء سد من مائة وخمسين متراً بشكل يسمح بتأمين الميناء من الرياح الشمالية الغربّية التي يَخْشى الجميع خطورة هبوبها في ذلك الساحل. واذا ما اعتبرنا اقتراب تلك المدينة من أرضروم بمسافة سبعة عشر فرسخاً اكثر من طرابزون، يتضح ان تجارة الترانسيت الفارسية وتجارة ذلك الجزء من آسيا الصغرى ستحصل على فوائد جمّة، بسبب موقع ريزه، الذي جعلها في وضع يعمل على تسهيل الحركة التجارية.. إلى جانب صناعات النسيج المشهورة في انحاء الشرق كله لروعة جمالها، وحدائقها الغنية باشجار البرتقال والليمون.. الخ وكلها مصادر متعددة للازدهار والرخاء.

وقبل الاصلاح، وفي عصور الاقطاع، كانت تلك المدينة مزدهرة جداً وآثار عظمة حكامها شواهد تقدّم البراهين على ذلك. واليوم تسكنها ثلاثة آلاف اسرة، كلهم لازيون تقريباً ويدينون بالاسلام. واليوم كانت إقامتي هنا قصيرة جداً. وعندما اعددت مصاريف رحلتي، استأجرت مركباً حيث شحنت جميع اغراضي وجلست كباشا حقيقي، وحيث ستة عشرة بحاراً يجدفون بكل قواهم.

وعندما كنا نبحر بمحاذاة الشاطيء في الظلمة هبت نسمة منعشة قادمة من البر ايقظت جهود البحّارة، وساعدتنا اذ سمحت لسفينة القراصنة بالابحار. وها نحن في ميناء طرابزون مع بزوغ فجر اليوم التالي. وللصدف السعيدة، أبحرت سفينة البريد في ذلك اليوم بالذات. فأسرعت بالصعود على متن الشيليف، وهي مركب تابع لجهاز نقل البضائع الامبراطورية. وكنت قد سافرت على متنها من قبل عندما تركت آسيا، من القسطنطينية إلى تربيزونده. ورفعوا المرساة في المساء، واستغرقت الرحلة ثلاثة ايام. وفي الثاني عشر من اغسطس آب دخلت البوسفور.

ولم أُضيع وقتي، فتقدّمت إلى فؤاد باشا غداة وصولي. فهو يجمع في شخصه رئيس الوزراء، ووزير الحرّبية، وهو الذي يجب ان اتوجه اليه واقدّم شكاواي. وكان سيادته في ذلك الوقت يقيم في قصره الاميري، في جانليجه Canlidja الذي يطل على البوسفور. وصادفت زيارتي غداة حفلة

اقامها للسلطان تأكيداً على اخلاصه وتفانيه. وتنطق الشقق والحدائق بالترف والذوق الرفيع. وها هو فؤاد باشا جالساً يحيطه وسط دافئ ساحر، ويتلذذ بنفث دخان غليونه وانحناءات الاحترام التي يقدّمها له خدامه المتواضعون بافراط. وتوجهت نحو الباشا دون الكثير من المقدّمات او الاحتفاليات، ووضعت بين يديه نسخة من المذكرة التي كنت قد قدّمتها إلى المشير مصطفى باشا بخصوص عزمي باشا ومقتل التاجر اليهودي موشو ووفاة جنودي.

واضفت فيها محاولاتي المتكررة لدى المشير قائد فيلقنا حيث لم احصل على أية نتيجة. ولذلك وجدت نفسي في حاجة يائسة لان اتقدّم لسعادته لاحقاق الحق الذي يطالب به جميع الضحايا. وعندما سلمته الطلب، وجب عليّ ان ابقي واقفاً في الوقت الذي ارى فيه المتطفلون والدُمى يتمتعون بشرف الجلوس حول الباشا. في اوربا، يتمتع الضابط والملازم بالاحترام اللازم الذي يحظى به كل من يدافع عن الوطن، بل ويحدث احياناً ان ذلك يعود إلى حميمية رئيس الدولة. وفي تركيا، مازال رئيس الوزراء لايصدق ان الكولونيل يجب ان يحترم كانسان ويظن سعادته ان مكانته تتدنى اذا وقف أمام الجنرال قائد اللواء. واذا ما حدث وحصل ضباط من تلك المرتبة على شرف السماح لهم بالجلوس في حضرة الباشا فيجب عليهم صفق القدّمين وتأدية التحية العسكرية ويلوون الرأس ويمدون الفم تعبيراً عن الضآلة؛ ثم تقطيب الوجه كما يتطلّب الاتكيت التركي، وذلك برهان على تربية سليمة. ولكن اذا ما نسي احد يوماً لسوء الحظ واحدة من تلك الانحناءات، واذا ما احتفظ بالمشية العسكرية الرصينة الطليقة فسوف يوصم بالعار ويندَّد به و سيكون رجلاً غير مرغوب فيه في اعين الكبار إلى جانب عده رجلاً خطيراً.

ووسط هذا الفردوس الارضي جاءتنا اخبار سيئة مثيرة من ادارته اغضبت فؤاد ووتّرت اعصابه. وعلى اي حال تظاهر بالا يشير إلى مالا يناسبه ان يعرفه ولم ينبس بكلمة إلى السرقة والقتل وغيرها من الحقائق المهمة التي عرضتها عليه. وارتأى بعد كل ذلك، انه مهما كانت الشؤون والاخبار سيئة، فهي ليست بمستوى جريمة الذهاب إلى القسطنطينية مطالباً بتحقيق العدالة.

وفي واقع الأمر، وبعد لحظات من التفكير طلب مني اذا ما كنت اجهل ان النظم العسكرية تعد ترك القيادة العامة بدون موافقة الرؤساء، تعبتها شأنا ترتبط به مسؤولية خطيرة. وسمحت لنفسي ان اجيب على تلك الملاحظة التي اعرف تماماً ان تصرفا كهذا يتعارض والقوانين العسكرية ولكن مع ذلك، ففي حالة كحالتي، تقع المسؤولية بأكملها على عاتق اولئك الذين داسوا باقدامهم على القوانين واجبروني بجرائمهم وظلمهم ان الجأ إلى ذلك الاجراء المتطرف.

وفؤاد باشا، وبعد ان استمع إلى اجابتي تحدث إلى بلهجة باردة حادة بانه سيأخذ هذا الشأن بنظر الاعتبار، وانه سيقدّم تقريري في الحال إلى مجلس وزارة الحربية. ومع ذلك فقد آثار سلوكه الحاد وتعبيره في نفسي احاسيس مؤلمة حزينة، وقلقاً عميقاً تجاه الاخطار التي تُهددُني.

وبدأت أتوقع بوضوح عدم تحقيق العدالة مِن رجل كهذا. ويمكن ان نقرأ بوضوح ماتقوله ملامحه من تعابير فحواها إحْذر شديدة الوطأة. وبعد عشرة أيام من وصولي القسطنطينية وصلت رسالة مِنْ ميلمنلي مصطفى باشا، قائد فيلقي تعلن رسمياً لوزير الحرّبية هروبي من الجيش.

ولدى وصولي ارزنجان عرف المشير مصطفى باشا بهروبي وعلم أيضاً انني تلاعبت به، وكما يقال رميت القفاز في وجهه. ولم يكن لغضبه حينذاك حدود وسمعوه يقول: مِن اي جنس هو؟ الاّ يخاف على حياته؟ ان ما آثار المشير إلى هذا الحد، عصياني لسلطته، ولانه كان يتوقع بأن وصولي إلى القسطنطينية يمكن ان يعمل على اقالته. وقلقاً كان يشك، بل لم يكن يعرف بعد كيف سيتصرف فؤاد باشا بخصوص هذه القضية، لذلك التزم الحذر في تقريره الاول ولم يدخل في التفاصيل ولم يوجه تهمة، بل كان مجرد تقرير بسيط يتحدث عن هروبي. وكان مُتحفظاً في القول حتى يتأكد من موقف فؤاد باشا الذي يؤيده وقضيتهما مشتركة.

وفي واقع الأمر لم يتأخر المشير من ان يتلقى تأكيدات فؤاد الذي دعاه لتقديم تقرير إلى الوزارة مطالباً بإرسال ضابط ليحُل مكاني بحجة ان القوات لايمكن ان تبقى بدون قائد. ويوضح ذلك الموقف الاوضاع الغريبة التي كشفت تماماً النيات المُبيَّتة لفؤاد إتجاهي حيث سارع مصطفى باشا بإرسال تقرير لم يترك فيه اي مجال يساعده في توجيه النقد اللاذع ومختلف الاتهامات او الصفات او السباب. وطالب المشير الباسل الحكومة الامبراطورية بإرسال ضابط بدلاً من هذا الضابط المتمرد الجاهل، ويعني ذلك إرسال ضابط مناسب كما الدمية قادر على القيام بأي شيء يُطلب منه.

وسارع فؤاد باشا عند استلامه هذا التقرير بالقيام بخطوة في طريق إجراءات إقرار العدالة، فقام كاجراء اوّلي بتجميد جميع نشاطاتي العملية ومسئولياتي. واعلمني في نفس الوقت، ان الحكومة الامبراطورية في اهتماماتها الخاصة بكل ما يعمل على توفير حياة مناسبة للقوات، دعاني او بالاحرى تحداني ان اقدّم البرهان على ما اوردته في تقريري أمام محكمة عليا لاثبات احقية اتهاماتي.

وكان تجميد نشاطاتي موضوع جدل حار شديد في مجلس الحرّب دار الشورى حيث ان بعض الاعضاء كانوا يرون انه لايمكن تجميد النشاطات لانه اجراء غير قانوني، مادامت القضية لم تتحدّد طبيعتها بعد ولم يصدر اي حكم فيها بعد. وفي الحقيقة، فإن تركي الجيش دون موافقة او إذْن يثبت ما قالوا عني وما أقدمه هو تبريرات للعصيان بأسانيد مليئة بالكذب والافتراء ويعدُ جريمة فرار مِن الجيش. في حين ان هروبي وتركي موقعي جاء نتيجة المطاردة من اجل اقرار العدالة التي رفضوها ولم يقبلوا مني، واتخذت القضية آنذاك مساراً مختلفاً.

ويجب ان نشير هنا ايضاً، إلى انهم وهم يتصرفون بتلك الطريقة غير القانونية، انما يشبهون بذلك القاضي قديماً حيث كان لايكلف نفسه سماع طرفي القضية، ويحكم بفوز من تقدّم اولاً بالبلاغ ومن كان صوته اعلى. وباضافة الثقة في المسبه والاتهامات التي كالَها المشير مصطفى باشا

لي، وتداخله في مسيرة الاشياء حتى قبل ان يتوجه بأية مساءلة، فالحق يقدّم ببساطة للاقوى، ويكمم فم الضعيف. ان ذلك الجدل الذي يمليه الحس المشترك ومباديء القانون المشروع لم يقدّم شيئاً، وكان رئيس المجلس من بين اولئك الذين خلقّهم فؤاد، فكان عليه اذن هنا في هذا المجال ان ينفذ اوامر سيده. وتم تكميم المعارضة وتم بذلك تمرير القرار.

وإستناداً إلى النظام الحالي للادارة العثمانية فالمجالس والادارات العسكرية والمدنية جميعها ان هي سوى ادوات حقيرة يستخدمها الطغيان لاضفاء الشرعية الظاهرية لعدالة جميع الإجراءات. وتتكون بعض المجالس من اعضاء اعتباريين فخريين يتم اختيارهم من بعض الاشخاص ذوي النفوذ في البلاد ليكونوا اعضاء في المجلس المسؤولة عن ادارة المحافظات والبلديات ويتم اختيارهم مِنْ بين الاشخاص ذوي النفوذ في البلاد، وهناك الاعضاء الآخرون في تلك المجالس من اجراء ومرتشين تابعين للحكومة فيُقالون ويعينون وفقاً لهواها وكما يحلو لها. ويتجنب هؤلاء الاعضاء اظهار اية معارضة للحكومة مخافة الطرد او فقد الرعاية. وعضوية الصنف الاول حتى ولو كانت فخرية فهي تقدّم مزايا كثيرة ويتمسكون بهم كثيراً ويحرصون عليهم اذ يعدون مصدراً للثروة وللتأييد لمن يستطيع الحصول على ذلك.

لقد بلغت عبودية ودناءة بتلك المجالس اقصى حدودها لحد اذا قام حاكم ما بتقديم تقرير إلى الباب العالي يقول فيه ان القمر مستدير في جميع البلدان ولكنه مُرّبع في بلادنا، سيقوم اعضاء مجلسه الاداري ودون اي تردد بوضع اختامهم تأييداً لحقيقة كتلك. ويوفر الحكام على اعضاء المجالس مجرد حضور الجلسات وان يضعوا على مختلف الاوراق الرسمية بصمات الاختام على تلك الاوراق الرسمية. ويضع الباشا المجلس باكمله في دُرج مكتبه؛ فاذا ما اراد استخدام الاختام يكفيه ان يفتح الدرج ويختم بنفسه المضبطة [وثيقة رسمية يختمها اعضاء مجلس ما بالاجماع]. وبنفس الطريقة كما لو كان المجلس منعقداً أمامه.

وهناك حكمة لاذعة اروبها لتوضح ماهية تلك المجالس في تركيا: اثناء اقامتي في قوتور، جاء مفتي باشقلا، ذات يوم وهو رئيس السلطة الدينية في المقاطعة، وترأس حينذاك عملية جرد ممتلكات المرحوم ايتيم افندي مدير مجموعة الاربعين في قوتور. وفعاليات الإجراءات القانونية الشرعية، قدّم لاهل المرحوم شهادة بموجبها، وكونه رئيس السلطة الدينية في المقاطعة، يعلن فيها انتهاء جميع الشكليات القانونية لبيعها في المزاد العلني. وجاءني الورثة طالبين مني التدخل لدى المفتي ليختم الوثيقة، وبغير ذلك تنتفي قانونية ومشروعية تلك الوثيقة. واعتقد انه رّبما النسيان او ماشابه، فذهبت لزيارة المفتي ورجوته ان يختم تلك الوثيقة لاسباغ الشرعية عليها. ولكم كانت دهشتي كبيرة عندما اعترف المفتي لي وهو يعتذر في سذاجة قائلاً ان ختمه الرسمي لدى الباشا، حاكم المقاطعة.

وعمل الباشا على ان يحتفظ بالاختام العائدة لجميع اعضاء المجلس؛ جامعاً في شخصه جميع السلطات التشريعية والتنفيذية والدينية. فأية ضمانة اذن للشعب المسكين أمام التعسف؟

وتتكون المجالس من اعضاء مرتشين ومرتبطين بجميع الوزارات وفيالق الجيش على شكل لجان. واذا ظهر في تلك المجالس يبدو مستقلاً في تلك المجالس مَنْ يُتَّهم صاحبه بالثرثرة وبانه لايملك ذلك الحسّ المشترك. واذا كانت مُعارضتك باهتة نوعاً، فلرّبما حالفك الحظ ويرسلونك في مهمة إلى اليمن، او إلى بغداد منفى* العثمانيين. وسيكون لاي فرد الوقت الكافي للشعور بالاسف على التصرفات الطائشة.

وفي الحقبة التي اصبح فيها فؤاد باشا، وزيراً للحرّبية، بدأ بإعادة هيكلة مجلس دار الشورى مع أتباعه؛ بعد طَردِ كل من لايُناسبه. وكان من بين اعضاء المجلس الذي أراد ان يتخلص منه، حسين باشا ضابط چركسي. وقد درس في فرنسا ووجوده يَشّرف ايَّ جيش اوربي ايّاً كان. وان ضابطاً باسلاً و مستقلاً مثله لايهتم بقضية الوزارة. وتم استبعاده واخبروه بأمر سفرِه إلى آسيا. وبما ان لكل عضو مجلس لديه اسرة ومصالح يجب ان يُحافظ عليها، فيضطر آنذاك للصمت وترك السفينة تهوى إلى الاعماق.

ومع ذلك، يحتقرون القوانين والمؤسسات لدرجة انه عندما منحهم السلطان تلك الإمتيازات التي تحمل ذلك الاسم الفخم التنظيمات الخيرية، اصبحت موضوعاً لسخرية عامة شاملة، حتى داخل المجلس نفسه الموكول اليه تنفيذها. علماً ان تطبيق تلك القوانين قد تتسبب في إثارة الكثير من الاشكاليات السخيفة جداً. وفي عام ١٨٦٦ دار جدل مثير ذات يوم بين الشخصيات التي تكون جزءاً من مجلس وزارة العدل بخصوص تطبيق قانون التنظيمات. وهناك احد الاعضاء، امين افندي شقيق حقي باشا، ظَنَّ ان من واجبه ضرورة المقاومة العنيفة لكل خرق فاضح للقانون. واعتقد زملاؤه الموقرون ان ذلك مسموح له بذلك. وبعد ان استهلك كل اشكال الجدل قال أنَّ القانون إلى جانب حِسّه العام يفرضان عليه عند رؤية عناد الباشوات الذين يتصرفون على هواهم، الاَّ يَغُضَّ الطرف وان يسكت رغم كل شيء. ولم يتمكن امين من اخفاء اشمئزازه، او يصمت اكثر من ذلك وصاح: ايها السادة، اذا كنا قد اخترنا ان نفعل ما نريد، ونُشبع غرائزنا ونزواتنا. فلماذا القوانين اذن؟ لن يكون هناك قانون. والقانون الوحيد الذي يجب ان يُشاع ويُطاع هو رغباتنا. ان تصريحاً كهذا مهم جداً بالنسبة للامبراطورية، لان الرعية سوف تعرف بم تتمسك، ونحنُ الموظفون سنتخلص من جميع هذه الخرّبشات وأكوام الاوراق التي تملأ الارشيف. وفجأة

* يشير الكاتب في استخدامه صفة سيبريا باللفظة الروسية، انما يقصد مدلول اللفظة فقد كانت منفى لكل الاحرار والكتاب والشعراء المعارضين. وانا ارتأيت كلمة منفى لأن هذا ماتعنيه الكلمة الروسية التي استخدمها الكاتب. [المترجمة]

شيء ما حاد اخترق بشجاعة وجِدَّة اصطفاف الباشوات المتلاصق وأثّر بشدّة عليه. ولبضع لحظات ساد الصمت، ثم تحدث، قبرصلي محمت باشا فجأة وقال: ماذا تعرفون عما هو القانون؟ ثلاثة او اربعة من رجالنا، اناس مثلنا غرباء يصنعونه. فاذا كنّا نحن الذين نُصدرها، لماذا اذن لانستطيع الغاءها!، لقد تسلم ذلك الباشا منصب رئيس الوزراء الرفيع ثلاث مرات، وبعدا أيضاً واحداً من اكثر الرجال ليبراليةً في تركيا!

وفي منتصف ديسمبر كانون الثاني، وبعد مرور اربعة أشهر قضيتها في القسطنطينية، اشار إلى رئيس مجلس حرّب دار الشوري إلى تجميد عملي وإرسال أمر لي بالعودة إلى القيادة العامة، حتى استطيع ان اقدّم الدليل على حقيقة شهاداتي. وبينت للرئيس، ان تجميد عملي قبل ان تأخذ القضية مجراها اعده اجراءً ظالماً. وهو تشجيع لاعدائي في واقع الأمر. وفي نفس الوقت، وجهوا تهديداً لكل اولئك الذين سيدافعون عني وذلك حتى يتركوني لمصيري. وقلت له انني لن اقف أمام محكمة مكونة من أناس اعلنوا صراحة وقوفهم ضدي، وفي سبيل مصالحهم الخاصة تراهم مستعدين لرفض اي حق لي. اجابني اجابةً واحدة فقط: نصحني بالعودة او يستخدمون القوة معي ويرسلونني هناك تحت الحراسة.

ولم يترك لي تصريح كهذا اي مجال للتشكك حول مقاصد الحكومة. تركت جانباً كل تحفظ واتجهت نحو الرئيس الذي كان رفيقي في حرّب القرم، واعترفت له متحدثاً عن مخاوفي. وقلت له ان التصرفات العدائية التي مارستها الحكومة ضدي، اثارت في نفسي الخوف على حياتي. انها نفس الطريقة التي اتبعوها مع احد المساعدين وبدأت اروي له قصته: تعرض المساعد الاول، نسبت اسمه، لمطاردة شرسة من قبل رئيسه. مصطفى بك، الذي كان يترأس كتيبة المدفعية، بطرابلس في بارّباريا.

وذات يوم، وقد أراد التخلص منه لانه يضايقه وهو يقوم باعماله غير الشريفة. واراد التخلص منه بدس السم له ولم ينجح في ذلك، ولم تأت تلك الوسيلة بالتأثير المراد. وقام بتهديده بالقتل وهو يضع مسدساً على رأسه. وتوقع حاكم المقاطعة، والضباط والناس وقوع كارثة فظيعة. ونصح الجميع المساعد الاول بالذهاب إلى القسطنطينية لكي يقدّم جميع تظلماته أمام الوزارة. وسارعوا باعطائه شهادة وقعها حاكم المقاطعة والضباط تؤكد حقيقة شهادته.

وتوجه المساعد الاول ومعه تلك الأدلة في اكتوبر ١٨٦٣ إلى القسطنطينية. وعرض الضابط قضيته، وقدّم الدلائل يملكها والتي تطالبهم باحقاق العدالة. انها نفس المعاملة التي عوملت بها. وقالوا له انهم يأسفون لما حدث له، وانهم تألموا كثيراً لسماع تلك الاشياء. ومع ذلك كان يجب ان يعود إلى موقعه من اجل تقديم البرهان الذي يؤكد شهادته. وفي واقع الأمر، طلبوا من المساعد الاول العودة إلى طرابلس يرافقه العقيد محمد بك الذي اوكلت اليه قضية السكرتير الاول.

وما ان وصل السكرتير الاول تم القاء القبض عليه بدون مقدّمات واثناء عدة اجتماعات ظاهرية استمرت عدة ايام، تعرض المساعد الاول لاسهال شديد وفارق الحياة. وراح بهذا ضحية سياسة هدفها الحفاظ مهما كان الثمن على المظاهر وطغيان الرؤساء.

واستأنفت كلامي وقلت له: الا تعتقد عزيزي الباشا ان هناك تشابها كبيراً بين وضعي الحالي وحالة المُساعد الاول المسكين؟. آه، لا، اجابني الباشا، اطمئن فلايجب ان تساورك افكار كهذه. ويبدو انك تتظاهر بعدم معرفة بقية قصة المساعد الاول. والطريقة المثيرة التي تعاملت بها الحكومة الامبراطورية في الحال وكيف انهم حاولوا احقاق الحق. وبعد وفاة المساعد الاول، توصلت الحكومة إلى معرفة حقيقية للامور، وقدّم العقيد الذي تسبب في تلك المأساة إلى المحاكمة أمام مجلس حرّب. تم تخفيض رتبته، ونفيه في نفس الوقت. مادام ان المساعد الاول قد فارق الحياة، ارتأت الحكومة ان مِنْ واجبها ان تقوم بتكريم ذكراه. ومنحوا رتبته إلى ابنه وكان يبلغ من العمر آنذاك خمس أو ست سنوات.

ولم تمنحني الجدية التي رويت بها طريقتهم في احقاق العدالة؛ لم تمنعني من الضحك بسخرية وقلت له بعد الوفاة يعود الحق إلى الله. فمادام انه قد فارق الحياة، فلايهمنا ان تقوم الحكومة الامبراطورية باقرار العدالة تكريماً لذكرانا.

عندما تكون هناك شخصية كبيرة، كرئيس مجلس وزراء الحرّب، ويستخدم جدلاً من هذا النوع، الا يحقُ لنا ان نستنتج ان اصدار التنظيمات والخط الهمايوني* ليس سوى أوهام لخداع الناس، ففي واقع الامور تم استبدال السم بدلاً من المشنقة والقبر، ولم يتبدل شيء من جوهر النظام فالاجراء فقط هو الذي اتخذ شكلاً مغايراً.

* الخط الهمايوني، قانون عثماني في عهد السلطان عبدالمجيد عام ١٨٥٦، وهو قانون يُميز بين الكنائس والمساجد. [المترجمة]

الفصل التاسع عشر

الاذلال الذي عانيت، قدمت استقالتي، مساعي لدى السير هنري بولڤير Sir Henry Bulwer، تطويق منزلي، تم القائي في السجن، تدخل السفارة السوفيتية، خروجي من السجن، اليهود يقدمون طلبا إلى فؤاد باشا، الإجراءات التي اتخذتها، تم طرد اليهود

رغم المخاوف التي راودتني بخصوص مقاصد الوزارة تجاهي، فقد كانت هناك إعتبارات تمنع حتماً قيامهم باجراءات قصوى وتلك كانت قناعتي. وفي القسطنطينية وفي غيرها، كانوا يعرفونني جيداً بفضل علاقاتي. وكانت جنسيتي احدى الركائز التي ساندتني بين الاوربيين وأتاحت لي حماية السفارات. ويعرف الجميع قضيتي مع الجيش والمطاردات التي تعرضت لها، وهذا ما دفع بعض الدوائر لمتابعتها والإهتمام بها بشدّة. اشتهرت الحكومة التركية بالتباس وغموض مواقفها بين الحكومات الأخرى. ولهذا كان عليها بالضرورة توخي الحذر، ولم تستطع الاستجابة لمصالح وسياسة فؤاد باشا ليواجهني باتخاذ اجراءات قصوى طالما كنت موجوداً في القسطنطينية. وفي واقع الأمر، كان وصولي إلى العاصمة قد قَلّبَ خُطط المشير وخُطط الوزارة على السواء مجردين اسلحتهم. الاّ اذا كنت قد بقيت بعيداً عن الجماعات الاوربية ببقائي بالقرب من القيادة العامة، وبعيداً عن الحماية التي يمكن ان توفيرها لي الدول الكبرى لكانت الحكومة التركية قد تصرفت تجاهي بحرية كاملة، ولكانت مدينة ارزنجان المكان الملائم وذلك الهدف، لانه لن يوجد حينذاك مَنْ يستطيع ان يتعرف على نهاية القصة. ومن المؤكد كذلك ان اكون قابعاً في سجن المدينة منتظراً النهاية شنقاً او بدس السم. ومن كان سيعرف ذلك؟

كانت محاولات إخفاء جميع دناءات ادارته بفكرٍ عام للدولة وخط سلوك للحكومة التركية. وفؤاد باشا القابع في أجمل بقعة وسط القسطنطينية وكان يشعر بالضيق وقلق تحركاته، فقرر إرسالي إلى ارزنجان، حيث كان من السهل التخلص مني، وقد فعلو مع المساعد الاول، وهو رجل غير معروف لدى العامة والذي قضى نحبه في طرابلس ببارّباريا .. وكان للجمهور ان يلحظ آنذاك شيئاً عن ذلك.

وفي نفس الوقت، وبإنتظار وقوع اللحظة المناسبة زماناً ومكاناً لترحيلي إلى آسيا، لم تُوّفر الوزارة جهداً لممارسة اشكال الانتقام مِنّي. وبتأثير فؤاد باشا، اصبح الباب العالي وجميع موظفيه معادين لي. وكانوا ينظرون الي شذراً، ويكادون يتنازلون للرد عليَّ. وقدّموا آلاف الحجج حتى يَرفضوا دفع رواتبي ومخصصاتي. بأختصار اعلنوا عليَّ حرّباً ماكرة لئيمة. واذْ تفهمت تماماً مُدَيات التكتيك

الذي رسموه لي، قررت الابتعاد قدّرَ الامكان عن الوزارة بدلاً من امكانية تَعرُضي للاذلال والاهانة المجانية؛ وانتظار ما هو آت.

لقد أثار صبري واستسلامي الوزارة اكثر فأكثر، وقرروا إتخاذ اجراءات فعالة للوصول إلى حل لتلك المشكلة، وذات يوم وكنت خارج المنزل، جاءني احد المساعدين وبرفقته اثنان من الرقباء يطلبون رؤيتي. وعندما عرفوا انني بالخارج بدأوا يصيحون ويوجهون السباب والشتائم والقدح. ثم قدّموا مذكرة يطالبونني فيها بالمثول أمام وزارة الحرّب. وهددوني في نفس الوقت، اذا لم اظهر أمامهم في الوقت المحدد سيهاجمون المنزل ويسحبونني بالقوة إلى الخارج، وذهبوا تاركين رجالي في ذهول.

وعند عودتي مساءً، وجدت الرسالة تحوى اشعاراً يأمرني بضرورة المثول أمام الوزارة، وعرفت في نفس الوقت ذلك الاعتداء المشين الذي أدان فؤاد باشا، وكنا في ذلك الوقت في شهر رمضان. وتصادف في تلك السنة ان يكون في شهر فبراير ١٨٦٤: وخلال ذلك الشهر تستغرق الواجبات الدينية التي تقام في رمضان طيلة النهار. وفي المساء فقط، تُفتح الوزارات وتعمل. ومع اقتراب الساعة المحددة لموعدي في الوزارة؛ اسرعت بالذهاب لاعرف ماسبب إرسال أمرٍ كهذا، وما الذي جعل حضوري مهماً للدرجة التي تدفعهم للقيام باجراءٍ كهذا؟

وذهبت لرؤية العقيد حافظ بك، عضو مجلس وزارة الحرّب الذي وجه لي ذلك الأمر. وماهو سبب تلك المعاملة التي اعتبرها اهانة لشخص ولمنصبي.

ذهبت للعقيد حافظ بك عضو مجلس وزارة الحرّب الذي وجه لي ذلك الأمر بالحضور. وسألته من الذي وجه لي ذلك الأمر؟ وما هو سبب تلك المعاملة التي اعدها اهانة لشخصي ولمنصبي؟. ورداً على تأنيبي قال لي العقيد انه اذا كنت اعتقد انني قد اهنت فان افضل ما اقوم به، ان ابدأ برفع قضيته على المجلس وعلى العقيد نفسه. وقد قدّم ذلك الرّد حلاً للُّغز. فانتقلت بسؤالي، لماذا هذا الأمر الذي وجهه لي؟ هناك قدّم لي العقيد رسالة ارسلها المشير مصطفى باشا قائد لفيلق يتهمني بصراحة انني استوليت على خيول الجيش التي كنت قد اخذتها في أرضروم عند سفري إلى ريزه. وتطرق سيادته إلى انني قد بعت تلك الجياد واحتفظت بثمنها.

فبعد ان خدمت الحكومة العثمانية بكل اخلاص، وبكل مايمكنه ويبذله رجل يشعر بالمسؤولية، اتعرض للاهانة والذم بكل الجبن وبهذا الشكل المعيب؟ أحاسيس لايمكن ان يتحملها احد، سالت الدموع غضباً وإشمئزازاً؛ وانتفضت وودعت العقيد وقلت له انني سوف ارسل له في الغد نسخة لبعض المستندات المعينة التي وقعها محافظ ريزه، وستكفى لتنفيذ استيلائي على الجياد، وانني كنت قد سلمتها لذلك الموظف نفسه. واضفت في الحال، بأنه سوف يقتنع بالا يهتم كثيراً بالاهانات التي يوجهها المشير مصطفى باشا. ولكن وانا اهم بالخروج، قال لي ان احد أسباب استدعائي كان للتعرف على الأمر الوزاري بخصوص رحيلي إلى القيادة العامة في ارزنجان. واستطرد

بان ذلك يجب ان يتم بسرعة، وان انجز جميع الترتيبات في اسرع وقت ممكن، لانه من المحتمل اجباري على ذلك خلال بضعة أيام. وحذَّرني من عصيان اوامر الوزير، فتعليماته اذا ماحدث ذلك ان يتم ترحيلي تحت الحراسة مُقيد اليدين والرجلين.

عدت إلى بيتي حيث اصبح من المستحيل ان أتذوق طعم الراحة تلك الليلة لقد اوشكت الازمة على الوقوع قريباً. راودتني افكار كثيرة، وترنحت قليلاً، وتلك مشاعر طبيعية في مثل تلك الظروف. أأَهْجُر الجيش التركي تماماً مادامت انني إتخذت موقفاً؟ سوف يُدهش المرء كيف ادت مسيرة الاحداث إلى مثل ذلك الحال. ومع ذلك شعرت للحظة بالندم على ذلك. وفقط، مَنْ أمْتَهَن مِهنة السلاح هو الذي يعرف جيداً، ماذا يعني الافتراق عن رفاق السلاح. منذ طفولتي، كانت حياة الجندية المثل وحُلم حياتي، وهدف طموحاتي. وجميع دراساتي واعمالي كانت مُوجهة لتحقيق ذلك الهدف؛ ولا هدف غيره. وحتى آخر ساعة مازالت تتنازع روحي مشاعر الالم والاسف.

ويغلب صوت العقل: ما الذي تهدف اليه خدمتي لحكومة خرقاء وغير جديرة، حكومة تطارد بلا هوادة ودون وعي اولئك الذين ضحَّوا بحياتهم لخدمتها؟ اكان ذلك من اجل العيش، انا اتكسب، من عرق جبيني، او مقابل اجر بخس اتعرض لكل ذلك الظلم وتلك الاهانة؟ لاختيار مهنة السلاح، فهل اقبل اليوم بالخزي والعار؟ تلك الافكار وغيرها تتصارع في رأسي طول الليل ودفعتني لاتخاذ قرار بإرسال استقالتي غداً إلى مصطفى باشا. وبالنسبة للمستقبل، فقد وكلت امري إلى الله، فهو وحده من اثق فيه ومن املي فيه. وحده الذي يعرف دواخل قلبي ولن يتأخر عن مساعدتي في تلك الايام العصيبة.

وقبل القيام بأي شيء، رأيت انه من الضروري استشارة والدي حول المضوع. ولانه انكليزي بالولادة، ومن اقدّم المقيمين الانكليز بالقسطنيطينية. وكان صديقاً للسير هينري بولفير، سفيرنا لدى الباب العالي. فالاستعانة بخبرته وتأييده ذات قيمة كبيرة بالنسبة لي في هذه الظروف. ذهبت اليه واعطيته صورة وافية لكل ما مررت به من احداث خطيرة. واخبرته في نفس الوقت بقراري الحازم بترك خدمة جيش السلطان. ولم يكن والدي مؤيداً من قبل ان انخرط في الخدمة العسكرية التركية. واكبر دليل على صدق حدسه ورأيه الوضع المأساوي الذي أعيشه الان. وقد اقتنع بان سلوكي يستحق الاحترام في هذا الظرف فالانسانية لاتسمح بان ابقى تحت رحمة الاعداء. ووعدني والدي ان يتدخل لصالحي لدى السير هنري بولفير، لاجبار فؤاد باشا اذا لزم الأمر ان يقبل استقالتي. واضاف: لم اقل لك انك لاتستطيع ان تعيش بين هؤلاء الاتراك؟ لايمكن لانسان شريف يحترم الانسانية ان يتعايش مع هؤلاء. والطريقة الوحيدة للتعامل معهم ان يفاجئهم ويخدعهم ليتمكن من القيام بشؤونه دون ان يقع تحت سلطتهم. والويل لمن يركن اليهم! ولكنني وجدت انها ليست اللحظة المناسبة لمناقشة الجوانب السيئة والخِيرة لمثل تلك الآراء. فقد دلت خبرتي المؤلمة بوضوح على ان هناك الكثير من الادراك السليم لما قاله ابي.

اتفقت ووالدي اذن ان اقدّم في الحال استقالتي إلى فؤاد باشا، ووعدني بالتدخل لدى السفير لرَفْدها بتأييده. وقمت في نفس اليوم بكتابة الاستقالة،[٢٧] إلى فؤاد باشا وارسلتها غداة اليوم الثاني بواسطة خادمي في ٢٢ فبراير ١٨٦٤. وادى ذلك الاجراء إلى جرح مشاعر الوزير المغرور من هذه الاهانة ومن ذلك التحدي الذي وجَّهتهُ لسلطته. وشعر الوزير بغضب شديد واستدعى مجلس وزارته واعطى اوامره بضرورة حصار منزلي والقبض عليّ والقائي في احد سجون وزارة الحرّب. وارسل مفرزة يترأسها عقيد لتنفيذ اوامره.

وفي المساء، وانا جالس في غرفتي ارتاح في هدوء في منزلي باستامبول، دخل خادمي مذعوراً وقال بان هناك قوات تحاصر منزلي من جميع الجهات. وبدلاً من ان يملؤني الخوف والذعر دهشت جداً لذلك الخبر وقررت ان اتقبل مع ذلك كل تجاوز. وكنت آمل ان يتدخل سفيرنا لنجدتي بقوة في الوقت الذي توقعت فيه اقتحام قوات الجيش منزلي من لحظة الى أخرى. وجرت الامور على عكس ذلك تماماً. وعندما علم قائد المفرزة بوجودي في المنزل، تصور تماماً انه بالتأكيد سوف ينجز مهمته مادام المنزل محاصراً تماماً، ووضعت حراسات في اركان الشوارع، وخلف بيتي، وعاد القائد إلى منزله تاركاً المفرزة وراءه، إشارة الى احتجازي ومراقبتي بدقة، لانه سوف يأتي في الصباح الباكر ليوقفني بنفسه. وعندما لم اجد احداً يدخل ادركت حسابات العقيد، وتملكني الضحك من هؤلاء البلهاء. على اي حال، قررت ان يعلم سير هنري بالأمر وبكل ما يحدث، وان اعرف في نفس الوقت اذا ما كان هناك تطور ما ايجابي بخصوص استقالتي. وفي الصباح الباكر، ارتديت ملايس مدنية انيقة وخرجت من البيت، واقتربت بهدوء من الخفيرين اللذين يحرسان احد زوايا الشارع وبلا مبالاة، والسيجار في يدي سألتهما اذا ما كان سوف يُلقى القبض عليّ الميجور نفسه هذا الصباح لانني اود جداً رؤية ذلك. واجابني احدهما بانهما ينتظران وصول العقيد للقيام بذلك. وبعد تبادل ذلك الحديث، درت حول زاوية الشارع وعندما غِبتُ عن الانظار، ركضت بسرعة شديدة حتى وصلت إلى حيّ پيرا Pera، حيث سأكون بأمان هناك.

وفي تلك الاثناء، حضر العقيد وترجل أمام بيتي وطلب من رجالي ان يفتحوا الباب. اخبروه انني خرجت منذ دقائق، ولكنه لم يستطع تصديق ماحدث. دخل العقيد المنزل وهو يتصايح ويسُّب جنوده ويبحث في كل مكان حتى فَتَّش البئر بواسطة مصباح.. وذهبت جهوده هباءً. ازداد غضبه اشتعالاً واسفه عمقاً. ولخضوعه للتعليمات حطم اثاثي وفتح حقائبي بحثاً عن وثائق رسمية ارادها فؤاد وبأي ثمن. ولحسن الحظ، كنت اتوقع حدوث ذلك، فاتخذت حِذري وكنت قد وضعتها لدى صديق وفي ويقوم بنشرها بعد ذلك. وهكذا لم يستطع العقيد اكمال المهمة، قدّم تقريراً للوزارة يتحدث فيه عن فشله التام الذي اصبح مدار سخرية البعض ومصدر استياء البعض الآخر.

---

[٢٧] الوثيقة رقم ١٩.

واثناء ما كانت تلك الاحداث الهزلية تدور بهذا الشكل، اتخذت مساعي سير هنري مساراً اخر بمتابعة المراحل المختلفة للصفقات الدبلوماسية. ويدَّعي الباب العالي انني اقترفت جرائم فظيعة تطالب ان تقوم الحكومة الامبراطورية النظر فيها بشكل مثالي. وعرف فؤاد باشا ان سلطته لا تستطيع ان تظهر بمثل ذلك السخف، في حين قرر السير هنري من جانبه الدفاع عن حقوقي المشروعة كرعية بريطانية. ووضَّح لوزراء السلطان في نفس الوقت ووفقاً للمعلومات التي بين يديه حيث استطاع الحصول عليها بخصوص القضية المعلقة بيني وبين السلطات العسكرية في أرضروم؛ المذكورة من الاسباب الوجهة رغم بعض مظاهر سلوك يتطلب الحساب. وعليه فهو يأمل ان يتصرف وزير السلطان تجاهي بعدل ورحمة.

وكان من طبيعة لغة وزير المملكة ان تتغلب على ارادة فؤاد، والذي قرر رغماً عنه قبول استقالتي. وكانت هناك صفقة نتيجة المفاوضات. وكان قبول فؤاد باشا استقالتي مشروطاً بان اقضي عدة ايام في سجن الوزارة، ومن ثُمَّ يرسلني الباشا تحت حراسة مشددة إلى ظهر الباخرة المتجهة إلى طرابزون، وحال وجودي على ظهر الباخرة يتم اطلاق سراحي. وكانت تلك التمثيلية ضرورية ولامفر منها لحفظ ماء الوجه والحفاظ على مكانته وسلطته أمام اتباعه.

كانت تلك الترتيبات تدور ولم اكن اعرف عنها شيئاً، بل حتى انني كنت اجهل كل مايدور آنذاك. وفي التاسع عشر من مارس ١٨٦٤ وبينما كنت سائراً في شارع باليك بازاري Balik Bazari ظهراً، اذ برز أمامي شرطيان من شرطة فؤاد باشاو القيا القبض عليَّ بالقرب من الميناء. ومن هناك سرت تحت حراسة مسلحة من وزارة الحرّب حتى القوا بي في السجن. وعندما اصبحت وحيداً في الزنزانة، راودتني افكار و مخاوف من كل نوع؛ وذلك امر طبيعي. ولم اعد استطيع ان اعمل شيئاً؛ بل انني وقعت ضحية اعداء شرسين ولجهلي التام لنتائج مساعي سير هنري بولفير، ولم اتمكن من تخيل نهاية عذاباتي وكيف ستكون وتارجحتُ بين الشك واليقين، فقد كنت اعرف تماماً انه اذا فشل السير هنري بولفير سفيرنا، فأن حياتي تضيع بين يدي فؤاد باشا، وسأواجه مخاطر كثيرة. وسوف يرتاح فقط لخبر وفاتي.

والذي ما خفف عني إلى حدما وسط مصائبي، هو انني لست ضحية الطغيان الوحيد. فقد كان يعاني معي كثيرون من البؤساء في هذا السجن بالذات من الذين استثاروا غضب الوزير لسبب واحد، انهم كانوا يحلمون بالحق والعدالة، وآخرون اتهمهم فؤاد النزيه بالفساد والخداع. وهناك قائد سربة واسمه مصطفى افندي قضى في هذا السجن ثلاثة شهور لان ذلك الضابط كان قد قدّم طلباً إلى السلطان مطالباً بحقه في الترفيع. وكان فؤاد باشا، يعتقد ان تصرفاً كهذا جريمة وقدح في الذات الملكية. فأقتص منه بالقائه في السجن. ولاتسمح القوانين العسكرية الا في الحالات الاستثنائية، بالقاء اي ضابط في السجن قبل محاكمته أمام محكمة كفوءة تقضي بتوقيفه والقائه في السجن.

وقائد كتيبة، احمد آغا، واحد من اكفأ ضباط المشاة في فرقتنا في باتوم اثناء حرّب القرم. والقى في السجن منذ ثلاثة عشر شهراً بتهمة الابتزاز ودون محاكمة. وكان ذلك الضابط يتمتع باحترام الجميع. ولكن في بلد يتهمون فيه الطيبين بالنصب، لماذا يدهشنا اذن اتهام الشرفاء بالسرقة؟ انها جدران ذلك السجن ذاته التي شاهدت وفاة الجنرال شتاين عام ١٨٦١، حيث كان قديماً من افضل ضباط الجيش النمساوي. فقد توفي في السجن بسبب الأم في البطن والاسهال اثناء فترة احتجازه في السجن. وكان شتاين، يُعرف باسم فرهاد باشا، وساهم في التغلب على ثورة الفدائيين عام ١٨٥٩، حيث ارادوا عزل السلطان عبدالمجيد ووزرائه. وعملت خدمات ذلك الضابط على تأمين انتصار السلطنة، ولكن بعد ان زال الخطر ادار رضا باشا ظهره لشتاين والذي كان يستحق بدلاً من ذلك التكريم والامتنان. وكان لجوء رضا ووزراؤه لخبرة وامكانيات شتاين بسبب خوفهم من ان تؤدي بهم المؤامرات. وبعد ان آمنوا تماماً، انقلبوا على شتاين، ولم يعودوا يريدون سماع أسمه ولن يسمحوا على حد قولهم من تنصيب كافر في مركز مهم. غضب شتاين، بسبب ذلك التصرف. ولم يكن يعرف كيف ينتقم، فكتب تقريراً بالالمانية عبر طرف ثالث، يحوي صورة للاحداث التي عاشها وعاناها شتاين. ولكن كان جواسيس وزرائه تراقبه، فألقوا القبض عليه والقوه في السجن. وعقدوا مجلساً مغلقاً لمحاكمته وادانته. وتوفى شتاين في السجن نتيجة آلام في البطن والاسهال، واختفى فرهاد شتاين من المشهد.

من بين رفاق السجن، كان يوجد مساعد اول القى به في السجن منذ عدة شهور بتهمة الاختلاس. وقد حُرم ذلك البائس من كل مصدر عيش، وظل مُتكوراً في الزاوية يحيط به ثلاثة اطفال نصف عراة. وعاشت تلك الأسرة في اقصى درجات البؤس، وكان لايملك الا سريراً بائساً مشتركاً، ويأكلون الفتات الذي يقدّمه الجنود لهم. ولنسدل الستار على تلك المآسي الموجعة، فقد فُرض السكون على قلمي.

في نهاية اليوم السابع لتوقيفي، ولي لحظة ماكنت انتظره، فتح باب السجن ورأيت العقيد حافظ بك الذي كان قد سلمني الأمر بالترحيل إلى القيادة العامة. دخل في تردد، وامرني باللحاق فوراً بالقيادة العامة. ودهشت لذلك الخبر ولم اعد افكر بشيء. وللحظة ظننت ان مساعي السفير لم تأت بنتيجة، وكان علي ان اتقبل مصيري.

وتبعت حافظ بك، وما ان وصلنا باحةَ لثكنة السجن، شاهدت بدهشة وجود نفس الجمع من الجنود والضباط الذين جاءوا لاستقبالي. وأثار ذلك المشهد حيرتي لأول وهلة، ولكنني كنت استمد شجاعتي مما كنت اتوقع من مخاطر، وانه اذا ما كان لاعدائي ان اقع، فسأقع في الأقل وانا اتصدّى لاعدائي. وعندما وصلنا إلى مجموعة الجنود على الرصيف، مُعتقداً ان تلك هي اللحظة المناسبة حيث استطيع ان اتوجه للجنود واتحدث اليهم ليسمعوا صوت العدالة المظلومة:

أيها الجنود، انتم تَرونَ في شخصي رجلاً كان قائداً لكم، وانتم ترون رفيقاً كانت جهوده تصب في محاولات الحفاظ على سلامتكم وتوفير حياة كريمة لكم. فانتم موضوع آمالي واهتماماتي. لقد دافعت عنكم، واطالب العدالة بدم اربعة وخمسين من جنودي، اخوتكم الذين فقدوا حياتهم بسبب الحياة البائسة التي يحيونها. اما الباشوات، المسؤولون عن دم جنودي، فإنما يريدون ايضاً اهدار دمي، ولكن دمي غالي، فلا فؤاد باشا ولا اي شخص اخر يمكنه اراقته دون عقاب. وانا واثق من الله. والتفت إلى حافظ بك فجأة قائلاً: ايها الكولونيل، رافقني حيث تريد، فلنذهب!.

ونجحت تلك الكلمات في التأثير على المشاهدين. وأظهر الكثيرون منهم تعاطفهم بتعابير وجوههم وحركات رؤوسهم. وما كدت انهي خطابي حتى احاط بي جمع من الضباط والجنود وقادوني إلى سطح سفينة غلطه، حيث تنتظرني رحلة بحرية. وقادوني من هناك إلى متن سفينة من طرابزون. وانقضت رُبع ساعة وانا امشي على ظهر السفينة مفكراً في مصيري المستقبلي حتى جاءني مرافق من معسكر فؤاد باشا يخبرني ان الباشا قد قبل استقالتي، وعليه فقد اصبحت حُرًّا واستطيع العودة إلى منزلي.

وتكشفت لي آنذاك حلول اللغز، واستطعت الان تقدير قيمة الحماية التي وفرها لي السير هنري بولفير، الذي ادين له بحياتي وحريتي. وقال محارب قديم: لاقيمة لاي شيء بعيداً عن الشرف. وأنا، كنت فخوراً جداً بترديد تلك العبارة وانا اترك خدمة السلطان. لقد ضاعت اجمل سنوات عمري، فالحرمان، والعذاب، واخطار الماضي. كل ذلك اصبح ماضياً في حين ان الحاضر والمستقبل مازالا قيدَ المجهول.

لقد كانت الشهرة والمجد والمثل الاعلى والكمال طموحات تداعب خيالي، طموحات قلب نقي صافٍ. وفي سن الثامنة عشرة، وضعتني الأقدار في إحتكاك مع متطرف سياسي، وكانت نظرياته الخاطئة والمغلوطة سبب ضلالي. وتحت تأثيرها اخطأت أرائي وزاغت نظراتي. وكان يصف الحضارة المسيحية بانها ليست سوى الفساد والدناءة والمؤامرات. والتركي، واستناداً لتلك الفلسفة الزائفة، يمثل الانسان البدائي النقي.[٢٨] لقد اعجب بها ذلك الانسان التي نشرها انصار پير هرميت Pierre Hermite الذين نادوا باندلاع حرّب القرم. لقد انخرطْتُ في جيوش السلطان ودافعت عن عرشه. وبعد خبرة حصلت عليها بعد عشر سنوات منة الخبرة تفوَّق الجانب العملي على النظري ووضحت لي اخيراً تلك الخبرة انه اذا ما كانت اليوتوبيات على قمة مون بلان Mont Blanc، اصبح البسيط زاهداً يرفع صوته مُنْتَقداً الفساد ضد اللورد بالمرستون، وعدني ان احد وزراء انكلترا قد اصبح عميلاً لروسيا.

---

[٢٨] وتلك بالاشارة إلى أنه قد اصبح البسيط على قمة مون بلان زاهداً، ويرفع صوته منتقداً الفساد ضد اللورد بالمرستون، حيث ادّعى ان أحد وزراء انجلترا قد اصبح عميلاً لروسيا.

قد ادارت رؤوس من نادى بها نشوةً، الاّ انّها تعمل دون منازع على دمار الشبيبة الساذجة التي لاتمتلك الخبرة. والآن، وقد عزلت نفسي لأمارس حياتي الخاصة، انغمست في الدراسات الادبية، وظهر حدث مفاجيء آنذاك، دفعني لبعض الوقت ان ارى امكانية الحصول على العدالة التي رفضوها دائماً لي.

ويجب ان يذكر قرائي ان احمد آغا مدير قوتور ومن يوليه قد داسوا بالاقدام حقوق ابناء التاجر الأسرائيلي موشو اليتامى. ومنذ تلك المدة، وقد حظى المدير بوسام المجيدية، كحاجب الامبراطور، وكان يدير حكم محافظة قوتور على هواه، ومتنعماً بكل نشوة السلطة والإمتيازات وعدم العقاب على جرائمه. حتى القتلة، شركاء المدير قد هرّبوا من سجون وان، وهم يتمتعون بحريتهم وبالدعم وعدم عقابهم، في حين ان أرملة التاجر وأيتامه ظلوا دونما سند ودون مورد للعيش آسفين على وفاة مُعيلهم.

ومع ذلك، فان الأسرائيليين في باشقلا، والذين اوجعهم الحزن على مصير مواطنهم البائسين، رأوا انه تم رفض اقامة العدالة في المحاكم المحلية من وان، وقرروا إرسال وفد إلى القسطنطينية ليعرضوا مأساتهم على الحكومة الامبراطورية مطالبين بالعدالة، تلك العدالة التي رفضتها لهم محاكم وان.

ذهب يعقوب، احد اقارّب التاجر القتيل إلى القسطنطينية في نهاية آب ١٨٦٤. وقد ذهب بصفته نائباً عن مواطنيه في باشقلا ومتحدثاً باسمهم. وقدّم طلباً إلى السلطان يعرض فيه الظروف الاليمة التي احاطت بمقتل موشو الذي تم بمشاركة احمد آغا، مدير قوتور في هذه الجريمة. واضاف بانه حتى هذه اللحظة لم تستطع ارملة موشو واطفالها اليتامى الحصول على حقوقهم في محاكم مقاطعة هكاري ووان. واضاف قائلاً ان الأسرائيليين في باشقلا رعية مخلصين، واقوياء بالحقوق التي كلفتها لهم قوانين التنظيمات والخط الهومايوني، وانهم يتوسلون الحكومة الامبراطورية بمحاكمة مدير قوتور احمد آغا وشركائه أمام محاكمة العليا حتى تحصل عائلة موشو على حقوقها وينال المذنبون العقارّب الصارم.

واتخذ الطلب مساره الروتيني المعتاد، ووقع بين ايدي فؤاد باشا الذي كان في ذلك الوقت رئيساً للوزراء، والذي قال لليهودي ان تلك القضية يأخذ الإهتمام اللازم. وانسحب يعقوب قلقاً حول مصير الطلب؛ وكيف سيكون مساره من اجل الحصول على حل نهائي. وقيل له ان الباب العالي سوف يرسل طلبه لعَرْضه على مجلس العدالة، ولسوف يعرف من المجلس القرار الذي سوف يتخذه الباب العالي. وقد وجد يعقوب نفسه رجلاً غريباً في محيط العاصمة، ارتأى ان يراني ويخبروني بماحدث وبما يدور طالباً مني المشورة حول الطريق الذي سيتبعه بعد ذلك.

كما ان الموقف الذي كنت قد اتخذته اثناء اقامتي في قوتور بخصوص تلك القضية، تطلّب مني الشرف وكذلك حقوقي ان ابذل جهداً اخيراً لصالح الأسرائيليين. ولانني اعرف كيف تسير الامور، نصحته باستخدام الاعتدال والقوة اثناء لقائه بالباب العالي مستخدماً ما يُتاح له من وساطات ان كان لديه منها شيء. ومن جانبي التزمت ببذلك الجهود الممكنة لدى اصدقائي ومعارفي من اجل التوصل إلى حل يتوافق مع حق الشهداء. لقد ساعدتني تلك الخطوة التي اتخذها الأسرائيليون بالحصول على الفرصة المناسبة لاسماع صوتي لاولئك الذين حاولوا حتى الان اخماده. وكان يجب من اجل ذلك ان يُصِّر المجلس الاعلى للعدالة على دراسة مطالب اليهود وبطريقة عادلة. فاذا ما نجحنا في تحقيق تلك النقطة فلسوف تسير الامور بعد ذلك في سبيلها. لقد تداخل مقتل اليهودي بطريقة ما في جميع الاحداث الأخرى لدرجة انه ما ان بدأ البحث والتحقيق، فيجب مواصلته للنهاية، حينذاك سوف اشعر بالانتصار على هؤلاء.

لسوء الحظ، كان فؤاد باشا يعرف جيداً بدوره اصول اللعبة التي يلعبها، وكذلك مدى الإهتمام الذي يمكنه ان يوليه لمطالب الأسرائيليين. وكذلك فهو يتصرف وفقاً لنتائج الامور. ان التكتيك الذي يفضله فؤاد باشا، استغل قضية فراري من القيادة العامة حجة لرفض شكاواى واصم اذنيه عن الاستجابة والاستماع لمطالبي. وكان غطاء تصرفاته ادعاء الشرعية واضح جداً فقد نجح بذلك في افشال جميع جهودي. وعندما طالبت بالعدالة لجنودي الضحايا صاح بي: النظام!.. النظام! فأنت لست الا متمرداً. وعندما اتهمت الباشوات بالسرقة والقتل، اجاب: انا لا اسمعك، فانت جندي هارّب من الجيش. وأخيراً، عندما طالبت بالعدالة، كان الحكم جاهزاً: اولاً، سوف اضحي بك، ثم سوف تذهب للبحث عن العدالة في مكان اخر.

ومع ذلك لم يعد لمنهج كهذا قيمة في الظروف الحالية. ففي واقع الأمر ليس مقدّم الطلب هارّباً. فارّاً من الجيش ويطالب بالعدالة وانما من قدّم الطلب واحد من رعايا السلطات المخلصين، ممّن يتمتعون بالحقوق المقدسة وفقاً لقوانين التنظيمات وكذلك وفقاً للقانون الالهي، والانساني واي قانون اخر، وهو يطالب بالترضية والتوصية ضد الافعال الشريرة التي وقعوا ضحايا لها.

تحركت اذن لاضم جهودي إلى جهود يعقوب، في سبيل هدف مشترك، وذهبت لاجد العديدين من اعضاء المجلس الاعلى للعدالة اي اصدقائي ومن بينهم سامح باشا الوزير بلا وزارة، والآخر صبيح بيك عضو مجلس العدالة الاعلى، وخيرالله الذي قضى نحبه مؤخراً في طهران. وهؤلاء هم الرجال الوحيدون الذين يجب اللجوء اليهم بسبب مواقفهم ومكانتهم في مثل تلك الاحوال.

ومن غير ان يرجع لتكرار الحقائق التي يعرفون في تفاصيلها قلت لهم ان الأسرائيليين في باشقلا قد قدّموا الآن طلباً للسلطان يطالبون فيه محاكمة قتلة موشو، أمام مجلس القضاء

الاعلى. واعربّت لهم عن ثقتي في نزاهتهم وتفانيهم، كما قلت لهم ان من واجبهم المطالبة بضرورة فرض مناخ من الحرية الكاملة يمكن ان تدور فيها المحاكمات لتحقيق العدالة.

وكان ردهم التعبير عن الاسف قائلين بانهم يعرفون جيداً ان اعدائي قد دمروني لتغطية جرائمهم الخاصة. وقدّموا لي الوعود ببذل الجهود بتقديم مايستطيعونه لصالح الأسرائيليين. ولكن ما الذي يمكن ان يستطيعه عضو واحد في مجلس ما في تركيا؟ وماهي قيمة تلك الوعود؟ لايوجد شيء. وفي الحقيقة، وبعد ان لازم يعقوب مكاتب الباب العالي خمسة أشهر، وبعد ان صرف كل مالديه من مال؛ طلع عليه سكرتير المجلس الاعلى بأمر رسمي يمنعه من مراجعة الباب العالي، ولان طلبه الذي يحمل الرقم ٧٠٨ قد تم تمزيقه تماماً. وعندما استقبل يعقوب ذلك الرد قال له: لمن نتوجه اذن، اذا كان حاكمنا يرفض الاستماع لمطالبنا؟ ورد عليه سكرتير المجلس الاعلى قائلاً: إذهبوا جميعاً إلى الجحيم!.

وعندما رأي يعقوب استحالة الحصول على شيء، وبدلاً من ان يحاول القيام بخطوات جديدة، قرر العودة إلى باشقلا كسير القلب. وقد اثارتنا تلك الاحداث وغيرها، لذلك يجب ان نحزن ونشعر بالاسف على مصائر اولئك التعساء الذين يعيشون تحت هيمنة الاتراك. لقد قدّمت قصة التاجر اليهودي موشو لانها حقائق ذات اهمية فائقة؟ اذ انها تكشف وبطريقة مثيرة المساوئ التي يمكن ان تخلقها ظاهرة التميز العنصري في الامبراطورية العثمانية التركية.

وتوضح لنا تلك المأساة قصة تاجر يهودي تمت سرقته، وتمزيق جسده اشلاء على يدي مدير منطقة. ويعرف ذلك المدير جريمة القتل وقطع الطريق، ومع ذلك يدافع عنه الحاكم وقائد فرقة لان مصالحهم مشتركة. وبعد ذلك، يأتي المارشال مصطفى باشا ليتخذ موقفاً لصالح ضابطه، ويغلق عينيه أمام مقتل التاجر اليهودي ووفاة جنوده سواء بسواء. واخيراً، يقوم فؤاد باشا وزملاؤه نشر حمايتهم على الجرائم التي يرتكبونها، مع رفض لاقرار اية عدالة، بل ويقومون بتمزيق طلب يقدّمه رعايا طائعون مخلصون.

ولكن الا يعرف وزراء عبدالعزيز ان تمزيق طلب هؤلاء الأسرائيليين المساكين للرسالة تصرف اجرامي يوازي جريمة ازدرائهم واحتقارهم حقوق وامتيازات جميع رعايا السلطان وعدم التزامهم بالمعاهدات الرسمية التي تضمنها اوربا كلها؟ ان تصرفا كهذا يعد تحدياً للدول الكبرى التي تطالب بضمان حياة وحرية وحياة الامم المسيحية التي تعيش تحت السيادة العثمانية. فاذا درسنا الوضع العاصف الذي تعيشه المحافظات الاوربية والاسيوية في الامبراطورية سنرى انها بدأت بتدشين نظام كهذا يعيش على الغدر والجريمة وموضوعه ليس الا خيانة للمصالح المقدسة لهذه الامبراطورية ذاتها.

تعيش القوات العسكرية الامبراطورية حالة من عدم التنظيم، ويعاني السكان المسلمون والمسيحيون من القهر والظلم في تركيا، وتنتشر اللصوصية والمذابح الجماعية الرسمية، ويعيش

سكان كوزانداع في لبنان وكربت ثورة مسلحة، ورغم كل ذلك يتبجحون بالقول: ان تركيا تسير في طريق التطور، وان السلطة العثمانية من اكثر الدول رحمة ونفعاً لمواطنها.

في امبراطورية تتعرض لعملية تحلل في الاخلاق والدين والعادات؛ كل شيء فيها شاذ وغير طبيعي و بالغ الانهيار. والجريمة هناك مرادفة للفضيلة، واسوأ الفاسدين يعدون رجالاً خيرين وطيبين. فالاخلاق قد تغيرت، ويقومون بتفسير منتوج الاخلاق من حكم وتوجهات وتطبيقها بشكل مقلوب. ويمكن لوم فؤاد باشا حول الكثير من القضايا، وليس ذلك فقط وانما بالتأكيد حول عدم جدوى تصرفاته.

وهكذا، فان التضييق والملاحقة الذي دشنه ضد الابرياء، انما يؤدي فقط إلى نتيجة معاكسة ومنطقية فهم يكافئون الآثام ويعلون مكانة العملاء المذنبين. ومثلاً، القاء القبض على مندوبي الأرمن والقائهم في السجن، وتوقيف رئيس السرية مصطفى افندي والقائه في السجن، ورفاقنا الآخرون في السجن، إلى جانب قضية القائي في السجن، والطرد المهين وغير المشروع للوفد الأسرائيلي، وجميع تلك المحاولات التي تؤدي إلى التكريم والترفيع لهؤلاء: تعيين ميليمنلي مصطفى باشا، مشير الفيلق الرابع، بسبب اندفاعه ومشاركته عزمي المجرم، واحتقاره وازدرائه العدالة، وتعيينه عضواً في المجلس الاعلى لوزارة الحرّب الذي يترأسه الفيلق الثاني، والمسؤول عن صربيا وبلغاريا. ويعدُ عزمي باشا، الذي تسبب في وفاة جنودي، وأشارك قتلة التاجر اليهودي موشو، برتبة رئيس الفيلق الرابع، وكذلك العقيد مصطفى بك ذلك الشخص السيء جداً، غريب الاطوار، واحد اسباب وفاة جنودي، وكان العميل المشارك في التلاعب الذي يمارسه عزمي، عُيّن ليكون عقيداً في الكتيبة الخامسة التابعة للفيلق الرابع.

واخيراً، المدير احمد آغا، القاتل الجبان للتاجر موشو الأسرائيلي، يتمتع بدوره بتقدير وبامتيازات وبأمجاد بسبب موقفه، وها هو يواصل ممارسته لعادات السرقة والقتل برعاية حكومته. وتتحدث بطريقة واضحة عن نفسها، ولن ابالغ لان الآراء تصل من نفسه إلى العقول النيرة. وبعد ان قدّمت لقرائي تفاصيل دالة ومنوعة حول ادارة الجيوش والمقاطعات، يجب ان اؤدي الآن الواجب الذي فرضته على نفسي بتقديم خلاصة وجيزة ودقيقة لتأريخ الامبراطورية التركية منذ تولي السلطان عبدالعزيز سدة الحكم وحتى ذلك المرحلة.

الفصل العشرون

الوضع في تركيا عند تسلم عبدالعزيز السلطة، سلطة السلطان، سلطة الباب العالي، الصراع بين التاج والباب العالي، قصة حياة عبدالعزيز، مرحلة حكم عبدالعزيز الاولى

ليس هناك من وضع يبعث على الألم والاسى، اكثر من وضع تركيا لحظة وفاة عبدالمجيد. لقد كان سلطاناً كريماً، ولكنه عصبي وغير مهتم ومكترث، ولفظ آخر أنفاسه وسط حالة مِن التفسخ والفوضى الشاملة، والوزراء بدورهم لا أباليون أمام حالة سيّدهم المؤسفة، وأمام دمار وافلاس وطنهم، وليس لهم من هدف في عداواتهم الخاصة، وليس لهم من مُحرك في سياستهم سوى الطموح والرشوة. وفي ظل تأثير الفساد لامثال هؤلاء، اندفعت الامة نحو الفساد، وهوس الترف للطبقات الثرية، في حين ان الافلاس والبؤس كان النصيب الوحيد للشعب؛ والحزن والاسى والنفي لكل مَنْ كان نزيهاً جداً، وحيث كل شيء يعكس على سطح العامل السياسي صورة بالية لرجل مريض محتضر.

بعد وفاة عبدالمجيد، تصور الجميع انهم يدشنون عصراً جديداً، وأستبشر الوطنيون واصدقاء تركيا أن اللحظة قد حلّت، لكي يحكم الامبراطورية العثمانية، سلطان يتمتع بالحيوية والتوجهات الليبرالية، فيمكنها آنذاك ان تتمتع بين الامم بالنفوذ والتأثير الذي يبدو ان القدر يحفظه لها. ولكن ومازالت رفات السلطان لم يُدْفَن بعد، حتى هبَّ الكل مُسرعاً لينادي بعزيز افندي وريثه، وإجلاسه على العرش، كما تقتضي العادة المتبعة. ويتلقى تهاني اتباعه ويقسمون على الاخلاص، كما تقتضي العادة المتبعة وليتلقى تهاني اتباعه ويقسمون بالولاء له.

ويحب الشعب عبدالعزيز، وتفضله الامة فهو أمل كل اولئك الذين يحرصون على ازدهار وعظمة وطنهم. وتسبب سلوكه الطيب ونشاطاته وتصرفاته الجيدة، من اكتساب الاحترام والرضى العام. وبمعارضته لسياسة اخيه، أعتبروه زعيم الجانب الوطني والاصلاح، كما أعتبرت الامة جلوسه على العرش من الاحداث السعيدة، لقد قدّمته العناية الالهية الرفيعة السامية، من اجل سعادة الامبراطورية. ويبدو انه تبرير وإدرك على الاكثر للرأي العام المؤيد له. فتح ابواب السجون، وحَرَّر الفدائيين، الذين وقعوا ضحايا للقهر بسبب نضالهم في سبيل سيادة الاصلاح. وقام باصلاحات في الادارة والاعراف البالية في القصر الامبراطوري. واعتبر الفخفخة وهوس الترف غير مهتم مع التطور، وتّخلّى عن الماس والحلى وغيرها من مظاهر الزينة المفرطة التي كانت مظهراً من مظاهر الزينة المُفرطة، والتي كانت مظهراً من مظاهر زهو وكبرياء سابقيه؛ وقضى على الأسراف المبالغ فيه للعاملين في القصر.

وقام باجراءات لتخفيض كبير في العمالة في القصر وفي الوزراء على إختلافها وفي الجيش. وتم فصل جميع اولئك الذين شَغَلوا مناصب ووظائف لأرضائهم وبسبب الإمتيازات ولم يقدّموا خدمات للدولة. مُخَفِفاً بذلك العبء على ميزانية الدولة. ولكي يُدلل على كيفية التضحية بمصالحه لصالح الوطن، قَرَّر عبدالعزيز التخلي عن ثلث دخله المدني لصالح ميزانية الدولة.

وفي نفس الوقت، ولكي يعيد التوازن لميزانية الدولة المنهارة، اتخذ العاهل الجديد إجراءً يؤمن المصلحة العليا بخصوص تحقيق ذلك الهدف نفسه. اذ توجد التزامات من كل شكل ونوع، وديون عديدة هزَّت مفاصل الميزانية ووضعتها في موضع يرثى له، نتيجة للسلب والنهب على يد الاداريين. والاضرار بحقوق الشعب ومطالب الفقراء بالعدالة والاصلاح؛ وكذلك مصالح الدولة تتطلب كلها استرداد الأموال المنهوبة. وقد ارتأى عبدالعزيز ضرورة إنزال العقاب الصارم بحق مغتصبي الأموال العامة وإستعادة حقوق الدولة المهدورة، ومحاكمة جميع اولئك الذين تطاولوا وأستغلوا ثقة من سبقه في سبيل تأمين مصالحهم الخاصة: رضا باشا الوزير عبدالعزيز المفضل، وعصيب باشا وزير المالية، وعثمان باشا الحاجب الاول، وعمر افندي، حجي مصطفى، وكيتشة اوغلو، ونجيب باشا. وجميع أولئك الشخصيات إستغلوا مواقعهم لتكوين ثروات خرافية، في أواخر عهد عبدالمجيد. والعديدون منهم كانوا خُدّاماً بسطاء قبيل سنوات، ولكنهم أستطاعوا تكديس، بدل ان نقول سرقوا، ثروات تقدر بثلاثين مليون فرنك! والمستخدمون في الوظائف العامة، والموظفون الذين فقدوا إحترام الناس بسبب سلوكهم الفاضح وآثامهم، فقد تم فصلهم وفضحهم على الملأ ومن بينهم، اتباع بسيم بدر وعفيف بك واتباع خسرو باشا واتباع كميل احمد باشا.. الخ.

واصبح الجيش والبحرية موضع إهتمامات السلطان الجديد. وتمت عمليات التغيير في مختلف فروع الخدمة، والبدء في إدخال التحسينات في ميدان التجهيزات وتوريدات_المؤن، وتضاعف عدد القوات البحرية وامكانيات الاسطول بمقدار الثلث. وجميع تلك الإجراءات كانت تبشر بنتائج مُرضية. واحس الجميع مؤخراً بتأثير كل ذلك. ومع التحفظ المعين في التقاليد والعادات، كان هناك التأييد للسلطان الذي يشغل بال الناس. وظن الجميع ان الساعة دقت لتصحو الامة من سباتها، ولكي تَظهر للعالم ماذا يمكن ان تفعله امة، عندما تقرر بذل اقصى الجهود من اجل استعادة موقعها ومكانتها بين الشعوب.

لقد تعاطفت الامم اصدقاء تركيا بجدّية مع جهود عبدالعزيز. واعرّبت الامنيات المخلصة لذلك الرجل الذي يبدو انه يشق طريقاً للتطور الحقيقي لشعبه. ولم يتوقف ذلك عند حد التعبير الشفاهي فقط والمديح في الصحافة الدورية، بل انتقلوا إلى ميدان الواقع. وبدأ ذلك عندما ناشد السلطان الجديد راسماليي اوربا، استطاع الحصول على الوسائل التي تمكنه من اعادة هيكلة وتنظيم ميزانية الامبراطورية. وتنبأ نجاح كهذا مُقدّماً بالمستقبل الزاهر الذي ينتظر تركيا. وداعب

الأمل الرجال الأسوياء برؤية بلادهم تبعث من جديد. واحس الشعب بتأثير ذلك الوضع الجديد للاشياء، انه تغيير معنوي بجعل الشعب يثق في المستقبل. وتتركز القومية لدى الامم، كما لدى الافراد في تلك الكبرياء الوطنية، وأرومة الرجال ومحرك الافعال. لقد تناقل احياء تلك الروح بالتدريج نحو غايتها، لولا ان حدث توقف حتمي لمسيرتها اوردة فعل تبعث على الاسف، يخترقان ويدمران العمل الذي بدأ بشكل جيد ويعيدان إغراق تركيا في وضع اسوأ من الوضع الذي كانت عليه تركيا عند وفاة عبدالمجيد.

ولكي تتضح للقاريء اسباب تلك الردة الحتمية في مسيرة تركيا نحو التقدّم، نرى من الضروري، تقديم نبذة عن النظام الحكومي الذي يحكم الآن الامبراطورية العثمانية. وستعمل معلومات كتلك على تسهيل التوصل إلى الحقائق موضوع كتابي هذا، تلك الحقائق الناتجة هي في نفس الوقت مفتاح حل وكشف الخُدع والأسرار التي تسببت في خنق السياسة المتقلبة للباب العالي.

واستناداً إلى القناعات العامة التي استقرت في اوربا حول تركيا، نرى انهم يصفون السلطان التركي بالاوتوقراطية، وانه يتمتع بسلطة مطلقة، يمارسها على اتباعه، الذين لايملكون ضد التعسف والاستبداد اية ضمانة سوى الحاجز الهش الضعيف للمواثيق الخط الهمايوني. ومن وجهة النظر الدينية، كونه خليفة جاء بعد الرسول وظل الله على الارض، ولانه يملك في يديه زمام السلطة الروحية، وليس لاستبداده اية حدود. تلك هي صفاته نظرياً، انه الملك الاعظم Podichah،* وليست بصفاته عملياً. انه مجرد حاكم ليست له تلك السلطات على ارض الواقع. فمن صفة الاوتوقراطي كما يتصورونه كذلك، إلى مجرد ملك. ومن يقوم بسلطاته عوضاً عنه، قبل الاصلاح، هم عصابات الانكشارية المتقلبة، ومكائد ودسائس رجال الدين، وفي عصرنا يضاف اليها إنحرافات البيروقراطيين، رجال الباب العالي، وزراءه وموظفي الحكومة العثمانية. ويطلقون على هؤلاء البيروقراطيين اسم الكاتب، وهم فئة تتميز عن الباقين بالثقافة العالية، ويتصدرون مشهد التنظيم الوزاري والاداري. وانغمس هؤلاء في الأعمال الروتينية، واستطاعوا إغتصاب السلطة الواسعة ومارسوها في اجهزة الدولة بسهولة وحافظوا على هيمنتهم على جميع فروع الادارة. وبفضلهم يتمتع ذلك الجهاز بنفوذ وبسلطات لا محدودة. ويخرج عادة من اوساط ذلك الجهاز كبار الافندية، ورؤساء المكاتب، وكبار رجال الشرطة العثمانية، والمحافظون والحكام، والسفراء والوزراء .. الخ. وترى هؤلاء الكتاب غير راضين تماماً عن ممارسة سلطاتهم بشكل مشروع في شؤون الوزارات التي تقع في مدار تدخلهم، فيقومون بالاستيلاء على السلطة العليا، ويتغلغلون في فروعها وفي جميع مفاصلها في جميع الاتجاهات وفي ادق تفاصيل التكوين الهيكلي الحكومي.

---

* Padichah پادشاه، صفة إيرانية تعني الملك الاعظم المعظم، وهنا استخدمها الكاتب استعارة لتوضيح صفة الحاكم التركي. [المترجمة]

ولم يكد يخرج الجيش من رماد الانكشارية، حتى اصبح باستمرار موضوع اهتمامهم الحقيقي وغيرتهم: يراقبونه دائماً عن كثب وبشكل خاص. ويختارون كاتباً منهم بصفة مستشار يقيم باستمرار، بجوار وزير الحرّبية وقادة الجيوش، بهدف التجسس على تحركاتهم ومراقبة تصرفاتهم. ويعد امناء الخزينة العامون، وجميع اعضاء الادارة المالية وادارة الحسابات جزءاً من ذلك الفريق ايضاً، او منخرطين مع كتاب الباب العالي. اما في الجيش فقد كان تأثيرهم ضاراً وسلطتهم المُفسدة مصدر كل تجاوز وكل فوضى. انهم اولئك الذين اساؤوا إلى الخدمة العسكرية، ووضعوا العقبات أمام تطور مؤسساتها. انها تلك السياسة نفسها التي تسببت في صعود العبيد والخدم والحلاقين ومدراء المدارس إلى المناصب العليا، ليترأسوا قطعات الجيش. ونتيجة لتلك السياسة تجرّعت تركيا مذلة الهزائم في الاناضول وجيورجيا والجبل الاسود، واليوم في كريت. وذلك لان الباب العالي يفضل العار وخراب البلاد ولا ان يخسر نفوذه وسلطانه.

وهذه البيروقراطية وانتهازيتها الحاذقة، سبب رئيسي لتلك التجاوزات، والجرائم، والمذابح التي كانت المقاطعات مسرحها. انهم ذلك الصنف الذي يختارون منه الحكام والمدراء، ونوابهم والذين يوزعون تلك المناصب ويمنحونها لمن يقدّم اكثر او المقرّبين من الاتباع، في منازلهم اثناء ممارساتهم اثناء مجونهم. ولم ينج حتى جهاز علماء الدين، فقد سقطت مكانتهم وسلطانهم اضطروا ان يحفظوا الرؤوس أمام هيمنة الباب العالي وأمام تطور الشكوك. ولا يوجد قانون، ولا حتى في القرآن يمكنه ان يشمل برعايته القضاة والعلماء. ويرابط أمام المحاكم بعض انصار وجواسيس الباب العالي في سبيل تحقيق اوامر ورغبات الكاتب. ويمكن لكلمة واحدة يوجهها رئيس احد المكاتب ان تُغير مسار اية قضية حتى لو كانت شديدة التعقيد.

وتتركز جميع سلطات الدولة في ايدي زمرة كهؤلاء نتيجة الصراع الدائم الدائر بين البيروقراطية والتاج. وكان ذلك الصراع قد بدأ بتدمير الانكشارية. ومازال ذلك الأمر يدور حتى في ايامنا. وساعدت المذبحة التي عصفت بتلك الميليشيا المنشقة، ساعدت السلطان محمود الثاني للانتصار على العامل الشعبي واعادت للسلطة الامبراطورية قوتها القديمة. ومنذ ذلك الحين اصبح الحاكم المطلق إلى اللحظة التي اندلعت فيها حرّب مصر إلى جانب متغيرات اواخر أيام حكمه. وخلق كل ذلك فرصة سانحة للباب ليبدأ صراعه ضد التاج. وجاءت الوفاة المفاجئة للسلطان وانتصار البيروقراطية نتيجة لذلك الصراع بين السلطتين.

وكان عبدالمجيد، ابن السلطان البكر شاباً صغير السن عند خلافته لابيه محمود الثاني على العرش. فلم يكن يتعدى حينذاك سن الثامنة عشرة وواصل الباب العالي سياسة الهيمنة على مقاليد الامور في ظل حكم عبدالمجيد مستغلاً قلة خبرة الامير الشاب. بل قاموا بابتزازه القانون السلطاني

للتنظيمات،* وهو ميثاق يحمي الافراد من تعدي سلطة التاج، ولكنه مع ذلك لايقدّم اي ضمان للسلطة الامبراطورية ضد التعدي المحتمل من الباب العالي وما ان وصل السلطان الجديد سن الرشد، خافوا من ان تدفعه رجاحة عقله وذكاؤه للبحث عن كيفية استعادة سلطته السليبة. فاضطروا إلى اللجوء لمكائد القصر، وللتضليل والدسائس الرخيصة وارهقوه وشلوا جميع نشاطاته لأجباره عن التخلي عن أية محاولة للتدخل في شؤون الحكومة. وبفضل تلك السياسة، استطاع خسرو باشا ورؤوف باشا، ورشيد باشا المعروف جيداً، ان يتمتعوا جميعاً كل في وقته بالسلطة العليا والتجاوز عليها، وانتهت علي ايديهم السلطة الامبراطورية لكي تصبح مجرد شبح.

وقد نجحوا بهذه الطريقة في التضييق الشديد على الاوتوقراطية، واغتصبوا السلطة العليا، التي ظلت بين ايدي تلك الفئة العجيبة البيروقراطية، اولئك الذين مارسوا كل في دوره وظيفة رئيس الوزراء. وهناك دستور نظامي يؤمن التوازن الضروري بين مختلف اجهزة الدولة، ويتحدث عن السلوك الطيب للعرش وعظمة وبريق التاج من جهة، ومن جهة اخرى حرية ومصالح الرعية، وخلطة كهذه لاتهتم بها آراء الباشوات، وكتاب الباب العالي، الذين ارادوا الاحتفاظ بالسلطة التي استأثروا بها ليشبعوا طموحاتهم واسرافهم المُفرط اشباعاً تاماً. وادارة الامبراطورية الحالية، ترتكز على نظام حكومي مفكك ومشوّه، وعلى رأسه حاكم لايملك اية سلطة وتواجهه وزارة مسؤولة تتلاعب به،[٢٩] ونجد شعباً دون تمثيل او وجود سياسي وبدلاً من ان يخضع لاستبداد فرد واحد، فسوف يعاني من ظلم وقهر مجموعة من الباشوات والكتاب ورجال الدين ورجالات المال.. الخ، يستغلونه كما يحلو لهم. ذلك هو الانموذج الذي تقدّمه آلية سياسة الامبراطورية العثمانية. ولنتابع الآن دراستنا حول الوضع الحالي للأمور.

عند وفاة عبدالمجيد تغير الوضع الداخلي في الامبراطورية تغيراً محسوساً ودشنت الامبراطورية مرحلة جديدة. فقد كان واضحاً في واقع الأمر، ان جلوس شاب على عرش عثمان، شاب مازال في ريعان شبابه، ويمتلك فكراً ثاقباً مستقلاً، شاب شاهد إلى اي مدى وصلت تجاوزات الباب العالي على سلطة التاج، وداسوا بالاقدام جميع امتيازات التاج اي احتقروها، ان ذلك

---

* القانون السلطاني للتنظيمات خط شريف گلخانه Hatti –Cherifde Gulhane، وهو قانون اصلاحي صدر في عهد السلطان عبدالمجيد في ١٨٣٩ بجهود الوزير مصطفى رشيد باشا. [المترجمة]

[٢٩] نحن الوزراء، نقوم بالقيادة واصحاب السيادة المطلقة؛ ففي فرنسا يوجد حاكم مسؤول عن جميع سلطات حكومته، وفي انكلترا، توجد اغلبية سياسية يخرج منها الوزراء. ونحن أقوياء جداً ولكننا معزولون انهكتنا مسؤولية لا حدود لها ونتيجتها: اذا اردنا ان نمارس حُكماً مطلقاً، فكيف لنا ان نشكو من التعب والانهاك لتحمل مسؤولية كتلك ولا حدود لها؟ حاكم مطلق، مسؤول ياترى أمام من؟ لقد أردنا توضيحاً من فؤاد باشا لذلك. وذكر السيد ادومومستيية في رسالة رسمية انه سمع فؤاد باشا يردد نفس تلك التعابير [راجع: الكتاب الاصفر، ١٨٦٧].

الشاب سيحاول استعادة سلطات السلطان والتي كان قد عرفها اجداده. ولقد أثار ذلك الاتجاه في سياسة العاهل الجديد، والإجراءات النشيطة التي تنبثق من ارادة قوية، منذ لحظاتها الاولى جبهة المعارضة الرجعية، وهي فئة الموظفين المدنيين والبيروقراطيين من النظام السابق من الذين يخافون من فقدان نفوذهم والوقوع تحت طائلة العدالة وارتأوا جمع الصفوف ليقفوا في وجه العاصفة التي تهددهم والابقاء على نفوذ الاقلية، وضرورة حصار وتكبيل السلطة الامبراطورية، كانت تلك اهداف مناوراتهم.

ومع ذلك، فان تلك السياسة التي نجحت تماماً، وعندما تعلق الأمر بقضية تتعلق بالسطان عبدالمجيد جابهت تلك السياسة عقبات ذات صفة خاصة جداً. وتلك العوائق من نوعين: البعض المعارض وقد تكون بسبب صفات العاهل الجديد، والبعض الآخر، من كبار الوزراء والذين كانوا على رأس الادارة خلال المرحلة الاولى من حكم عبدالعزيز. وكانت صفات العاهل الجديد في واقع الأمر العقبة الرئيسة أمام تحقيق مشاريع الباب العالي، لان الأمر لم يعد مجرد صراع مع شاب بدون خبرة وتجرّبة، ويمكن السيطرة عليه بسهولة وكما يريدون يؤثرون فيه. بل انه اصبح من الصعب افساده اليوم. وللتعريف بصفات العاهل الجديد، والذي سيدخل وزراؤه في صراع معه، من الضروري تقديم بعض التفاصيل البيوغرافية لكشف صفات ومثالب عبدالعزيز.

وُلد عبدالعزيز عام ١٨٢٩. ومنذ وفاة محمود الثاني، اعتلى ابنه الاكبر عبدالمجيد، واصبح عبدالعزيز الوريث المحتمل وفقاً لعادات الأسر الحاكمة الشرعية، وكان ذلك عام ١٨٣٩، حين كان سن عبدالعزيز آنذاك لم يتعد عشر السنوات. لقد كان قدر الأمراء ورثة العرش في تركيا مصيراً مؤلماً جداً. ولايمكن حتى مقارنته بمصير اي سجين سياسي مع بعض التحفظات. فالسجين السياسي ينعم بالهدوء في زنزانته، في حين يحاصر الجميع الوريث الجديد، ويصبح هدفاً للدسائس والكراهية، ويحيطه الجواسيس والمنافقون الذين يبعثون على الضجر، يرصده عدم ثقة اخيه وغيرته منه. وبالفعل، لدى عبدالعزيز الكثير مما يعاني منه.

لقد كان يضطر لان ينجو بنفسه من مراقبة الجمهور، وينأى بنفسه من دائرة مجتمع امثاله، في حين كان يفضل حياة الريف، والصيد، والمصارعة، والمبارزات بجميع انواعها. كل ذلك كان شغله الشاغل ومصدر موارده. لم يكن يهتم بالدراسات الادبية، ولايحب حياة الحضر. وحتى يتخلص من الضجر، كان يقضي ايامه الطويلة في مزرعته في كوربالي- دَره Corbali-De`re`، حيث يسهر على تربّية الماشية والطيور ويهتم بحيواناته في حظيرة مزرعته. ويمارس التدريبات الرياضية من كل نوع وهو ما يفضله بالطبع. ولاينازعه في الفروسية سوى قلة قليلة. وكان كذلك صياداً ماهراً لايتعب ولايكل في السباق، ودقيقاً جداً في الرماية.

اما في ميدان المعارف والثقافة، فكانت دراساته قاصرة، على شاكلة فرساننا في الزمن القديم الجميل؛ وكان من صفات النبلاء الجهلة بالكتابة، والسلطان بدوره عدم تفضيل استخدام القلم. وقمة معارفه لاتتعدى اصول قواعد اللغة العرّبية. وكان السلطان في زهرة شبابه عند جلوسه على العرش: متوسط القامة، مفتول العضلات وقوياً جداً. وهو لايثق بأحد، عضوب سريع الانفعال، غيور بطبعه وعنيد. هذا إلى جانب ذكاء محدود. تلك هي صفات حاكم وضعت العناية الالهية بين يديه مصير خمسة وثلاثين مليونا من الرعية.

وعيوب عبدالعزيز الواضحة جداً، يَعُود معظمها إلى الظروف المؤسفة التي عاشها في شبابه، وخلقت منه حاكماً يهدد سلطة الباب العالي. وساعده الشك وعدم الثقة في الناس على اتخاذ جانب الحيطة والحذر من الوزراء الذين استولوا على مفاصل الحكومة في حياة من سبقه. وكان عبدالعزيز يحتقرهم جداً؛ والباب، وقد ارهبه ذلك، فقرر ان يقاومه حتى يقف على نفس المستوى الذي وضعوا فيه اخاه.

ومنذ بداية حكم عبدالعزيز، اندلع صراع بين القصر والباب العالي، اذْ لم يستطع وزيران كبيران كانا يديران شؤون الدولة؛ ان يُشفيا غليل الباب: لم يتمكن قبرصلي محمد باشا، وعلي باشا من فرض ارادتهما على السلطان الجديد منذ البداية، ومن ثم لم يتمكنا ابداً من تحقيق آمال البيروقراطيين انصارهما؛ بل انهما قد اثبتا عدم قدرتهما على استعادة السلطة التي تمتع بها طويلاً، ووجد البيروقراطيون انفسهم في ضيق شديد. وكانوا يشكون مُرَّ الشكوى من وضع الامور الجديدة الذي بدأ السلطان الشاب بتدشينه. ونشروا اقوال مهينة مشينة حوله وحول صفاته، فقد اصبح محور احاديثهم. وكانوا يصرحون بانه لايمكن التعامل معه، وانه لايفقه شيئاً، بل حتى انه مُختل العقل. وغالباً ما يسمعهم الناس يرددون: لا يوجد احد يمكنه ان يعيد ذلك السلطان لرشده؟.

وفي تلك الظروف الحرجة، كان الباب العالي يعمل على تحقيق هدفه في البحث عن رجل نشط مقدام حاد الذكاء، يعرف كيف يكسب ثقة السلطان لكي يستعيد تفوقه ومكانته التي سلبتها منه السلطة الامبراطورية. وتوجهت الانظار جميعها إلى فؤاد، فقد عدوه الرجل الوحيد القادر على انجاح تلك المهمة قضيتهم الاساس ولكي تعود الامور إلى مسارها القديم.

وتكوَّن في القسطنطينية ائتلاف قوي بمساعدة دسائس الباب العالي، هادفا إلى العمل على تحقيق مايراد بتعيين فؤاد باشا رئيساً لمجلس الوزراء. وعمل الأتلاف على تزيين اقل تفصيلة في صفات فؤاد، واقل خبر حتى لو لم يكن يعني شيئاً يقدّمون كأفضل نتاج عبقرية فؤاد. وأيدت الصحافة من جانبها وبكل الوسائل قضية مرشح ذلك الائتلاف واعلنت ان فؤاداً هو الشخص الوحيد الفريد الذي يستحق منصب رئيس مجلس الوزراء، انه الشخص القادر الوحيد الذي تملكه تركيا.

ورغم الجهود المبذولة للتأثير في الرأي العام، ولتبديد اي نوع من التهم المُسبقة التي يمكن للسلطان ان يوجهها لفؤاد، فان عبدالعزيز من جانبه كان يتوقع دائماً وبغريزته جميع النتائج التي يمكن ان تترتب على تنصيب فؤاد رئيساً للوزراء وتمكينه من السلطة. فرفض رفضاً باتاً تعيين فؤاد رئيساً للوزراء. ولم تنجح جميع الوسائل التي لُجأ اليها حينذاك. اذن، وفي سبيل الانتصار في معارضة السلطات، اضطر فؤاد الى اللجوء إلى الطريقة التي كان دائماً يستخدمها في مثل تلك الظروف فدفع انصاره للقيام بمفاوضات مع وزارة بالمرستون البريطانية توصلوا إلى اقرار اتفاق تفاهم يقضي بان تقوم الوزارة البريطانية بممارسة نفوذها على السلطان ليقبل بتعيين فؤاد باشا رئيساً للوزراء. وفي المقابل يوفر الباب العالي للجانب البريطاني تأمين نفوذه مستقبلاً بما يتوافق ورؤاه السياسية. وجاءت مقاومة النفوذ الفرنسي في لبنان لصالح مثل ذلك الاتفاق. وتلك العملية المركبة لاناس بتلك القوة، ستعمل بالتأكيد على الانتصار ضد كل مقاومة. وفي واقع الأمر، وجد عبدالعزيز نفسه مجبراً على التنازل واصبح فؤاد باشا رئيساً للوزارة. ولم تستمر طويلاً مدة ادارة فؤاد باشا الاولى تلك على اي حال. فقد اراد مقاومة السلطان ومنازعة سلطته. ولكن فؤاد باشا اسرع في الكشف عن جرأته، وباملاء شروطه على السلطان عبدالعزيز. ونتيجة كل ذلك، وبالاتفاق مع باقي اعضاء مجلس الوزراء، قرر فؤاد باشا تقديم استقالته. وقد ظنَّ ان مثل ذلك القرار سيرهب عبدالعزيز، وظن انه سيتنازل أمام القوة المطلقة لوزير اجبر على القبول به. ولكن الاحداث لم تؤيد على اي حال آمال فؤاد الجسور. وقبل السلطان الاستقالة وقام في نفس الوقت بتعيين وزير اخر من بين الاشخاص المخلصين لمصالح التاج، وليقوم بادارة امور الدولة.

وفي واقع الأمر، اراد السلطان ان يضع حداً لمقاومة الباب العالي ضده، فقام بتعيين نوروز باشا، احد رجاله المخلصين، وطلب منه تكوين حكومة جديدة. وكان ذلك الاجراء دون شك، افضل وسيلة للوقوف في وجه مشاريع الباب العالي، ولتمكين السلطة العليا. ولكن الباب الذي عرف تماماً مدى ذلك الاجراء، استعان بكل قواه وبدسائس ومناورات ماهرة، ونجح في التصدي لخطط السلطان الموجهة ضد سلطاته.

وبهذا الخصوص، عقدت مناقشات عديدة، واستطاع كسب اهتمام بعض الشخصيات الذين يمكن ان يكونوا اعضاء في الحكومة الجديدة؛ محاولاً بذلك عرقلة تكوين الحكومة. وعبدالعزيز، وهو يقابل صعوبات من كل نوع، تخلى عن مشروعه بمنح ادارة امور الدولة إلى نوروز الذي يحميه، وتوجه نحو كاميل باشا، احد الاتباع السرّيين للباب العالي الذي وجهوه بمهارة نحوه، كونه الشخص الاكثر قدرة لادارة مجلس الوزراء في الاحوال الراهنة.

وكان ذلك التعيين دون شك، نصراً للرجعية ضد السلطة الامبراطورية لانه يمنع تكوين حكومة معادية لتوجهاته، حرص الكتاب البيروقراطيين على الاستعداد لاقتناص السلطة وجني ثمار مميزاتها

في اول فرصة تسنح لهم، ويستعيدون بتلك الخطوة امكانية ادخال رجلهم المفضل على رأس ادارة الحكومة. وتجدر الاشارة إلى ان الباب العالي حرص على ادراج فؤاد باشا بين اعضاء الوزارة الجديدة، ووضعوه في منصب وزارة الحرّبية. ويفتقد فؤاد باشا كل ثقافة عسكرية ولكنه احتل ذلك المنصب حتى يستطيع بكل سهولة السيطرة على الاحداث واقتناص السلطة في اول فرصة سانحة.

وكاميل باشا هذا، رجل ثري مترف مُحب للحياة، ولم يقبل برئاسة الحكومة الاّ لكي يشبع غروره، بأنه قد تسنم يوما ذلك المنصب الرفيع. وبعد ان حصل على ذلك، سرعان ما تخلى عن المنصب وهو يُعرّب عن اسفه، لانه قبل منصباً لم يكن يريده، وكيف كان ذات يوم املاً له. ولم تبقَ ادارته اكثر من ستة أشهر او سبعة، وفي الحقيقة، وقع بعدئذ حدثٌ وضع حداً لحاله انتقالية وامالت الكفة نحو فؤاد باشا وبطانته، وهذا ما اجبر العرش على الخضوع التام لسلطة الحكومة.

ومنذ ذلك الوقت الذي اصبحت فيه مصر بلداً شبه مستقل في ظل حكم محمد علي باشا، انتهت فيه تماماً سلطة السلاطين التي ظلت هناك بلا قيمة. فمكانة سلطة السلطان تختفي رويداً رويداً مع تصاعد سلطة الأسرة الحاكمة الجديدة التي تولت مصائر مصر، وقد اعتاد الناس عليها. وبعد الفلاح نائب السلطان سيده الوحيد، في حين نسى تماماً او كاد اسم سلطان القسطنطينية. ولتدارك تلك الاحوال التي تضر بمصالح البلاد الامبراطوري، ارتأى الباب العالي ضرورة قيام السلطان بزيارة مصر. وسيكون لذلك اثره الطيب لصالح السياسة الامبراطورية. وتم التأكيد على ان وجود عبدالعزيز في مصر وبين سكانها سيكون تأثيره جيداً وسيحرك عواطف الناس بالاخلاص له واجهزت عليها التغييرات السياسية والنسيان طويل الامد.

ويمكن لمشروع كهذا، ان يعمل على تزايد التأثير الامبراطوري في ولاية كانت قديماً ثائرة ضد سلطة الامبراطور، ويمكنها ان تستعيد بلداً مهماً كمصر بتوطيد اواصر الروابط مع باقي اجزاء الامبراطورية. وترضى تلك الآراء عبدالعزيز الذي راودته دوماً فكرة اعادة تكوين الامبراطورية. وقبل الامبراطور بحماس زيارة مصر. واقيمت العلاقات الحميمية بين البلاط الامبراطوري ونائبه وابتدأت الاستعدادات لتحضير مواكب فخمة يرافق عبدالعزيز، كما تم اخطار الباب العالي رسمياً بالقيام بزيارة مصر وبعيداً عن الاسباب السياسية كانت تلك الزيارة لمصر الفرصة السانحة ذات الفائدة من الدرجة الاولى للباب العالي ولاعوان فؤاد. وبهذه الطريقة، تم إبعاد عبدالعزيز عن رجاله ومستشاريه لكي يبقى وحيداً بين ايدي فؤاد الذي استفاد من تلك الفرصة ليحيط ضحيته في شباكه ويمارس تأثيره فيه والظهور بانه وحده الذي يضمن له الانتصار في سياسته. وهكذا، توج النجاح الكامل دسائس البيروقراطية، فقد تم اختيار فؤاد باشا لكونه وزيراً للحرّبية لمرافقة جلالته. واستطاع الوزير بمهارة خداع الامبراطور. ونجح خلال الاربعين يوماً التي استغرقتها الزيارة في تبديد جميع الموانع واسباب النفور، وفي اكتساب ثقة الامبراطور الحميمة.

ومنذ تلك اللحظة، اعتبر السلطان فؤاداً سنده الوحيد الاقوى للعرش. وعند العودة من مصر، تم تعيين فؤاد باشا بدلاً من كاميل في رئاسة الوزارة. واصبح فؤاد منذ العاشر من مايو مايس ١٨٦٢ الحاكم المطلق، خلال اربع سنوات، يتحكم في مصائر بلاده، وجمع في يديه رئاسة الوزراء ووزارة الحربية.

واظن من الضروري ان تستغرق الاحداث التي برزت فيها ادارة فؤاد باشا، خلال ادارة فؤاد باشا، وخلال المدة التي مارس فيها سلطته العليا المطلقة. ولسوف تكشف تلك النبذة الصغيرة مواهبه التي لا تجارى حيث ساعدته على تذليل جميع العقبات التي تقف أمام طموحاته من جهة، ومن جهة اخرى انتهازيته الذكية وغيرها من العيوب الواضحة في شخصيته التي ستترك لسوء الحظ صفحة سوداء في تاريخ تركيا. إلى جانب تلك الفرص السانحة المتكررة في حياة فؤاد باشا التي هيأت له زيارة لاوربا، فأصبح معروفاً لدى اولئك الذين سمحت لهم مراكزهم الرسمية للتعرف اليه. ومع ذلك، فكثير من ظروف حياته وبعض تنويعات صفاته ظلت مجهولة تماماً من معظم الناس. وسوف يساعد تقديم بعض التفاصيل حول تلك الشخصية على توضيح مختلف جوانب السياسة الحالية في الشرق.

وفي بلد تخضع فيه القوانين لادارات الرجال ونزواتهم، وتتقدّم فيه المصلحة الشخصية على المصلحة العليا، وتقوم تلك الفردية بمحو وتنحية حقوق المجموع. وفي تركيا، وحيث تدور مثل تلك الامور، يُسيطر الفرد القوي ويدُّب الضعيف في مفاصل الدولة حيث لامكان لها بين الامم؛ فيقوم ذلك الفرد بالدور الرئيس في تسيير امورها. واذا ما أردنا معرفة الوضع السياسي لذلك البلد، فمن الضروري معرفة تأريخ حياة وصفات وعيوب المسؤولين الذين يعملون على شخصنة الدولة ودمج مصالحها بمصالحهم. انها تلك الضرورة التي اجبرتنا ان نقدّم عبر ذلك الكتاب قصة حياة تلك الشخصيات التي تظهر على مسرح السياسة بين آن وآخر.

الفصل الحادي والعشرون

قصة حياة فؤاد باشا، الوسائل التي أستخدمها لإغتصاب السلطة

ولد عام ١٨٠٨، في كَنَفِ أسرة دينية في القسطنطينية. ووالده عزت الملا، شيخ يتمتع بنفوذ معين في ظل حكم السلطان محمود الثاني. وكان واحداً من اوائل اعضاء المعارضة الرجعية التي تساند الصراع ضد السلطة الاصلاحية. واصبح مغضوباً عليه، وتم نفيه في اوزجات luzgatt، في آسيا الصغرى، وحيث قضى نحبه هناك في بؤس وإهمال. وكان عزت يتمتع بذكاء حاد ومعارف واسعة، ومعروف بكتاباته، كما انه واحد من احسن شعراء عصره. وعند وفاته، ترك ابنه الوحيد فؤاد ليحمل لقبه كيچجي زاده Kietchedji- Zade، وثروة ضئيلة. ومع ذلك فان اولئك الذين يهتمون بمصير الابن، أرسلوه إلى الكلية الطبية الامبراطورية، وحيث اكتسب الطالب الشاب ثمار دراسة كان من المستحيل على أسرته الفقيرة ان توفرها له. وهيأ حب الاداب لفؤاد، ومقدرته على دراسة اللغات معارف معمقة في الادب التركي ومعرفة معينة في اللغتين الفرنسية والانكليزية. ومع ذلك لم يهتم كثيراً بالدراسات المتخصصة. وادّى امتحاناته فقط في دراسة الجراحة. وتم تعيينه في الخدمة الصحية في كتيبة المدفعية في توپخانه Tophane` وفي عام ١٨٨٠، ارسل الباب حملةً لاخماد تمرد الشيخ جمعة Coumah. وفي عام ١٨٨٠، في طرابلس في بارّباريا؛ بقيادة طاهر باشا، وهو ادميرال كبير في البحرية، في حملة عسكرية انضم اليها فؤاد لكونه ضابطاً طبيباً.

ولا تقدّم الصلاحيات الضيقة والغامضة نسبياً لوظيفة الجراح في تلك الحملة اية فرصة لفؤاد، ليجذب الانظار اليه ومع ذلك، فان تلك البعثة لم توفر له امكانية اية ممارسة مهمة تؤثر في مصيره. لقد كان لديه طموح كبير مع حب للظهور والتميز والعظمة دفعته للتفكير في انه اذا ما ظل قابعاً في تلك الدائرة الضيقة لمهنة الجراح لن يسنح له سوى مكان ضئيل مُستقبلاً. فميدان محدود كهذا لايتسع لطموحاته الكبيرة؛ فقرر التخلي عن اسكولاب،* وعلمه الرمزي، اي التخلي عن مهنة الطب، وليكرس نفسه لمهنة الديبلوماسي.

---

* اسكولاب Esculape، اله الطب عند الرومان ابن الاله ابولون، لم يكن راضياً عن مهنة الطب والقيام بشفاء المرضى، فكان يبعث الموتى، وغضب كبير الآلهة جوبيتر، غضباً كبيراً شديداً، فأرسل عليه صاعقة اثناء صلاة بلوتون، اله الجحيم. ووالديك رمز الحذر والرقابة، وكذلك الافعى رمز الحكمة هي رموز تنسب اليه. وفي اللغة العادية تعني المفردة إسكولاب Esculape = الطبيب. [المترجمة]

وعند عودته إلى القسطنطينية، بذل فؤاد جهوداً كبيرة ليشق لنفسه طريقاً آخر ويتوصل إلى ذوى السلطة والنفوذ. ولكنه وهو المجهول المحروم من كل حماية، ويتوق للنجاح فلم يجد سوى وسيلة اللجوء إلى احد المشايخ، رئيس جهاز ديني من الدراويش بل وصديق قديم لابيه عزت الملا. وأراد الشيخ ان يقدّم المساعدة للشاب الذي التمسها. وقرر التدخل لصالحه وقدّم طلباً إلى رشيد باشا، وزير الخارجية في ذلك الوقت. وكان رشيد باشا الكبير، يرغب في خلق وتهيئة كوادر لخدمة الدولة يمكن ان يكونوا سنداً له في المستقبل، قبل الطلب بكل ترحاب، وأمر بقبول فؤاد في مكتب الترجمة التابع للباب العالي. وفي ذلك الزمن، كان كل من يعرف بضع كلمات فرنسية، يمكن عده قمة. ولم يتطلب الأمر اكثر من ذلك ليحصل فؤاد في مهنته الجديدة على شهرة جلبت اهتمام وتقدير رؤسائه له. واعتمد عليه رشيد باشا منذ دخوله المكتب ووضعه تحت رعايته، وحاول ان يستفيد منه ويشجعه، فَقَرّبه اليه واتخذه سكرتيراً له. ورافقه فؤاد في سفارته في باريس ١٨٣٥، وفي لندن ١٨٣٨.

وغالباً مايحدث في العالم، ان تجذبنا امكانيات بعض الناس في بداية الأمر. ولكن وبعد اختيار ما شخص وعن قُرب نكتشف الحقيقة المؤلمة. ومن ثم نأسف اننا قد اطلقنا عليهم حُكماً مُتَسرّعاً. ومن صفات فؤاد الازدواجية، والطموح والانانية المفرطة، أنه لايمتلك اية مشاعر نبيلة وكريمة. فالصفات التي يتحلى بها فؤاد لم يستطع رشيد باشا وسط إنشغالاته وهمومه ان يتحقق منها، ويستشفها في رجل كان قد بسط عليه حمايته ولكنه بعد ان قرّبه، كشف الاحتكاك اليومي به لرشيد باشا كيف يمكن ان تنخدع اكثر العقول ذكاء وفطنَة وكم تُخطئ. وشعر بالندم من وضع رجل تحت حمايته، وتشجيعه، فقد تنبأ من صفاته بأنه سيكون يوماً ما مصدراً لمآس كثيرة في بلاده.

واحسّ فؤاد بالضياع بعد فقدانه ثقة رشيد باشا، فالمستقبل لا يعده الا بافق ضيق مظلم. وادرك فؤاد انه كان عليه ان يحرك الاوراق بمهارة اكبر. فقام بمحاولة ذكية لاستعادة الامور إلى نصابها ومحو الانطباع السيء الذي بدأ رشيد باشا يستشعره تجاهه بالطبع. ولجأ إلى آغوث افندي، مستشار السفارة العثمانية قديماً في باريس والصديق الصدوق لرشيد باشا، وتوسل اليه ان يتدخل ويكون حَكَماً بينهما ولاستعادة عطفه ورعايته. وكان رشيد باشا يعرف تماماً ما يؤاخذه عليه، وأمام ضرورة وجود رجال من ذلك النوع في الدولة، وحسب الامكانية المُتاحة، وافق على مضض على القيام بما يستطيع وليس بما يرغب فيه.. وعاد فؤاد إلى وظيفته وسُمِحَ له بمتابعة اعبائها. ومن الضروري هنا ان نعمل على توضيح ابرز صفات الرجل الذي امسك ولمدة طويلة بمقادير تركيا. فنشير إلى انه ما ان اطمأن على مستقبله وتسنمه المراكز العليا، استدار فؤاد ضدّ وَلِيُّ نعمته القديم والذي وصل بفضله إلى ماهو عليه وظل يطارده بضراوة حتى مماته.[٣٠]

---

[٣٠] توفى رشيد باشا في فبراير ١٨٥٧. وهناك الكثير من صفحات التأريخ المعاصر مازالت مجهولة، وكان يمكنها ان توضح ان ذلك الرجل العظيم قد واجه نهاية غامضة. وكوني شاهد عيان على ذلك الحدث، سألخص هنا بعض

ولدى عودته من اوربا، تطورت اوضاعه وتسارع عمله واصبح اكثر اشراقاً؛ اولاً: احتل منصب رئيس المترجمين، وثانياً: اصبح مُستشاراً لوزارة الشؤون الخارجية. وفي الوقت الذي جلست فيه ايزابيلا الثانية على العرش، ارسله الباب العالي مبعوثاً فوق العادة وكان فؤاد باشا يحمل لقب افندي، وليرافق البعثة التي ذهبت لتهدئة جلالة الملكة الكاثوليكية بجلوسها على العرش. ويمكن عد تلك السفارة بداية دخول فؤاد العالم الرسمي. وفي هذه المناسبة اثار انتباه الجميع باناقة تصرفاته وحديثه المليء بالمفردات المختارة يستخدمها في وقت معين لغرض معين. ومنذ وفاة ابراهيم باشا، ابن محمد على الكبير، كلف الباب العالي فؤاد باشا للاشراف على تقسيم تركة ابراهيم باشا بين اولاده الثلاثة: احمد باشا، واسماعيل باشا، ومصطفى باشا. وبدلاً من ان يقوم باجراءات لفض النزاعات التي اثارتها قضية الارث، والتي رسخت العداوة بينهم إلى جانب انه عدها فرصة ليكرس بذور العداوة والكراهية الدائمة بين الاخوة الثلاثة، في الوقت الذي كان يراعي فيه مصالحه الخاصة. ونجحت سياسته تلك نجاحاً ساحقاً. واستولى لنفسه على حصة الاسد مستولياً على الملايين. بل عرف كيف يحرك العداوات بين

الحقائق كما حدثت. واذا كانت تربطني أواصر وعرفان بالجميل، مع الوزير العظيم المرحوم. وكنت اعيش صداقة حميمة مع أسرته، حيث كنت أقضى سهراتي مع ابناء رشيد. وقد شعر ببعض الوهن سببه الافراط في العمل، وكذلك بسبب قسوة فصل الشتاء، ولم يهتم أحد بهذا الخبر وحتى طبيبه بالولوجوس. وعلى اي حال، فان رشيد باشا كان يحتفظ من تأثير البرد القارص الاستثنائي السائد آنذاك، فوجد من باب الحذر ان يلازم غرفته، تاركاً أعباء وظيفته إلى زملائه. وفي اليوم الثالث كان قد شُفِي تماماً لدرجة انه قرر العودة إلى ممارسة عمله، بعد ان يقوم بزيارته للباب العالي. وخلال سهرة اليوم الثالث والتي سبقت وفاة الوزير وكنت مع اولاده، قضى السهرة مع الاصدقاء الحميمين في مكتبه. وتركت المنزل واولاده في منتصف الليل، وقبل ان يغادره مبكراً. وحينما كنت استعد للذهاب ولقاء رشيد باشا، وقبل ذهابي إلى القسطنطينية، جاءني احد خدم سيادته ليخبرني بنبأ وفاته!!

وعبرت البوسفور بسرعة، ووصلت إلى منزله، حيث تعالت أصوات البكاء والنحيب والالم من اسرة المرحوم، وبددت شكوكاً كانت قد ساورتني حول تلك المصيبة. وبعد ساعة من وصولي، جاءت باخرة قادمة من القسطنطينية تحمل رضا باشا، وزير الحربية وعدداً من الاطباء والموظفين ليقوموا بالواجبات والمراسيم التي تتطلبها مثل تلك الظروف. وقام الاطباء بفحص الجثة، وبعد ذلك نزلوا إلى الغرف، حيث يوجد ابناء رشيد باشا، واجتمعنا معاً. واعلن الاطباء وفاة الوزير، واقترح احدهم لتبديد شكوك اسرة الفقيد، بضرورة تشريح الجثة، ولهذه الحادثة اهمية كبيرة. ورغم انه، لا الابناء ولا اي واحد آخر، لم يشكوا في اسباب وفاة والدهم الحقيقية، فمن المؤكد انهم لايوافقون على تدنيس جسد والدهم ليسمحوا بتشريح الجثة؛ على ان الدين الاسلامي بدوره يعارض ذلك بصراحة. والاجابة الوحيدة التي قدّمها اولاد رشيد باشا، وكانت: توفى والدنا، نعرف ذلك، وعلام سَيُسفر التشريح؟ اما الظروف التي تواترت على وفاة رشيد باشا مايأتي: ١ لحظة وفاة الوزير اصاب اعداؤه بعض الضيق الشديد، فقد عاد للسلطة لسابع مرة، فمن المستحيل مقاومة تأثيره من الآن فصاعداً، ولأنه كان قد اقسم على تدمير اعدائه. ٢ اثارت وفاة رشيد باشا فرحاً جنونياً في منزل فؤاد باشا، وقبرصلي باشا، وعلى باشا واتباعهم. ٣ توفى باليولوجوس، طبيب رشيد باشا الخاص بسبب المفص والاسهال بعد ثلاثة اشهر وهو في زهرة شبابه. ٤ غرق علي غالب باشا، صهر السلطان والاقوى بين ابناء رشيد باشا؛ غرق بشكل غامض في البوسفور بعد مرور شهرين فقط على وفاة ابيه، رشيد باشا.

الابناء وتواترت نتائج تلك السياسة فيما بعد: الموت الغامض لآمة باشا Ameh Pasha غرقاً في النيل والاحتراب المفرط بين نائب السلطان الحالي اسماعيل باشا والابن الاصغر لابراهيم باشا، مصطفى باشا.

وقدّمت الاحداث التي اندلعت في عام ١٨٤٨ في امارات الدانوب فرصة للظهور بمظهر رائع في الحياة الدبلوماسية وعملت على ابراز حقيقة ميوله المشؤومة ملامح عبقرية واضحة. وحركت الحركات الثورية في تلك المرحلة مختلف المناطق الاوربّية ووجدت صدىً لها بين شعوب المولدو فالاك* التي تحركها رغبات مشروعة بانشاء المؤسسات بما يتوافق والمصالح الوطنية والمباديء الليبرالية التي تسود المجتمعات الحديثة. واندلعت ثورة وتشكلت حكومة انتقالية اخذت بزمام الامور.

وكانت تركيا وروسيا تتنازعان السيطرة على تلك الامارات فهي سبب الخلافات الدائمة القائمة بين الدولتين. لقد كانتا تحتلانها بالتبادل تحت حجة الحفاظ على النظام والهدوء حتى يمكن التوصل إلى الحل النهائي للمشاكل التي تتعلق بالدستور وبهيكلته. ودارت مفاوضات عديدة بين هذين البلدين، وارسل الباب العالي مُفوضاً قوميسيراً امبراطورياً برفقة بعثة تمثل البلاط الحاكم للدفاع عن حقوق التاج. وارسلت حكومة سانت بطرسبورگ بالمثل البارون بودبرج Budberg سفير روسيا لدى الامبراطور نابليون الثالث مُمثلاً لحكومته ولكي يدافع عن نفوذ روسيا في الامارات بما تتطلبه مصالحها وتوجهاتها السياسية.

ولاتسمح الحدود الضيقة لاى تأريخ حياة بالتغلغل في جميع التفاصيل او في منعطفات المؤتمرات السياسية التي عُقدت في تلك المرحلة. ويكفي ان نقول، انه في غمرة ذلك الصراع الدبلوماسي الدائر بين الدولتين مُمَثلاً في مندوبيهما اللذين يديران الصراع، وفي غمرة صراع كهذا كان الغالب والرابح هو فؤاد باشا، وكان ذلك على حساب عدم الاساءة لحكومته او تلطيخ سمعته هو. وكان هدف روسيا المعلن، فرض نظام سياسي على الامارات، يسهر عليه اتباعها ويتفق ومصالحها ولا يتقاطع مع توجهاتها. وكان يجب على المندوب العثماني اتباع سياسة لصالح حكومته، تتطلب منه الوقوف علناً في وجه كل تدابير تَصُب في صالح عدوه. وارتأى فؤاد ان الاخلاص والامانة يتعارضان ومفاهيم السياسة الجيدة، وتصور انه يمكنه التصرف تجاه ذلك الأمر بصورة مغايرة. وبدلاً من ان يعارض جهود المبعوث الروسي، تظاهر بانه يتفهم اتجاهاته وانه يساند مشاريع روسيا. ووجد وسيلة لذلك، ففي نفس الوقت، سوف يحاول بمهارة افهام الجميع ان تنازلاً كهذا يتطلب منه تنفيذ شروط معينة تستطيع وحدها ان تدفعه على مواصلة المسيرة التي يستعد لاتباعها تجاه السياسة الروسية.

---

* Moldo-Valachie قوام من اصل لاتيني، سكنة جنوب شرق اوربا وخصوصاً رومانيا والبلدان المحيطة. وتطلق تلك التسمية على الشعوب التي سكنت مولدافيا. [المترجمة]

وهناك ستار سرّي يُغطي طبيعة المحتوى الحقيقي لتلك الشروط التي اتبعها الجانب الروسي ونفذها بكل امانة. ولكن اذا اردنا ان نحكم على الاسباب بنتائجها، يجب ان نستنتج ان تلك الشروط اللازمة ليتصرف على هواه،[٢] في الوقت الذي استطاعت فيه تلك الاسباب نفسها ان تُرضي شركاءه في القسطنطينية. وكم ستكون دهشة القارئ عندما يعرف انه بدلاً من احترام الاتفاق بمثل ذلك الاخلاص الذي يفرض حتى على المجرمين احترام التزامهم، بدلاً من كل ذلك لم يتردد فؤاد باشا من نزع القناع بعد ان تأكد من قضيته، مع انكاره التام حتى بوجود اية ترتيبات مسبقة؟ بل وكان لدينا بالكاد تفكير بامكانية حدوث امر كهذا. ولم يتصور الناس آنذاك، امكانية وجود رجل يحمل صفة رسمية ويتصرف بشكل يمكن وصفه بالخطورة، اذا ما رأينا ان الامير منشيكوف، مندوباً لروسيا في القسطنطينية، قد اكد ذلك بما لا يدع مجالاً للشك لدى وصوله عام ١٨٥٣. وهكذا كيف، وباية تدابير اصبح ذلك الحدث المشؤوم معروفاً ومنتشراً بين الجميع. فقد جاء الامير مِنْشيكوف اذا ما تذكرنا الأمر، حاملاً انذاراً نهائياً من روسيا حول قضية الاراضي المقدسة ولدى وصوله القسطنطينية ذهب لرؤية الباب العالي لكي يقدّم للحكومة العثمانية مُطالباً رئيس دولته، وفقاً لادب اللياقة والعرف المتبع في مثل تلك الظروف، ومن ثم إلى رئيس الوزراء وباقي اعضاء الحكومة. ولكن حدث ما ادهش الجميع، فقد وصل مباشرة إلى الباب العالي وتظاهر حتى بتجاهل وجود وزير للخارجية اصلاً، ومن ثمّ توجه إلى رئيس الوزراء واتصل به في الحال. وكانت دهشة موظفي الباب العالي كبيرة آنذاك، فقد أحسوا بالاهانة أمام ذلك التصرف، وحاولوا إفهام الامير بانهم كانوا يفضلون لو كان الامير قدّم طلباً برؤية رئيس الوزراء بالطرق المتبعة وهذا ما يعني ان يقدّم طلباً إلى فؤاد افندي الذي كان حينذاك وزيراً للخارجية. وما ان سمع اسم فؤاد، انتفض وقال: سيدي وباحتقار ردد بانه من دواعي اسفه ان يرى نفسه مُجبراً ان يُعلن بان شرف رئيسه وشرفه هو شخصياً، بالتواصل باي شكل كان مع وزير غشاش، وبعد فضيحة كتلك ارتأى الباب العالي ان يجبر فؤاد بك على تقديم استقالته، بعد ان رأى انه من المستحيل الدفاع عنه، تم تعيين رفعت باشا وزيراً للخارجية وهو الذي ادار المفاوضات بين الباب العالي والوزير القيصري.

لقد ادت تلك الاحداث التي وقعت في تلك المدة، إلى إثارة شديدة، لكنها ما لبثت ان انطفأت وتم نسيانها تماماً أمام الاسئلة الخطيرة المطروحة، والتعقيدات التي ظهرت بين روسيا والدول الغربية. واستغل فؤاد القلق الذي ساد بين الناس في الاجواء السياسية دون اي عقاب لكي يعود للظهور على الساحة السياسية وفي اول فرصة متاحة.

واجتاحت رابطة الوطنيين الهللنيين* تِسَّاليا، فقدمت بهذا للباب العالي الفرصة لكي يُعَوِّض فؤاد الذي وقع ضحية مشاعره المعادية لموسكو. فقد تم تعيينه مرة اخرى قوميسيرا امبراطورياً يمتلك

---

[٢] كان قد اشترى منزله في جانليجه في تلك المدة.

* اليونانيين، قديماً كان يطلق اللهلينيين للدلالة على اليونانيين. [المترجمة]

سلطات مدنية وعسكرية، واوكلوا اليه مهمة طرد المتمردين خارج الحدود اليونانية. لقد ضحك القدر كثيراً واخلص لمصير فؤاد في تلك الظروف. وإحتلال الحلفاء اثينا واپيروس piree* وفي عملية اجبار لحكومة الملك اوثون Othon لحرمانه من التأييد بالتنكر للوطنيين. وهكذا و بسهولة استطاع فؤاد بفضل تلك العملية انجاز المهمة التي اوكلت اليه، والتمتع بامجاد استعادة تساليا و پيرايوس.**

وما ان انتهت الحرّب، تم إرساله إلى باريس، حيث ساهم في معاهدة ١٨٥٦، واخيراً في عام ١٨٦٠، ادت احداث لبنان إلى حدوث ازمة مميتة، وتم إرسال فؤاد قوميسيراً امبراطورياً يمتلك سلطات لامحدودة من اجل تهدئة تلك الاقاليم. ومازالت تلك الاحداث التي برزت حديثاً حية في ذاكرة القارئ، فليست هناك حاجة لتعليقات اخرى. ويكفى القول في بضع كلمات ان تلك المهمة الحرجة التي قدّمت مَظهراً واحداً من مظاهر الترضية لضحايا تلك المصائب. اما في اوربّا فقد شعروا بالمهانة واستطاع فؤاد تكميم صوت العدالة، وذلك بالقيام بمذابح رسمية[٢٢]انتقاماً لمذبحة ما قديمة سابقة. وافضل شاهد على مهارته السياسية ما قدّمه للُبنان.

ولم يشك احد في عدم كفاءة وصلابة ذلك الاجراء بسبب الاضطرابات الدائمة التي عمّت لبنان. وهبَّ رجال الجبل في لبنان على اختلاف طبقاتهم ودينهم سواء كانوا مسيحيين او مسلمين، والذين يكرهون الاتراك ويرهبونهم؛ هبوا رافعين السلاح ضد ظلمهم واضطهادهم.

وسمحت لنا تلك المعلومات حول حياة فؤاد باشا وحتى ذلك الوقت الذي اصبح فيه رئيساً للوزراء للمرة الثانية؛ سمحت لنا الان باستئناف الحديث عنه، وكشف الطريقة والتدابير التي استطاع بها فؤاد ان يغتصب السلطة العليا ويعمل على انتصار الرجعية، ومن ثمّ يلقى بتركيا في ضبابية كاملة نحو الهاوية. اما تلك الطرق التي اتخذها فؤاد باشا وسيلة للحصول على السلطة العليا وتقوية نفوذه كمايأتي:

١. استغلال عدم خبرة عبدالعزيز وخداعه وتوريطه أمام الرأي العام.

---

* ابيروس، مقاطعة شمال غرّب اليونان وحالياً مقسمة بين اليونان والبانيا. [المترجمة]

** بيرايوس، جنوب شرق اليونان، وهي مدينة في مقاطعة اتيكا في اليونان على بعد ٩ كيلومترات جنوب اثينا. وقديماً كانت الميناء التأريخي لاثينا. وكان قد تم بناء الميناء التأريخي هذا في القرن الخامس قبل الميلاد.[المترجمة]

[٢٢] لقد تم اعدام احمد باشا احد مارشالات الامبراطورية العثمانية رمياً بالرصاص وضحوا به بشكل مهينو في الوقت الذي تم فيه اعدام خمسة وستين مسلماً. وقدّمت الخزينة كميات هائلة من المال للغراماتو ومع ذلك لم يصل شيء منها لمستحقها. والمصاريف التي كلفتها الاحداث التي انجزها فؤاد باشا طيلة عمله قوميسيراً امبراطورياً وصلت إلى رقم اسطوري يبلغ مائتي مليون قرش. وتمت هذه المصاريف التي قدّمتها الخزينة دون مراقبة، وتم تسجيلها في الموازنة تحت عنوان مصاريف غير اعتيادية. ومن الصعب معرفة كيف تم صرف ذلك المال. لان فؤاد باشا كان يمتلك الحرية الكاملة ويستطيع ان يستنفذ من الخزينة المال الذي يود الحصول عليه وصرفه بالشكل الذي يريد.

٢. عزل عبدالعزيز عن طريق حرمانه من تأييد ونصائح كل اولئك الذين يعارضون ويقفون سداً أمام سياسة فؤاد.

٣. احتكاره لاعلى مناصب ومراكز الامبراطورية.

٤.خداع الرأي العام والسلطان عن طريق الصحافة. علماً ان بحثاً منهجياً ومختصراً لجميع تلك النقاط يقدّم وحده للقاريء امكانية التغلغل في متاهة الوزارة السياسية التي حكمت الامبراطورية العثمانية.

١. استغلال عدم خبرة عبدالعزيز، وخداعه لطيبته وتوريطه أمام الرأي العام:

منذ ذلك الوقت الذي ترك فيه حكام الأسرة العثمانية الامبراطورية زمام امور الحكومة بين ايدي الوزراء وانغمسوا في إنحطاط في المتع واللذات التي تزخر بها حياة فاتنة مُترفة قلقة؛ كان ذلك هو السر وراء حصول مختلف الأطراف دورياً وبالتناوب على التفوق والسلطة في الدولة، حيث تصر في اهتمام بالغ على ابعاد وعزل السلاطين والأمراء عن شؤون السلطنة ومحاصرتهم ليظلوا جاهلين جهلاً تاماً بامور الدولة بما يضمن لهم التمتع بالسلطة المُغتصبة. ويتركز مبدأ تلك السياسة في هذه المفارقة التي تقضي بضرورة الابقاء على الجهالة والسخف سمةً للاوتوقراطية، واتبع الباب العالي بنجاح سياسة بغيضة وبرّبرية في معارضة لجميع المباديء الاخلاقية منذ القضاء على الانكشارية وحتى يومنا هذا. اذن، فباستخدام واستغلال الجهل والتدني الاخلاقي لراس الدولة استطاع كتاتيب الباب العالي اقتناص الثورة والتمسك بتطور نفوذه ومحاصرة وتقييد الحقوق المشروعة للتاج.

وإستناداً إلى تلك المباديء المُنحرِفة والضالة، كان الباب العالي يعتقد دائماً ان السبب في الابقاء على الدولة المطلقة والنظام الحكومي القائم هو في العلم على ان يظل الأمراء العثمانيون بعيدين ومُتَرَوين وجاهلين تماماً، بكل ما يُمكن ان ينير عقولهم، او ما يمكن ان يساعدهم على ان يكونوا جديرين بمكانتهم وهيبتهم. وافضل مايصف ذلك الواقع، كحالة الانزواء داخل قفص للابقاء عليهم بعيدين محصورين حتى قبل الحديث عن كل اصلاح لتركيا. وذلك على الرغم مما يقدّمونه للناس من المدائح التي يرددها مدعو التجديد والاصلاح. اما ذلك القفص، اي ذلك الحصار فقد حافظ عليه الباب العالي بكل عناية واهتمام على نفس المستوى وتقريباً بنفس الشروط كما كان عليه الأمر من قبل.

فاذا ما كان الحال كما في السابق، ولم يكن هؤلاء الأمراء الآن مُكرهين على البقاء في منازلهم، ولايُسمح لهم بالخروج الاّ إلى الحدائق الملحقة بمنازلهم، أفلَيْس انزواء وعزلة اولئك الأمراء اليوم باشد قسوةً وشدةً مما كان عليه حال الأمراء السابقين. فهناك أمير واحد فقط، الوريث المحتمل، الذي يستطيع الخروج من القصر وبأمر من السلطان. وكانوا ضحية المراقبة والتجسس الدائمين.

ولايستطيع احد أيّاً كان الاقتراب منهم، فهم محرومون من اي اتصال مع العالم خارج القصور. ويتكون محيطهم من شراذم العبيد الچركس، والفلاحين الجهلة القادمين من الاناضول. وهؤلاء جميعاً يُثَبِّطون الهمم، ويعملون بواسطة الدسائس والنميمة على إثارة الوقيعة والفِتن بين الامير المُعظم الغيور واسرته. وهكذا نشأوا ومنذ نعومة الاظفار في دائرة من الفساد والجهل. ومع استحالة الاتصال بأي مجتمع آخر يختارونه، فماذا ننتظر من هؤلاء الأمراء البؤساء اذا ما جلس احدهم يوماً على العرش واخذَ زمام الامور بين يديه؟ ومع ذلك، فان الباب العالي وهو يخلط السخرية بالميكافيلية والسوقية لم يتردد من اسباغ الالقاب الفخمة السامية عليهم كنحن الأمراء سعادة العالم!

لقد حصل امراء الأسرة الامبراطورية على ثقافة تستند إلى مباديء الحضارة الحديثة وفي إنسجام مع مكانة التاج. وذلك بعد ان زادت مؤخراً درجات النقد والنصائح من قبل الدول الكبرى حول ذلك الموضوع. فتلك الدول تهتم باعادة تركيا لمكانتها الطبيعية. وتظاهر الباب العالي بتقليل تلك النصائح باهتمام زائد، وتم إتخاذ اجراءات تساعد شباب الأمراء بقطف ثمار تعليم متطور. ومع ذلك، فان النظام المُتبع في تلك الدراسة، بعيد جداً من ان يرضى احداً، وانما تم اتباعه فقط لمجرد كسب رضا الرأي العام.

وفي واقع الأمر يتمسك الباب العالي بسياسته التقليدية في الابقاء على جهالة اولئك الأمراء، وتطلب مصالحه كذلك. حيث عهد إلى احد رجاله، سليمان بك، وهو شخصية باهتة سخيفة، اصبح قائد الاركان بعد ان كان عبداً؛ فاعهد اليه تلك المهمة. و هو شخصية غير كفوءة اوكلت اليها مهمة ومقدسة كتلك، وهذا يعني انها لاتعني له شيئاً. ويكفيهم انهم يقنعون العالم ان امراء اسرة عثمان يتلقون تعليماً راقياً جداً، اما مايخص استيعابهم لذلك العلم ام لا فلا يهم؛ وهنا يَكمُن دهاء سياسة الباب العالي. ويعد إبقاء الأسرة الحاكمة غارقة في ظلمات الجهالة عقيدة سياسية لدى الباب العالي. ولم يُسمح مطلقاً لكل امير من الأسرة الامبراطورية ان يتعدى حدود مكان إقامته، ونادراً جداً لو تمكنوا من ترك عاصمتهم.

ووفقاً للاشاعات التي دارت في الاوساط العليا خلال خريف ١٨٦٦ فقد قدّم امراطور فرنسا دعوات مفتوحة من قصر التويلري للحكومة العثمانية للتعريف بمدى الرضى والحبور الذي سيعم اوربّا وخاصة فرنسا، اذا ما تفضل صاحب الجلالة الامبراطورية مراد افندي، الوريث المحتمل، بقبول الدعوة وقضاء بعض الوقت في اوربّا وإقامة علاقات شخصية حميمة مع بلاطات بلدان العالم المتمدن. ورغم ان الباب العالي في حقيقة الأمر مقتنعٌ تماماً بالفوائد الجمة التي سوف تجنيها البلاد نتيجة حدوث أمر مهم كهذا، فقد استطاع وبمهارة فائقة ان يتجنب حدوث امر كهذا يهدد مصالحه في الصميم. وتنهار تركيا إلى اقصى الدرجات، إلى جانب الضغوط الكبيرة التي مارسها امبراطور فرنسا بنفوذه القوى، لكي يوافق الباب العالي على القبول بزيارة يقوم بها

السلطان واولاده إلى اوربا. فإن اقصى ما سمح به الباب العالي، كان رحلة سريعة عبر مختلف بلدان اوربا. ونتساءل؛ لماذا لايوافق الباب العالي على ان يواصل العديد من امراء الامبراطورية الدراسة في جامعات اوربا؟ ولاشك ان ذلك يؤدي بتركيا ان يكون لها اباطرة جديرين بالتحكم في مصائرها. ولكن كل ذلك لايدخل في حسابات الباب العالي.

ولايمكن ان نتمتع من توضيح ذلك التناقض الصارخ القائم بين مستوى نشأة وتعليم امراء الامبراطورية العثمانية والنظام المستنير الذي نشأ فيه امراء اسرة محمد علي في مصر. ويشرف على تنشيءتهم وتعليمهم وتطوير دراساتهم، رجل جدي جدير بتلك المهمة ويتمتع بكامل الحرية في العمل على توفير كل مايلزم لتطوير دراساتهم بإرسالهم إلى الخارج في بعثات تؤثر في عقولهم وتفكيرهم. ورغم سياسة التعتيم ضيقة الافق مهما كانت ادعاءاتها فلايمكن لاحد ان ينكر تفوق امراء اسرة محمد علي. ذلك التفوق الذي يميزهم وساهم في تطوير مصر منذ جلوس اسرة محمد علي على العرش.

في ذلك الوقت، اصبح عبدالعزيز في سن الثانية والثلاثين. ولم تكن لديه القدرة آنذاك على حلحلةِ نظام رجعي لم يتحرر منه وينطلق الا مع جلوسه على العرش. ولم تكن نشأته بافضل ممن ينشأ في النظام الذي قمنا بعرض تفاصيله للتو. ولم تأخذ قدراته التي وهبتها له الطبيعة من ذلك النظام سوى بصمات من الحدّة والغضب.

ما ان جلس السلطان عبدالعزيز على العرش، حاول القيام باصلاحات نافعة كما كان يرغب. ولكن تلك الرغبة الصادقة غير قادرة على القيام بأي شيء، لان عبدالعزيز كان محروماً من المعارف ومن انوار العلم، والتي وحدها كانت قادرة وكفيلة بان تجعل من رئيس الدولة حاكماً ينجز جميع الواجبات التي يمليها عليه مركزه الرفيع. لقد كان يتملك ارادة حديدية وقدرات عالية، لكنها بدون المعارف وانوار العلم لاتعني شيئاً، لانها السند الحقيقي لتلك الصفات. هذه هي حقيقة عدم استجابة عبدالعزيز للانتظار الطويل لرعيته ولرغباتها وامانيها، علماً انها نقطة الضعف التي ركز عليها فؤاد هجماته للقضاء على سلطته.

وما ان اصبح فؤاد باشا رئيساً للوزراء، حتى أرتأى ان اسلم الطرق للسيطرة على قوة السلطان وكبح جماحه هو اخضاعه لادارته مستغلاً عدم خبرته والتأثير فيه وافساد افكاره. وحال خضوعه اخذ ينقله من خطأ إلى آخر، إلى ان وقع تحت ثِقل المسؤولية التي تربطه به. وهكذا تحول عبدالعزيز وللابد عبداً لسياسة فؤاد باشا. وفي واقع الأمر، بدأ اول الأمر رجلاً قوياً، قاهراً في تعامله وتدخل رويداً رويداً في عطف وفي ظل رعاية سيده محاولاً ان يمحو الاشمئزاز والنفور الذي كان السلطان يضمره تجاهه، وذلك عبر مظاهر عديدة، كالاخلاص لجلالته، والتعبير دوماً عن مشاعر الاعجاب بصفات ومزايا جلالته ومواهبه السامية، ومؤكداً دوماً وفي مبالغة على اخلاصه التام الخالد ووطنيته اللامحدودة. وبعد ان تأكد تماماً من تأثيره الكامل فيه بعد كل تلك

المقدّمات، اقنع عبدالعزيز ان جلالته يجب ان يظل متأكداً تماماً ومطمئناً على مستقبل امبراطوريته والا يشعر مطلقاً باليأس لان الامور لم تصل بعد إلى تلك الدرجة من السوء الذي يتحدث عنه المتطرفون، وان تركيا بلد غني بموارد لاتنفذ، وان امبراطوريته تجد الضمانة القوية جداً لديمومتها في غيرة وخوف الدول الكبرى على سلامتها. فسلامة تركيا تصب في صالح تلك الدول ولكي تدافع عنها ضد عدوان روسيا عليها. فاذا ما كانت تلك الدول قد ضحت بالمال والرجال من قبل، فهم بالمثل اليوم يضطرون لمساندتها ومساعدتها ضد كل انتفاضة وثورة، او انقلاب او افلاس او اية مصيبة اخرى قد تهدد وجودها.

واظهر له ان جميع الاعتبارات يجب ان تطمئن وتهدئ خواطر جلالته حول المستقبل: اما فيما يتعلق بالماضي فان الكوارث والفوضى التي اساءت لفترة حكم اخيه، فقد تم نسيانها تماماً بل ومحوها كلية. ولم يترك فؤاد الماهر الحاذق شاردة او واردة، او لحظة مناسبة للتصريح بان الاصلاح، ذلك العمل الكبير قد تكرس على ايدي عبدالعزيز المظفرة، وان العالم كله ينظر اليه من اكبر السلاطين الذي وهبه القدر لتركيا، ولا يسمع الناس في ارجاء الارض سوى اصداء المدائح لعبدالعزيز.

وبعد ان اتخذ تلك المواقف جميعاً والتدابير، وعبر جدلٍ من ذلك النوع نجح في التأثير على افكاره، وحاول الوزير الذكي ان يتغلغل اكثر في ثنايا عواطفه، وحدود رضاه ورعايته، فتظاهر بانه يؤيد من كل قلبه جميع الاصلاحات، بل يود اظهار انه يسبقه في تحقيق ذلك. واعترف بان البلاد في حقيقة الأمر تحتاج بعض التغييرات وتتطلب قوة ادارية حازمة. ولكن اذا توحدت جهود جلالته وجهود فؤاد، فكل شيء يمكن اصلاحه وتسير الامور على مايرام ويعود النظام. ولكي يدعم فؤاد آراءه، ولكي تكون مناوراته اكثر فعالية، قدّم موافقته التامة لجميع الإجراءات التي يريد عبدالعزيز اتخاذها لتطوير جيش تركيا ارضاً، وجواً وبحراً. بل دعّم لحدما ميوله للعسكرتاريا، واتخذها فؤاد باشا وسيلة لتشتيت اهتمام عبدالعزيز وتحويله وابعاده عن المشاغل الاكثر جدية للدولة، محاولاً استرضاءه باختياره للبزّات العسكرية الموحدة الغريبة من كل الاشكال والالوان، وبتكوين حرس خاص في زي غريب خيالي. واخيراً لكي يضع نهاية لتلك الكوميديا بتقديم بعض المشاهد الهزلية قام فؤاد، جليس السلطان ومرافقه بارتداء لباس الحرس الامبراطوري الموحد وظهر على الملأ بذلك اللباس والجزمة ذات المهماز. وفي مبالغة في اظهار تواضعه، سجل اسمه في جهاز الاسعافات الاولية في المعسكر الامبراطوري، وهو تصرف جدير بالإهتمام والملاحظة.

ولم يتورع ابداً فؤاد من تكرار الاطراء والمثابرة على اظهار مشاعر التملق الاكثر صفاء وقوة وذلك كله ليجني بعد ذلك الاثر الذي اراد التوصل اليه من أتباع سياسته الحاذقة المعقدة.

وكان فؤاد يقيم على شرف السلطان حفلات الاستقبال الفخمة الرائعة المليئة بكل مايسر العين والفؤاد ويثير الخيال، في مقر اقامة السلطان في قصره المطل على الشاطيء الاسيوي للبوسفور.

والإهتمام بالاضاءة والالعاب النارية يأتي لاسباغ الكمال على تلك الاحتفالات، وكذلك التمتع بكل اشكالها. وكان الوزير الماكر يقيمها من آن إلى آخر ولاي سبب كان، واحياناً ما كان يجبر الناس على التظاهر واظهار مشاركتهم تلك الاحتفالات التي لاتعني لهم شيئاً مع ذلك. وكل ذلك، لكي يجذب نحوه اهتمام السلطان ورعايته. فكل هذا الكم من العناية والرعاية والمثابرة والمهارة في ارضاء السيد ادى إلى ان ينتهي الأمر بعبدالعزيز إلى تصديقه وانه افضل واخلص باشواته، وانه الشخص الفريد الذي انجبته تركيا. وعهد اليه ثقة كاملة لاحدود لها وسلطة لامحدودة لانهائية.

لن نتوقف هنا أمام سياسة فؤاد، واذا ما كانت تلك السياسة التي عرضت للقاريء خطوطها الرئيسة، اذا ما كانت تتناسب والقوانين الاخلاقية..ولكن يجب ان اذكر ان التأريخ يقدّم امثلة كثيرة لسياسات مشابهة، يتبعها رجال دولة يطمحون في الاستيلاء على السلطة دونما رقيب. ومع ذلك، توجد حقيقة تقول ان اولئك الذين يرتمون في بحر السياسة المتلاطم الامواج، يجب الا يتناسوا مطلقاً انه اذا ما كانت هناك حرية تصرف لابد منها لانجاح كل سياسة، فاننا نرى ان اي اجراء سياسي ما، لايمكن تبريره باي حال اذا ما نال او أساء للمباديء الاساسية للاخلاق ولمصالح الدولة والبلاد.

لقد داس فؤاد باشا على تلك المقولة التي تقف في اساس كل سياسة صحيحة واخلاقية. بل فضل المقولة التي تؤكد ان كل وسيلة جيدة اذا ما أمنت تحقيق رغباتنا وامانينا. وفي واقع الأمر لم يكن ليرضى بالمكانة العالية من الرضا والرعاية التي توصل اليها، ولا حتى السلطة التي نالها بوقاحة، ولذلك حاول تحصين مصيره بعيداً عن حدوث كل مصادفة، وتأمين موقعه، بحيث يجد عبدالعزيز وهو مرتبط بسياسة فؤاد بشكل لا فكاك منه، ويجد من المستحيل عليه في المستقبل الانفصال عن وزيره حيث اصبح هو النجم وليس السلطان. ولانجاح ذلك الأمر، تطلب اتخاذ اجراءات استثنائية. وفؤاد، لايتردد في مثل تلك الظروف التي حققها وببراعة مستخدماً طريقة معروفة لاولئك الناس الذين يرون انفسهم مكروهين في المجتمع، يبحثون دائماً عن ضحايا لجرائم جديدة، وجرائم جديدة لضحايا جُدّد. وهي طريقة تتطلب ايقاع شخصي ما بشباكه، ويورطه باعمال مشينة لا تجعله مذنباً فقط، بل تُؤمّن شراكته كذلك وبشكل رائع اراء ومصالح فؤاد، وكذلك حزب الرجعية. فقد اوقع السلطان في أخطاء مشابهة لتلك التي ادانها من قبل، وطارد بشدّة اصحابها. ويعني ذلك اطلاق رصاصة الرحمة على مشاريع الاصلاح، وهذا ما ادى إلى ارتماء عبدالعزيز، في احضان الرجعية، ويتنكر تماماً لجميع المباديء التي ايدها ونادي بها منذ جلوسه على العرش.

لقد فتحت آراء فؤاد المغلوطة، ودقَّة توجيهها فاتحاً كُوَّةً في فكرة السلطان، واستطاع بسهولة اقناع السلطان بالسير في طريق رسمه له. ولكي يدفعه لتقبل آرائه وبشك حاسم. فقد بيَّن لعبدالعزيز ان مكانة العرش تتطلب بعض الابهة والبذخ التي تُستخدم لاحاطة السلاطين بالمهابة والعظمة من اجل التأثير في الانسان العادي والايحاء له بشعور من السكينة والاستكانة والاحترام.

ومظاهر العظمة تلك ضرورة حتى بين امم اوربّا، ولكن لايمكن الاستغناء عنها في الشرق حيث الاعراف والتقاليد تحفظ هيبة السلطنة في المبدأ الحكومي، وان الاصلاحات التي يتخذها جلالته يجب ان تؤتى ثمارها، وتلك الثمار قد تم قطافها، فالعالم كله الان يتعاطف مع جهوده الكريمة، كما يعده الشعب مصلحاً امبراطورياً، واخيراً، فان علم الحكم الحقيقي يتركز في جعل الناس يصدقون الخير الذي لانفعله، ولا نتركهم يصدقون السيء الذي نقوم به. ويستطيع جلالته ان يرتاح على امجاده وان ينطلق بعد ذلك لاشباع ميوله، وقد تم الان تحقيق ذلك الهدف.

ان سموم نظريات كهذه كانت الجليس الحاذق يُقطرها بمهارة قطرة قطرة، عملت على تغيير مظاهر الامور.فجميع الإجراءات التي تم اتخاذها لاسباب اقتصادية، تم تدشينها في الادارة، وقلّ الإهتمام بالقصر الجمهوري، وتمت اعادة استنساخ عصر عبدالمجيد، بنفس الاساليب وعلى نفس المنوال وعلى نفس الاسس. كما ان صلابة الاعراف والنيات الطيبة لعبدالعزيز قد ذابت جميعاً في اتون نيران الفساد والمؤامرات المدمرة. ولكن الواقع يشهد على ان البساطة والتحفظ الذي ساد البلاط منذ تولي عبدالعزيز الحكم. حل مكانها الفسق والفجور ومظاهر الترف والفخامة والابهة. وكان عبدالمجيد يسير في موكب من الشباب العابث. ولكنه مع مجئ عبدالعزيز وضع حداً لتلك الفضيحة. وجمع لبلاطه شخصيات جديرة بالاحترام، ومع ذلك فان حكم الفضيلة لم يدم طويلاً ومالبثت الرذيلة ان انتشرت في البلاط. ورحبت اوربّا كلها بجلوس عبدالعزيز على العرش حيث اعرّب عن نيته في الاحتفاظ بامرأة واحدة في حريمه الامبراطوري، ورغم ذلك ولكي تتكامل الرجعية وردفعلها، كان يتوَّجَبُ عليه ان يختار من الحريم ثلاث نساء،[٣٣] الا ان ضحايا الهجرة الچركسية البائسات قد جئن ليضاعفن صفوف نساء الحريم.

لقد بلغ عدد الاشخاص الذين يقيمون في القصر رقماً اسطورياً، تسعمائة امرأة مِنْ جميع الاعمار والمستوى الإجتماعي، إلى جانب الخصيان والحُجاب والموظفين والحراس والسواق والنوتية، ليبلغ العدد الاجمالي الفين وثلاثمائة نسمة. واستناداً إلى مشاهدات احد الطباخين في القصر، وصل عدد الموائد التي تقام في القصور الثلاثة والاكشاك التابعة له إلى خمسمائة مائدة، وتحمل كل مائدة اثنى عشر صحنا ليصبح عدد الصحون الكلى المقدّم للوجبتين الصباحية والمسائية نحو ستة الاف.

---

[٣٣] ادعى البعض ان السلطان كان يحتفظ بأمرأة واحدة، ومع ذلك فكان لديه ثلاث زوجات شرعيات. كانت زوجته الاولى تسمى دورنيف Durnev ويعني درة القلب او اللؤلؤة الجديدة. وعندما كان مجرد امير اشترى تلك العبدة واتخذها زوجة شرعية. وبعد اعتلائه العرش اختار لنفسه زوجتين اخريين، احدهما تدعى حيراني دل، بمعني آية القلب والأخرى ايدا دل، بمعنى رشاقة وخفة القلب، هذا إلى عدد الخليلات ومحظيات الحريم.

وانتشرت الابنية المترفة الباهظة الثمن، فما ان ينتهي بناء القصور والظلات الخمائل، حتى يبدأ بناء قصور اخرى جديدة. يقدّمون اليوم قصراً جديداً، وفي الغد يترك كل شيء جانباً ليبدأ التجديد. وغالباً مايتمتع الموظفون مع الموردين، وهم يقومون بتلك التغييرات. واذا ما انتهينا من سلوك ذلك الطريق سنرى انه من السهل توقع ان المصاريف تتعدى الدخل. ومن ثمَّ سيكونون مُجبرين على ايجاد مصادر جديدة للدخل لمواجهة طوفان المصاريف الجديدة. وهكذا وقد اقترف السلطان عبدالعزيز خطأ المبالغة في المصروفات، ها هو يقترف خطأ آخر بنهبه للخزينة العامة. ولم يتأخر فؤاد في توجيهه كيف يمكنه التصرف في الأمر. فقد حمَّل وبكل بساطة خزينة الدولة جميع الالتزامات والمعاشات والرواتب والأجور التي كانت من قبل تصرف على القائمة المدنية. وتصل تلك المدفوعات إلى مليون ومائة الف فرنك شهرياً، وهو مبلغ يساوي تماماً قيمة العشرة الاف كيس في القائمة المدنية، والتي كان السلطان قد حوَّلها للخزينة من قبل؛ وهي طريقة لتعويض الخسائر. يأخذون باليد اليمنى ما اعطوه باليد اليسرى.

كان ذلك التصرف امراً يحوي الكثير من المخاطر، فما ان دشنه السلطان حتى انتشرو واستشرى في كل مكان تقريباً. لقد تطلب الأمر خطوة اولى واحدة، ومن ثم كل شيء يدور. وجاء تشييد قصر چراغان Tcheraghan ليقدّم لفؤاد الفرصة المواتية ليدفع بالسلطان لاتخاذ خطوة حاسمة في الطريق المحتوم الذي رسمه له. فمنذ ان جلس عبدالعزيز على العرش بعد اخيه عبدالمجيد، قرر عبدالعزيز ان يقيم على ارض القصر القديم تشييد خميلة صغيرة لتكون مكاناً يقضي فيه بعض الراحة وينشد الهدوء في الحدائق الغناء التي تمتد من شواطئ البوسفور على طول الشواطئ المحيطة. لقد كانت ميزانية الامبراطورية في حالة يرثى لها، ولم يكن عبدالعزيز ليرغب في مضاعفة بؤس العامة باقامة قصر جديد.

لم يصدق فؤاد باشا ان تأنيب الضمير ذاك لامكان له هنا، فالأسراف السفيه، على تشييد مهندسي السلطان المعماري والاقتراح عليه ان يقدّم لجلالته خطة تشييد قصر فخم بدلاً من الخميلة التي بدأ في انجازها، وفيما عدا ذلك فسوف يحصل على موافقة السلطان على ذلك. ولكن عندما قدّموا الخطة لجلالته التي تستدعي تشييد قصر جديد، قصر تشيراغان، رفضها قائلاً: ان الوقت ليس ملائماً للقيام بصرف مبالغ جديدة وخرج من وراء الكواليس آنذاك، وزيره الماكر الذكي، ليقول له مُعرّباً عن اعجابه بالمشاعر الكريمة التي اعرّب عنها جلالته، وعرض عليه انه لايملك سوى قصر واحد يضطر فيه البلاط ان يقضي الشتاء، او الصيف فيه، وان مكانته تتطلب تشييد قصر جديد، لان امبراطور روسيا يمتلك قصرين شتوي وصيفي، فمن المناسب ايضاً ان يمتلك امبراطور كل انحاء تركيا وان يكون في نفس المستوى. اما بالنسبة للمصاريف التي يتطلبها ذلك البناء فهي ثانوية تماماً لان تركيا لاتنقصها الموارد ولا اوربا ينقصها الرأسماليون الذين يقدّمون الوسائل اللازمة، وكانت اراءه قوية بالقدر الذي

اقنع السلطان ولايقاومه. وما ان حصل على موافقة السلطان، تم تدمير الخميلة رغم انها قد ارتفعت لعدّة امتار فوق الارض وبدأ ارساء اسس القصر الجديد.

وتبع تشييد قصر چراخان، بناء خمسة خمائل من بينها خميلة بيلرّبيه التي هي في الواقع قصراً رائعاً في البناء والديكور لا يُقارن بأي شيء آخر.[٣٤] ولم يبخلوا في بناء ديكوره بأي شيء. وتم تغليف القاعات والشقق من الداخل بنوع من القماش الثمين المعروف باسم بروكارد، ويأتي مباشرة إلى تركيا من معامل ليون وبسعر مائتين وخمسين فرنكاً للقدّم. اما الأعمال الكبيرة التي يتطلبها بناء وزارات الحرّبية والبحرية، واعمال توفاني الرائعة وكمية من المنشآت الأخرى الثانوية تم انشاؤها في نفس الوقت بحجة المنفعة العامة. وبالطبع، كلفت تلك الاشغال مبالغ باهظة تصل في اقل تقدير إلى مائة وخمسين مليون قرش، اي ما يساوي نحو ثلاثة وثلاثين مليون فرنك. ويبعث اسراف بهذه التفاهة، يبعث على الاسى والاسف. وبعد نظام السلب والنهب وجدت الحكومة نفسها مضطرة على تدمير سكان الخميلات التي ترسلها تباعاً. ووصل الأمر بالحكومة ان تشحذ وتستدين من اسواق اوربّا: وهكذا كان التراجع كاملاً وحيث لم تكن اسوأ ايام عبدالمجيد بهذه الشدة وذلك السوء.

٢. حصار عبدالعزيز وعزله بحرمانه من تأييد ونصائح كل اولئك الذين يقفون عقبة أمام سياسة فؤاد باشا:

كان من اولويات اهتمامات فؤاد باشا، عزل السلطان وإبعاده عن مستشاريه وعن اي تأثير يكون معادياً لارائه منذ اول يوم تولى فيه عبدالعزيز العرش. بل وابعده عن جميع من يتمتعون برعاية السلطان، ممن يستطيعون ان يكشفوا للسلطان التحركات والمؤامرات التي يحيكها وزيرُه، وتم استبعادهم تحت مختلف الادعاءات وإرسالهم حكاماً للمقاطعات او طردهم من البلاط. ويوجد من بين مساعدي السلطان، من يمكنه ان يمارس تأثيراً في جلالته ممن يمكنهم قراءة الصحف الاوربّية وترجمتها والذين من واجبهم اطلاع عبدالعزيز على كل مايدور ويجرى في امبراطوريته واعطائه الصورة الحقيقية للرأي العام. جميع هؤلاء الاشخاص، اكرر القول، لقد تم إبعاد الذين ينظر اليهم انهم خطرون على مصير الوزير الماكر، في الوقت الذي يعطى فيه فؤاد التعليمات الدقيقة لرجاله المرموقين المحيطين بالسلطان، ولكل منهم دوره المرسوم الذي يقوم به بتنسيق مع آرائه. وبدون مراوغة او تغيير مروّع ضد اولئك الذين يرفضون سياساته وكان فؤاد يعرف دائماً جميع اولئك الذين يخدمون سياساته في طاعة عمياء ويقوم بمكافأتهم بما يليق بهم.

---

[٣٤] عند عودة السلطان من رحلته إلى اوربّا، تم تدمير ذلك القصر وتشييد آخر مكانه من جديد.

وهناك حكاية طريفة يتداولونها في البلاط في شتاء ١٨٦٤ وتستحق ان اذكرها كصفة خاصة ومثيرة تتوافق وتؤيد ما اقوله، بل تدفع القاريء إلى الاطلاع على مناورات سياسة ذكية ماهرة: وذات يوم، عقد عبدالعزيز، حواراً مع شيخ ائمة القصر باش أمام، ودار الحوار حول موضوع الانشاءات العديدة، واعرّب السلطان الذي يحركه فكرُه المستنير، عن خوفه من ان المصاريف غير الاعتيادية التي تصرف على منشآت جديدة، يمكنها ان تتسبب في مصاعب خطيرة لخزينة الدولة. ورأى الباش أمام، صنيعة فؤاد، ان من واجبه تبديد جميع شكوك السلطان بهذا الخصوص واقتناص تلك الفرصة ليصف أمام عبدالعزيز قدرات وزيره العالية وجدارته وقال: ليُسبغ الله على جهازك الامبراطوري حياة خالدة، واردف، ولا يجب ان يساورك اي خوف او فزع على الطرق التي سيتبعها او سوف يقوم بها لكي يجد من المصاريف مايكفي لاشباع قوته وعظمته. ومادام بقى عبدكم المخلص فؤاد باشا وزيراً لكم فلن يحتاج جلالتكم شيئاً. انه يستطيع ان يسحب المال من الحجر نفسه، واذا لم تنفعه تلك الوسيلة، فهو يعرف جيداً كيف يأخذها من الاوربيين. ويبدو ان تلك الكلمات لم تنال تماماً رضا عبدالعزيز، وكشف صمته الطويل المتواصل عما يعتمل في دواخله حيث يصطدم عقله مع حقائق لايستطيع تقييمها في مجمل قيمتها.

وعمل الأمام الحاذق على ان يعرف فؤاد باشا تفاصيل ما دار في الحوار. وهو يعلم جيداً ان الوزير لن يتردد في اظهار امتنانه لخدمة علنية كهذه. ولم تمض ثلاثة ايام حتى تسلم الأمام مِسْعطاً للنشوق مرصعاً بالماس يبلغ ثمنها سبعة عشر الف فرنك ومرفقاً برسالة يعرّب فيها الوزير عن مشاعر رضاه السامي عنه.

ومن بين الشخصيات وجلساء السلطان الذين ذاقوا الاذى على يديه في سبيل تمتين اسس سلطته، محمد علي باشا صَهر السلطان، إذْ كان يتمتع بنفوذ كبير في الحكومة. فقد احتل المرة بعد الأخرى، عدة مناصب في الوزارة. ولانه احد امراء الأسرة الامبراطورية، كان يتمتع بثقة لا محدودة وبالقرّب الحميمي من عبدالعزيز. وكان دائماً مؤيداً للبلاط في سياسة الصمود ومقاومة سلطات وتصرفات الباب العالي. وطموحات فؤاد لاتسمح بالطبع بتصاعد مثل ذلك النفوذ، فقرر التخلص منه باثارة خلاف بينه وبين السلطان، تخطى بذلك مناوراته بالنجاح، وخاصة انهما كانا سريعي الانفعال ويتمتعان بمزاج حاد. وازدادت عداوتهما كلما ازداد انفعالهما إلى اقصى الحدود وحتى اتسعت الفجوة بينهما. وبعد ان كانا صديقين لاينفصلان وبعد ان كان كاتم الأسرار الحميم، اصبح رجلاً متمرداً مشاغباً، ولم ينقذه من ضرّبات فؤاد كونه اميراً، فقد تسبب في اقالته من وزارة البحرية. وطرده السلطان من القصر وحتى إشعار اخر ولوقت طويل ظل محمد علي باشا قعيد غضب السلطان عليه، ولم يعد يجد اية عقبات أمام سياسته، واستطاع انذاك التمتع بمزايا سلطته في هدوء وسلام.

٣. إحتكار اعلى المناصب لشخصيته وجميع مراتب شرف الامبراطورية:

في ظل حكم عبدالمجيد، حاول البلاط تفعيل عملية اعداد ما يتوازن ونفوذ الباب العالي ورؤساء الحكومات، وذلك باحاطة السلطان بشخصيات تحتل مناصب كبيرة، ويؤيدون نفوذ التاج وينتمون اليه بروابط الدم والمصالح. وفي متابعة لتلك السياسة، اهتم عبدالمجيد بتأمين نقطة ارتكاز لتأييده في شخص فتحي احمد احد اصهاره، حيث كان يحتل منصباً متنفذاً، كرئيس سلاح المدفعية وبمهارته ولباقته استطاع ان يكافح بنجاح نفوذ رشيد باشا وفريق البيروقراطية. وايد محمد علي باشا ورضا باشا المرتبطان بدورهما بالأسرة الامبراطورية، تلك السياسة، واحدهما كان وزيراً للبحرية والثاني وزيراً للحرّبية ومارشالاً للقصر.

واتبع عبدالعزيز في فترة حكمه الاولى تلك السياسة التي ساهمت بقوة في ايجاد التوافق الخالص كما رأينا بين محمد علي والسلطان. ولكن سقوط محمد علي ترك عبدالعزيز، دونما سند، وتحت رحمة رغبات فؤاد الذي استعد للمستقبل، وخَصَّن نفسه له باستبعاده جميع اولئك الذين كان يمكن ان يتحدوا مع السلطان ويدافعوا عن حقوقه، وذلك من جميع المناصب المهمة. وارتأى الوزير الطموح ان من دواعي الحرص ضرورة احتكاره لجميع الوظائف المهمة ويوزع ما تبقى من المناصب على رجاله ومريديه. وقدّم منصب وزير البحرية لبعض محدثي النعمة، ومع ذلك لم يسمح لهم الوزير الذكي، بالتمتع بالمنصب طويلاً، حتى لايتمكنوا من السلطة ويستحيل عليهم آنذاك الحصول على اي نفوذ يمكنهم ان يشككوا به خطرا عليه. وفي الوقت الذي وصل فيه إلى السلطة كان محمد رشدي باشا يشغل منصب وزير الحرّبية. وهو رجل جدير قدير، واستطاع بعمله الجدّي المتواصل ومعارفه ان يتدرج من جندي بسيط إلى ارفع المناصب. ولايستطيع فؤاد الاعتماد تماماً على ذلك الرجل، ورأى من الضروري استحالة امكانية اي تقارّب بينه وبين السلطان، ثم فصله من منصبه كوزير للحرّبية. ولان تأييد الجيش له قيمته الكبيرة، فلا يستطيع فؤاد ان يتركه ويترك ذلك المنصب الدقيق بين ايدي طرف ثالث. وفضَّل الاحتفاظ بالمنصب لنفسه وجامعاً بذلك في شخصه السلطات المدنية والعسكرية.

ولكي يتخلص جزئياً من حمل اعباء تلك الوزارة الجديدة على عاتقه، عيَّن فؤاد ملازماً من اتباعه واوكل اليه مهمة متابعة تفاصيل جميع الشؤون المتعلقة بوزارة الحرّبية. وهذا الملازم واحدٌ من هؤلاء الاشخاص الذين ارتفعت مكانتهم مؤخراً وجدارتهم تتخلص في انهم ادوات عبودية في ايدي رجل طموح: انه حسين باشا، معيد قديم ومدير سابق للكلية العسكرية في اسطنبول، وكان عضواً في القيادة العامة العثمانية اثناء حملة الدانوب. وفي عام ١٨٦٢ تمت هزيمة ذلك الرجل على المونتينغريين، عندما حاول التغلغل في فاسويفتش، ولم ينقذه من غضب عمر باشا القائد العام آنذاك، سوى حماية ورعاية فؤاد باشا له. وبفكر قرن متمرس حصل حسين باشا على رضا

فؤاد الذي احتفظ له بمكان في وزارته،[٣٥]ووزارة الحرّبية، تحت ادارة فؤاد باشا المباشرة، وتحت رقابة رجله المفصل الذي اصبح من اكبر مؤيدي سياسته. وكان يرى انه يجب اخضاع جميع

---

[٣٥] تم تعيين حسين باشا قائداً عاماً للقوات العثمانية التي تحارّب في كريت، في شباط ١٨٦٨. ولعب ذلك الرجل دوراً مهماً في قضية كريت. ويجدر بنا الان ان نقدّم للناس بعض تفاصيل صفاته العجيبة. وبعد ان اصبح وزيراً للحرّبية مؤقتاً كما بالسحر، اراد ان يعبر عن هذه النشوة التي تكاد ان تكون ضرّبة حظ غير مُتوقعة ومفاجئة غداة تعيينه، اراد ان يظهر رغبته في ان يتمتع فؤاد باشا بالقوة وبكل ماتعنيه الكلمة من معان. واستدعى رجل اعماله خليل افندي وطلب منه ان يُعد له حريماً من اجمل الاسيرات الچركسيات واردف وهو يمزح انه لاينوي الانتظار إلى ان يصل الجنة ويتمتع بحورياتها الموعود بها المؤمنون المخلصون. وحاول رجل الأعمال ان يوضح له النتائج السيئة ويتصرف كهذا: اولاً: لايسمح له مستواه المالي مطلقاً بتبديد مبالغ كبيرة. ثانياً سيكون ذلك تصرفاً قاسياً تجاه زوجته، تلك السيدة المسكينة المخلصة التي قاسمته ايام الحاجة، فهل ينساها في الوقت الذي يجب فيه ان تقاسمه نجاحه؟ وعظمة موقعه الجديد؟ كل ذلك يجافي كل شعور كريم. ولم يترك ذلك الحديث اي اثر لديه. إذ يجب اشباع نزواته، والويل لكل من يجرؤ على معارضة رغبات اي باشا. وتم الاستغناء عن خدمات رجل الأعمال بعد مدة من الوقت. وكان خليل افندي قد ساعد حسين باشا عند الحاجة، وهيأ له وسائل العيش والبقاء. وبعد ان هيأ له الحريم، اصبح في حاجة إلى قصر. وللصدفة البحته كان فؤاد في ذلك الوقت يود التخلص من قصره القديم وانتهز الفرصة وعرض على حسين باشا التنازل له عن المقر، وبالنسبة لدفع الثمن، اقتنع فؤاد باشا بمبلغ ضئيل مؤقتاً كمقدّم، ويدفع حسين باشا باقي المبلغ اي التسعة الاف جنيه تركي ديناً في رقبته. وبعد ان سويت المسألة ودياً، وجب عليه بعد ذلك دليل اخلاصه وتفانيه للباشا بدفع كامل المبلغ في الوقت المتفق عليه. وبعد ان قام بدفع وجبات المبلغ، كادت موارد حسين ان تنضب وفكر انه يمكن مواجهة التزاماته ببيع منزله القديم. ومع ذلك فانه لن يستطيع بذلك ايجاد حل للمشكلة، لان المنزل لايُباع باكثر من الف جنيه في حين ان المبلغ الواجب دفعه لمولى الباشا ضعف ذلك المبلغ. واذ لم يعد يعرف ماذا يفعل، توصل إلى وسيلة عبقرية. اشتعلت النيران ذات يوم في منزل يواجه منزل حسين باشا. وما ان دق جرس انذار الحريق في برج سيراسكيرات ذهب حسين وبسرعة إلى مكان الحريق وفي غمضة عين دمر الحريق المنازل المجاورة لمنزله. وعندما وجد انه لم ينجح في انقاذ المنازل،في الاقل حاول ان يحفظها من ان يمسها الحريق. ولان مصائب قوم عند قوم فوائد، سارع الباشا ببيع منزله إلى احد ازلامه بمبلغ الفي جنيه تركي، وكان ذلك هو المبلغ الذي كان يجب ان يدفعه لفؤاد باشا ليتخلص تماماً من الدين في موعده المحدد. ومع ذلك فقد ظهرت اشكال متعددة من الفوضى وهذا ما جعل سقوطه والغضب عليه شيئاً لايمكن تفاديه. ولم يستطع فؤاد بكل مايمتلك من قوة انقاذ رجُله.

ورغم ان حريمه كان مُرصعاً باجمل الجميلات من المحظيات، فانه لم يعرف حدوداً لنزواته. وتجرأ بالتحرش بواحدة من الحريم الامبراطوري، واثارت وقاحته تلك اشمئزاز من في القصر من خصيان وغيرهم من حرس القصر. وادى ذلك إلى اتخاذ اجراءات قصوى. ورغم تخوفهم من أيذاء واحد ممن يرعاهم فؤاد باشا ومع ذلك، فأن تلك القضية عملت على تسريع سقوطه.

وفي تلك الاثناء، وصل درويش باشا قائد الفيلق الرابع، إلى القسطنطينية. وكان ذلك الرجل يطمع في منصب وزير الحرّبية. وللحصول على المنصب عمل على إسقاط حسين ووجد طريقه لذلك: ارسل اليه احد مرافقي السلطان الذي قدّم اليه هدية بثلاثة الاف جنيه وكان ذلك وسيلة لكشف حسين باشا للسلطان وكشف استغلاله. وانجز المرافق تلك المهمة

سلطات الدولة لارادته، وان تتركز في يديه، وتوجب كذلك على وزير المالية ان يخضع بدوره لتأثير تلك السياسة الطاغية. فقد ظهر فؤاد باشا ميلاً لكل مايمس المال. وكان مقتنعاً ان المال عصب الحرّب ولذلك حرص على الحصول عليه كلما كان ذلك بالامكان. وفي الوقت الذي كان يقوم فيه باعداد مجلس وزرائه، كان مصطفى فضلي باشا وزيراً للمالية. وتلك الشخصية كما نعرف، هو الوريث المتوّقع لعرش مصر ويمتلك مشاعر نبيلة كريمة وكان قد عرض خدماته على الحكومة. وفي البداية حاول فؤاد باشا ان يكسب ودَّ مصطفى باشا ولكنه لم ينجح، بل وضع الامير أمام خيارين: اما ان يتوافق مع تصرفات ترفضها مشاعره وعراقة نشأته او ان يستقيل من منصبه. واختار فؤاد باشا كياني باشا لمنصب وزارة الدفاع، وكان يؤازر فؤاد باشا في جميع مشاريعه التي كان يقف الوزير الذي سبقه عقبةً أمام تحقيقها.

وما ان انسحب مصطفى باشا حتى تجرأ ليقدّم للسلطان عرضاً صادقاً صحيحاً للوضع في الامبراطورية حيث دلل له كيف ان مسيرة وزيره تسيره دونما شك في طريق خراب البلاد. جهود نبيلة! لاطائل من ورائها. فقد كان السلطان مرتبطاً كثيراً بفؤاد ومشلول الارادة مسلوب القوة حيث وصل إلى العدم. بل ان عبدالعزيز قد اكد بصمته على انه لم يعد يحتفظ من سلطاته سوى بالظلال. وحتى السلطة الدينية ذاتها اضطرت ان تجني راسها أمام فؤاد، لقد تغير شيخ الاسلام حتى تتمكن مختلف مكونات مجلس الوزراء ان تتناسق وتتجانس. وحلَّ مكان سهادة الدين افندي المتطرف، اسامةالدين افندي، الصديق القديم والنصير لرئيس الوزراء. ومن جهة اخرى فان وظائف مارشال القصر تتمتع بنفوذ كبير وسلطة وفوائد جمَّة مما حرك كوامن جشع فؤاد باشا. وفي واقع الأمر، قرر فؤاد ان يحتفظ حصراً بذلك المنصب المهم واحتفظ بالوظيفة واللقب، مارشال القصر، متحملاً مسؤولية توجيه وادارة ومراقبة القصر الامبراطوري.

الحرجة بنجاح واخلاص. واستشاط السلطان غضباً واستدعى على وجه السرعة فؤاد باشا وطلب منه طرد حسين باشا من الوزارة، وآنب فؤاد على رعاية وتربية افراد كهذا الرجل واستطرد قائلاً، بانه يقترح درويش باشا وزيراً للحربّية بدلاً من حسين باشا. وفي الحال ادرك فؤاد باشا من كان وراء المؤامرة التي حيكت الان ضد حسين، واذ وجد نفسه لايستطيع انقاذ من يحميه، حاول بذكاء احباط ذلك المخطط الذي حاكه اعداؤه محافظاً بذلك على مكانته وسلطته. فتظاهر بانه يؤيد جداً اختيار جلالته. ثم قال ان ذلك الضابط ذي الجدارة الاستثنائية، يجب الاحتفاظ به على رأس الجيش، ومع ذلك فان الوضع الاستثنائي غير المريح في سوريا، يحتاج قائداً بقوة وحكمة درويش باشا، واستطاع بذلك الحفاظ على نفوذه. واقترح فؤاد باشا تعيين خليل باشا بمنصب وزير الحربّية مؤقتاً. ووقع السلطان في الشرك، واستطاع إفشال مناورات وخطط درويش باشا واحتفظ بنفوذه. وانزل غضب عبدالعزيز بكل قوة على حسين باشا، وتم فصله وحرمانه حتى بالمعاش الذي يتقاضاه المتقاعدون عادة. ومع ذلك، فان فؤاد باشا كان يهتم بمصير من يحميه وحرص على ان يمنحه معاشاً مساوي الفين وخمسمائة فرنك واضاف عليه من جيبه الخاص الفاً ومائتين وخمسين فرنكاً. وعندما استأنف فؤاد باشا إلى عالم الأعمال تقاسم مع المخلص حسين باشا، الذي تم تعيينه قائداً لجيش كاندي Candie.

اعتقد انني في عرضي السابق، قد وضحت الطريقة وجميع الوسائل التي استطاع فؤاد باشا بها ان يقف بين السلطان والادارة، وعرف كيف يستغل سلطة احدهما ضد الآخر، وبعد ان شل تماماً سلطة احدهما ضد الآخر، وبعد ان شل تماماً سلطة السلطان، اذ رَبطه تماماً بمصالحه وآرائه، وحيث اراد تثبيت وتقوية سلطته الخاصة، باغتصاب جميع سلطات ومقدرات الدولة. كم من العناوين والصفات المختلفة يجدر بي ان الخصها واذكرها هنا حتى تكتمل الصورة الصادقة العادلة والمثيرة لتلك القوة الطاغية التي تركزت في شخص واحد: رئيس الوزراء، وزير الحرّبية، مارشال القصر، مساعد جلاله السلطان،.. الخ. لقد وصلت قوة وعظمة فؤاد باشا مداهما، ولكن لسوء الحظ في تركيا تقلب الفردية إلى حتمية خراب البلاد.

٤. خداع الرأي العام والسلطان عن طريق الصحافة:

قديماً، كان النظام المستخدم لفئة تتمتع بالسلطة يتركز من اجل الابقاء على نفوذها، في الابقاء على الجهل التام للعامة لكل مايمس مصالحها الخاصة. اذن، ترتكز الوسيلة التي يستخدمها الطموحون للبقاء في السلطة، على خداع الناس بالكذب في الوقت الذي يدعون فيه انهم يستجيبون لرغباتهم المشروعة. وتستند سياسة فؤاد على ذلك المبدأ، وسوف الخصه في تلك المقولة التي ذكرتها من قبل وتعني: ان علم الحكم الحقيقي يتركز في دفع الناس لتصديق ما لا نفعله، والاّ نتركهم يصدقون ذلك السيء الذي نقوم به. وللتوصول بسهولة إلى هذا الهدف، فان الوسيلة الاكثر عملية هو السيطرة إلى هذا الهدف، فان الوسيلة الاكثر علمية هو السيطرة على الصحافة، ونضعها تحت امرة السلطة، وتحويلها إلى ادارة ناعمة وقادرة على اعادة انتاج كل عمل وترويجه، ومن انتاج الطموح والمكر.

ولكي يحقق فؤاد باشا مشاريعه، وهناك اجراءات ضرورية تجعل الصحافة جانباً مؤيداً له ولسلطته. قام اولاً: وضع الصحف المحلية تحت الرقابة بكل الوسائل الممكنة. وبعد ذلك، قام بإفساد الصحفيين الاكثر نفوذاً في اوربا بقوة المال. اما بالنسبة للصحافة المحلية فقد وضعها فؤاد تحت امرته وحسب رغبته. وكاجراء مبدئي سنّ قانوناً قمعياً جديداً وضع الصحافة تحت رقابة مشددة، في حين تتمتع الصحف الاجنبية الصادرة في تركيا بهامش من الحرية وكان فؤاد مصطراً ان يقدّم لهم بعض التسهيلات وفقاً لمبدئه القائل تقبيل اليد التي لانستطيع ضربها.

هناك اجراءان ضروريان يتخذهما فؤاد باشا يجعلان الصحافة جانباً مؤيداً له ولسلطته: اولهما، اخضاع الصحافة المحلية للرقابة بكل الوسائل الممكنة. وبعد ذلك افساد الصحفيين الاكثر نفوذاً في اوربا بقوة المال. اما بالنسبة للجرائد المحلية فالقضية اسهل بكثير. وكأجراء اوّلي سنَّ قانوناً قمعياً وضعتْ الصحافة فيه تحت الرقابة المشددة، في حين تتمتع الصحف الاجنبية

المنشورة في تركيا بهامش من الحرية استناداً لمواقفهما الاستثنائية او المُقرّبة. وكان فؤاد مضطراً ان يقدّم لها بعض التسهيلات لان من مباديءه التي يتبعها دائماً هي تقبيل اليد التي لايمكن عضُّها، في حين لايوجد ما يضايقه من جانب الصحافة التركية، فالصدق والحرية محرومة منهما. ولان السلطان يقرأ يومياً تلك الصحف، فتحريرها يخضع لرقابة دقيقة تعسفية. وجميع النشريات الفصلية المحلية مجبرة بدورها ان تتغنى بنفس اللحن، ومتابعة ايقاع السمفونية التي يرى فؤاد ضرورة عرضها والتغني بها. ان ذلك التملق المبتذل مثير للغضب ويساعد في اكثر الاحوال على اذلال الشخصية التي يدَّعُون رغبتهم في كيل المديح لها. كذب ونفاق، ذلك مايسمحون فقط بنشره في أعمدة الصحف التركية. ان عبودية الصحافة المحلية تلك مهما كانت الادعاءات المغلوطة تصب في صالح السياسة التي يتبعها فؤاد باشا؛ فمن جهة تعمل على ان يتقبل عبدالعزيز اللغو والاخبار المغلوطة التي كان يسمعها من فؤاد باشا في لقاءات خاصة، ومن جهة اخرى تعمل على تجهيل الناس بحقيقة مصالحهم الخاصة.

ومكافأة اولئك الذين يبرهنون على ولائهم في خدمة سياسته، ومطاردة اولئك الذين يتجرأون ويعبرون عن الاستقلالية والكرامة، يكونان الاسس القوية التي استخدمها فؤاد باشا، للحفاظ على خضوع الصحافة لارادته. وكانت هناك كذلك مظاهر التقدير والرعاية لرؤساء تحرير الصحف: ترجمان الاحوال، وجريدة الحوادث، كالمكافآت السخية والمناصب والتشريفات، ولكن هؤلاء الصحفيين لايتحرجون منها مطلقاً. أما السيد شينازي افندي، رئيس تحرير جريدة تسفيرى افكار، والذي لم يستطع فؤاد باشا ان يحيطه بشباكه قدّم للقراء الوجه الآخر للعملة، والذي اصبح مِحور كراهية فؤاد باشا وعلي باشا.

وهناك حكاية دارت وملأت القسطنطينية عام ١٨٦٥، وليست خارج ذلك الاطار، وتُوضّح للقاريء كيف يتعاملون مع الصحافة في تركيا. لقد تم الايعاز لجريدة الحوادث ان تَعْرِض في احدى مقالاتها القوات التي تملكها الدول الكبرى، اذا ما اندلعت حرّب اوربّية. وانطلاقاً من المعطيات التي تبررها الخبرة اكثر من الخيال قُدّرت الجريدة ان عدد قوات الجيش التركي تصل إلى مائتين وخمسين الف مقاتل. واطلع السلطان على تلك المقالة وكان استياؤه لاحدود له. واذ ضللته تقارير فؤاد الخاطئة وصدق ان تعداد قواته اكبر بكثير مما هي عليه في واقع الأمر. ولذلك من الطبيعي ان يكون غضب عبدالعزيز شديداً جداً عندما عرف انه قد تم استغلاله واستغلال ثقته في قضية يعدها موضع اهتمامه الخاص.

وتم إستدعاء رئيس الوزراء على الفور إلى القصر، وطلب منه بعض الشروحات لتلك المقالة التي ظهرت في الجريدة المذكورة. وقال له بعد التأنيب اما ان جريدة الحوادث تكذب او ان سيد رئيس الوزراء قد اخفى اوضاع جيشه الحقيقية.

وسارع فؤاد باشا إلى التأكيد لجلالته بانه لم يكذب عليه وانَّما الجريدة هي التي تنشر الاكاذيب ووعد جلالته بانه سوف ينشر تكذيباً لتلك المزاعم التي نشرتها تلك الجريدة. وعمل فؤاد باشا على اصطفاف جميع الجرائد الأخرى التابعة له في المعركة. ووجه فؤاد باشا نيران غضب مميتة لرئيس تحرير الجريدة غير الحذر. وبفضل ادعاء اتصالات رسمية، ازداد عدد افراد قوات الجيش العثماني على الورق فقط إلى خمسمائة الف مقاتل. وان تغيير رقم القوات ذاك يعود لمجرد خطأ حسابي. وخضعت جريدة الحوادث واعتذرت عما نشرته من خطأ، وهكذا هدأ السلطان عبدالعزيز.

اما شنيازى افندي رئيس تحرير جريدة تصوير افكار فكان مصيره اكثر مدعاةً للاسف. فهذا الرجل اللامع بثقافته وليبراليته، ظل يرفض تلويث اعمدة جريدته بنشر الدناءات، ورفض كذلك ان يكون اداة لسياسة تضرُ بلاده. وعدته الوزارة عدوا، وتم فصله من جميع مناصبه كعضو في مجلس التعليم العام: وتم تعذيبه وطُورد واصبحت حياته في خطر. وانتهى الأمر بذلك الرجل الوطني إلى اللجوء في فرنسا. اما بالنسبة للصحافة الاوربّية، فكان فؤاد راكعاً أمامها، فهو خادمها المطيع المتفاني. في حين ان عملاءه وديلوماسييه، كانت البسمة على شفاههم، والدعابة على لسانهم، واليد في محفظتهم، يبذلون جميعاً ما في وسعهم ليظل تأثيرهم على تلك الصحافة وجذبها لتأييد مواقفهم.

الفصل الثاني والعشرون

إدارة فؤاد باشا

مادامت مناورات فؤاد باشا المُباحة والاحتفالات التي يدين لسلطته بها قد ظهرت ؛ فسوف اوضح الآن كيف استطاع ذلك الوزير بأمكانياته ووسائله التي أستخدمها بسلطته المُفرطة الا يُراود نفسه حتى بعد اشباع طموحه، وان يفكر في اصلاح آثار سياسته اللااخلاقية وحيث يستخدم سلطةً استولى عليها عُنوةً، لانجاز هدف ذي منفعة عامة. والمبدأ الميكافيلي لذلك النظام -اذا ما استطعنا وصفه هكذا- يتركز في ان كلَّ وسيلة جيدة، طالما ان الهدف المَرْجوَّ هو في حد ذاته جيد ومقبول. وطبيعة الوسائل التي استخدمها فؤاد للوصول إلى هدفه، تُبين ان ميكافيلي نادراً ما كان يحصل على نِدٍّ اكثر إخلاصاً كهذا. ومع ذلك، عندما يحقق فؤاد باشا هدفاً ما، يتحدى تماماً جميع تلك الحِكم، وبدلاً من ان يبرر سياسته بالقيام بتصرفات جيدة لتطوير بلاده وازدهارها، تَراه يستخدم وسائل ملتوية لتحقيق اهداف اكثر التواءً وسوءً.

يصفق الصالحون في جميع البلدان لكل ما يمكن انجازه في طريق التطور، على ايدي رجال وصلت بهم جدارتهم إلى مراكز السلطة. ويجب ان تتلاشى كل مصلحة شخصية خاصة، او اية كراهية، او اية ضغينة؛ أمام اهم الاولويات: التطور و الحضارة. ولهؤلاء الذين يهتمون برفاه وتطور تركيا، لايهمهم معرفة هل عبدالعزيز او فؤاد باشا هو من يدير شؤون البلاد، أكان السلطان هو الحاكم الفعلي ام فؤاد باشا رئيس وزرائه، ولكن ما يهمهم ان تعمل ادارتهما لصالح البلاد. ولكن اذا ما كان لسوء الحظ ليس ذلك هو الحال وانه على العكس يبدو الوضع اكثر قتامة واكثر إثارة للقلق تجاه مصائر تركيا المستقبلية. الصمت ضعيف ومساعدتهم منتهى الجُبْن. فمن واجبنا اذن معارضة اولئك الذين تعدهم سبباً رئيساً لتدهور الاحوال ويجب شجب جميع الاخطاء التي اقترفوها.

ويكفي القاء نظرة عاجلة محايدة على سياسة فؤاد باشافي ادارته الداخلية وعلاقاته الخارجية، لنعرف كيف ان ذلك الرجل قد استغل السلطة التي اغتصبها على حساب تركيا؛ ولنقدّم البرهان على ان ادارته السيئة هي السبب الرئيس في الازمة التي يعيشها الشرق حالياً. ولذلك سوف نستعرض ادارته بمنهجية وفي جميع ابعادها.

سياسته الداخلية:

كان الهدف من وصول فؤاد باشا لمنصب رئيس الوزراء، وكما وضحنا من قبل، وصناعته الافراط في الخداع والفساد التقليدي. وكانت مهمته من ذلك اشباع رغبات وآمال وكلائه وقد انجزها كما كان المراد منها. وكان من اولويات فؤاد باشا، هو انتزاع الحكم من بين يدي عبدالعزيز لاولئك المذنبين الذين كانوا على وشك الكشف عن الجرائم التي اقترفوها في ظل حكم عبدالمجيد.

وتم استدعاء نجيب باشا و عثمان باشا و رضا باشا من منفاهم، ولوضع حد للتحقيقات التي كان السلطان قد أمر بها ليتأكد من طريقة حكمهم لليلاد. عمل فؤاد على ايقاف كل ذلك، ولجأ إلى التمويه وحُسن القول بان التصرف غير الشريف يَجُّر العار على الحكومة نفسها. وكانت تلك خطوة ماهرة جداً لمساعدة وانقاذ زملائه، بل ولرعاية مصالحه الشخصية الخاصة بل وتأمينه المستقبل. وبعد ان هيأ لاتباعه الوجود الآمن، وضمن لهم استرداد ثرواتهم الكبيرة في هدوء؛ اخذ يبحث عن اللحظة المناسبة ليعيد اليهم اهتمام السلطان بهم. وترك الوزير الماهر الوقت الكافي للسلطان حتى يهدأ غضبه وتهدأ ثورته؛ ولكي يعيد الصلح بين عبدالعزيز و خُدّام الدولة المخلصين الذين قبلوا قدّميه.[٣٦]

وشملت بالمثل رعايته للاتباع والرفق بهم؛ جميع اولئك الذين اظهروا الولاء، وكانوا رجالاً معادين لمصلحة تركيا في العهد السابق؛ وساهموا بشكل او بآخر في تخريب خزينة الامبراطورية. فقد اعتبر لوگوثيتي بك Logotheti، جديراً بان يصبح عضواً في اكبر مجالس الامبراطورية. ونادراً ما وجدت تركيا في تأريخها عَدّواً بهذه الخطورة، مثل ذلك المتباهي. واصبح احد ابناء الصير في البلتاجي بدوره عضواً في ذلك المجلس، مكافأة على سرية المدفعية التي اهداها للسلطان. وسيكون من الصعب ان نوازن او نقارن عدد المدافع بكمية الذهب الذي استطاع البلتاجي ان يسحبه من خزينة الدولة؛ ذلك الذهب الذي جمعوه من عرق جبين رعايا السلطان البؤساء.

ويشجع فؤاد باشا المغامرين، وجميع الرعايا الاشقياء بدون تمييز من قومية او عقيدة، يُشجع جميع هؤلاء باشراكهم في ادارته. اما الجيدون الشرفاء فيجب ان يُستبعدوا. لقد بلغ الفساد ذروته في جميع الادارات المدنية والعسكرية؛ فنظام الأسراف وتبديد الأموال كان من امهر النظم التي لجأوا اليها من قبل والاكثر ذكاء. ويعد فؤاد عن حق صاحب نظام جديد يقوم باجراءات واعمال يجهلها اكبر الخبراء في ذلك المجال حتى الان.

واستناداً للطريقة التركية القديمة المُتّبعة والمألوفة، يعقد رؤساء الادارات شراكةً مع تجار ومصرفي غلطه من امثال البلتاجيين والظرفيين، لكي يستطيعوا الاغتراف من تبديد الأموال العامة

---

[٣٦] البابا والسلطان هما الحاكمان اللذان يتركان الناس يقبلون اقدامهم.

التي يبدو دونها في ممارساتهم لاعمال السمسرة والمضاربات في جميع ميادين التجهيزات، وتجهيز اسس البناء، ومشاريع اخرى من ذلك النوع. وكصاحب سلطة، ادرك فؤاد انه اذا سار في طريق قطعه سابقوه، لن يلعب دوراً قام به الكثيرون ولن يستفيد شيئاً. فشعر بضرورة تدشين نظام يهيئ له مميزات وفوائد نتيجة ذلك الجديد. وبمبادرة خاصة، وبحجة ان الاتفاقيات القديمة بين الحكومة وتجار غلطه، ليست سوى اتفاقيات مع سماسرة يتسلمون عمولات على بضائع مستوردة من اسواق اوربا. تظاهر انه يريد ان يضع حدّاً للخسائر التي تتكبدها خزينة الامبراطورية نتيجة المشتريات غير المباشرة، وقرر انه في المستقبل سوف تتم التعاقدات مباشرة مع تلك الاسواق.

وفي واقع الأمر، ارسل مبعوثيه إلى مختلف اسواق اوربا، وكم اصبحت المزايا التي استطاع الحصول عليها كبيرة جداً. وكانت تتم جميع المشتريات والتجهيزات بواسطة شركائه الموثوقين، حيث استطاع ان يحتفظ بحرية تصرف كان يتمناها.

وفي باريس، يعقدون الاتفاقيات في سرية، وفي القسطنطينية يصدقون عليها سِرّاً. ومن ثمَّ يتم التسليم في باريس وتمتلئ الجيوب بعد ذلك. وقد شُلّت نشاطات المجالس الادارية التي كانت تتحمل ادارة مختلف الصفقات، شُلّت تماماً، واصبحت تلك الصفقات بالنسبة اليهما وهم وحلم. ولم تجد تلك المجالس شيئاً اخر تقوم به سوى ان يضع اختامهما مغمضة العينين وتواقيعهما على الاتفاقيات التي يتم اعدادها في لندن وباريس، بواسطة رجاله الموثوقين وفي الوقت الذي لم تعد فيه الشؤون تسير كما كان الحال في الماضي في غلطه، وخافيار كان Havier-kan، كانت الامارة تتخفى بمهارة من النظرات المتطفلة والالسنة الطويلة في العاصمة.

اما الموظفون الصغار المرؤوسون، الذين لايتدخلون في هذه الشؤون، لم يعودوا يتعرضون لاغراء الأسراف، واخيراً، وبفضل هذه الإجراءات اصبح الأسراف والتبديد ذاته خاضعين لنظام المركزية الذي يتمحور حول جيوب محددة ومحدودة في اطار الحلفاء.

ويعد التساهل مع الشركات الاجنبية صاحبة العديد من السكك الحديدية؛ يعد اجراء يمكنه ان يُعيد لتركيا ثراءها القديم وازدهارها. ولايوجد شيء قادر على تطوير موارد البلاد مثل نظام للسكك الحديدية يُقام بذكاء ومهارة. وعلى اي حال، عندما تكون خطوط السكك الحديدية قد انشيءت فقط من اجل تسهيل عملية التصدير إلى الخارج، دون تقديم اي اعتبار للاحتياجات المحلية.[٣٧] وعندما يجد السكان المحليون انفسهم بدون اية موارد، فان المزايا التي تنتظرها تركيا من السكك الحديدية في ظروف كهذه، وقتية وسريعة الزوال.

---

[٣٧] للاقتناع بحقيقة ذلك التأكيد، يكفي القاء نظرة على خريطة السكك الحديدية التي انشيءت حديثاً في تركيا.

واذ تتعود على سماع الاطراء على الموارد التي لاتنفذ لتركيا، سنرى ان ذلك التأكيد متناقض ولامعقول بالطبع. ويجب ان نعترف ولسوء الحظ، ونردد ان السكان المحليين الخاضعين للسيطرة العثمانية في تركيا يعيشون حالة فقرٍ مدقع. وذلك لانه:

أولاً: التجارة في مجملها في ايدي الاجانب، الذين يعيشون، كالاعشاب الضارة، على حساب السكان المحليين ويستنفذونهم كُليّاً.

ثانياً: الزراعة والفن مازالا في بداية خطواتهما، والصناعات القديمة قد دمرها تماماً تنافس المنتوجات الاجنبية.

ثالثاً: واخيراً، لاتوجد مطلقاً رؤوس الأموال اللازمة لمساعدة الزراعة والصناعة. وفي ظروف كتلك، فان سماسرة البورصة، ومقاولي السكك الحديدية، والكتاب، وموزعو الفرمانات، هم وحدهم الذين يجمعون الثروات. اما المساهمون والسكان فيجب علهم ان ينتظروا طويلاً لكي يستطيعوا تذوق المنافع.

والبنك العثماني، والشركة العامة للائتمان، ماهما الاَّ منشآت اخرى من هذا النوع. وتستخدم تلك المؤسسات التي يرعاها فؤاد، لتنظيم وتسهيل عمليات التبادل التجاري بين الشرق والغرب. وكنت قد ذكرت اعلاه ان التجارة حِكرٌ على الاجانب؛ وانشيء كل ذلك لصالحهم. وان تأثيرها ثانوي على الصعيد المحلي، ان لم تكن ضارة للمصالح المحلية، وباختصار، فان تلك المؤسسات انشأها يوجهها الاجانب لتسهيل تجارتهم مع البلدان الاجنبية. ونرى جيداً ان السكان المحليين في مجمل تلك العملية، انما يشكلون فقط وقود الالة.

وتم تنظيم البنك العثماني على وجه الخصوص بشكل يعمل على استنفاذ آخر فلس من تركيا. وكثيراً ماتترك العمليات التي يديرها الجشع للمال، تترك وراءها بقية. والبنك الجديد ليس سوى مضخة عالية الضغط تظل تتشبع لاخر مدى. ولنشر مآثره إلى ابعد نقطة في الامبراطورية أنشأ فروعاً له في مختلف المقاطعات. تلك الفروع التي تسرع في سحب كل مايمكنهم سحبه حتى تلك اللحظة التي تقود فيها قضية الشرق للظهور لتساعد بدورها على تسريع عمليات الافلاس.

في حين ان المزايا التي يمكن ان تحصل عليها البلاد مشكوك في امرها، لان الفوائد التي تجنيها الجهات المعنية كبيرة جداً. واذا ما اردنا تصديق ماورد اعلاه فهناك اسهم تبلغ قيمتها مائتي الف جنيه قد تم تجييرها لصالح فؤاد وشركائه جزاءً على ما اقترفوه لتوقيعهم فرمان الامتياز. ويحتكر بعض التجار الشرقيين في غلطه ذلك البنك وامتلكوا حق استغلاله؛ ومنهُ يجمعون الفوائد. وللبنك مديران رئيسان ورواتبهما متواضعة لتبلغ مائة وعشرين الف فرنك سنوياً، في حين يقنع نواب المديرين باربعين الف فرنك: انهم نواب حقيقيون، وسناتور من الامبراطورية الفرنسية ولايتمتع بالتأكيد بمثل ذلك الراتب. واذا ما سمعنا هؤلاء السادة يتحدثون عن تركيا ويدعون انها تسير في طريق التقدّم والحضارة، فان ذلك يحدث فقط يوم يتقاضون مواردهم الاميرية.

ويعود لفؤاد الفضل في تعديل نظام الاراضي الاقليمية، وبعض الدفع لوزارة التعليم العام. علماً ان العرض الذي قدّمته في صفحات الكتاب الذي بين ايديكم حول حال الادارة المثير للاسف في ادارة الدولة على الصعيد الداخلي، يسمح لي بتغطية موضوع يقدّم عرضه صورة تدمى الفؤاد.

المالية:

لقد تمت دراسة وتحليل مالية تركيا ونُشرت تلك الدراسات في عدد كبير جداً من الكراسات والمناشير المضادة والصحف..الخ. وحيث كانت كثيراً جداً لدرجة ان ذلك الموضوع لم يترك لنا مجالا لتقول شيئاً رّبما يمكن ان يكون مجهولاً للناس. اذن، لسوف اكتفى بالحديث المختصر عن ذلك الموضوع بخصوص الاصلاحات التي يقوم بها فؤاد باشا وتتطلب:

١. اسقاط ماقيمته عشرة ملايين جنيه تركي من بين العملة الورقية التركية.

٢. ادراج مايقرّب من خمسة وثلاثين مليون جنيه، تعويضات عن ديون مختلفة لخمس سنوات في الاقل. وبمبادرة من فؤاد باشا، توجب نشر الميزانية. ولكن الرأي الصحيح لمواجهة تلك الادعاءات بالاصلاح، هو انه اذا ما كان من سبقوا فؤاد باشا قد بذروا وبددوا اموال الخزينة؛ ففي الاقل كان لديهم من الذكاء والحياء ما يدفعهم إلى التزام الصمت. ولكن فؤاد باشا، عندما ارتجل الميزانية التي لا تستند إلا على خياله الخصب ونُشرت، تصور انه يمكنه اخفاء مناوراته عن عيون الناس. وعند تحرير تلك الوثيقة لم تُذكر اية تفاصيل، فقد كان من المستحيل مادياً تقديم كل التفاصيل دون الكشف عن اسرار يثير اعلانها الكثير من المخاطر. ولاتدعى اية ميزانية انها تكسب موافقة الناس عليها مادام ان من يدبجونها يتصرفون على هواهم ويكتبون ماينا سبهم ويحلو لهم.

وعلى الرغم من تلك الميزانية ومتعلقاتها، فقد الموظفون، ودائنو الخزينة المحليون، والجيش؛ الامل كما كان تضايقهم وشقاؤهم لا حدود له. وكم من مرة وعدت الحكومة رسمياً دفع ديونها، ودفع رواتب الموظفين والجيوش في موعدها، وكم من مرة لم تفِ بالتزاماتها. وكان من نتائج ادارة كتلك، البؤس في الداخل ودمار الاعتمادات العثمانية في الخارج. واذ رأي انه بسبب ادارته، تناقص الائتمان التركي في الاسواق الاوربّية. واضطر إلى البحث عن مصادر اموال جديدة، ليقوم بدوره بمخالفات جديدة. وتصور فؤاد، انه يستطيع الحصول على قرض جديد اذ ظهر للناس لابسا قناع التغيير.

وذلك التغيير ليس الا اجراءً اغتصابياً لجأت اليه الحكومة التركية لنزع حق ملكية السندات المالية لمختلف الديون العثمانية، وعدها ديوناً مطفأة بدلاً من الديون القديمة المُقَسَّمة. ان تغيير شكل السندات ذاك يُحوّل الدين القديم البالغ قدره ٢٢,١٨٥,٦٧٥ جنيه استرليني، بفائدة الستة بالمائة إلى ٢٩,٠٠٠,٠٠٠ جنيه تركي بفائدة الخمسة بالمائة. وتعدُ تلك العملية بمكاسب كبيرة تصل

إلى ٢٥,٢٣٦,٦٣٣ دينار تركي وهو المبلغ الذي يشكل الفرق بين مُجْمَل الدين القديم المحولة فوائده إلى ٥٪ وبين الدين الجديد البالغ تسعة وعشرين مليون جنيه تركي.

وبعيداً عن كل ذلك، يأمل الوزير المستقيم في الحصول على دين صغير إضافي يصل إلى اربعة ملايين جنيه تركي في خضم هدير البورصة. وهكذا وبعملية صغيرة استطاع فؤاد الحصول على مبلغ ٦,٥٢٣,٦٣٣ جنيهاً تركياً أدعى أنه ينوي صرفه على إعادة احياء تركيا. والحظ يبتسم غالباً للجرأة، ونجحت خطة فؤاد بفضل مناورات عملائه الناجزة. وكانت تلك ضربة قوية بلا منازع، نفذها عملاؤه الممولون الهلوانيون المنضوون تحت علم تركيا. ولكن ماهو اكثر مدعاة للاسي والاستياء والشفقة، منظر اولئك المساكين المَعْرُوضُ أمام اوربا بعد اغتصاب فريسة الستة الملايين: صيحات، واحتجاجات، وسُباب وشتائم، ولعنات وقلق واغماء وانتحار حتى، وكل ذلك توَّج عملية التغيير. فهل يعرف اصحاب التغيير اولئك ما معنى الحياء؟ ولكن فجأة، سحب الباب العالي مندوبه في باريس وحيث فاحت رائحة فضائح تلك العملية أثارت الانتباه وظلت تُذكر في تأريخ البورصة.

وبعد ان اخذ كل نصيبه، اختفوا وهم يحملون الملايين، ولم يبق للمسكينة تركيا فلس واحد من الائتمان، ولم تعد لتجرؤ علي الظهور في اسواق اوربا. وانتظر الدائنون البؤساء في ضيق وشدةٍ وقلق تواريخ الاستحقاقات في الثالث عشر من كانون الثاني، والثالث عشر من تموز، يملؤهم خوف مستديم من الا يقبضوا شيئاً من اموالهم.

الجيش:

يعود الفضل لفؤاد في تحسين احوال الجيش من حيث التجهيزات في العتاد والسلاح. ويلاحظ ذلك خاصة في العاصمة وفي بعض الحاميات الموجودة تحت اعين الاوربيين. وبحجة الانضباط والعلم، وصلت الادارة الحالية إلى المؤسسات العسكرية. وبعد سريان قانون كان قد اصدره فؤاد فان كل جندي او ضابط صف، بعد ثلاث سنوات من الخدمة العسكرية، قد حصل على التعليم الضروري، يصبح حُرّاً في العودة إلى منزله، شريطة ان يسرع للالتحاق بخدمة العلم حال استدعائه.

ويسرى ذلك النظام في بعض الجيوش الاوربية التي قبلت به، ويمكن تطبيقه بدون اية مخاطر، في بلاد تكون فيها شبكة طرق مواصلات تغطى انحاء البلاد وهذا ما يعمل على تسهيل حركة تجمع الجيوش في الحالات الاضطرارية، وحيث وصل تنظيم الجيوش درجة من الكمال ولم يبق شيء ليتعلمه الجند. اما في تركيا، فان تطبيق مثل ذلك النظام يؤدي إلى الارتخاء في المؤسسات العسكرية وتفكيكها، وتخاذل في الروح العسكرية وانتشار الفوضى في جيش لم يصل فيه الانضباط إلى الكمال المطلوب والمرجو، بل انه يتطلب على العكس بذل سُبُل الرعاية الممكنة المطلوبة. ويقول واقع الأمر، انه اذا أصبح الجندي التركي بعد ثلاث سنوات من الخدمة العسكرية.

اصبح حُرّاً في العودة إلى المنزل، فسوف ينتهي به الأمر باجواء الحياة الأسرية المثيرة للاعصاب، وينتهي به الأمر إلى نسيان كل ما تعلمه اثناء الخدمة والجنود الشباب، من جانبهم محرومون من الاحتكاك بالجنود القدامى، ومن الامثلة التي يمكنهم تقديمها لهم، وسيجدون صعوبة كبرى في التعود على الخدمة العسكرية، وعلى التناغم بعد ذلك مع روح المؤسسة العسكرية.

ولنعد الان لفرضية تجميع الجيوش السريع في الحالة المذكورة، سنتساءل ماهي تلك العراقيل التي يجب السيطرة عليها وتذليلها من اجل تحقيق اجراء كهذا؟ والنتيجة في تلك الحالة المذكورة ستكون الفوضى الشاملة العارمة. والتجميع في لحظة ما، وفي مكان ما، عملية من الصعوبة بمكان تحقيقها خاصة أمام مشكلة هروب الجنود او تشتيت جموعهم لعدم وجود ضباط او رؤساء، خاصة اذا كانت البلاد التي يجب ان يذهبوا اليها في نفس الحال الذي توجد فيه تركيا اليوم، تنقصها طرق المواصلات والجسور والفنادق وغالباً حتى تنقصها قرى يمكن ان تستخدم محطات استراحة كمراحل في رحلة الجنود القادمين من مختلف انحاء البلاد. واخيراً، حتى حين لاتستطيع الادارة ان توفر للجيوش المصاريف الضرورية لإعالتهم في الطريق إلى مكان التجمع. يبدو ان تلك الحقائق لايأخذها احد بنظر الاعتبار.

ولنفترض في الوقت الحاضر، احتمال وجود انتفاضة ما او هجوم خارجي. فكم يكون حجم الفوضى والتخبط في ظرف كهذا لجيش منوط به الابقاء على الهدوء والاستقرار العام؟ جيش ينقص تعداد جنوده إلى النصف، بل ويتكون تقريباً من جنود مبتدئين لايثقون في انفسهم. ثمَّ يجد ذلك الجيش نفسه في مواجهة جماهير ثائرة، وبعد السيطرة ونزع سلاحها تتحول تلك الاسلحة نفسها ضد الجند الذين جاءوا لخدمة العلم. سيكون ذلك صورة مكررة للاحداث الدامية في دمشق وسوريا.

وعندما يعتقد الانسان الذي اعماه طموحه انه يعرف كل شيء ويستطيع ان يقوم بما يريد. ولكنه في حقيقة الأمر لايمكنه الا ان يقوم بالحماقات. وفؤاد، الذي يملك صفات سياسية لاشك فيها، يظن مع ذلك انه يمكنه التدخل في الشؤون العسكرية، مع انه لايملك الا تعقيد الامور وينجح في اخراج مسرحيات معقدة على حساب خراب البلاد. علماً ان التسريح الجزئي للقوات كان يهدف إلى التخفيف عن خزينة الدولة وذلك بتوفير مصاريف اعالة الجنود المسرحين. والتفاصيل التي قدّمت آنذاك في الفصل الثاني حول الحالة الانية للجيش تسمح لي بان اتخطى ذلك والا اشغل القارئ اكثر من ذلك بكل ما يُخص تفاصيل الادارة العسكرية. [انظر: صورة للجيش في الملحق]

البحرية:

بفضل سياسة اتبعها فؤاد باشا تهدف لاشباع نزوات عبدالعزيز وارضائه، وصل تطور الاسطول العثماني في عهده واثناء ادارة فؤاد، تطوراً رفيعاً بامكانيات وقوى تركيا. وفيما عدا بناء

عشرين سفينة من مختلف الأنواع، تم بناء خمس فرقاطات مدرعة في انكلترا، بتكلفة ثلاثمائة الف جنيه استرليني. وكانت تلك معجزة حدثت في لحظة ضيق عام، نتيجة حادث مؤسف من قتل وسرقة تمت في اسطنبول، في لحظة كانت الوزارة في حاجة لتأييد الرأي العام الانكليزي.

ويجب على كل حكومة مستنيرة، أن تهتم جداً بازدهار البلاد، وان تعمل قبل كل شيء على اعداد بحّارة مهرة جسورين يعرفون كيفية السيطرة والحفاظ على تلك السفن والاحتفاظ بملكيتها والدفاع عنها. وتركيا تنقصها البحارة الاكفاء. اما من يعمل في الاسطول، فقد جمعتهم الحكومة من بين الفحّامين والحفّارين من الاناضول، وهم مازالوا غير قادرين على الامساك بالبحر.[٣٨] ومع بحّارة كهؤلاء، نرى انه كلما ازداد عدد السفن التي يتم بناؤها، مكنوا العدو الجسور من إستخدام بحارته لتلك السفن نفسها.

العلاقات الخارجية:

في باب العلاقات الخارجية، سأقوم بادراج العلاقات القائمة بين القصر السلطاني والدول ذات الادارة الداخلية المستقلة تماماً عن سلطة السلطان.

مصر:

كانت السياسة التي اتبعها فؤاد باشا في علاقته مع تلك الامارة، الإهتمام بازدهار تلك البلاد، كون ذلك يتناقض ومصالح الامبراطورية العثمانية، ولكي يوجه ضرّبة لذلك التطور المتنامي دوماً في مصر، استغل الخلاف القائم بين اسماعيل باشا نائب الملك وشقيقه مصطفى فضيل باشا. وقد غذى فؤاد باشا، عدم الوفاق هذا بين الاخوين في براعة تامة، ومالبث ان اصطف مع الجانب الاقوى وارتبط به جسداً وروحاً.

ومنذ زيارة السلطان لمصر عام ١٨٦٢، استغل فؤاد تلك الفرصة لكي يضع اسس علاقة صداقة حميمة بين عبدالعزيز ونائب الملك. وبالنسبة للسلطان دفعه لمشاهدة زيادة سلطته في مملكة كانت قديماً خاضعة لصولجانه، وبين له امكانية القيام بهجمات مهمة على ثروات نائب الملك. وبالنسبة لنائب الملك، فقد بين له امكانية التضحية بأخيه انتقاماً منه. وان تغيير نظام وراثة العرش بتجريد اخيه من حقوقه، سيؤمن الخليفة اسماعيل المباشر الاستمتاع بتاج مصر في سلام. والطموح، والرغبة في خزائن السلطان التركي، وغضب اسماعيل العارم ضد اخيه، ومطامعه الخاصة وعواطفه الجياشة، كل ذلك وجد لدى فؤاد باشا السند والمعين.

---

[٣٨] اصبحت عدم كفاءة البحارة الاتراك مجالاً لا يمكن التشكيك فيه، وذلك بعد الحصار المفتعل الذي أقامه الاسطول العثماني على سواحل كريت.

ومقدّمات اتفاق كهذا، يمكن للجوانب المتعاقدة ابطال مفعول شروطها، ولكن نائب ملك مصر قبل جميع الشروط الصعبة التي املاها السلطان عليه، في الوقت الذي منحه فيها ملكها العظيم حق ابنه في خلافته مباشرة. وما ان انتهت تلك الإجراءات عاد عبدالعزيز إلى القسطنطينية يرافقه ناصحه ومستعشاره ومعلمه المخلص. وبعد عدة ايام تقلد فؤاد باشا منصب رئيس الوزراء ليبدأ في تحقيق خططه ومشاريعه. ومع ذلك فان المشروع الذي تركه وراءه في مصر كان صعب التنفيذ لأن عوائق كثيرة في نظام الاشياء القائم وفي تقاليد مكرسة منذ الف وثلاثمائة سنة وفي الشرق فان الأكبر سناً من ابناء او احفاد مؤسس الأسرة الحاكمة يتمتع وحده بحق وريث التاج. وفي اسرة محمد علي كان ذلك القانون ساري المفعول دائماً. وبفضل ذلك القانون ساري المفعول دائماً، وبفضل ذلك القانون نفسه جاءت قوة نائب الملك الحالي ولي العهد وان قلب النظام الشرعي لوراثة التاج قضية شائكة جداً ترتبط بها مسؤولية خطيرة.

وإلى جانب عدم شرعية ذلك المشروع، فان تحقيقه يثير الاستياء والازعاج. اما مصطفى باشا ضحية ذلك الكمين فقد وجد نفسه في موقف استثنائي في مواجهة الحكومة الامبراطورية. يتهدد حتى حياته. فلجأ إلى القسطنطينية وعرض خدماته وتمتع بحماية الحكومة الامبراطورية. ان التضحية الجبانة بذلك الامير دونما سبب واضح، تعد سلوكاً شائناً، ويمكن لنتائجه ان تكون مميتة ذات يوم. ولكن فؤاد باشا، ليس ذلك الرجل الذي يهتم بتلك الاعتبارات. وأمام نظامه المالي المنهار، وائتمانات تركيا المُستهلكة، كان واجبه الحصول على المال بأي ثمن. ولان الجريمة تسحب دائماً وراءها جريمة اخرى، كانت التضحية بمصطفى باشا متحتماً.

وعبر صفحات كتابي هذا، كنت قد اشرت إلى استقالة مصطفى فضيل باشا من وزارة المالية في حكومة فؤاد، أمام استحالة امكانية تنظيم ميزانية الامبراطورية. اما سبب العقبات التي صادفها مصطفى باشا في تنفيذ اصلاحات كان يود تدشينها، فهو مؤامرات فؤاد السرية، حيث كان يعمل على تحقيق مشاريعه المعادية للامير بتوريطه أمام السلطان في الوقت الذي نرى فيه غضب السلطان العارم قد اثر بمهارة في الامير. واذ دخلت العواطف باللعبة، ادى ذلك إلى اثارة ازمة حادة كانت حجة لكي تتم معاقبة الامير مصطفى وبقسوة. وفي الحال، وضعت قضية خلافة الملك موضوع الحديث، والترتيبات التي تمت بين الباب العالي ووليّ العهد قد تتحقق وبشكلها النهائي. وكان اعوان فؤاد يحتلون كل موقعه، يراقبون سُخطه وغضبه. وكان فؤاد باشا على رأسهم بدوره يحوك ويراقب، وكان ينتظر ويبحث عن اللحظة المناسبة، للانفجار.

ويجب ان نتذكر انه بعد استقالته من وزارة المالية، تجرأ على الظهور أمام عبدالعزيز، حيث وضح له دون موَارَبه الوضع المأساوي لامبراطوريته. ولكن السلطان التزم الصمت التام، سواء بسبب تأنيب الضمير او لانه استشعر بالخطأ الذي ارتكبه. واستأذن مصطفى باشا من السلطان

وترك القسطنطينية حيث ذهب لقضاء بعض الوقت في باريس، سعيداً بالهرّب من عالم المؤامرات والدسائس. وفي باريس وبمساعدة تدخل الحكومة الفرنسية استعاد املاكه التي اراد اخوه والباب العالي وضعها تحت الحراسة.

وقد اربكت تلك السفرة المفاجئة فؤاد باشا وانتشرت مناوراته. ولكنه مع ذلك لم يفقد شجاعته، بل بذل كل مافي وسعه للوصول بمشاريعه إلى النهاية المرجوة وذلك اولاً: بالتصدي لمصطفى باشا واعاقة تحركاته وعلاقات مصطفى باشا بالوزارة الفرنسية. وذلك في الوقت الذي تظاهر فيه بكل قوة برغبته في المصالحة واقناعه بالعودة إلى القسطنيطينة، واكدوا للامير ان الوزارة كلها تؤيد توجهاته السياسية، وانها تعترف بالحاجة لتبنى المباديء التي يدافع عنها وبينوا له ان الامبراطورية والامة تنتظران منه خدمات كثيرة وان المبادرة محفوظة له للعمل في وزارة المالية. وما ان وقع في شباكه، استعد فؤاد لتوجيه الضرّبة القاضية له.

وصدق مصطفى باشا جميع تلك المقترحات وعاد إلى القسطنيطينة. وما ان وصل حتى عينه فؤاد رئيساً للمجلس الاعلى للحسابات والمالية الذي انشأه خصيصاً لتلك المناسبة وسماه مجلس الخزائن، وهدف ذلك المنصب العالي تنظيم لميزانية الامبراطورية.

ومنذ بداية الجلسات ظهرت عراقيل كبيرة أمام الامير من جميع الجهات إلى جانب معارضة منهجية شلّت جميع جهوده واوقفت تحقيق كل اصلاح. واحتج واظهر استياءه من طريقة التعامل تلك. وقرر القيام بخطوة اخيرة، فتوجه كما فعل من قبل إلى السلطان. وهناك كان فؤاد يراقب ويتوقع خطواته. عرض الامير على عبدالعزيز الاحوال المؤسفة لادارته، وتجاوزات فؤاد التي تُجرّمه، بل انه تنبأ له الاستبعاد المستقبلي من الامبراطورية. وفي نفس الوقت اسرع بتقديم استقالته من جميع وظائفه وتنازل بحزم وحسم عن القيام باية وظيفة او مسؤولية عامة.

وكان فؤاد يتوقع ان يتخذ الامير خطوة كهذه، فبادر بإثارة حفيظة السلطان قبل لقائه، هذا إلى جانب حركات تركيا الفتاة، والرسائل المغفلة التوقيع، والاشاعات التي تملأ المدينة والتي تشجب الوزارة. كل تلك الخطايا التي يقوم بها الجميع الصقت بمصطفى باشا، حتى لايفكر السلطان مطلقاً به. وواقع الأمر يدلل على ان خطوة مصطفى باشا، الحاسمة لن تمر هكذا مرور الكرام كما في الماضي. ووصل غضب السلطان مداه، فقد ظن ان كرامته الملكية قد أُهينت، فأصدر امراً لمصطفى بضرورة مغادرة القسطنطينية خلال اربع وعشرين ساعة.

وما ان خرج الامير المغضوب عليه، حتى عرض فؤاد قضية خلافة التاج للنقاش مستنداً إلى ضرورة الأسراع بحسم الموضوع وذلك لمنع شخص تملؤه المشاعر المعادية للامبراطورية من اعتلاء عرش مصر. وسرعان ماتم تخطي اصوات المعارضة المعتدلة، وارسلوا في الحال دعوة لولي عهد مصر اسماعيل باشا، الذي حصل على فرمان اعتلاء العرش. ووفقاً لذلك الفرمان تم

ابطال حق مصطفى باشا وكل وريث آخر او قريب او نسيب لصالح ابن اسماعيل باشا ونسبه من بعده مباشرة. ولم يكن الباب العالي يطلب سوى المال. وبذل ولي العهد كل مايستطيع لارضائه. ولتسهيل المهمة وافق الباب على منح مصر منطقة سواكن جميع ممتلكاته الأخرى في السواحل الافريقية من البحر الاحمر.

وحاول انصار التوريث المباشر لاوربا ان ذلك التغيير اجراء قدري من اجل ازدهار مصر. ويبدو لي انه اذا كنا نريد تقييماً صحيحاً صادقاً لمسألة من هذا النوع، تجب دراسة الحقائق بدلاً من تصديق حديث مُرسل يقدّمه اشخاص يكتبون تحت تأثير تجريدي. في حين ان الحقائق التي يجب ان يهتموا بها هي كالاتي: لقد كلف فرمان التنصيب لعرش مصر: ١ مليونا من الجنيهات التركية اي مايساوي ثلاثة ملايين فرنك. ٢ زيادة سنوية للجزية التي تدفعها مصر حيث تضاعفت بهذه الطريقة. ٣ عشرة ملايين فرنك توزعت بين الكتاب والمراجعين والمستنسخين لفرمان التنصيب لعرش مصر. ٤ الدم والمال المراق في حملة من اثنى عشر الف ضد انتفاضة كريت. ٥ واخيراً، ادامة جيش قوامه ستين الف جندي، ومن الضروري وجوده لمجابهة الاستياء العام ضد ممارسات سياسة اسماعيل باشا المذلة للشعب المصري.

ذلك فيمايخص الحاضر، وحيث يرى البعض ان ذلك في صالح مصر. اما بالنسبة للمستقبل فان افضل نتائج تلك السياسة امر مشكوك فيه. فاذا ما انهار النظام الإجتماعي من كل الجهات فما الذي يمكن ان تقدّمه الاصلاحات؟ وما الذي يمكن ان تؤدي اليه؟ ويمكن لوفاة ولي العهد مثلاً ان تبدأ تركيا عهداً مميتاً، فمازالت ذكريات قونية ونسيب حاضرة في الاذهان. اما الامير مصطفى وريث العرش فقد ترك القسطنطينية ليتقاعد في باريس، وحيث اكتسب التعاطف التام لإستقالته في جو من العداوة التي كانت يحيط به هناك ولإعتداله.

اما قضية حفر قناة السويس ذلك المشروع الذي يحمل في طياته مصلحة عامة لتطوير الصناعة والتجارة، لم تجد تلك القضية صدى لها او تعاطفاً لدى فؤاد باشا او وزراته. ولكنه عارضها بشدة وقوة ولكن لم يستمع اليه احد. ولكن وبعد ان اتفقت مصر وشركة قناة السويس على حفر القنال، بعد موافقتها على جميع نقاط المشروع، وبعد القرار التعسفي لنابليون الثالث، وبعد ا ن بدأت السفن ترفرف اعلامها على مياه القنال، حينذاك فقط وفي الساعات الاخيرة فقط اعلن فؤاد باشا موافقته على ذلك المشروع وقرر ان يكرمه باصدار فرمان اخر تم اصداره مثلاً من اجل شهادة جامعية مثلاً. وسياسة كهذه يمكن ان تضفى على سلوك الحكومة العثمانية صفة السخف، لانه لايمتلك لا سبباً ولا وسيلة لمنع حفر قناة السويس، فقد كانت له بالتأكيد ان يقبل عن طيب خاطر اليوم ما سوف يكون مُجبراً على قبوله فيما بعد.

الامارة الرومانية:

توضح المعاهدات القائمة حالياً وكذلك حقوقها الطبيعية الحقيقية، تماماً كيف كان على الباب العالي ان يتصرف تجاه رومانيا. وتتطلب تلك السياسة عدم التدخل في ادارة رومانيا الداخلية وضرورة احترام حقوق الرومانيين في الحكم الذاتي. واذا ما وجدت قضايا من ذلك النوع تنطوي على مصالح عامة، فلن يجد الباب العالي في تلك الحالة مايفعله الا التوافق مع الدول الكبرى الموقعة على معاهدة باريس. واذ انحرف فؤاد باشا عن مثل تلك السياسة الرشيدة والبسيطة في نفس الوقت، واراد ان يُعرّب عن تفانيه ويعرض اهتمامه بسعادة ورفاه الشعوب الرومانية. فارسل رسالة وزيرية رسمية إلى الامير كوزاCouza بيّن فيها ملاحظاته حول ادارة الامير السيئة. واعتبرت تلك الرسالة هجوماً موجهاً ضد الحقوق السياسية للامارات. ولانها كذلك، كان رد الامير جافاً وحاسماً إلى جانب ان رسالة فؤاد قد اثارت بدورها اعتراضات واحتجاجات مجلس الشيوخ. وسنتساءل اذا ما سُمح لنا مافائدة ذلك السخف. ولمَ يعرض نفسه مجاناً لتدار له الظهور؟ ليس كل ذلك دون شك تعبيراً عن السيادة، وانما يعني الانخراط في رفض واعتراض لاجدوى منه وليس بالمستطاع الاستمرار فيه.

وبعد طرد الامير كوزا، ارادت حكومة فؤاد المطالبة بحقوقها واصرّت على عدم الاعتراف بوحدة الامارتين. ولكن المؤتمر الذي عُقد في باريس حول ذلك الموضوع لم يكن يتوافق وذلك الاتجاه. ووضح المؤتمر للباب العالي محاولاً افهامه ان من مصلحته الالتزام بالصمت لان ادعاءات الباب العالي يمكنها اثارة المقاومة المسلحة للامة الرومانية. وجاءت تلك الاحداث لتقدّم للباب العالي ضربة تمثل السقوط التام الاخير للسيادة التركية في الامارات وغيرت وبدلّت عواطف الرومانيين ضده.: ثم انتخاب الامير شارلز هولنزولرن Charles d`holenzolern، بألاقتراع. وغضبت الحكومة التركية غضباً شديداً لاحتكار سلطتها بشكل رسمي، فقررت ان تتعامل بشدة وجرأة فهددت الامارتين المتحدتين بالإحتلال. وتم حشد فيلق تركي على نهر الدانوب.

ومع ان ذلك الاجراء قد أثار الرومانيين ودفعهم إلى حمل السلاح، التزم فيلق المراقبة ذاك بعدم التحرك حتى تلك اللحظة التي حدثت فيها الانتفاضة التي قام بها الكونديوت Condiotes واجبرته على مغادرة حدود فالاسيا Valachie. ولكن الدبلوماسية قامت باجراءات حل تلك القضية حلاً ودياً ويعلم الجميع انه بفضل ذلك الاتفاق، اضطر الباب العالي ان يقلل كثيراً من سقف الادعاءات واقتنع الباب العالي حينذاك بزيادة قيمة الجزية التي ترسل للحكومة التركية، فبعض المال افضل من لاشيء. وتم الاعتراف بالامير شارلز اميراً لرومانيا. واضطر الباب العالي ان يتوجه للسلطان طالباً الرحمة. وقد اثر ذلك الكم من الاستعطاف في السلطان الذي أمر بمنحه وسام الاستحقاق العثماني من الدرجة الاولى.

صرّبيا:

وفي صرّبيا بالمثل حيث كانت المصالح التركية الامبراطورية يتهددها عدم اهتمام حكومة فؤاد باشا التي كانت تتصرف كيفما كان مع الموضوع. وبدأت تظهر عدم قدرة تركيا من يوم إلى آخر. فمن جهة ادعاءات الورثة، ومن جانب اخر متطلبات الدائنين المتزايدة. وكان الصرّب يريدون بناء استقلال الامة على اسس متينة، وطالبوا الباب العالي بالانسحاب من عدة اماكن قوية في البلاد إذْ مازالت بعد حرّب الاستقلال في يد الاتراك. وادت المفاوضات التي دارت حول ذلك الموضوع إلى الخضوع لارادة الصرّب وتم الجلاء من قلاع سوكول Sokol و اوسيجيه Osige`. وكذلك انسحب السكان المسلمون الذين كانوا يقيمون في تلك الاماكن التابعة للقلاع. وبواسطة ذلك الترتيب بين الباب العالي وحكومة صرّبيا التي قررت تقديم غرامات لقاء الممتلكات الاسلامية التي شابت مصالحها الاضرار. وكما فعلت مصر ورومانيا، عقدت صرّبيا مفاوضات مع وزراء السلطان من اجل تأمين حول الوراثة المباشرة في اسرة اوبرينوفتش Obrenovich، في نفس الوقت الذي اصرت فيه الحكومة الصرّبية على تنازل تركيا عن بعض حقوق ومظاهر السيادة، وانسحاب تركيا من ثم من قلعة بلغراد.[٣٩]

مونتينيغرو الجبل الاسود:

كان شعب مونتينيغرو المشاكس، من بين الاجناس التي تعيش في تركيا الاوربّية، الشعب الوحيد الذي يتفاخر بانه لم ينحني ابداً أمام الدولة العثمانية. ورغم الصراع الدامي الذي ظل مستعراً لعدة قرون، استطاع شعب الجبل الاسود الحفاظ على استقلاله وحكمه الذاتي، الذي اقامه الامير دانيال على اسس راسخة متينة، حيث استطاع ذلك البلد نشر نفوذه وتأثيره على جميع المحافظات الحدودية لتركيا.

وأثار تزايد قوة ونفوذ ذلك البلد، حفيظة وغيرة الباب العالين الذي قَرَّرَ اجتياح تلك البلاد بالحديد والنار، وسحق جميع اسباب ازدهار مونتينغرو واخضاعها للعبودية. وكان ذلك دوما حلماً من احلام فؤاد باشا. ولانه كان وزيراً للحرّبية، فقد تقرر في احد اجتماعات مجلس الوزراء إرسال جيش عرمرم ضد ذلك البلد في عام ١٨٦٢ ، قوامهُ ستون الفاً وبأمرة عمر باشا.

ومع قوات بذلك الحجم، خرجت الحكومة العثمانية منتصرة في صراع لم يسفر عن اية نتيجة، فمازالت مونتنيغرو بلداً مستقلاً. ولكن الباب العالي وجد راحته باحبار امير الجبل الاسود، على قبول اتفاق لم يتحقق يوما ما. وللحصول على تلك الفوائد صرفت تركيا اموال خزينتها وضحت بمايقارّب

---

[٣٩] كان انسحاب تركيا من بلغرادج تأكيداً على الحقوق الشرعية للصرّب، وهكذا طوى العلم التركي حتى مصب نهر الدانوب، حيث كانت هيمنتهم وقتية تحيطها الشكوك.

ستةعشر الف جندي، في الوقت الذي ضحت فيه مونتنيغرو بستة آلاف جندي. ويعتقد الباب العالي ان حرّب الجبل الاسود استجابت لمتطلبات اللحظة والموقف، لانه كان من اهدافها زرع الخوف بين صفوف الشعوب المسيحية في تركيا. واذ نجحوا في تحقيق ذلك الهدف، بدأ الباب العالي يتظاهر أن سياسته قد تغيرت، واظهر التسامح مع شعوب الجبل الاسود لان السياسة التي اتبعها كانت عديمة الشفقة وهم يتزلون بهم العقاب. واعلنت حكومة السلطان بعد حرّب ١٨٦٢ بعض التنازلات أمام البؤس والعوز الذي يعانيه شعب مونتينيغرو الذي اجبره على القيام بتلك التنازلات.

وتتركز تلك التنازلات في السماح لشعوب منتينيغرو بزراعة الاراضي المحيطة بسپوچ Spuch، وكذلك السماح ببعض امتيازات مرور تجارة الترانزيت عبر ميناء انتيڤاري Antivari. وبقى لهم منفذ حر نحو البحر، والتخلى عن مكانين او ثلاثة تقع وسط البلاد، وتشكل جميعاً تهديداً دائماً لاستقلالها ولامنها. وتلك الإمتيازات بعيدة تماماً عن تلبية الاحتياجات الانية لتلك الشعوب. تلك هي التنازلات التي في الوقت الذي يتظاهرون فيه باحقاق حقوق مونتينيغرو، لن يستطع احد مادياً. التعدي على المصالح العثمانية في تلك النواحي.

ان ذلك العرض الذي قدّم فيه وضع لاحوال ادارة فؤاد باشا، يجب ان يوضح للقارىء وبشكل صادق على انه مهما كانت اسباب تأخر الشرق، فان ادارة ذلك الرجل قد ساهمت بدورها في سقوط تركيا، ولم تكن باقل من تلك الاسباب. وبعيداً عن التأثر بأراء ثانوية، فيجب الاقرار بأن المرحلة الراهنة لقضية الشرق جاءت نتيجة التفسخ الإجتماعي الذي تعيشه الان الامبراطورية العثمانية هذا إلى جانب الاخطاء القديمة حيث سيكون من غير العدل محاولة اضفاء المسؤولية على رجل واحد. ومع ذلك، يوجد قليل من الناس، الذين بعد دراسة فاحصة وجزئية للقضية سيترددون في اتهام فؤاد باشا بانه بذل كل ما يمكنه لتسريع وقوع الكارثة.

وفي الواقع، اذا مافكرنا انه ومنذ نصف قرن لم يوجد شخص ولا حتى السلطان محمود قد تمتع في تركيا بمثل تلك السلطة اللامحدودة. كما لم يوجد شخص ساعدته الظروف اكثر مما ساعدت فؤادباشا. وسوف ندرك اية صفحة حزينة ستؤرخ مدة حكمه في تأريخ بلاده. فبدون وجود انكشارية لتحارّب وتستأصل وتدمّر، وبدون وجود ثائر كمحمد علي يجب ان يهزمه، وبدون وجود معارضة قوية ليحتويها، كان عليه ان يكرس نفسه لخدمة وطنه. فاذا ما كان يمتلك مزايا دراسة اورّبية، وخبرات تساعده في معرفة وتقييم القضايا الكبرى ذات الاهمية الوطنية، فلماذا اذن لم يبذل فؤاد باشا جهوده للتقليل من تلك المساوئ التي تزعج الشعوب تحت سلطته وتثير ثائرتهم؟ اما انه لايمتلك السلطة، او انه لم يُرد ولم يرَ من الضروري القيام باداء ذلك الواجب. تقول

---

[٤٠] نيكچيچ Nikchich، دروبناسكDrobnach في الشمال، وپودجيرايزا Podgeriza، وسپوچ Spuch وانتيڤاري Antivari في الجنوب.

الفرضية الاولى ان الاعتبارات المذكورة اعلاه تستبعد تماماً، مايجب الاقرار به من ان الرجل غير قادر على عمل الخير او اقتراف الشر، وان قوة الاحداث هي التي تقرر كل شيء. فلم اذن نستخدم كل قوانا ونبذل كل جهودنا لتوفير حياة كريمة للمجتمع؟ الفرضية الثانية هي اذن المقولة الوحيدة الاقرّب جداً للصحة: لم يفكر فؤاد باشا مطلقاً في مصلحة بلاده.

وتوضح الحقائق بشكل ايجابي ان فؤاداً يعرف جيداً كيف يصنع الشر، فلماذا لا يعمل الخير؟ ذلك لان الشجرة السيئة لن تطرح الا ثماراً فاسدة. ومهما كان جمال الشجرة، ورغم اوراقها الرائعة ورغم عظمة ساقها وجذرها ليس بأقل فساداً. وتلك الصورة المجازية تنطبق جداً على فؤاد باشا، وهي تعرض بدورها صورة حقيقية لاوضاع تركيا، سواء بخصوص المجتمع او السياسة. فجذور الشجرة وساقها وفروعها واوراقها ولحاؤها كله بالٍ باطل.

وتسببت التجاوزات التي يقوم بها فؤاد باشا اخيراً؛ تسببت في سقوطه. وبفضل الحيلة والمؤامرة، استطاع ذلك الرجل الحفاظ على سلطته وفرضها حتى على السلطان. هكذا كان تأثيره على افكار عبدالعزيز الضعيفة. والسلطان من جانبه يثق فيه ثقة عمياء مرضية فهو بالنسبة له السند الوحيد لعرشه ولسلطانه. ولقد وصل به الحال إلى ان يرجوه حتى يعتبره ابنه الحقيقي: بل وصل به الحال إلى ان يرجوه ويعيّنه رئيساً لمجلس الوزراء دائماً، بل وطلب منه الاقامة في القصر الامبراطوري، حيث اعدَّت له عدة اجنحة خاصة. وكان ذلك التغيير يساوي التطور من رئيس وزراء إلى حاكم.

واستطاعت صرخات الناس من الذل والفاقة المنتشرة، ان تجد طريقاً لها للقصر لكي تُوقظ السلطان من غفوته، ولتوضّح للسلطان الهاوية التي تندفع نحوها الامبراطورية العثمانية. وادى الاستياء العام في الواقع إلى تحشيد اناس من جميع التوجهات السياسية وتكوين حزب قوي ولكن نفوذ رئيس الوزراء وقف في طريقه ومحا نشاطاته. ويحوي الحزب شخصيات كبيرة في الامبراطورية مثل: محمد علي باشا، رشدى باشا.. الخ. وكان وراءهم مساندة الغضب العام. والموجه ضد فؤاد باشا، وقرروا ان يعرضوا للسلطان الحاجة الماسة لوضع حد للاحوال السيئة التي تهدد الاستقرار في الامبراطورية.

ان ماساهم بقوة في سقوط رئيس الوزراء، ذلك التغيير الكبير في السياسة الانكليزية تجاه تركيا. وجاءت وفاة اللورد بالمرستون لتعمل على تبريد العلاقة الفلسفية- التركية. وكانت الحكومة الانكليزية التي جاءت بعد رجل الدولة ذاك، كانت تعتقد ان مساعدة الحكومة التركية في سياستها الخرقاء الخاطئة، تعتقد انها بقعة تسيء لشرف الحكومة البريطانية. وقررت تضييق مجال السياسة الانكليزية تجاه تركيا وحصرها في عدم التدخل الصارم تاركة الباب العالي محاولاً الخروج من موقف خلقه لنفسه بكل ارادته. ومن نتائج ذلك الاتجاه الجديد في السياسة الانكليزية استبعاد السير هنري بولفير من منصبه ومجيء اللورد ليون سفيراً لدى الباب العالي بعده. وهكذا

وجد لنفسه محوراً من سند نفوذ الحكومة الانكليزية ليصيح فؤاد معرضاً لضرّبات اعدائه ولم يعد هناك من يمنع سقوطه.

وكان العرض الصادق الذي وصل للسلطان عن الاوضاع الحقيقية للامور وعن المآسي التي تسببت فيها سياسة فؤاد، قد اقنعه اخيراً ان الرجل الذي كان يعتقد انه سيعيد بعث تركيا، لم يكن سوى السوء مجسداً. ولم تكن هناك حدود لغضب عبدالعزيز، الذي كان فريسة لقلق شديد وتأسف كثيراً ولكن بعد فوات الاوان، تأسف لانه كان مخدوعاً باشتراكه في سياسة رجل متآمر ولكن ماذا يفيد المستقبل الاسف على الماضي؟

واصبح فؤاد باشا من المغضوب عليهم، وتم اصدار مرسوم باقالته. وقد اراد اعداؤه، على اي حال، استغلال سقوطه للانتقام لكرامتهم المهدورة، من ذلك الرجل المغرور الذي تمتع بامتياز الرجل المقرّب والذي اهين الآن. وحاولوا اذلاله وتعذيبه علناً وبشكل غير متوقع. وتمت دعوة فؤاد باشا عندما لم يزل بعد رئيس الوزراء، لحضور حفل استقبال اقيم في مقر محمد علي باشا، نسيب السلطان. ولم تعلن اسماء جميع الضيوف لانهم كانوا جزءاً من المؤامرة على فؤاد.

وفي منتصف الحفلة، فتحت ابواب القاعة فجأة وظهر مرافق السلطان وتوجه مباشرة لفؤاد، وقدّم له الأمر السلطاني باقالته طالباً منه في نفس الوقت اعادة ختم السلطان. وهذا الختم يعطى عادة لرؤساء الوزراء عند تعيينهم ويُعاد عند اقالتهم، فهو رمز السلطة، وعندئذ سارع فؤاد بترك الحفل تاركاً المدعوين ينعمون بنصرهم والامة غارقة في الاسف لانها سمحت بوضع مقدراتها في ايدي كتلك.

انسحب فؤاد ليمارس حياته الخاصة مع حريمه وينغلق في مقر اقامته في جانليجه Canlidje، حيث ينعم بالراحة وبجميع الملذات التي توفرها له ثروته الطائلة. وعاش متخفيا كما حال جميع الشخصيات التركية الذين يفقدون العفو السامي الامبراطوري. وهؤلاء الوزراء السابقون، يقضون حياتهم في الحرملك ولايراهم احد ولايجرؤ اصدقاؤهم على لقائهم الا في السر ومن عتمة الليل. اما فؤاد، ذلك الذي كان يعيش متميزاً، وقبيل ساعات قليلة كان يدور في شوارع القسطنيطينية متبوعاً بجمع من المساعدين، من الحراس ومن الخدم، يمشي اليوم ذلك الشخص نفسه خافياً وجهه، ومجبراً على تفادي نظرات العامة.

ومع ذلك لم يسمح لفؤاد بان يذوق طعم الراحة او الهدوء، دون ان يتحمل نتائج غضب السلطان. وربما تأسف عبدالعزيز في قمة غضبه على تلك الايام الجميلة حيث كانوا يقطعون رؤوس المغضوب عليهم، لانه لم يستطع ان يغفر لفؤاد استغلاله لثقته إلى هذا الحد، إلى جانب ان ذلك الغضب به رعشة كبرياء. فقرر السلطان معاقبته بابتزازه، وتلك كانت دون شك نقطة الضعف التي ينفذ منها لايقاع الاذى به. فارسل الحاجب إلى الوزير المُقال يطالبه برغبه السلطان

في استعادة خاتم من الماس غالي الثمن، وغيره من المجوهرات التابعة للتاج ويستحيل على آخرين غرّباء استعمالها، وفي هذه الحالة يجب على الباشا ان رضي بذلك ام لم يرض باعادتها. وبالنسبة لعبدالعزيز، يستطيع بسهولة تعويض خسائره. فكيف لنا ان نعرف بسهولة تعويض خسائره. فكيف لنا ان نعرف كيف يستطيع العثمانيون او اصحاب المناصب الاتراك تعويض خسائرهم؟

الفصل الثالث والعشرون

رشدي باشا رئيسا للوزراء، النفوذ الفرنسي، الوضع يسوء يوما بعد يوم، ثورة كريت، استقالة رشدي باشا، علي باشا رئيسا للوزراء، رحلة السلطان إلى اوربا، مشكلة كاندي

أدى سقوط فؤاد باشا إلى وصول أعدائه السياسيين للسلطة. وتم تعيين رشدي باشا رئيساً للوزراء في الرابع من حزيران ١٨٦٦. وتتكون وزارته من نفس اولئك الذين استطاعوا بعلاقاتهم واتصالاتهم من كل الأشكال الابقاء على وجودهم في جميع الادارات المتعاقبة حيث يتحملون مسؤولية خراب تركيا.

وفؤاد باشا، كان الاستثناء الوحيد من بينهم. في حين ان الجري وراء المناصب ظل محصوراً بين خمسة او ستة اشخاص، وبقى ذلك الاحتكار محصوراً في تلك الدائرة لخمس وعشرين سنة تقريباً. فهل تساءل احد مثلاً حول مايحرك الرأي العام، وهل يدرك احد مثلاً ضرورة تغيير الوزارة؛ فهاهم يُعلنون تشكل وزارة على رأسها محمد وفي نهايتها علي، وغداً سنرى ان تلك الوزارة لاتتحرك ولسوف يضعون على راسها علي ويدفعون محمد إلى آخر الصف. وبهذه الآلية، انهم هم انفسهم الذين يحركون العامل السياسي رغم التغيرات التي تحدث.

وتكونت الوزارة الجديدة من عناصر فرنسية الهوى إبتداءً من رئيس الوزراء إلى آخر وزرائه، وتتركز قوتهم الرئيسية في تأييد فرنسا لهم. وغاب النفوذ الانكليزي من مسرح الاحداث، ولكن الواقع يقول ان انگلترا كانت لها اليد الطولى، وتوقعت وقوع ازمة حادة في الافق السياسي في الشرق، ففضلت الاختفاء مؤقتاً، وتركت الساحة لفرنسا إذْ بإندفاعها المعتاد سارعت في الحصول على نفوذ وفرته لها الحملة. كما آمنت لها وزارة رشدي التفوق في إدارة شؤون الشرق.

ومع ذلك كانت الاوضاع تزداد خطورة بسبب الظروف الحالية القائمة وانحرافات الوزارة السابقة. فلا نيات الوزير الجديد الطيبة، ولا المجالس ولا مساندة الحكومة الفرنسية قادرة على تقديم اي عون، وفشلت جميع الجهود المبذولة. فلايوجد مال، ولا إستحقاقات، فالفوضى والتشوش يسودان الادارة فقط إلى جانب غضب الجماهير والانتفاضة المسلحة في المقاطعات. فلاتوجد مطلقاً اية معجزة تستطيع احباط الازمة الراهنة التي تعصف بتركيا ومعالجتها.

وكانت الإجراءات التي لجأت اليها وزارة رشدي باشا تهدف إلى زيادة استحقاق البلاد، وذلك بتنظيم وتأمين تسديد الدين العثماني في المستقبل. ومن اجل حل تلك القضية قام رشدي باشا

بتخصيص موارد بعض المقاطعات للبنك العثماني، كضمان لتسديد القسائم واجبة الدفع كل ثلاثة اشهر. واستناداً إلى تلك الترتيبات يقوم البنك بتسديد التزامات الاتفاقات التي التزم بها مختلف الدائنين الاتراك. ولمواجهة الحاجات الماسة المستعجلة، يجب وجود المال اللازم، وهو ما حاول الوزير الجديد الحصول عليه بلا جدوى عن طريق القروض. وبرزت صعاب خطيرة لا يمكن تخطيها بسبب عجز الميزانية وعملت الظروف الداخلية المعقدة على زيادة خطورتها.

وكان من الصعاب التي توجب على رشدي باشا مواجهتها وإيجاد الحلول لها، تلك الضغوط التي يمارسها باستمرار الأمراء المنضوون تحت رعاية الباب العالي، وكذلك تلك الميول الثورية التي كانت تداعب افكار الناس وفي مواجهة موقف بائس كهذا، اتبعت الحكومة العثمانية سياسة اقترحتها مجالس الحكومة الفرنسية تقضي بالتخلي تماماً عن الامارات المتنافسة والجلاء تماماً عن اراضيها، في الوقت الذي لم يبذلوا فيه اي جهد للقضاء على الثورة.

وكانوا في الواقع قد اجبروا على الاعتراف بامير رومانيا الذي منحوه امتيازات ملكية. وتم الجلاء عن بلغراد بسرعة كبيرة، ولتهدئة صربيا قاموا ببعض التنازلات لمونتينغرو. وكانت جميع تلك التضحيات تهدف إلى عزل الحركة اللهلينية والسيطرة عليها بسهولة، حيث وصلت إلى مراحل تطور رهيبة بمساعدة الشعوب الاسلامية. والسياسة التي تدفع الحاجة إلى اتباعها تعني البحث عن تسديد ديون تركيا الباهظة. هذا إلى جانب التفكك المتسارع للامبراطورية العثمانية رغم محاولات حفظ المظاهر.

ووسط تلك الصعاب، وهذه التقلبات قطعت الثورة في كريت خطوة حاسمة، سارعت في خلق الازمة الحالية ووجهت ضربة مميتة لسلطة السلطان. وحرّك هذا الحدث احوال الامبراطورية العثمانية وقلبها في العمق وهذا ما ادهش اوربا الثرية اللامبالية. والاحزاب السياسة، وقد حركتهم المصالح، سواء كانوا متعاطفين او معادين فقد بذلوا جهدهم لاظهار ثورة كريت في مظاهر مختلفة وغريبة. وقال البعض ان تلك الحركة النذير هي لمسيرة الروس المظفرة ضد القسطنطينية، ووصفها آخرون بأنها حركة إنشقاقية معادية للكاثوليكية. كما يوجد من ينكر كل ذلك ويعتقد ان ثورة كانديوت، حرّب صليبية يقوم بها جنود اتقياء ضد محمد وضد مكة. واخيراً، يوجد اشخاص اخرون ممَّن يدَّعون معرفة اكثر بالاخبار، لايشكُّون في ان يكون گاربالديي، على راس ذلك المشروع الذي يحمل طابع ثورة من اخطر الثورات.

وسأترك لكل فرد حسبان ما يلائمه، ويقول مايريد، وسأحاول ان اقدّم عرضاً للاسباب الرئيسية التي ادت وكذلك الحقائق التي تسببت كلها في ثورة جزيرة كريت. ولانني اختار وانتقى الاحداث دون ان اشغل نفسي بالجدل الخاص الدائر الان، آمل ان اوضح للقارىء المحايد كيف يجب ان ينظر لثورة كريت.

وظنت ادارة فؤاد، انه يمكنها بالضرائب الجديدة والقروض الالزامية السيطرة على شعوب الامبراطورية. وظهرت نتائج ذلك التصرف عندما أثارت الغضب العام. وقد اشرنا قبلاً في كتابي هذا وبيّنّا كيف ان اجراءات غير مجددة ستتسبّب في احداث اضرار كبيرة بشعوب السلطان. فقد عيلَ صبر الناس في أرجاء كثيرة من الامبراطورية، ورفعوا علم الثورة بعد احتجاجات كبيرة، فثورات كوزان داغ في لبنان، والبانيا العليا، اي مناطق ياكوفا Yakova وإيپيك Ipek، وهي احداث حديثة تدلل على تلك الاوضاع التي تثير الاسف. وحدثت صراعات كبيرة بالطبع بين السلطة والشعوب التي ثارت وهي صراعات لم تستطع الحكومة ان تفرض ادعاءاتها الا بعد سيول من الدم. وهكذا، كان الغضب شاملاً، وظهر في آسيا كما في اوربا، ولدى المسلمين كما لدى المسيحيين.

وتؤدي نفس الاسباب دائماً لنفس النتائج. ونفس الظلم، ونفس الادارة السيئة[٤٦] تسببا في ثورة الشعب الكريتي التي تشعره حقوقه بالقوة، والتصميم على الموت الذي يفضلونه اكثر من الخضوع لهيمنة كريهة بغيضة. ولجأ لرفع السلاح، ولكن هنا أدت نفس الاسباب لنتائج مغايرة جدّية واكثر خطورة. ورغم ان الاحزان التي ادت إلى ثورة الكريتيين، وتسببت في ان تضع هؤلاء أمام واجب تحقيق حقوقهم وبنفس المستوى كسكان لبنان، وكوزان.. الخ. ومع ذلك، فإن الكريتيين

---

[٤٦] اذا ماحدث بعد العرض الذي قدّمته حول الادارة العثمانية، وتطلب الوضع براهين جديدة ضرورية للتعبير عن تلك التجاوزات، ولذلك سوف اكتفي بذكر بعض المقتطفات الدبلوماسية التي توضح الحيف والظلم الذي كان الشعب الكريتي ضحية له.

من: السيد ديرشيه قنصل فرنسا في كانيه

إلى: السيد درونين من كينيس

٣٠ نيسان ١٨٦٦

السيد الوزير

لقد توجهت لسيادتكم عدة مرات لاعرّب لكم عن الغضب والاستياء الذي اثارته ادارة الحاكم العام، واضيف ان نظام الامتيازات، او بالاحرى الوعود المتواصلة التي لم تتحقق مُطلقاً لهذا السبب او ذاك تسببت في خلق صعوبات من الصعب تخطيها...

من: السيد درشيه، قنصل فرنسا في كانيه

إلى: السيد درونين دو لينيس

١ حزيران ١٨٦٦

السيد الوزير

وانا اضع بين ايديكم ترجمة الطلب الذي قدّمه مسيحيو كريت، ارى انه من واجبي ان اقدّم لسيادتكم مطالب اعتقد انها تستحق رعاية جادة وتجب الاستجابة لها والنظر اليها بجدية.

مقتطفات الكتاب الاصفر وثائق دبلوماسية، ١٨٦٧

يجدون أنفسهم ونساءَهم في مقام اعلى بفضل عناصر القوة والمزايا التي حُرم الآخرون منها. ولهذا الوضع بالذات يعود نجاح الكريتيين حتى الآن في الدفاع عن قضيتهم العادلة.

وفي واقع الأمر، فان الكريتيين، اعضاء الأسرة الهيلينية، قد منحتهم الطبيعة درجة عالية من الذكاء والصفات الروحية والاخلاقية التي رفعت اجدادهم فوق غيرهم من امم العالم. والشعور الوطني لديهم جنوني وفي ذروته. ويتمتع ذلك الشعب بالثقافة والشجاعة والانتماء والوحدة في اللحظات العصيبة وهي صفات اصيلة تجعل خطاهم ثابتة وافعالهم رائعة. هذا إلى جانب بقايا قاضٍ عريق، وثقة عمياء في المستقبل وظواهر تضع حداً فاصلاً بين الهللينيين في كريت وغيرهم من شعوب الشرق. واذا ما اضفنا إلى ذلك مزايا الموقع الجغرافي وطوبوغرافية والتأييد الذي فرضته بسهولة وحدة الجنس القائمة بين سكان كريت و سكان اليونان المستقلة. ويمكننا القول بأن الكريتيين قد بذلوا جهداً عظيماً زعزع اركان هيمنة كريهة، لن تجلب للجزيرة ولسكانها سوى الخراب والعبودية.

وتبرهن تلك الحقائق الدامغة على ان الحركة الكريتية، وكذلك جميع الانتفاضات التي هزت وتهدد المحافظات التركية الان، تبرهن على انها نتيجة الأمر الواقع الذي لايمكن احتماله. لقد عيل صبر جميع الشعوب التركية دون تمييز من جنس او عقيدة، ويريدون التخلص من نير سلطةٍ غير قادرة على حكمهم. ولايمكن ترجمة جُمود البعض او فشل البعض الآخر على انه دليل او برهان على قبول الخضوع والخنوع، وانما يبرهن ذلك فقط على حاجة تلك الشعوب للتنظيم، وللتجمع، ومزايا قبل تلك المزايا التي يملكها الكريتيون. ومما لاشك فيه ان المسلمين في الاناضول يتوقون للثورة مع توفر المال والرجال. لقد انهكهم التجنيد الالزامي، واعمال السخرة، والمتطلبات من كل نوع دفعت ذلك البلد إلى حالة من البؤس والعجز واستحالة وجود المال والرجال. والنساء فقط تقبع في المنازل حيث تُصبَّب اللعنات الصادرة من اعماق القلوب ضد الباشوات بسبب العذاب الذي تعرضن له واصبحن ضحاياه.

نعم! إن ذلك الافراط في التجاوز الذي يُدين الحكومة التركية بضرورة البحث في اصول الثورة الكريتية، وضرورة عدم توصيفها كما يتصور الباب العالي بأنها تعود لمناورات ودسائس العملاء الروس. ان ذلك الادعاء المُبتذل تم استغلاله كثيراً لدرجة انه لم يُعد يخدع احداً. وغالباً ما نجحت تلك الوسائل في العمل على غفران جميع جرائم الحكومة التركية. انهم يقومون بتدمير شعب ودفعه إلى حدود الياس. وعندما سمع البعيد والقريب صيحات الاحتجاج يقوم هؤلاء الوزراء بالادلاء بمايأتي لاولئك الباحثين عن معرفة الاسباب: لاتستمعوا لهؤلاء الناس واحزانهم إنهم بلهاء وأغبياء، اننا افضل الحكام. آه من هؤلاء الروس! الا ترونهم؟ انهم هم الذين يدفعون بهؤلاء البؤساء إلى الصراخ والشكوى.

اننا لم نقترف شيئاً تسيء الهم. البعض يصدق ذلك، وآخرون يتظاهرون بالتصديق ليديروا بعد ذلك ظهورهم اليه وليتركوا السلطان يفعل ما يحلو لهم.

وبعد ان دفعت تجاوزات الحكومة التركية إلى تحريك الثورة، كان حكمها على ماحدث ينطلق من الضعف وعدم القدرة. ولكن عرض بعض المراحل المختلفة التي عاشتها تلك الحركة سيقنعنا. لقد اوصلتهم ادارة اسماعيل باشا إلى حافة اليأس، وقرّر حاكم وشعبه كريت توجيه شكوى للسلطان حاكمه الشرعي. ولم تجد الشكاوي اذنا صاغية لدى الحكومة الامبراطورية، وانما قوبلت بالرفض التام مصحوباً بالتهديد و الوعيد، وَعَدّ كل من يشارك في التجمعات العامة متمرداً على الدولة. إلى جانب وعود بنسيان الماضي لمن يعيش في هدوء فيقبل رغبات السلطان، ويعود لبيته راضياً.

ولما تعودوا على تلقي آلاف الوعود التي تُنسى في الغد، رفض الكريتيون ان يتفرقوا سوى أمام ضمانة جدّية، وان تقدّم الحكومة لهم تنازلات وامتيازات يعدونها من حقهم. هذا إلى جانب ان يكون العفو شاملاً والا يكون كل ذلك فخاً مرسوماً باتقان. وجاء السلوك الغامض الذي مارسته السلطة بوعدهم من جهة نسيان الماضي ومن جهة اخرى بالقيام بتعزيزات هائلة لقواتهم في الجزيرة وبتجهيزها بعتاد هائل، عمل كل ذلك على تحفيز مقاومة الكريتيين.

و الى حد الآن مرَّ كل شيء بهدوء، فابناءالشعب قد تجمعوا، وارسلوا تحذيرات، ووقعوا مطالب وعُقِدت مفاوضات ولم يهتم ذلك البلد لا بالعنف ولا بالفوضى. واثناء تلك المرحلة الاولى من الحركة الكريتية كان الاعتدال ومنتهى الذوق الذي ابداه ذلك الشعب يستحقان الاعجاب. وتوافد الكريتيون من سهول اومالو Omalo، ومن جميع الجهات للمشاركة في ذلك التجمع والاستماع إلى المشاورات. وقدّمت الجماهير نفس المنظر تقريباً الذي يمكن ان يبدو تماماً في ساحة المنظر تقريباً حيث يمكن ان يبدو تماماً في ساحة ترافلجار او تلال بريمروس مع الجماهير الغفيرة لطالبي الاصلاح. ولكن الهدوء والحزم هو الصفات التي حدَّدت سلوك الكريتيين اثناء تلك المرحلة الاولى. في حين تميزت سياسة الباب العالي بالعناد والغرور والدهاء المعهود.

ومع ذلك كان التوتر يزداد من يوم إلى آخر واصبح وقوع الازمة وشيكاً لا مفر منه وتركت الادارة العثمانية طلب الكريتيين دون رد لثلاثة اشهر، ثمّ اجابوا في الاول من اغسطس بعد ان حطَّ ستة الاف جندي مصري على جزيرة كريت وأصبح قوام جيش السلطان اثنين وعشرين الف جندي. وكان ذلك التصرف ابعد من ان يكون بالطبع تهدئة للخواطر. ومن الطبيعي اذن الاّ يثق الكريتيون بوعود العفو التي اعلن عنها الباب العالي. فقد كانت عهوداً عامة غامضة تتحدث عن تحسين الاحوال مع رفض تام للشكاوي المصحوبة بالتهديد والوعيد. وكان ذلك مضمون رسالة الحكومة العثمانية. ويعني كل ذلك ببساطة القاء القفاز في وجه الثورة التي اعلنها الكريتيون في جرأة تامة. وفي الثاني من ايلول تجمع

الشعب الكريتي وكان ردهم على السلطان بيان يعلن الرفض التام للهيمنة العثمانية ووحدة شعب كريت وكل متعلقاتهم مع مملكة اليونان المستقلة.

وبدأ القتال مباشرة عقب اعلان تلك الخطوة الرسمية. وكانت ايام المواجهة الاولى دامية. وطرد الثوار المنتصرون سكان البلاد المسلمين قسراً نحو كانيه وكاندي. ولم تتأخر القوات النظامية عن التدخل في المعركة لنصرة اخوتهم في الدين. وضحكت الاقدار لصالح الثوار في هذه المواجهة الاولى حيث استولت قواتهم العسكرية على سيادة البلاد. وقاموا بقطع سبل المواصلات بين الفيالق الغازية، وثم حصار رتلين كانا متوجهين نحوهم. احدهما بقيادة اسماعيل باشا والذي حوصر في ابوكورونا Apocorona واستسلم تفادياً لوقوع مجزرة. وحاصرت فرقٌ من القوات الثورية الرّتل الثاني بالقرب من سلينو Celino ولم ينجح ذلك الرتل في اللجوء إلى قلعة كاندي الاّ بعد ان تكبّد خسائر كبيرة.

ولان السلطات العثمانية كانت واثقة تماماً من النصر، وكان وقع الهزيمة اليماً وعدت اهانة للباب العالي. ورغم التفوق العظيم و الاستعدادات الكبيرة، قامت حفنة من الثوار بتعريض سلطته للسخرية والاستهزاء. وقررت الحكومة أمام ذلك الموقف الخطير، بذل كل ما في وسعها من جهد لاخماد الثورة مخافة ان تصبح كريت مثالاً تحتذيه شعوب تركيا الأخرى للتخلص من هيمنتها. وسارعت الحكومة بتحشيد قوات جديدة وإرسالها لمحاربة الثورة في كريت. وجندوا قوات من كل مكان في البلاد من سميرني، وسالونيك، وموناستر، والقسطنطينية ومن كل مكان في الامبراطورية وهذا ما سمح للباب العالي ان يحشد جيشاً قوامه اربعين الفاً.

وفي نفس الوقت، تسلم السلطان انذارين من انكلترا وفرنسا، فقرر السلطان إرسال مبعوث فوق العادة يتمتع بجميع السلطات ليقوم بالتفاوض واقناع الكريتيين بالخضوع، او اجبارهم على الطاعة. وكان الوحيد القادر على القيام بهذه المهمة في نظر الباب العالي كريتلي مصطفى باشا حاكم كاندي القديم. وظن الباب العالي ان معرفة الباشا الواسعة لتلك البلاد تساعده على اتمام المهمة بنجاح واقناع السكان بالقاء السلاح والعودة لكنف السلطان. ولكن التجربة برهنت على ان الباب العالي قد اخطأ في حساباته هذه المرة. لانه اذا كان كريتلي، يعرف الكثير عن الكريتيين، فان الثوار يعرفونه جيداً بدورهم، وكيف ان ذلك الجندي البسيط الذي اصبح اليوم صاحب السعادة، جمع ثروة طائلة على حسابهم، وامتلك ثلث اراضي الجزيرة بالحيلة والدهاء. فلم يكن الاختيار اذن صائباً تماماً.

وفي السابع عشر من ايلول، وصل كيريتلي إلى كانيه حيث نشر بياناً يتحدث فيه عن نفسه وشيخوخته، وكيف غلبى في الحديث عن عطف ورحمة السلطان، وناشد اهل كريت، بضرورة العودة

إلى لخضوع، وهددهم بالعقاب الشديد في حال عدم الاستجابة لذلك النداء. ولكن وسط هدير المعارك صمّ الكريتيون آذانهم لنداء ذلك المبعوث فوق العادة، وكان الرد اصوات طلقات الرصاص.

ومنذ تلك المرحلة، كانت جزيرة كاندي مسرحاً لعدة معارك دامية تنوع فيها النجاح بين ذلك الجانب او ذاك. واستطاع الثوار، وقد شجعتهم انتصاراتهم، والمساندة القوية لوطنية وحماس شعب اليونان المستقلة، وتعاطف محبي اليونان، استطاعوا تدمير جميع جهود ومحاولات الاعداء. ومن بين القصص التي تتحدث عن ذلك الصراع المميت لشعب يحارب من اجل حريته، ومن بين القصص التي تتحدث عن ذلك الصراع المميت قصة ذلك الدفاع العنيد المستميت للثوار عن بلاد اركاديونArcadion حيث فضلوا الموت على الاستسلام. وهاهم نائمون للابد إلى جانب الاعداء المهاجمين تحت اطلال الجدران التي تنازعوا معهم ببطولة حفاظاً على ملكيتها.

وبعد ان فقدت تركيا نصف جيشها في معركتين خاسرتين. وبعد محاولة تحطيم مقاومة الكريتيين دون جدوى رغم الدفع بقوات جديدة برا وبحراً، اقتنع كريتيلي إستحالة اخضاع الباب العالي حينذاك إلى سحب سفيره فوق العادة، وطالب عمر باشا، ببذل جهد اخير لتحطيم الثورة. وتم إرسال قوات جديدة لتعويض النقص في الجنود، حتى تتمكن قواته من الثبات وخوض معركة جديدة. وكم من مواقف تزيد الطين بلّة، وتُزيد من الاضطراب والحيرة التي يدير بها رشدي باشا الصراع. ويعمل النقص في خزانه الدولة في الوقت الذي تحتاج فيه تركيا إلى مصاريف استثنائية بسبب ثورة كريت ومحاولات قمعها ببذل جهود اكبر؛ يعمل على مضاعفة الاخطار. ومع ذلك فالصعوبات التي افرزتها قضية كريت ليست وحدها اسباب انشغال واهتمام الباب العالي. فان الغضب الذي خلقته تلك الحركة وصل مداه إلى ابعد نقطة في حدود الامبراطورية. واصبحت مصدراً لصعوبات اخرى مع الدول المسيحية. وهكذا فان الموقف الذي اتخذته روسيا تجاه الشعوب المسيحية، والخوف من مغبة وقوع اضطرابات جديدة في ايبيروس ومقدونيا، وضع الحكومة التركية في موقف يتطلب ضرورة تدبير وسائل الدفاع عن حدودها الشمالية ووضع فيالق مراقبة على حدود المملكة اليونانية.

وفي سبيل مواجهة الحاجات المُلحة جداً سعت الحكومة التركية إلى الحصول على قروض جديدة في باريس ولندن: ولتكن مظاهر قضية الشرق مخيفة وارعبت الممولين، ولتكن المتطلبات المتزايدة لتركيا وقد اضعفت تعاطف محبي تركيا تجاهها، فان محاولات المبعوثين الاتراك مع ذلك ظلت بلا جدوى. فاضطروا إلى العودة إلى النظام السابق في العيش يوماً بيوم، اي بعقد قروض صغيرة مع مصرفيي الشرق في غلطة حيث استطاعوا ان يحصلوا على مائة الف دينار او مائتي الف في كل مرة يحتاجون فيها إلى المال. ومما لاشك فيه فان ذلك النظام الذي اتبعته الحكومة التركية اليوم يعارض الالتزامات التي التزمت بها الحكومة تجاه البنك العثماني.. ولكن ما العمل؟

يجب ان تعيش الحكومة. فاذا ما رفض البنك ان يعطى، واذا ما كان يريد فقط ان يأخذ يجب انذاك على الحكومة التركية ان تجد طريقاً آخر لكي تحصل على مايسد حاجاتها الانية الملحة. فأذا كان ذلك هو الوضع في البلاد، وجد رشدي باشا فرصة ضئيلة لنجاح ادارته ولن يستطيع القيام باي شيء. وعند ما ارعبته المسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقه، قرر وضع مجلس الوزراء بين ايدي زملائه الذين ساهموا اكثر منه في الوصول بالامبراطورية لذلك الانحلال. وفي شباط ١٨٦٧، قدّم رشدي استقالته، وتم حل مجلس الوزراء، ووجد الباب العالي نفسه في حيرة شديدة ولم يعرف من يختار ليضعه على رأس الادارة الجديدة. واراد البيروقراطيون تنصيب فؤاد على رئاسة الوزارة، لانهم يرون ان الازمة التي تعيشها تركيا، تتطلب الان وجود رجل من نوعية وصفات فؤاد على رأس الحكومة. واعترفوا بان رشدي باشا وعلي باشا يمتلكون صفات رجال السياسة، لكن تنقصهم العزيمة والمبادرة ويصلحون موظفين اكثر من كونهم عمليين. وامنيات كتاب الباب العالي اصطدمت بعقبة كبيرة وهي معارضة عبدالعزيز. فقد كان من المستحيل حتى ذكر اسم فؤاد أمام السلطان، لان من سبقه ملأ قلب عبدالعزيز بالمرارة.

وأمام إستحالة وجود مجموعة وزارية يمكن لفؤاد ان يكون على رأسها، قرّر الباب العالي تبنى ترتيبات تعمل على ارضاء مشاعر السلطان، ويمكنه ان يضع السلطة بين يدي فؤاد. والوزارة الجديدة الحالية كانت تتكون من علي باشا، رئيس الوزراء وفؤاد باشا وزير الخارجية، ورشدي باشا وزيراً للحرّية. وفيما عدا فؤاد باشا، فان الوزراء الحاليين الآخرين كانوا اعضاء في المجلس السابق، وما فعلوه هو انهم تبادلوا المناصب.

وكان علي باشا رئيس الوزراء الحالي، احد طلاب رشيد باشا القدامى، كما كان حال معظم الوزراء العثمانيين تقريباً. ولعشرين من السنوات كانت هناك قلة من الادارات لم يساهم فيها ذلك الوزير الذي اعتاد ان يشغل منصب وزير الخارجية. ورغم ان ذلك المنصب كان من اختصاصه الاّ ان نفوذه كان عاماً وشاملاً. ويمكنك ان تستشعر نفوذ علي باشا في جميع مرافق ادارة الامبراطورية. ولانه ديبلوماسي ومخضرم وذكي استطاع ان يعرف ويميز الفرق بين الشواء وبين دخان الشواء. وقد ترك للآخرين دخان السلطة واحتفظ لنفسه بالشواء. وكانت رئاسة الوزارة دائماً هدف حماسة ليبرسلي، وطموحات فؤاد. ولكن علي باشا دائماً ما اكتفى بمنصب وزير الخارجية.

وفي واقع الأمر، وفي بلد يسود فيه النفوذ الاجنبي حيث السفراء هم كل شيء، فالمسؤول عن ادارة الشؤون الخارجية يظل على اتصال دائم بهم، يجب ان يتمتع بنفوذ كبير لدى الاجانب وكذلك لدى مواطنيه. انه اذا استطعنا القول انه الوسيط بين السيد النبيل وعبيده، وفي هذه الحالة نرى ان مواقف رئيس الوزراء والسلطان مواقف ثانوية. والسلطة الحقيقية بين يدي وزير الشؤون الخارجية، ذلك الذي يعرف كيف يستفيد من موقعه وكيف يحافظ عليه. كان ذلك من

اسرار علي باشا وكان من الصعب اخراجه من ذلك المنصب الذي حافظ عليه بعناد كبير وبمختلف الحيل.

طوعاً اوكرها استولى علي باشا على السلطة في مارس ١٨٨٧، واحتل فؤاد في تلك الادارة منصب وزير الخارجية: وكان ذلك شرطا ليحتل منصب رئاسة الحكومة. ومهما كان اشمئزاز وقرف عبدالعزيز من كل ذلك، كان عليه ان يقبل ويخضع وذلك لان الظروف الحالية التي اصبحت فيها الامبراطورية الان كانت سيئة لدرجة تتحدى فيها جهود المثقفين المختارين بعناية ودقة كما تتحدى اكثر الناس قدرة. لقد اتخذت قضية كريت ابعاداً لايمكن تصور مداها. كما قدّمت الانتصارات المتعاقبة للثورة الصمود أمام اية مخاطر واعطتها دفعة قوة لتزداد خطورتها اكثر فاكثر ويوماً بعد يوم. علماً ان النتائج التي تتوقعها الحكومة التركية من إعادة إستخدام خبرات عسكرية. معروفة كعمر باشا، يبدو انها بعيدة المنال. وكانت الخطة التي سوف يتبعها عمر باشا لاخماد الثورة تقضي بإبادة السكان وحصرهم والتضييق عليهم في مكان محصور بحدود ضيقة. فاذا رفضوا الانصياع فسوف تقضي عليهم المجاعة.

ولم ينجح تكتيك عمر باشا أمام شجاعة وحرص وادراك الثوار. وفي سبيل احباط خطط السردار، ترك الكرواتيون الجزيرة لنسائهم واطفالهم وكبار السن، تركوهم لرعاية الله وحماية العالم المسيحي. وحملت السفن الروسية والايطالية واليونانية ضحايا تلك الحرّب الفظيعة الدائرة. وبعد ذلك الأمر، وفي الوقت الذي كانوا يعملون على تشويش وتحطيم خطط عمر باشا، قاموا بعدة هجمات غامضة على ارتال جيشه، عملت على شل حركاته وزرع الاضطراب والفوضى بين صفوف جيشه. وبعد ان احسّ مرارة الهزيمة في العديد من المواجهات، انهارت امال السردار ولم يستطع النيل من ضحاياه الهارّبين من مطاردته لهم.

وفي أثناء ذلك، كانت زيارة قيصر روسيا الكسندر الثاني للقرم، حدثاً هاماً جداً تسبب في إثارة اهتمام الباب العالي. وان ظهوره على حدود تركيا في وقت عصيب، حيث كانت قصة رعيته المسيحيين مدار نقاش حاد، وحَدث يعملون له الف حساب، علماً ان ظهور القيصر في مكان بهذا القرّب من تركيا، عمل على تشجيع المسيحيين اليائسين الذين يرون في ذلك القيصر صديقاً وحامياً. وعملت تلك الزيارة على تذكير وزراء السلطان بان العالم كله غير راضٍ عن طريقة تصرفهم ولا عن سياستهم تجاه الرعية.

وسارع الباب العالي كما هو عادته في احوال كهذه بإرسال فؤاد سفيراً لزيارة القيصر وإبلاغه التحيات وتقديم فروض المجاملة. وبخصوص المحادثات التي دارت بين القيصر والوزير التركي سيكون هناك الكثير من التأكيد والكثير من الرفض. ولكن ماهو مؤكد، هو ان امبراطور روسيا لم يتردد في مصارحه فؤاد باشا بآرائه حول قضية كريت، وحول مصائر الشعوب الارثوذكسية في

تركيا. ومن المؤكد ايضاً ان لقاء يالطا اقنع الجانب التركي بضرورة ان يزور الامبراطور بلاد اوربا. وعندما تتلبد السحب في الشمال فمن الافضل البحث عن ملجأ في الغرب.

وجاءت زيارة السلطان لاوربا اجراءً مناسباً للحصول على تأييد حُلفائه القدامى للامبراطورية التركية. والمعرض العالمي الذي تم تدشينه تحت رعاية نابليون الثالث كانت فرصة مناسبة حاول وزراء السلطان الاستفادة منها. فقرروا آنذاك التضحية بالمصالح التي حافظ عليها حتى اليوم بثبات وغيرة. ووافقوا على قيام ممثل الرسول بزيارة بلدان اجنبية والخروج بذلك من دائرة المؤمنين. وفي هذا الوضع اليائس الذي تعيشه تركيا، يتوجب القيام ببعض التضحيات. فاختاروا اقلها، ولان عبدالعزيز سيبقى خمسة عشر يوماً في اوربا برعاية من يرشده فلن تفقد الكثير.

وكانت النتائج السياسية التي ينتظرها وزراء السلطان من رحلة جلالته بين بلاطات الغرب مهمة جداً:

١. عرض مديات التقدّم التي خلقتها الافكار الليبرالية والحضارة في تركيا أمام امم اوربا،

٢. زرع التخوف في اوساط عواصم اوربا بخصوص الطموح ومشاريع روسيا المثيرة للقلق،

٣. ارهاب المسيحيين والغاضبين من تركيا، باظهار هيبة ومكانة الملك الاعظم أمام ملوك المسيحيين،

٤. البحث عن سند فعال حقيقي ويقوم بالتمويل.

ومع ذلك لم تأت النتائج لتتوافق والامال التي دغدغت احلام الوزراء الاتراك ومستشاريهم. لانه لايوجد من بين شعوب اوربا من لايدرك الاسباب الحقيقية التي اوصلت عبدالعزيز إلى بلاطات اوربا وخصوصاً فرنسا وانكلترا. ولنعرف جيداً انه بسبب الافكار الليبرالية يأتي جلالته الينا في الساعات الاخيرة، وذلك فقط لترتيب تحالفات تتمكن من انقاذه من هذه المحنة. اما بالنسبة لادعاءات المشاريع الروسية، لم تنجح تلك المناورات الا قليلاً في باريس اما في انكلترا فقد نجحت نجاحاً باهراً، بل ان حكومة توري أعربت عن عمق الاسى للمآسي والكروب التي عانت منها تركيا بفضل سوء نيات روسيا تجاه تركيا. ووعد السلطان بكامل الدعم الممكن من بريطانيا العظمى، بل انهم طالبوا السلطان بسحق سريع ناجز ودون رحمة للثورة الكريتية[٤١] حتى لا يخاطر بمصالح التاج وبمصالح حلفائه المخلصين. والنقطة الثالثة التي تُصر على ارهاب الكريتيين وغيرهم من الثوار في تركيا ولم ينجح ذلك الا نادراً. اذ ان الكريتيين لم يأخذوا كثيراً مأخذ الجد مايفعل السلطان ووزراؤه وليذهبوا ليتنزهوا، اينما يحلو لهم التنزه بل واصلوا الضرب السريع والضرب بشدة للقوات التركية اينما يلتقون بهم. وكان وزراء السلطان اكثر نجاحاً في جهودهم للحصول على المال وقدّمت الشركة العامة للدَّين المتحرك؛ قرضاً صغيراً من ٥٣ مليون فرنك واكتفوا بذلك.

---

[٤١] تولى الكابتن هوبار مسؤولية تحقيق ذلك الأمر بتوليه قيادة الاسطول التركي.

وكما في كل عملية ما، فان كل جانب يتعاقد يجب ان يحصل على بعض المنافع. وتهيأت فرنسا وانكلترا للانتفاع من المضاربات التي حركها وزراء السلطان. ولامبراطور فرنسا الحق بان يفخر بتلك المفخرة التي اضفاها المعرض العالمي على أبهة اسرته الملكية، واراد ان يُضفي القاً جديداً تأريخياً عندما استقبل السلطان عبدالعزيز في قصر التويلري. وعبدالعزيز، سليل واحدة من اعرق الأسر القديمة في اوربا، سليل محمد الفاتح وسليمان القانوني العظيمن وممثل محمد كما كان من اهداف نابليون الثالث انه اراد ان يوضح ان الاثنتي عشرة سنة التي قضت منذ حرب القِرم عملت على تقوية الروابط بين تركيا وحلفائها.

وتتشابه وجهات نظر انكلترا مع حليفتها من وراء البحار. ومن جانبها كان عليها ان تقيم بدورها حفل استقبال تعبر به عن حفاوة قلبية واستقبال حار. ومع ذلك فان حفلة قلبية التي أقامها عبدالعزيز تركت بصمة احتفالية رسمية. ويمكن ان نقول دون خشية من تخطي حدود الدقة، ان عبدالعزيز كان ضيف البلاد وليس ضيف الامة..وتسارع الجمهور الباريسي حول موكب السلطان، كان من قبيل حب الاستطلاع فقط وليس تعبيراً عن اية عواطف اخرى. وفي انكلترا، كان حفل الاستقبال الذي أقامه رجالات المدينة يحمل طابعاً تمويلياً، وعلمياً، وتخطي فعلا الحدود المعقولة سندات القروض العثمانية واجبة الدفع السريع، وجميع اولئك الذين لديهم ما يدفعهم ليمدوا ايديهم ويغرفوا من السبعة ملايين جنيه التي تدفعها تركيا فائدة عن دينها. وهلّل الجميع للسلطان وتنازعوا شرف رؤية ذلك الذي تتعلق مصالحهم بوجوده. ومضاربو البورصة، رجال الأعمال، محركو تلك المظاهر الجامحة، كانوا يهدفون جميعاً إلى عرض قيمة واهمية السندات التي يحتفظون بها في صناديقهم. ولم يظهر النبلاء والشعب اي اندفاع في عواطفهم على الرغم من كل تحرك او اندفاع، واذا كان الشعب الانكليزي قد اظهر احياناً إعجابه الكبير؛ وكذلك أمة كوسوت Kossuth،* او أمة گاريالديدى Garibaldi،** او امة السولت Soult،*** التي كانت رموزاً لانتصارات اممهما وكان عليهما تحقيقها قديماً، فان انكلترا لاتقدّم ولاءها واحترامها الا لرجالات ذوي صفات سامية، ولامجاد عسكرية، ولمشاعر سامية ترتفع فوق اغلب الفانين؛ فأنَّ اي سلطان كان لن يكون رمزاً معبوداً لها.

---

* كوسوت Kossuth، وطني هنغاري، ولد في مونوك ١٨١٢-١٨٩٤، وكان زعيماً لثورة ١٨٤٨. [المترجمة]

** گاريالديدي Garibaldi، ولد في نيس ١٨٠٧-١٨٨٢، وهو وطني ايطالي ناضل من اجل وحدة ايطاليا اولاً ضد النمسا، ثم ضد مملكة نابولي والبابوية. وفي عامي ١٨٧٠-١٨٧١ وضع سيفه في خدمة فرنسا. [المترجمة]

*** سولت Soult، نيكولا دومارتان سولت، وهو مارشال فرنسي في سانت امون لاباستيك، وشارك في النصر في معركة اوسترليتزا، ويوم تولوز ١٨١٤ كان وزيراً للحربية ووزيراً للخارجية في ظل حكم لويس- فليب. ولد في ١٧٦٩ وتوفي في ١٨٥١. [المترجمة]

وعند عودته للقسطنيطينية، كانت اولوية حكومته ومن اولوياتها المهمة تقديم براهين لاوربا ان الانطباعات التي عاد بها السلطان من رحلته واثرت في فكره سوف تؤدي إلى نتائج مهمة لصالح شعوب امبراطوريته.

وإستناداً على مرسوم امبراطوري، تم عقد اجتماع من عشرة مسيحيين وعشرة مسلمين يهدف إلى تأسيس محكمة تشريعية عليا، تعمل من حيث المبدأ للتأكيد على المساواة بين المسيحيين والمسلمين في الامبراطورية العثمانية. ومع ذلك كان هذا المبدأ قد تم الاعتراف به وتصديقه منذ عشرين سنة مضت. ونود ان نعلم ما الذي سوف يقدّمه ذلك الاعلان الذي اعلن بعد الوفاة؟ الا يساوي ذلك الاعتراف بان ذلك المبدأ الذي تم الاعتراف به وتصديقه منذ وقت طويل، لم يتحقق ابداً؟ والتخلي عن عدد من خطوط السكك الحديدية جاء ليتوج ذلك؟ ولكن وجد عبدالعزيز ووزراؤه انه من الضروري ان يجددوا انفسهم ولكن بصعوبة بالغة، واعلنوا مكافأة لانفسهم باعلان اعادة البناء على مستوى عال. وقام عبدالعزيز بهدم قصره في بيگلر بيگ Bey lerbey من اجل تبديله. وبناء قصر جديد، حيث تأثر كثيراً واعجب اكثر بقصر فرساي وقصر وندسور وذلك في الوقت الذي حاول فيه فؤاد ان يُنشيء لنفسه قصراً ملكياً.

ومع ذلك ووسط هذا الحبور، لم تكن اخبار كاندي، تشجع استمرارية مشاعر الفرح لدى الوزراء العثمانيين. فقد واجه عمر باشا في كل مكان مقاومة عنيدة من الثوار الذين لايفكرون مطلقاً في التسليم. وكان من اهم نتائج تلك الخسائر الفادحة التي منيت بها قوات السردار، إستحالة إخماد الثورة. فاذا ما كانت العمليات التي قام بها الجيش التركي ضد الثوار لم تؤد بهم إلى الانتصار، فان الحصار الذي اقامته البحرية التركية حول سواحل كريت لم ينتصر بدوره وفشل تماماً. اسطول كبير العدد قوى تم بناؤه بعد تضحيات كبرى قدّمها اجدر بناةُ السفن الانكليز؛ وكذلك موانئ ومراسي وتسليح ممتاز. جميع تلك الوسائل المتفوقة الكم والكيف، لم يحصل بها البحارة الاتراك على اقل الفوائد. واليونانيون لايملكون سوى سفينتين، ولكن البحارة البواسل احتفظوا بالتفوق البحري والقدرة على تموين ومساندة الحركة الوطنية.

كما ان الاستحواذ على اركاديون يمكن ان يكون اكليل غار على جبين الغازي التركي، الا انه لن يمحو مطلقاً او يعوض الهزائم التي توالت لسنتين على ايدي اميرالات وجنرالات الامبراطورية.

وبدلاً من ان تدفع سلسلة الهزائم تلك الاتراك لليأس، دفعتها على العكس بجهود جديدة اقوى. واستشاط عبدالعزيز غضباً، واقسم ان يرسل قوة جديدة قوامها ثمانون الفاً لتحطيم تلك الحفنة من الثوار والقضاء عليها. ولم يستطع ان يتقبل حقيقة ان جنرالاته رغم شجاعتهم الكبيرة ومهارتهم المعروفة لم يستطيعوا ان يتفوقوا على هؤلاء المتمردين. فاذا كان الدفاع البطولي للكريتيين قد اثار مشاعر الغضب والانتقام، فان المشاعر التي بدأت بتحريك الشعوب المسيحية

تختلف تماماً. فها هي روسيا تستجيب لحركة ترتبط بها بروابط لا تنفصم وترتبط بموقفها كدولة عظمى ولديها مايبرر ذلك. فاذا كان الدفاع البطولي للكريتيين قد ايقظ في نفس السلطان مشاعر الغضب والانتقام، فان المشاعر التي حركتها لدى الشعوب المسيحية تختلف تماماً. وها هي روسيا تستجيب إلى تلك الحركة حيث ترتبط بها بروابط لاتنفصم، ولديها مايبرر ذلك. واخذت على عاتقها القيام بخطوة متزامنة مع الدول الكبرى الأخرى من اجل وضع حد لسيول الدم التي تسيل بلا جدوى ويتسبب فيها عجز تركيا عن اخضاع الكريتيين.

وشاركت ايطاليا وفرنسا وبروسيا، روسيا في عملها الخيري هذا. في حين ابتعدت انكلترا والنمسا عن مشاركة روسيا، وحيث يقول اللورد درّبي Lord Derby، ان إعاقة الحكومة العثمانية في تصرفها حيال الأمر ليس صحيحاً. وكان هدف رّباعية الدول الكبرى الطلب من الباب العالي الموافقة على تكوين بعثة دولية يكون هدفها اللجوء إلى اجراءات تضع حداً للخلاف مع الكريتيين واقامة حكومة في الجزيرة تُؤمن لسكانها الحكم الذاتي والحياة الكريمة.

وشجع امتناع انكلترا والنمسا عن الاصطفاف معهم، الباب العالي على رفض اية مفاوضات تنال من حقوقه السيادية كما قال: وفي نفس الوقت قام بمبادرة يملها عليه الدور الذي يحفظ مصالحه في مثل تلك الظروف. وتقضي تلك المبادرة بإرسال مندوب فوق العادة ويتمتع بجميع الصلاحيات وتكون مهمته اقامة وضع في كريت يتلاءم وأماني السكان ورغبة الدول الكبرى.

وكانت تلك المناورة الديبلوماسية للباب العالي ماهرة جداً، وتعد بالوصول إلى نتيجة وطنية خاصة، وان الباب العالي يمكنه، كما قال، ان يتواصل مع اكثرية من الشعب الكريتي وتتمتع بنفوذ كبير. وبعد عودة السلطان من اوربا تم الاتفاق على ان يكون الشخص المختار للقيام بتلك المهمة الشائكة والمهمة جداً، رئيس الوزراء علي باشا، الوجه الآخر لصفة لقب الملك الاعظم، والهدف من إرساله تبيان رغبة الباب العالي الحقيقية في ايجاد حل للقضية الكريتية والتدليل للدول الكبرى على انه سيبذل كل ما في وسعه لتحقيق ذلك الهدف. اما اذا فشلت جهود علي باشا أمام صعوبات لم يتمكن من تجاوزها، فسيكون من حق الباب العالي آنذاك استئناف القتال بحجة فشل جميع الجهود التوفيقية بسبب عناد الثوار ومناورات من يقف إلى جوارهم، فسوف يجب على السلاح ايجاد حل للقضية.

حال وصول علي باشا إلى كريت في الرابع من اكتوبر ١٨٦٧، استخدم جميع خبراته المعقدة العبقرية السياسة. واذا اردنا ان نصدقه وتصريحات لجنة كريت التي تصادفت تماماً مع ما كشفه المراسلون المسلمون من قانه Kannee.[٤٣] وكان اول اجراء اتخذه علي باشا حال وصوله، عرضُه لمبالغ كبيرة

---

[٤٣] انظر: المراسلات المسلمة من قانه، والمنشورة في الجريدة التركية المُكبّر، ٢ يناير، العدد ١٨، الرقم ٢٠.

من المال لكل من يتمكن من اغتيال قادة الثورة وعلى وجه الخصوص حاجي ميكالي. ورغم صعوبة امكانية تصديق امكانية حدوث ذلك من شخص مثل علي باشا، الشخصية الوطنية والاعتراف بان تلك السمة المحلية في الدبلوماسية التركية توضح تماماً طريقتهم في التصرف. والاحتياطات التي احاط بها قادة الثورة انفسهم احبطت جميع تلك المحاولات. ومن تلك المحاولات العمل على كسب قادة الثورة واغراقهم بالوعود وبارفع المناصب السامية التي تدر المكاسب الوفيرة. بل جعلهم باشوات يرافقهم قدر مايريدون من اتباع، وإهداؤهم الاوسمة او اي شيء من الممكن أن يَدُرَّ ربحاً. ولكن جميع تلك الوعود لم تنجح في خداع احد، كما ان الكريتيين لايثقون كثيراً في الحكومة التركية لكي يقبلوا بوعودهم او بالقسم الذي قطعوه على انفسهم. وفي اخر الأمر، حاول الوزير الكبير إفساد الثوار بعرضه مبالغ طائلة من المال. وفكر علي باشا، من هذا الذي يمكنه ان يقاوم اغراء المال؟ من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، بل في كل مكان. فالعجل من ذهب يرقد على المديح. وكم من القضايا استطاع ذلك المعدن الساحر ان يجد لها حلاً. فلماذا لم يستطع ان يَجْتَرح معجزة للمسألة الكريتية مثلاً؟ ذلك لان الكريتيين يتمسكون كثيراً بحريتهم لكي يستطيع اي كان ان يخدعهم بتلك الوعود او ان يُغْرِيهم. لقد اغلقوا عيونهم وآذانهم أمام جميع العروض، بل واصلوا دفاعهم عن كريت وبضراوة.

وفي تلك الاثناء كان علي باشا مشغولاً بالعمل على تهدئة الثورة باعلانه بشكل علني في كريت وفي القسطنطينية، ان هناك موظفين وكتاباً يعملون ليل نهار في سبيل اعادة ترتيب الامور واصدار دستور جديد لجزيرة كريت. وكانت هذه المناورة تهدف الى التعتيم على الالغام التي يزرعونها في اوساط الثوار، وقدّموا لهم دساتير في طريقها للتنفيذ وعرضوا نظماً سياسية جديدة للتجريب ولاتباعها، كل ذلك في الوقت الذي كانوا يحركون فيه خيوطاً سرية لامرئية لمناورتهم.

وعندما وجدوا ان جهود رئيس الوزراء وجهودهم ذهبت هباءً، صَبَّ علي باشا جامَ غضبه على عمر باشا، متهماً أياه بانه قدّم تقارير مغلوطة للباب العالي جعلته يقع في الخطأ حول حقيقة الاوضاع في كاندي. واستناداً إلى التقارير كنا نعتقد ان هناك شيئاً ما يمكننا ان نفعله وسط تلك التعقيدات والصعوبات في قضية كريت. وكما اظهرت التجرّبة، كان كل شيء يسير من سيء إلى اسوأ. وكانت الامور تسير هكذا عندما نفشل في مشروع ما. آنذاك نثأر لكرامتنا الجريحة ونقوم بأتهام بعضنا البعض. ولكن عندما يكون النصر حليفنا، يدعى كل واحد منا بأنه كانت له اليد الطولى في حدوث ذلك. وقامت منازعات ايضاً بين عمر وعلي. والمعروف عن عمر انه كريتي داهية. وكانت سعادته كبيرة عندما ورط علي باشا ودس يديه في مسألة كريت: ولم يكن يحتاج الا إلى شجار لكي يشتعل النزاع ويغسل يديه من القضية كلها وذلك ما فعل وادعى ان الضباط قد اخطأوا وهم يحاصرون الجزيرة بحراً، اضف إلى ذلك سياسة علي باشا السيئة في الوقت الذي كان فيه الجيش يكاد ان ينتصر على الثوار، وعرضوا عليهم هدنة؛ كل ذلك كان تبريراً لرغبته في

التخلص من قيادة الجيش البري. ونسى ان الباب العالي قد وضع تحت قيادته قوات ضخمة وانتظروا منه اخبار الخضوع الكامل للجماعات الثورية الكريتية. ولكن الاخطاء التي يرمها على اكتاف الآخرين، لايمكنها اعفاءه من انه قد مُني بهزيمة ساحقة.

واخيراً، وفي اخر ايام شهر نوفمبر، استقال عمر باشا، من قيادة الجيش الذي يقوم الان بقيادته وقيادة العمليات العسكرية التركية الدائرة في جزيرة كريت. وكنت قد ذكرت نبذة عن حياته في الفصل الحادي والعشرين مما يعفينا الان من الحديث عنه. وتلك التفاصيل كانت اكثر من كافية ليعرف الرأي العام الاوربي من هو الشخص الذي تنتظر منه الحكومة التركية حلاً للمسالة الكريتية. وتبع علي باشا، عمر باشا في العودة إلى العاصمة ولكن يجب عليه ايجاد غطاء لانسحابه وبشكل يمحو الحياء من الفشل الذي واجهه. وقامت الحكومة التركية بذلك الأمر وبشكل يوفر له ذلك ونشرت الحكومة اشاعات في سبيل الهاء الناس وتقضي بأن الجيش التركي اجتاح مقاطعات من بلغاريا واخمد انتفاضة اندلعت على حدود بلاد فارس. والباب العالي وهو يتظاهر باهمية اخبار كهذه، استدعى وزيره بسرعة تاركاً المسألة الكريتية في بدايات يناير ١٨٦٨ إلى اقدار ومقدرات السلاح. وارتاح علي باشا من ان فشله وهروبه السريع من كريت سوف يمر دون ان تراقبه عيون العامة.

وهنا يقترّب كتابي هذا من نهايته، ولكن وفقاً لبرنامجي في الجزء الاول قد عرضت بشكل رئيسي الوضع الذي كانت عليه المحافظات، وتنظيمات ادارة الجيش التركي. وفي الثاني حرصت على كشف النظام الحكومي في مختلف مظاهره وفي كل تفاصيله. واصبح الان من المستحيل علي الآن ان انهي كتابي قبل ان اعرض نبذة عن الوضع القائم للمسألة الشرقية التي تشغل اذهان الجميع. واتمنى ان تجلب آرائي في حلها نظر ساسة عصرنا الها وان تكون موضوعاً لتمحيصها.

الفصل الرابع والعشرون

عرض سياسي مختصر للمسألة الشرقية

اصبحت سلامة وحدة الامبراطورية العثمانية عقيدة سياسية مقدسة، ضرورية للابقاء على التوازن الاوربّي. وقداستها تساوي قداسة الثالوث المقدس لدى المسيحيين، وقداسة التجسيد البوذي لدى البرهميين؛ وحتى فردريك حاكم بروسيا، ونابليون، وتاليراند ينحنون جميعاً لذلك التوجه. في حين نرى ان توجه روسيا ومسيرتها نحو الشرق يدفع الدول الغربّية إلى الاعتراف أن امكانية سقوط الامبراطورية العثمانية تهديد لوجودها ايضا. فأعلنت ان سلامة وحدة الامبراطورية العثمانية ضرورية للحفاظ على توازن اوربّا.

ذلك المبدأ الذي هوجم وتم تأييده في تيلسيت Tilsit،* أثار بعض التلميحات غير المريحة، وكذلك الغضب في المحادثات الودية بين القوتين العظيميين في الشمال والغرّب. وتلك المسألة نفسها لعبت بعد عدة سنوات دوراً كبيراً في مصائر الرجل الكبير الذي تحتضن مخططاته ومآربه القارتين الاوربّية والاسيوية.

والتزمت انكلترا من جانبها، العناد وسرعة التأثر التام في كل مرة ويبدو ان هناك هجوماً ما على منطقة رئيسة حساسة في مفهومها السياسي، فجزء من الاراضي العثمانية مثلاً في خطر ما، وعدو ما يهددها، ويرى اساطيلنا وجيوشنا تتوجه للدفاع عنها، ومستعدين للموت تحت انقاض عرش السلاطين، من اجل منع أية يد ترتفع ضد وجوده. الحملة الموجهة لمصر ضد بونابرت، والحملة الموجهة إلى سوريا ضد محمد علي الثائر، وتدخُّل الدبلوماسية الانكليزية في معاهدة اندرينوبل Andrinople، وفي جميع تلك المآسي السياسية، ومع ذلك ليس لدينا هدف واضح سوى فرض احترام مبدأ سلامة الامبراطورية التركية. وكم من دماء سالت، وكم من اموال صُرفت، وكم من تضحيات بذلتها وبلا مقابل شعوب الغرّب، او انها بُذلت في سبيل مبدأ مجرد او يوتوبيا؟ ان تعقل الرجال المتميزين وبعد نظرهم قد حكموا مصائر اوربّا منذ بداية هذا القرن، ولا يقبلون اي اقتراح كأمرٍ واقع مقبول، علماً ان مواجهة اي مشروع معاد على الارض العثمانية، والدفاع عن ذلك التوازن الذي يمكن ان تتطاول عليه قوة متفوقة لايحدها شيء وتهدمه، اننا انما ندافع عن مصالحنا وما يمكن ان يؤمن ذلك التوازن المشترك. فالقسطنطينية منطقة موضوعية تتوجه

---

* تيلسيت Tilsit، اليوم مدينة سوفيتسكا في ليتوانيا، وحيث تم التوقيع على معاهدة بين نابليون الاول والكسندر الاكبر الاول، امبراطور روسيا في عام ١٨٠٧. [المترجمة]

نحوها القوى الغازية القادمة من اتجاهين مختلفين في شمال وغرّب اوربا. انهم يختلفون ضد تلك الصخرة وتصطدم بها القوى المتنافسة لروسيا وانكلترا وفرنسا. ولكي نحكم جيداً على الدور الذي يلعبه كل من هذه القوى تجاه المسألة الشرقية. يجب هنا وصف تلك المباديء التي تساندها الجوانب المتحاربة ومواقفها النسبية التي تتخذها والقوات التي تمتلكها؛ ووصفها في بضع كلمات.

وسياسة روسيا صريحة وحازمة. وبرنامجها المعلن هو محو تركيا من الخارطة تماماً. وترى روسيا ان وجود تركيا مخالف لمباديء وعادات وتقاليد عصرنا. واعلنت ومنذ وقت طويل ان تركيا هي الرجل المريض الذي يصارع الموت، ويجب ان تختفي الجثة المتعفنة تماماً من على وجه الارض. اما تحركها فكان في إتجاهين: التوسع في اراضيها على حساب تركيا، واعلاء العنصر المسيحي على انقاض الامبراطورية المسلمة. فاذا كان برنامج سياسة روسيا ذاك صريحاً ويتوجه مباشرة للهدف المرجو؟ فان الموقع الذي احتلته تلك الدولة في ساحة المسألة الشرقية كان هائلاً. ولان نفس القوانين التكتيكية التي تحدد شروط قوة كل موقف، توازى قوة وطبيعة حجمه، وهي نفسها التي تحدد قوة الموقف الروسي السياسي في الشرق. ومن المعروف ان فن القوة الذي يمكن للفن تحسينه ويقوي به موقفاً حَبَتْه الطبيعة بالقوة بسبب امكانياته، ولكنه اي الفن لن يستطيع ابداً خلق موقف ترفض فيه الطبيعة مزايا القوة له. وذلك النوع من التراجع التكنيكي يبدو لاول وهلة انه لم يحدث في مكانه الصحيح، ولكن النتيجة التي يمكن التوصل اليها تبين بوضوح بان المثل الذي استخدم في هذا المجال كان مقبولاً.

وفي واقع الأمر، فان الموقع الذي تحتله روسيا في المسالة الشرقية قوي جداً ويقدّم لها مزايا الدفاع وكذلك مزايا هجوم حاسم. يساعدها في ذلك جدار من العواطف الدينية، والروح الوطنية لاثني عشر مليوناً من المسيحيين الارثوذكس. وهي شعوب لازالت بكراً لم تستغل بعد، إلى جانب انها شعوب محبة للحرّب. ولاتعود ميزات ذلك الموقف الواثق إلى فن القوة كما قلت، او لامكانيات روسيا، وانما للطبيعة نفسها والتقاليد التاريخية والروابط الدينية وتشابه الجنس. ولهذا كله يتمتع موقف روسيا بالقوة والصلابة. وانطلاقاً من ذلك الموقف القوّي، تستطيع روسيا ان تدافع عن نفسها اذا كانت قوية، وتُهاجم عندما تسنح الفرصة. لقد تَجَذَّرَت تلك القوة بعمق في قلوب الشعوب، على ان الاخطار التي يجب ان تخشاها روسيا اقل كثيراً، اذا ما قورنت بالمزايا التي تتمتع بها. ويشمل كل ذلك جهود التحالف الانكليزي-الفرنسي الذي لم يتم تنسيقه جيداً وضعف جيش الامبراطورية التركية، وتحرك مصلحة رئيسية سياسات بريطانيا العظمى تجاه تركيا، وهي الحفاظ على وجود امبراطورية سوف يؤدي انهيارها كما يعتقدون، إلى انقلاب في الاوضاع. وذلك في نفس الوقت الذي لن يتخلف فيه عن التظاهر بانها تهتم جداً بحياة كريمة للشعوب المسيحية. ولكن ثروات الامبراطورية التركية كانت الطعم الذي جذب مصالح بريطانيا باسم المصالح التجارية.

ودائماً ما خضعت تلك السياسة الغامضة إلى حركة شد وجذب، تؤدي إلى اللبس. فهم احياناً يحتضنون تركيا بحرارة، واحياناً اخرى يدفعون بهم إلى القاع.

واليوم يعلنونها صليبية لصالح المسيحيين، في حين انهم في الغد سوف يتركونهم لاعدائهم. وسياسة غامضة ومتقلبة لهذه الدرجة، تعد نتيجة طبيعية لعدم صلابة الموقف الانكليزي بخصوص المسالة الشرقية. وتقف انكلترا على رأس حضارة الغرّب، المسيحية بامتياز، ووجدت نفسها مجبرة ان تقيم معسكرها الخاص وان ترفع علمها وسط الصفوف التركية. ولان الحاجة اكثر من الاختيار هي التي دفعتها للبحث عن خطة كتلك، فالعامل الارثوذكسي منحاز لروسيا، والعامل اللاتيني عدو لها ولم يبق لانكلترا الا العنصر المسلم ليقف تحت راياته. وهذا التحالف مفروض عليه وبالغ الهشاشة، وان الحاجة هي التي دفعته لتبني تلك الخطة اكثر مما ان يكون ذلك هو الاختيار. انهم يحتقرون الاتراك، ويكّشرُون عن اسنانهم في وجوههم وليس لهم من مؤيد طبيعي في البلاد فيضطرون إلى لجوء للوسائل المصطنعة، حيث يحاول الفن هنا ان يحل محّل الطبيعة. وحاولوا الحصول في نفس الوقت على امتيازات من بعض التحصينات التي اقاموها بوسائل محلية، وفكروا حتى في اللجوء لعوامل فوق قدرة البشر. وبذلوا جهودا كبيرة في سبيل انشاء فيالق صغيرة من اولئك التائهين الضعفاء الهارّبين من قطعان الجيوش الأسرائيلية والمسلمة والمسيحية. وبهذا الشكل لم يتوصل حماس المبعوثين الانكلو-امريكيين لنتائج تُذْكر.

والسياسة الفرنسية تجاه تركيا تتميز بعدم الترابط والتناسق اكثر مما هو حال السياسة الانكليزية. وتشمل سياستها مباديء متعارضة لا منطقية وغير متناسقة، وهذا ما ادى بها إلى فشل متواصل. حيث تدعى الحفاظ على سلطة الامبراطورية العثمانية، ومن جهة اخرى تعلن مساندتها للشعوب المسيحية التي لن تجد حياة كريمة طبيعية الاّ بتدْمير تلك الامبراطورية نفسها. فمبادؤها مزدوجة ومشاكلها الناتجة عنها معقدة. ومع مباديء كتلك نرى ان البحث في انشاء اسس سياسة جادة وارساء نفوذها على اساس صلب ماهو الاضرّب من الخيال، بل وامل خادع. وفي واقع الأمر ورغم بذل جهود هائلة، لقيت السياسة الفرنسية أمامها عقبات هائلة لايمكن تجاوزها. وموقفها كان دائم التذبذب، لانه وبأية عوامل مادية او غيرها تستطيع فرنسا تأسيس نفوذ سياسي. فعلى من تعتمد؟ تحتكر انكلترا العامل المسلم، وينضوي العامل الارثوذكسي تحت رآيات روسيا. ولم يتبق لفرنسا الا العامل اللاتيني وهو عامل هجين ومعروف باسم الشرقيين. وهم اناس دون وطن او عقيدة وجنسيتهم معروضة للبيع وللتبادل والتفاوض. إلى جانب شعب لبنان، وبقايا قبائل البانية تشكل معاً كاثوليكي الشرق وهذا العامل المكون من جماعات صغيرة من مختلف طبقات الشرق لم يكن مطلقاً جماعات متنفذة او متجانسة. وعمل اصحاب العقيدة الكاثوليكية على تقوية وتعظيم النفوذ الفرنسي باستيعابهم لجماهير شبابية لا تنتمي إلى كل اتجاه.

وبين ذلك التنافس على الهيمنة، تقاسمت الدول امكانية السيطرة الامبراطورية معاً. في حين لم يحتفظ الباب العالي الا بسلطة مؤقتة، ولكنها سريعة الزوال، ويستجيب لاملاءات من هذا الجانب او ذاك. وتهمين الدولة الاقوى ذات النفوذ كما تريد مع ضرورة اتخاذ الحيطة لتأمين اجراءات المظاهر الشكلية لسلطة السلطان. واحياناً ما تعلن انكلترا وفرنسا وروسيا تكتيكها الخاص وتحارّب اعداء تركيا للابقاء على مكانها والحفاظ على مصالحها. واستمر ذلك الصراع الضمني إلى ان اتخذت روسيا خطوة جريئة فجأة لتضع حداً لهذا الوضع الهش، من اجل تحقيق مشروعها المفضل لتقطف حصتها من ثمار الارث لها ولانصارها من الشعوب المسيحية.

وعند الاقتراب من الخطر، وضعت انكلترا وفرنسا جانباً المشاعر العدائية بينهما لتتخذا موقفاً مشتركاً ضد عدوٍ مشترك. وادى ذلك التفاهم إلى التحالف الانكلو- فرنسي والذي تم تحت اسوار سيباستبول عام ١٨٥٥. ومهما كانت الخلافات في وجهات النظر والمصالح بين هاتين الدولتين، فان جهودهما تتوافق في اللحظة الحاسمة. ولانهما اضطرتا إلى خوض ذلك الصراع ضد عدو مشترك شرس، ورغم الخسائر التي يمكن ان يُسفر عنها ذلك الصراع وهي من كل نوع، ورغم ان العملية انطلقت من الاضعف للاقوى، فقد خرجت القوات المتحالفة منتصرة في المعركة، واضطرت روسيا للتخلي عن جميع المنافع التي كانت سباسبتول تؤمنها لها من قبل، وللاصطفاف مع مبدأ الحفاظ على سلامة الامبراطورية العثمانية.

وكان القرار الذي اتخذه الحلفاء ضد روسيا سياسياً صحيحاً، حيث تم نزع سلاح روسيا وحرمانها قدر المستطاع من المزايا والمنافع التي كان يمكن ان تؤمنها لها تفوقها في القوة والتأثير في مصائر الامبراطورية العثمانية. وعلى اي حال فان كل ما نجحوا فيه كان ابعاد روسيا مؤقتاً، ومع ذلك ظلت هي سيدة الموقف الرائع الذي تحتله في قلوب المسيحيين. على ان اسوار سيباستبول لم تقلل مطلقاً من قوة روسيا في الشرق. ومع ذلك فان ذلك النصر الخادع والرغبة في تأمين سلامة اراضي تركيا في المستقبل، كان مجرد يوتوبيا، بل واكثر من ذلك كان غلطة. وان معاهدة باريس التي تحفظ وحدة وسلامة الامبراطورية وهم تحفظ وجود الامبراطورية العثمانية ذاته، مجرد عمل عبثي تماماً كعبثية مطالبها مثلها في ذلك مثل من يحاول ان يضخ المياه في جسد يصارع سكرات الموت، والموت نتيجته النهائية. وبمثل تلك السياسة ضحوا بالمستقبل لصالح ماضٍ محكوم عليه بالفناء، اي انهم يحاولون إحياء تركيا الموشكة على الانهيار. وذلك في الوقت الذي قرروا فيه الابقاء على ضعف دائم للشعوب المسيحية. ولكن تلك الحسابات كانت خاطئة واي خطأ يسحب وراءه نتائجه.

ويجب ان تؤمن معاهدة باريس بقاء الامبراطورية التركية ضد اي خطر خارجي يمكن ان يهدد حياتها الداخلية. ولم يذكر احد مع ذلك الاخطار الداخلية التي تهدد بقاءها. وهكذا ضمنت تركيا تأمين بقاءها ضد القنابل والقصف الذي يمكن ان تتعرض له من اعدائها. ولم يُرد احد ان يصدق

انها يمكنها ان تنهار من الداخل، وأن تموت من المجاعة مثلاً. فاما ان يكون قادة الدول التي وقعت على المعاهدة عام ١٨٥٦ يجهلون حقيقة واقع الامور في تركيا وهو شيء لايمكن افتراضه حيث ينتفي آنذاك وبوضوح شفافية الرؤية لديهم، واما انهم يعرفون جيداً. ان وفاة الرجل المريض حتمية فيقومون بالمستحيل ليبعثوا الحياة سُدى في جسده. وكلتا الفرضيتين خطأ.

ولايمكن التغلب على خطأ كهذا يؤدي إلى تحفيز نتيجة كانوا يهابونها. فالدعاء والتضحيات التي بذلوها في حرّب القرم كان هدفها تدمير اثر الموقع الذي تحتله روسيا في مقرات السلطان. وبتأمين سلامة الامبراطورية العثمانية سمحنا لانفسنا ان تستعيد روسيا رغماً عنا نفوذها وموقعها الخطير، الذي كانت تحتله قبل الحرّب. وتأمين بقاء الامبراطورية التركية يعني الابقاء على تخلف وعبودية الشعوب المسيحية في تركيا. وندفع بذلك ايضاً الشعوب الهللينية والصرّبية والرومانية إلى تخلف اجتماعي وسياسي ولايمكننا آنذاك الادعاء باننا نعمل على ترضيتهم. وخلافاً لذلك، اننا نصنع اعداء مُستبسلين لان كرامتهم قد اهينت، ومشاعرهم الوطنية قد احتقرت وآمالهم قد خُدِعت وستراهم يذهبون والرغبة في الانتقام تملأ قلوبهم ليصطفوا في فيالق جيش روسيا، ويجبرون الاجناس الشجاعة النبيلة على ان يصبحوا صفوفاً متراصة رائعة حول الجيش الروسي. وكتعويض لما قدّمناه لاعدائنا، لم يبق الامل في جماهير الشعب الكُردي النائمة الساكنة واهنة العزيمة، إذْ تحتقرنا وتكرهنا من صميم القلب مع ذلك. ونتيجة جميع تلك المداخلات والتداخلات نجد انفسنا، أمام روسيا، في موقع اسوأ مما كنا عليه قبل حرّب القرم. واصبحت ميزة الارض لصالح روسيا.

ومع ذلك، وبعيداً عن كل تلك الاعتبارات التي تعود للسياسة العليا، فان سلوكنا وعلاقاتنا مع سكان الشرق الاصليين قد أدّى إلى عدم وجود اي تعاطف قبل ذلك من جانب تلك الشعوب تجاهنا. ومع نهاية حرّب القرم، كان لتلك الجماهير التركية، مسيحيين كانوا او مسلمين، ان تُحيينا وتعدنا منقذين، هذا فيما لو كنا قد مارسنا وقبل انسحاب جيوشنا الضغط على الباب العالي للقيام ببعض الاصلاحات وباصدار قوانين تؤمن المساواة والعدالة؟ وكانت تلك الاصلاحات ضماناً حقيقياً وصلباً لحياة مستقبلية جيدة لتركيا. وكانت تلك هي اللحظة التي كان فيها ان نصر على تبني تلك الاصلاحات الداخلية في الامبراطورية العثمانية: من اجل تأمين مستقبلها وتقوية السلم في اوربا؛ وكان لادامة الإحتلال الانكلو- فرنسي ان يحقق بسهولة ذلك الهدف. وان إحتلالاً من ذلك النوع، كان سيؤدي حتماً لنتائج جيدة جداً؛ وليس لما اوضح إحتلال اليونان حيث كانوا يملون عليه سياسة هزيلة غبية. فهناك كان بامكاننا ان نهيء اصدقاء يمكن ان يكونوا اصدقاء لنا في المستقبل، وهنا صنعنا اعداء من اولئك الذين كان كل مايريدونه ان يكونوا اصدقاءنا.

وبعد الجلاء من الاراضي العثمانية، لم تعمل علاقاتنا مع السكان الاصليين على تعزيز موقفنا السياسي. واول شيء استطعنا ان نحصل عليه من تلك البلاد هو جميع المصاريف التي

اجبرتنا حرّب القرم على صرفها، حتى آخر فلس صرفناه وذلك عن طريق اجراءات تجارية او مالية. وبعد ان انتهت تلك العملية انقضت قوافل الممولين والمضاربين والمغامرين من كل نوع، انقضوا على البلاد كالجراد على منتجات البلاد. وقدّم هؤلاء الممولون الكبار انفسهم في مظهر خادع مثير، في جيوبهم رسائل التوصية من اكبر بيوتات باريس ولندن لتأمين قبولهم وتقبلهم، وتستقبلهم السفارات. وكلما حصل هؤلاء السادة على مكتسبات ما، اصبحوا مركز حفاوة عامة. وهناك مناورات مع احد الباشوات او بعض موظفي الباب العالي على تأسيس بنك عثماني وحساب متحرك او ثابت كما يحلو لهم تسميته، او اي نوع اخر من آليات التمويل. وكان منتهى حلمهم الحصول على ثروة طائلة خلال اربع وعشرين ساعة، فلا يوجد سوى ذلك لاشباع النَّهمْ.

ويتوافد هؤلاء الناس من الجهات الاربع من الارض، وكل منهم يحمل شيئاً نوعياً كان يمكن ان يعيد احياء تركيا وازدهارها ولكنهم استطاعوا بدلاً من ذلك نهب بضعة ملايين لكل منهم. وترك الجميع تركيا المسكنة غارقة في مصائبها، حيث يزداد بؤسها وفقرها ولا تمتلك سوى اسم بال. اي انها اصبحت في حال اسوأ بكثير مما كان عليه حالهم من قبل. فاذا كان الموظفون الاتراك اناساً كما كنا نعرفهم من قبل، فان مستشاريهم لم يخطئوا في حقهم عندما قادوهم في منعطفات الفساد والجريمة. ويجب علينا ان نكون عادلين في عرضنا، وان اعطي ماالله لله وما لقيصر لقيصر.

ومع ذلك يقول بعض الممولين، ماذا يهمنا لو ماتت تركيا وسكانها؟ ان نموت من الجوع؟ نحن لايهمنا سوى تجارتنا والمال هو مانحتاج. ولتكن تركيا وعمالها ماهرين بمافيه الكفاية ليعيشوا على ما يقيم الأوَد! وهم الذين عليهم ان يفكروا اذا ما كان يناسبهم اولاً ان يكونوا مخدوعين من افعال غيرهم؟ ولنتوقف هنا، لان تلك الكلمات تكشف لنا نقطة رئيسية من المسألة الشرقية. هل اندلعت حرّب القرم لردع الغزاة الروس؟ ام كان ذلك لتحويل جماهير تركيا إلى قطيع اغنام؟ قطيع من حقنا جَزُّه وسرقته قدر المستطاع؟ أكانت تلك هي السياسة السرية التي اتبعوها؟ اذن يجب الاعتراف بان الافعال لا ترد بحق على البرنامج الكريم لتدخلنا. رفْع جدار ضد عدوان روسيا، هو الهدف الحقيقي لحرّب ١٨٥٤، وان الغزوات على كل المستويات لايمكن ادماجها في برنامج سياسي معتقل. ولكن تتطلب الحاجات المتزايدة دوماً في صناعتنا وتجارتنا ميادين وتجارة تجزئة، ومادام السلطان سيد تلك البلاد قد قدّم لنا جميع الإمتيازات التي نريد ولنا الحق بالاستفادة من ذلك الوضع. تلك هي النقطة الحرجة في المسألة الشرقية والتي تم كشفها. ذلك هو موضوع الخلاف بين الدول الكبرى والشعوب المسيحية. وتُغلق الشعوب المسيحية في تركيا، وكذلك اليونانيون والصرّب والرومانيون والبلغار، تماماً آذانهم أمام جدل كهذا، وكانوا مُستعدين لتأييد حقوقهم ضد كل جدل او كل وسيلة يستخدمونها لتحقيق نظام يستند على مباديء كهذه.

وتقول تلك الشعوب ان اوطانها و زراعتها وتجارتها وصناعتها تعود لها كما هي ملكيتها منذ دهور حتى قبل ان يعرف العالم اسم تركيا. وكان اختيار حمل السلاح مأساة بالنسبة لها وفقدوا استقلالهم القديم واصبحوا توابع لتركيا التي جردّتهم من ممتلكاتهم واراضيهم. ولم يتوقف النضال الحي الصامت بين الغازي والمهزوم. وبعد ان استطاعت تركيا الحاق الهزيمة بهم، تحتم عليهم الخضوع ومالت كفة الميزان للاقوى. وتغيَّرت الادوار مع ذلك ومنذ ايامنا واستطاعت الشعوب المسيحية ان تستقي قوتها من اعماق مصائبها وكوارثها، ووجدت نفسها افضل من غزاتها وعلى جميع الاصعدة الثقافية والاخلاقية والمادية. وبسبب ذلك لماذا لاتحاول تلك الشعوب المطالبة بحقوقها واستعادة مكانتها واستقلالها.

فاذا كان سلطان تركيا -كما قالوا- يرغب في الحصول على ديون، فليَرهن اراضيه ومجوهراته وحتى ملابسه اذا ما استدعى الأمر، وليس على حساب الشعوب التي عارضت بصوت عال، واحتجت على تلك المتطلبات وليحصل على تلك الديون من عنده ومن مموليه. وان احترام سلامة اراضي الامبراطورية العثمانية، وقبول الخضوع بأن تكون تلك الشعوب جزءاً من ممتلكاتها وممتلكات السلطان يساوي شيئين لاتقبل بهما الشعوب المسيحية في تركيا:

التخلي عن حق الوجود السياسي والإجتماعي، وتحمُل بلادها جميع ضغوط والتزامات الديون التي يود الاتراك الحصول عليها. وحقيقة الأمر، تفقد تلك الشعوب كل شيء ولاتكسب شيئاً في سوق كهذا. فماذا يمكن للسيطرة التركية ان تقدّمه لهم، وبما يتوازن والبؤس والخزي والعار الذي ألمَّ بهم بسبب تلك السيطرة؟ لا شيء مطلقاً.

ولايصح التوهم حول تلك النقطة الرئيسة. فهذا منطق يدور في اذهان جميع شعوب تركيا الطامحة للاستقلال، فاي سبب آخر يمكن ان يكون في صلب ذلك النضال البطولي اليائس لشعب كريت؟ انه يحتج وبحزم ضد ادعاءات السلطان وشركائه. ويعرف اهل كريت ان المال الذي ينتزعه رُقباء السلطان منهم يتقاسمه السلطان ودائنوه. ويعرفون انهم يقومون بجمع الأموال التي تضاف إلى ثراء رجال الأعمال في لندن وباريس. والكريتيون وهم يواجهون الحراب التركية يرون تلك الجماهير المتراصة وراء الاتراك من سماسرة البورصة والدائنين اصحاب الصكوك العثمانية، اولئك الذين يتمتعون بوليمة اللئام حيث يلتهمون اجسادهم ودماءهم في جشع تام.

ومن الصعب تقبل الحقيقة. وآذان كثيرة ترتعش من سماع صوتها. ولكن لايجوز ان ينتابنا الخوف، بل على العكس، يجب ان نبحث عن الخلاص في كبد الحقيقة، لانها وحدها التي تنتصر في النهاية. ولايمكن ان تقاومها اية سياسة، واية سفسطة او اية عواطف اياً كانت. ويجب علينا ان نعترف بصراحة باننا قد اخطأنا، وقد خُدِعنا.

استغل رجال بلا حياء ولا مبادىء سذاجتنا، واستغلوا اسم ومكانة وطننا الام لكي ينشروا الظلم بين شعوب الشرق. ودفعوا تلك الشعوب التي استغلوها إلى مشارف اليأس وهم يستغلون ثقتنا ويغرقونا في الحيرة والاضطراب. ولكن ما هو اسوأ، انهم اساءوا إلى اسْمِنا. وتفوقنا في الشرق لم يسحب وراءها سوى البؤس والفوضى في تلك البلاد.

وبدلاً من الابقاء على صناعة وتجارة الغرب في حدودها المشروعة، استخدمها رجال الأعمال وسائل للعدوان والفساد. بل وحتى الدين نفسه استخدموه لزيادة اعداد من يسمونهم بالمتحزبين والانصار. ومن هنا، الحاجة للسير في جميع الجهات، فهاهي جماعات المبشرين، اليسوعيين، العازريين،* والاخوان التي تَتَّبِعُها مختلف الفرق الدينية ومختلف الفئات. وعندما ترى تلك الشعوب انها تهاجم في مصالحها وكرامتها ووطنيتها وتراثها، إلى جانب إهانة مشاعرها الدينية الخاصة، فهل يُدهِشُنا ان تعدنا تلك الشعوب اعداء لها، ويبحث عن ملجأ لدى من يفتح لها ذراعيه؟

وأمام الوضع المتأزم والنفس المسموم لذلك الجنس الذي انحصر تحت مُسَمّى الشرقي[٤٤]فان سياسة الدول الكبرى أمْرٌ جدير بالملاحظة، وذلك لعدم اتساقها. وحولت تلك السياسة المسيحيين من سكان البلاد الاصليين إلى اعداء، في الوقت الذي لم تساعدهم فيه على كسب ثقة الاتراك. ولايعرف هؤلاء اذا ما كان يجب إعتبارنا اصدقاء او حلفاء او في الاكثر اعتبارنا من اولئك الذين ساهموا بكل الوسائل في دمارهم. لقد كنا مستعدين دائماً ان نقدّم للمسيحيين امتيازات حمايتنا لهم، او في الاقل هذا ما كانت تعلنه بياناتنا الطنانة باننا نريد ان نقوم بذلك. وفي نفس الوقت لم نكن مهتمين مع ذلك بالأسراع باعلاننا المدافعين عن الحقوق الالهية للباب العالي. وسيكون من الصعب وجود مبادىء مماثلة تكون اكثر تعارضاً وتناقضاً من تلك المبادىء التي اتبعناها. ولان مصالح المسيحيين وادعاءات الباب العالي لاتتواءم مطلقاً، وكلاهما مثل اختلاف الخل والزيت، ولن يوجد مطلقاً اندماج بين هذين العاملين.

وبسبب ازدواجية تلك السياسة، او ان نقول بغياب صفة واضحة لتلك السياسة، وكانت ازدواجية تلك السياسة، او غياب الصفة الواضحة لها السبب في تذبذب الدبلوماسية الغربية وتباطؤها الدائم في شؤون المسالة الشرقية. وفي الوقت الحاضر يشجبون ووصلوا إلى حد تهديد الانتفاضة الكريتية والحركة الصربية. ولكن بعد بضع لحظات ساهموا في خطوة جماعية للتعبير عن التعاطف مع المسيحيين. واليوم يأمرون بإرسال السفن لمساعدتهم وفي الغد يُلغى نفوذنا، ويحطم تفوقنا، في الوقت الذي عملوا فيه على تقوية موقف روسيا وتعزيز الروابط بينها وبين شعوب الشرق المسيحية. والنتيجة: روسيا قوية ونحن ضعفاء.

---

* كاهن من جمعية القديس فنسان دوبول. [المترجمة]

٤٤ باستخدام كلمة شرقي، فانما يعنون الاوربيين المنحلين الذين عاشوا سنوات طويلة في تركيا وفقدوا كل المشاعر الوطنية.

وتبدو صورة الموقف الحالي للمسألة الشرقية قاتمة جداً. وليكن ذلك بسبب قوة الظروف او بسبب اخطائنا نحن، فهذا هو الواقع وسوف يقولون والموقف بعد ذلك العرض، لم يعد بالامكان السيطرة عليه. فالطوفان السياسي على وشك اغراقنا، واوربّا تعيش عشية الكارثة.

ومهما كانت النتائج كارثية لأوربّا كلها، اذا ما انتفضت الشعوب المسيحية في تركيا حيث التنظيم والتسليح يتعاظم من يوم إلى آخر، ستراهم على استعداد للاتحاد مع روسيا ولن يقبلوا بوجود لا يحتمل ومستقبل عابر مؤقت؟.

فلابد من التحول في سياستنا، ونحن ما لم نقرر مجاراة التغيرات السياسية التي حدثت في الشرق وفي اوربّا كذلك، والاّ سنتسبب في كوارث وشيكة الحدوث مع ذلك. الازمنة، الاعراف، الافكار، الناس.. كل شيء يتغير. والسياسة يجب ان تتغير كذلك. فهل يجب اللجوء وراء احكام مسبقة مهاندة اخطائها؟ نعم. فمنذ حرّب القرم حدثت في الشرق تغيرات عميقة. وفقدت الدول الغربّية مكانتها في عيون سكان البلاد الاصليين الذين لايحبونهم بالطبع. وانهارت قوات حليفهم السلطان في حين كان نفوذ روسيا يتصاعد. واذا كان الشرق عام ١٨٦٨، فان اوربّا اليوم غير اوربّا الامس.

ومع ذلك التحول في سياستنا، فان المبدأ الذي املى علينا وهو وجوب احترام سلامة الاراضي الموجودة الان ضمن حدود الامبراطورية العثمانية سيبقى دوماً اساس ومحور سياستنا. ولكن يجب ان تتم في ترجمة ذلك المبدأ وفي تطبيقه التغيرات الاساسية. على ان تحليلاً مُتحيزاً سيقدّم شرحاً لتلك المسألة التي سوف تعقدها المصالح والعواطف؛ و سوف يوجهنا كيف نتغلب على الصعاب جميعاً في نفس الوقت الذي يدفعنا فيه إلى المحافظة على المصالح المشتركة لاوربّا.

فما هي اذن مقومات مبدأ سلامة الاراضي العثمانية؟ يتخلص ذلك المبدأ في ان موقع مدينة القسطنطينية مكان فريد على وجه الارض. يقدّم لمن يمتلكه امتياز السيطرة على قارتي اوربّا وآسيا. ولان الاتراك اصحاب ذلك الموقع المهم لايملكون القوة ولا وسائل الدفاع عن أنفسهم، فوجدت الدول الاوربّية نفسها مضطرة على الا تكون احداها صاحبة الموقع، ولذلك ارتبطت بمعاهدة الدفاع عن ذلك الموقع وعن البلدان المحيطة ايضاً التي تكوّن جزءاً من امتداد اراضيها؛ للدفاع عنها ضد اي هجوم.

واهم مايمكن ملاحظته هنا هو انه بسبب مايُقال بانه مجال اعتقدوا بضرورة تأمينه، وليس الهدف تأمين وجود هذه الامبراطورية، وهو مفهوم مجرد حول الموقع المهم الذي تحتله، ويعني ان القسطنطينية والدردنيل مفتاح تلك الارض – تلك البلاد- ونحن نحميها وندافع عنها وليس بعض المحمديين والحسانيين الذين يدعون الدفاع عنها بمساعدتنا. وانطلاقاً من تلك الحقيقة، يقول المنطق ان المواقع التي يهمنا ابعاد اي منافس عنها حتى تبقى في أمان، فبالنسبة لنا يتساوى من يدافع عنها تركيا كان ام يونانياً، سلافيا كان ام بلغاريا، ولسوف نكسب كل شيء اذا ما اوكلنا قضية الدفاع عن تلك الاراضي بين ايدي اولئك الذين بصفاتهم المعنوية والمادية سيكونون قادرين

على القيام بذلك بكل فعالية. علماً ان زيادة الحرص سيعمل على زيادة الضمانات المادية في الوقت الذي يُعزز فيه صلابة موقفنا.

ولكن لماذا الحديث عن افراط في الحرص اذا ما كان الحل في اللجوء إلى اتخاذ اجراءات تضعنا في مأمن من خطر وشيك؟ ولايتطلب الأمر زيادة في الحرص وانما يتطلب اتخاذ اجراءات سريعة وفعالة. ويجب ان نتخلى عن السياسة القديمة وتدشين عصر جديد من التقدّم.

وفي عصر معاهدة باريس، رّبما كانت الدول على حق عندما قررت الحفاظ على السيطرة العثمانية وتأمينها. ولكن تلك الايام قد انقضت، ويجب علينا اذن، نقبل في الوقت الحاضر التغيرات الجارية منذ ذلك الوقت في الشرق، وهي متغيرات تتطلب تغييراً في سياستنا. وبرنامج تلك السياسة الجديدة تتطلب اولاً: ترك الاتراك لمصيرهم الخاص، وثانياً: تأسيس مملكة مسيحية بدلاً منها تتحمل مسؤولية الدفاع عن المركز الام في الشرق.

ويساوي التخلي عن الاتراك لقدرهم، دفع الامبراطورية العثمانية داخل حدودها الطبيعية في آسيا. وان تكون حركة تراجع تركيا وتخليها عن المحافظات الاوربية من امبراطوريتهم، شرطاً ضرورياً لنشر الهدوء في العالم وتعزيز التوازن الاوربي، ولايمكن ان يكون هناك رأي اخر يخالف ذلك. ويمثل العنصر التركي في اوربا مبدأً اجتماعياً وسياسياً لايستطيع الاستجابة لحاجات المجتمعات الحديثة، وهو نظام مشوه وغير لائق داخل عملية تحلل. وان اعادة بناء ذلك النظام واصلاحه ضرّب من المستحيل، ومحكوم عليه بالفناء. لايُشكك في حدوث ذلك مضمون هذا الكتاب بين ايديكم إلى جانب الخبرة. ونحن أربعون عاماً، فما الذي نتج عن ذلك؟ لم يستطع السلطان ان ينشيء جيشاً يمكن ان يقدّم شيئاً. علماً ان اسطوله قديم وبنفس القوة التي كان عليها اثناء معركة توازين. اذن وقاليته؟ قدّمنا عنها مافيه الكفاية لتعرف قاهيتها. فاذا ما انقضت اربعون سنة اخرى في تجارّب ومحاولات من كل نوع لكي نصنع شيئاً من تركيا، فمن المؤكد اننا سنجدها في وضع يبدو اسوأ مما عليه الحال الآن.

تلك هي احوال الامبراطورية التركية حالياً. فما هي المصلحة في الابقاء عليها؟ انها غير قادرة على الايفاء بحاجاتها الخاصة، فبالاحرى ان تكون اقل قدرة على توازن سكان المحافظات التابعة لها؟ لقد تدنت قواها لدرجة استحالة امكانياتها لفرض حقوق سيادتها على الاراضي الامبراطورية وفي جميع المواقع كان عليها ان ترضخ، في الوقت الذي يهددها فيه الامواج المعادية بالغرق. وفي ظروف كهذه نتمسك باصرار في اتباع سياسة قديمة، والاصرار على الحفاظ على الامبراطورية التركية باي ثمن كان؟ ترف كهذا كلفنا الكثير فيما مضى. واعني هنا انكلترا فقط التي تكبدت سبعين مليوناً من الجنيهات الاسترلينية. ولم ينل حراس البوسفور القدامى الكثير، ومن هنا لبضع سنوات اخرى، أمكن لاجورهم ان تصل ضعف ذلك المبلغ. وتمثل تلك الكنوز مع ذلك مُدَّخرات

الكثيرين من الناس الشرفاء من بين مواطنينا الذين سيكتشفون ضحية خداع غش وتدليس الآخرين. ولا يجب ان تغرينا بعض المكاسب التي استطعنا دفعها بفضل مناورات حركة المال الرائعة، ولقد تنبأ بذلك من قبل كوبدن عام ١٨٥٦ عندما قال: عندما تتوقف تركيا عن الاستدانة، ستتوقف تركيا عن الدفع. ان قيمة كلمات ذلك الرجل العظيم الخالدة اكبر بكثير من مدائح لايارد Layard ومدرسته.

وفي مرحلة حرّب القرم، كان العامل الاسلامي يعيش في ظروف اخرى غير تلك التي تعيشها اليوم، في حين ان الشعوب المسيحية من جانبها لم تصل إلى درجة من التطور الذي وصلوا اليه في الوقت الحاضر. وفي ذلك الوقت كان الغزاة مازالت لهم اليد الطولى. ومنذ تلك المدة، اصبح التقدّم الذي حققته الشعوب المسيحية معروفاً مما قدّم لهم ميزة لاشك فيها على المسلمين وحيث بدأت كفة الميزان تميل للجهة المُعاكسة،وانعكست الادوار كذلك. وتلك الظاهرة مع ذلك، جاءت نتيجة قانون مادي تنحني أمامه كل دبلوماسية. واظنني كنت محقاً عندما اديت برأيي عندما قلت ان الشرق قد تغير، ويجب ان تتغير سياستنا كذلك بخصوصه.

الايمكن ان نظن انه حتى اولئك الذين عملوا سابقاً على مبدأ سلامة الاراضي التركية ان يخضعوا اليوم لقانون الأمر الواقع، ويعترفوا بضرورة الحفاظ على نفس ذلك المبدأ باستخدام اتباع او عملاء تدفعنا الظروف الحاضرة على قبولهم؟ نعم! اننا ونحن نترك الاتراك لقدرهم، يمكننا ان نحافظ على موقع القسطنيطينة والدردنيل وتأمينه ضد اي هجوم، فسوف نستطيع ان نؤمن لاوربا مكاسب تأمين مكاسب السلام وتأمين الحياة الكريمة لشعوب الشرق.

وقد تم قبول فكرة ضرورة دفع تركيا داخل حدودها الاسيوية من حيث المبدأ. وبقى التساؤل من سيأتي مكانها؟ هناك اربّعة عوامل مطروحة ولديها قبل للحلول محلها وملء الفراغ الذي سوف ينتج من اختفاء الامبراطورية التركية: احد هذه العوامل محلي والثلاثة الآخرون اجانب وهم انكلترا وفرنسا وروسيا. وامتلاك انكلترا وفرنسا للقسطنطينية والنظام على الارض المرتبط بها مسألة لاتحتمل النقاش تماماً، مادام انه لايوجد اي رابط يربّطهما بالسكان المحليين. ومع ذلك فهما لم تقدّما اداعاءات او مطالب كتلك مُقدّماً. وروسيا بدورها، تود ان تقيم وضعاً دائماً للاشياء في تلك البلاد والتوصل إلى تفاهم مع السكان. ومع ذلك، فأن السماح لروسيا بانجاز مهمة كتلك، ستكون في غير صالح المصالح الكبرى والتي تتعلق بالابقاء على التوازن الاوربّي. اذن فلا يوجد مجال للنقاش في ذلك الموضوع.

واستحالة التوصل إلى اتفاق بين الدول الثلاث بخصوص ملكية مختلطة او حصرية من قبل احد العناصر الثلاثة للارض موضع النزاع، انما يدفعنا إلى البحث بين عناصر السكان الاصليين المحليين يمكنه ان ينهي المهمة التي تتطلبها مصالح تركيا واوربّا، ولان المسالة الشرقية اذا مابقيت مُعلقة سيظل امننا

وراحتنا على فوهة بركان. واية قضية لاتجد لها حلاً ويطرحها الشعب انما تضغط حتماً بتأثيرها على مصائره المستقبلية. واذ اصبح الوضع الراهن لايمكن احتماله، فيجب البحث عن حل لتلك القضية.

وفي الواقع، لايمكن لاي بلد ان يعيش للابد مرحلة انتقالية، بل يجب تقرير مصيره بهذا الشكل او ذاك. والقوانين الطبيعية التي تؤسس للعلاقات بين مختلف العناصر المكونة للمجتمع لا تعرف الديبلوماسية، ويجب ان تستمر في طريقها. ويجب ان تتغير تركيا واتباعاً للقوانين الطبيعية لايمكن ان يكتمل ذلك التغيير الا بالغزو. ونحن لا نستطيع ولانريد ان نتورط في مشروع كهذا، حينذاك يجب ان نترك لروسيا اتخاذ الخطوة التي تعمل على انهاء الموضوع. ولكن بالطبع، لايناسبنا ذلك، فيجب اللجوء على عامل آخر ولايوجد بديل، ولكن تمادينا في سياستنا القديمة سيكون امراً شائكاً لا انسانياً ومهنياً لامم تقف على راس حضارة القرن التاسع عشر.

ان الغزو في الظروف الحالية لتركيا، سيكون مفيداً لتركيا لانه سينقذها من موقف خاطئ. فاذا لم تنتم لنفسها فهي لاتنتمي لاحد. ولايهتم احد بسعادة تركيا، ولكن الكل يبحثون عن الاستفادة من خرابها. وسيكون غزوها مصدر فوائد جمة لتركيا، فالمالك سيعدها في الاقل ملكيته ومن مصلحته تماماً ان يجعل منها دولة مزدهرة.

وكانت المملكة الهللينية الوحيدة التي تستطع انجاز مهمة بتلك الاهمية. وبخصوص الشرق ستكون سلطة الملك جورج الاول ضماناً جيداً للاستقرار والازدهار. وفي مواجهة الغرّب فحكومته تتضامن معهم للابقاء على مصالح اوربا. وسيكون عرشه مركزاً تتجمع في ظِله الشعوب المسيحية، دون تمييز من عقيدة او جنس. انهم مطاردون ومظلومون ومنقسمون على يد عدو مشترك. فهل سيرفضون اللجوء إلى نفس الصولجان ويصبحوا ابناء اب مشترك؟

والفائدة الكبرى التي يقدّمها العامل الهللييني لتحقيق خطة كتلك: تتحول الوطن المعني من ارض عثمانية إلى ارض هللينية دون هزات عنيفة وباجراء طبيعي وسهل. ولان العامل الهللييني موجود في هذه الارض منذ ازمان موغلة في القدّم، في الوقت الذي ظهر فيه العامل العثماني لم يظهر في تلك الارض الا بطريقة عابرة ومؤقتة في تلك الاراضي. واذا ترك الاتراك القسطنطينية فمن المؤكد ان الجيل الثاني لن يجد اي اثر عن بقايا سيطرتهم.

فليتمكن اليونانيون من القيام بالمهمة وليصلحوا الشرق، مؤمنا بذلك الحياة الكريمة والتقدّم، وتلك حقيقة لايمكن لاحد الا ان يلحظ شيئاً افضل من الوضع الحالي لليونان وتأريخه منذ تطوره. وفي مدة الاربعين عاماً القصيرة فان التطور المادي الذي كانت قد انجزته كبير جداً اذا ما استطعنا قول ذلك. وتستحق اليونان اعجاب وتعاطف العالم المتمدن.

لقد خرج من اعماق برّبرية قاتلة، ووجد الشعب الهللييني ضرورة ان يبذل كل شيء ويخلق كل شيء من العدم، وأمام وجهي النظر المادية والفكرية وجد نفسه وقد فقد كل شيء. ومع ذلك،

بالمثابرة والعمل إلى الحماس وغريزة الصقر..ما الذي لم يفعله ذلك الشعب؟ وما الذي لم يحققه ذلك الشعب الصغير؟ اننا نعرف ان التعليم اساس كل تقدّم، وبدأت اليونان ترتفع إلى المستوى الفكري للامم المتحضرة: انشأت مدارس ابتدائية في جميع مدن وقرى المملكة. وافتتحوا كذلك مدارس ثانوية في المدن الرئيسية، في سبيل جعل دراسة الاداب والعلوم في متناول ايدي الشبيبة.

وبعد قرون من الاستبعاد والاستعباد بدأت لغة افلاطون وهوميروس في التحلل وكان من الضروري ان يقوم اليونان الجديد باعادة اصلاح اللغة والادب لتقترّب ما امكن من اللغة الام. وبدأ بناء الصرح الإجتماعي بدءاً بعناصر اللغة حتى جامعة، اكاديمية فنون جميلة ومرصد منظم وفخم، فجميع تلك المؤسسات معالم على الطريق تبرهن على ان الشعب الهلليني في ايامنا هذه بدأ يبني بلاده على غرار مافعل الشعب الهلليني في تلك الازمنة الغابرة البطولية.

والتقدّم المادي الذي احرزته اليونان في تلك المدة نفسها يثير بدوره الإهتمام وليس باقل مما سبق. فقد كانت تلك المنطقة كتلا من الانقاض بل وصحراء عندما تركها الاتراك. وتوجب عليهم آنذاك اعادة بناء حتى المنازل التي يقيمون فيها. ومنذ ذلك الوقت، تم بناء ثلاثة الاف قرية جديدة، وخمسين مدينة صغيرة وعشر مدن كبيرة. عواصم محافظات تم انشاؤها، ومدن عريقة منذ القدّم كـ اثينا واسبرطه وباتراس وكورينثيا، وبيرويوس وتريبوليتز، عادت لتنبثق من بين انقاضها لتتلألأ بعد ذلك فوق ظهر الارض. وتمت إقامة خمسة عشر ميناءً وتحسين إمكانياتها في سبيل تطوير المصادر البحرية للبلاد.

وفي نفس الوقت اذا نظرنا إلى تطور القوى الانتاجية وثروات البلاد سيدهشنا ما استطاع الشعب الهلليني ان ينجزه منذ بداية انطلاقته، ونتساءل، وماذا عن ميزانية اليونان بعد عدة سنوات من اقامة تلك المملكة الصغيرة؟ كانت ميزانية الدولة عام ١٨٣٣ تصل إلى ٧,٧٢١,٢٧٠ درخماً، واليوم ترتفع لتصل إلى ٣١٤٤١٣٠٠ درخماً اي انها تضاعفت خمس مرات. وتحكي فصاحة تلك الارقام وحدها كل مانريد قوله حول اليونان. وزادت معدلات نمو الشعب مع تطور الحياة الإجتماعية الكريمة. وكان تعداد السكان آنذاك ٦٠٠,٠٠٠ نسمة بعد حرّب الاستقلال. واليوم اصبح التعداد ١,٢٠٠,٠٠٠ نسمة. ويجب ان نعترف ان قلة من البلدان فقط يمكنها ان تحصل على تلك النتائج المهمة المُطمئنة، عندما تُلقى نظرةً لاستعراض اهم ماقدّمته وما تم خلال الاربعين سنة الماضية.

وتشبه عبقرية امة ما، الجوّ المحيط الذي يزداد حجمه كُلّما تمددت حدوده. ولتقدّم الحرية الكاملة للميول والغريزة الوطنية للهلليين والسماح لها بحدود مناسبة وسنرى انهم سيواصلون تطوير وسائل ووتائر التقدّم، وبداية عصر التحضر الذي وضعوا أسسه من زمن. وستجد البلدان التي تتحرر من قيود الهيمنة التركية، وتتخلص من ادارة سخيفة ونظام اجتماعي غير طبيعي، في اليونان مثالاً يُدلِلُ على ضمان تطوير مواردها وامكانية توفير حياة كريمة لشعوبها.

وبالمثل، حيث استطاع الملك جورج الاول ان يؤمن لشعوب الشرق مستقبلاً كريماً في ظل حكمه، سوف يقدّم بالمثل ضماناً اكيداً وصلباً لمصالح اوربا. ويتمثل ذلك الضمان في الابقاء على التوازن بين تأثير النضال المتنامي في اراضي الامبراطورية التي تخلق وحدة تلك الاراضي، فتلك هي المسألة الشرقية. ويمتلك اليونانيون دون منازع تلك الصفات التي تجعلهم قادرين على لعب دور شديد الحرج وبالغ الاهمية في سبيل خلاص اوربا. واستطاعوا بامكانياتهم التجارية المعروفة والبحرية والسياسة، استطاعوا ان يضعوا حدّاً للعدوان السري غير المنظور في حين ان شعورهم الوطني العالي وصفاتهم القتالية يقفان جداراً عالياً أمام كل هجوم عدواني مسلح. وافتقار الامبراطورية لتلك الفضائل مجتمعة، السبب الرئيسي وراء عدم احترام سلامة اراضيها واستقلالها. واذا ما استطاعت الامبراطورية ان تصد هجمات غازية احياناً، الا انها تفشل دائماً في ميادين اخرى من الصراع التجاري، الصناعي والسياسي.

فما الذي يفيدهم اذن من نجاحات في مكان آخر؟ ان ذلك هو السرّ وراء سقوط الامبراطورية التركية، ووراء استحالة بقائها في المستقبل. في هذا التقسيم الجديد للاراضي التركية، تضم المملكة اليونانية فقط هيلاس Hellas الحالية وايبريوس LE`pire و جزء من البانيا ومقدونيا. وتمتد حدودها من ذلك الجانب مع مملكة صربيا وستكون: لوسكومبية Le Scombi، وبحيرة اوكريد Ichrida وسلسلة موبسّك وستلحق لاتراس وبلغاريا بالضرورة إلى المملكة الجديدة، اما مصب الدانوب والبلقان سيكونا خطّي الدفاع عن القسطنطينية من ذلك الجانب، ومن جهة آسيا، فان المنطقة التي تضم البوسفور والدردنيل في المركز، تتطلب لاستكمالها ذلك الجزء من آسيا الصغرى القائم بين نهر ساكاريا، الميائدر والبحر. اما جزر الارخبيل فهي بالطبع ستكون جزءاً من المملكة الهيللينية. وباقي اجزاء تركيا الاوربية، يعني القسم الشمالي من بلغاريا انطلاقاً من الايسكار وشمال البانيا، والمنتينغرو الجبل الاسود، والبوسنه، والهرسك وكرواتيا التركية ستنضم إلى مملكة صربيا. ولان المملكة الهللينية تتمتع في ظروف كتلك بموقع ممتاز، ويبلغ تعداد سكانها من ثمانية ملايين نسمة إلى تسعة، عاشوا الحضارة والتقدّم، فلماذا لم تشملها معاهدة باريس بحمايتها؟ ويبلغ قِوامُ جيشها مائتين وخمسين الف جندي تحت السلاح، وبحارة بواسل؛ فهل يستطيع ذلك الجيش الدفاع عنها؟ ان استقلال تلك المملكة لابد منه للابقاء على التوازن الاوربي. وفي الحقيقة اذا تُركت تلك المملكة تعتمد على مواردها الخاصة، وتدخل في صراع طويل ضد عدو اقوى فستكون قواتها عاجزة عن الدفاع عنها وحين ذاك تتكفل الدول بحمايتها جماعياً ومساندتها. لأن ارض تلك الدولة وحمايتها باقيتان ومن يتغير فقط مُلاكها. ومع ذلك، فان ذلك الشكل الجديد لحمايتنا يقدّم فوائد جمة لايمكن انكارها. ولانه حالياً كلما طال بقاء تركيا، زادت وطأة مسؤولية الحماية. ولكن الحماية الجديدة، على العكس، يبدو انها سوف تتضاءل تدريجياً في المستقبل.

وتوضح تلك الحقيقة، كيف يتصاعد تأثير اليونان في الوقت الذي تسير فيه تركيا نحو الافول. فحمايتنا اذن تتزايد، ولكنها سوف تتناقص في الترتيبات الجديدة.

ومن بين العقبات التي لايتوقف انصار الوضع القائم عن اثارتها ضد سياسة كان يمكن ان تهدف إلى تنمية شعوب الشرق المسيحية، وان تقديم القسطنطينية لليونان يعني تماماً دخول الروس فيها. ويعتقد ان اليوناني روسي، وانهما شخصيتان مترادفتان، وذلك محْضُ افتراء. وراي كهذا تم نشره في انكلترا وفرنسا بتخطيط مدروس، ومن قبل اولئك الذين من مصلحتهم الابقاء على تركيا والاتراك في اوربا. ويتعارض الروس واليونانيون، شعوب الشمال وشعوب الجنوب. وبتوضيح تلك النقطة، سنرى انه مع شعوب الغرب يرتبط اليونانيون بروابط متجانسة وليس مع الروس. فاذا كان الشعور الديني لليونانيين المحرك الرئيسي والوحيد، فسنكون آنذاك على حق لو فكرنا بان الشعور الديني يتبع جميع المشاعر الأخرى لدى اي شعب مُتَديّن، وعليه فلن يكون لديه اعز من اخيه في الدين. مع ذلك ليس هو الوضع الان. هناك عاطفتان يجب الإهتمام بهما الشعور القومي والمصلحة، خارج نطاق الشعور الديني بل وحتى فوقه. ووصل الشعور القومي والوطني درجة كبيرة جداً ليطغيا على اي شعور آخر أو أي فكر أو رأي آخر. واليوناني مستعد لكل تضحية اذا تطلبت ذلك القضية الوطنية. فالتضحيات الكبيرة والخسائر والخراب الذي سببته حرب كاندي لليونانيين، لاتعني لهم شيئاً. بل انهم يتحملون كل ذلك بارتياح ويفخرون بها لان جميع تلك التضحيات قدّمت على مذبح الوطن. والشعور الوطني لديه قوي جداً لدرجة ان الهللينى يفتخر لكونه هللينياً. ومُثُلُه العليا التي يكرس لها نفسه كلياً حُبُ هيللاس -وطنه- وعقيدة اجداده. وتلك حقيقة طبيعية جداً لانه وقبل وبعد كل شيء يجد ان صفة الهللينية حصرية له وحده، في حين تشارك الصفة الدينية مع جميع الشعوب المسيحية الأخرى.

ان ما قلناه يوضح انه بعد كل شيء لايمكن ان يكون الشعور الديني مُحركاً قوياً كما يدّعي البعض. وليس صحيحاً الاستناد على ذلك المنطق واتهامهم بانهم انصار روسيا المتفانون. على العكس، بدلاً من ان يكونوا روسيين في عواطفهم وميولهم، فهم بالاحرى غربيون. ومن هنا فقط انتماؤهم لشعوب الغرب مصدر عواطفه الوطنية. وفي الواقع، فإن صوت الادب الغربي يصدح في آذانهم بأسماء آبائهم وكشفت لهم افكارهم. علماً انهم حاضرون في ميدان الفن الاوربي حيث يعيدون تقديم اشكال الاناقة والرقة التي افرزتها عبقرية الاجداد. والمؤسسات الاوربية، الا تُذكرهم بالعادات والاعراف الحرة والقوانين الحكيمة التي ادارت قديماً مصائر الهللينيين؟ تلك هي الروابط التي تمارس تأثيراً لايُقاوم على مشاعر اليونانيين وهي قوة مؤثرة تمحو ايّ تأثير آخر، اكان دينياً او ما ورائياً. نعم! الهللينيون غربيون اكثر من كونهم روسيين، ولكن قبل كل شيء هم هللينيون يتمسكون بتقاليد وطنهم وبمستقبله.

ولنستعرض الان صفة الهللينيين الأخرى والتي سميناها المصلحة. فهل ان المصلحة لديهم تنزل بكفة الميزان لدرجة تحويلهم إلى روسيين؟ ان الهللينيين يُعرَفون بانهم مصلحيون، وذلك صحيح إلى حد ما. فلدى الانسان مصلحة فطرية، وان الجميع لا اكثر ولا اقل، يتمسكون بمصالحهم الخاصة. فالمصلحة بعد كل شيء تذوب في مبدأ الوجود. والاختلاف تجاه ذلك الموضوع، هوَ بين هذا الرجل او ذالك؛ يعني ان البعض اكثر مهارة ويعرفون كيف يحققون مصالحهم بافضل من الآخرين. وغريزة المصلحة مُتأصِّلة لدى الهيلينيين، وهم اكثر مهارة بالنسبة لما يقيم الاود اكثر كثيراً من غيرهم. فمن هو المخطئ اذا كان صراع المصالح يأتي للهيللينيين بالحصاد الوفير؟ ولكن عبقرية المصلحة تلك السائدة لدى الهللينيين، ولو اننا نلوم البعض عليها انما تُبرهن على ان ذلك الشعب يرتبط بالغرّب بروابط لاتنفصم، في حين ان مصالحه مع روسيا تأتي في المرتبة الثانية. وتضخمت ابعاد تجارته لتمنحها مكانة خاصة في جميع اسواق اوربّا الغربّية. بل وتدفعهم تلك المصلحة لاحتضان قضية الغرّب وتفضيلهم ذلك على كل شيء آخر. واذا كانت اليونان قد وضعت جانباً روابطها ومصالحها مؤخراً، وظهرت تابعة لروسيا، فان السبب واضح وبسيط جداً: لقد وضعنا حاجزاً لايمكن تخطيه أمام مستقبلهن نُماحكه، ونعذبه ونزعجه ونضايقه؛ ونحتصن بدفء وأمام عدوه الطبيعي الذي نفضله. حسناً! ما الذي بقى ليحدث في اوضاع كتلك؟ عندما نكون ضعفاء وليس لدينا ما يفرض على الناس احترامنا، نُدير ظهرنا باحتقار ونطلب العون من آخرين. اننا نحن الذين سمحنا بذلك، انها سياستنا التي اجبرت اليونان على ان تدير ظهرها لنا رغم مشاعرها ومصالحه.

وبعد ان تحدثت عن ماهية التغييرات الدائرة في الشرق منذ حرّب القرم، والتحولات الضرورية التي تحدث نتيجة لها، بقى لي ان اشير هنا كيف ان تلك التغيرات جاءت نتيجة للتوازن الجديد القائم في اوربّا منذ زمن حرّب القرم. لقد قامت اوربّا ١٨٦٦ بالقضاء على اوربّا القديمة بقوانينها وتوازناتها السابقة التي كانت قائمة حينذاك قبل الحرّب. لقد كانت هناك ثلاث دول قبل ذلك العصر، على رأس المعزوفة الاوربّية، يمسكون مصائر العالم وهي روسيا وفرنسا وانكلترا. احداها تقع شمال اوربّا والثانية في الجنوب وتفصل بروسيا والمانيا مابين دولتي القارة، وتمنعان بموقعهما المركزي اي اتصال بين الدولتين. ورغم ابتعاد انكلترا جغرافياً عن باقي الدول، لكونها شبه جزيرة الاّ انها تعد رمانة الميزان في التوازن المتبادل للدول الاوربّية.

والهدوء الذي تنعم به اوربّا منذ اعوام ١٨١٥، سمح لانكلترا وروسيا بالتوجه إلى الغرّب حيث انفتح أمامهم ميدان واسع لمهَّمتهم التحضيرية. ومخافة وقوع صراع يمكن ان يمزق اوربّا، اتفقوا ضمناً على انه شريطة الابقاء على الوضع القائم والحفاظ على الهدوء في اوربّا يمكن لكل دولة ان تمتد بنفوذها بكل حرية قدر ماتستطيع في الشرق. وظهر انذاك تياران كبيران: تيار بريطانيا العظمى وتيار بطرسبورگ وموسكو

كنقطتي انطلاق. وتمددت انكلترا بواسطة اسطولها نحو الصين واليابان واستراليا، في الوقت الذي تقدّمت فيه روسيا عابرة السهوب والفيافي والقفار، تقدّمت لِتَقِف على ابواب امراطورية السماء.*

وكانت الغزوات البعيدة التي قامت بها انكلترا وروسيا صمام امان، لمنع هاتين الدولتين من استفزاز احداها الأخرى فيهددون بذلك هناك حد لتلك الغزوات. وعندما لاتجد الدولتان الغازيتان عقبات أمامهما تتقابلان وجهاً إلى وجه. واحتمال مثل هذا ممكن الحدوث في المستقبل القريب فذلك من طبيعة الاشياء. واعتقدت انكلترا انه من باب الحيطة اشراك فرنسا بحملاتها البعيدة. وذلك لانه اذا ما حدث وقام صراع ما ذات يوم في تلك الجهات، فلسوف يوجد حليف يمكن الاعتماد عليه. وسارعت فرنسا بقبول العرض الذي يسهل لها إستعادة نفوذها في الشرق الاقصى حيث قضت عليه الحروب الكونية. وكانت الجيوش والاساطيل الانكلو- فرنسية تحمل اسماءها الخاصة ورايتها الخاصة حتى آخر حدود الكرة الارضية.

وفي الوقت الذي تصاعدت فيه قوات الدول الكبرى وتعاظم نفوذها في الشرق، حدث نزاع لايمكن تفاديه كاد ان يهز اركان السلام في اوربا. فقد قررت فرنسا وروسيا وبدوافع مختلفة، ان تتنازعا النفوذ في جنوب اوربا، واختارتا قضية الاراضي المقدسة ليتقاتلا حولها. وكاد انتصار روسيا ان يهدد بالخطر ليس فقط مصالح الدول في الشرق بل وكذلك التوازن السلمي في اوربا. حينذاك، وجدت انكلترا نفسها مضطرة إلى الانضمام لفرنسا في تحالف هجومي ودفاعي.

لقد خلق ذلك التحالف قوة لايمكن مقاومتها لان القدرة البحرية لانكلترا متحدة مع جيوش فرنسا الكبيرة، وذلك من طبيعته التغلب على اية عقبة. ويجب ان نلاحظ هنا، ان هاتين الدولتين منقسمتان، لم يكن ايهما في وضع قادر على مواجهة مسيرة تقدّم روسيا نحو القسطنطينية. وما الذي كانت تستطيع أن تقوم انكلترا باسطولها ضد قوات القيصر التي كان بامكانها إحتلال الولايات الاسيوية والاوربية التابعة لتركيا؟ وبالمثل، هل كان بامكان فرنسا ان تنظم وحدها حملة ضد تركيا بدون مساعدة القوات البريطانية؟ اذن، كان اتحاد هاتين الدولتين لابد منه لمواجهة انتصار روسيا: واي اتحاد آخر ما كان يستجيب لحاجات الموقف. وفي هذه الحرب، لم تقدم خطة العمليات التي يجب اتباعها، خياراً آخر أمام الحلفاء. فلا فرنسا يمكنها وحدها النيل من روسيا الاّ بعبورها على جثة المانيا كلها، مُجددة بذلك معركتها الشهيرة لعام ١٨١٢، ولا كذلك انكلترا قادرة على احراز اي نجاح حاسم في هجومها على الممتلكات الروسية في البلطيق. انها تلك الاعتبارات التي اجبرت الحلفاء على تحويل العقبات التي تواجه طلائع الحلفاء ونقلها إلى البحر الاسود بإرسال جيوشهم واساطيلهم إلى هناك، رغم التضحيات الجسيمة.

---

* امبراطورية السماء، اسم كان يُطلق على الصين احياناً، لان اباطرتها كانوا يسمونهم ابناء السماء وسكانها اي شعبها يُسمّون السمائيون. [المترجمة]

وجاءت خاتمة حرّب القرم بنتائج تبرر ما قُلتُه سابقاً. وأستعادت الدول الغرّبية الثمن، وضحوا وامّنوا سلامة الاراضي العثمانية وحافظوا على السلم في اورّبا. ومع ذلك، فان التوازن الاورّبي الذي كان الحفاظ عليه من اسباب اشتعال هذه الحرّب. لم يعد كما كان قبل ذلك الصراع. لانهم وهم يقمعون نفوذ روسيا في جنوب اورّبا، اقاموا نفوذا آخر في مكانه: النفوذ الغرّبي. اذن، ايجاد تَفوقْ مكان تفوق، ونفوذ بدلاً من نفوذ آخر، وها هو التوازن ينال ما ناله. وزيادة على ذلك، فان نقل التوازن في الشرق من الطبيعي ان يقابله ارتداد وينتقل التوازن إلى قلب اورّبا.

وبين الحليفين، اخذ احدهما حصة الاسد ونال السيادة على دول اورّبا. ونابليون الثالث، بحنكته السياسية قد توقع بأن اعلانه الحرّب ضد روسيا، لن يُهيئ له فقط الفرصة للانتقام لكارثة الجيوش الفرنسية، ولكنه وهو يقوم باذلال اول قوة في القارة، اصبحت له السيادة والتفوق على الدول الأخرى. ودللت الأحداث على صحة وجهات النظر تلك، فذكرت انه منذ حرّب القرم، لم توجد قوة تنازع تفوق وسيادة فرنسا في اورّبا. في حين ان انكلترا فقدت قوتها أمام النسر الامبراطوري. وبرز من تلك السيادة التي تمارسها فرنسا في اورّبا، مبدأ إنتقل من الاقوال إلى الافعال، حيث تمت وحدثت آنذاك ثورة في العلاقات بين الدول الاورّبية، وهو مبدأ القومية والذي هللت له ضفاف السين، وأنتشر بسرعة البرق من ضفاف نهر ثو إلى ماوراء الراين. وحللت جميع تلك الشعاب وهللت لبرنامج الوحدة القومية الذي يضمن لكل بلد تَلاحُم شعبه وحدوده الطبيعية.

لقد انقسمت المانيا وتفتت إلى الف قطعة، وكانت دائماً تلعب دوراً ثانوياً بين الدول الاورّبية. ولكنهم يحتلون موقعاً مركزياً، يكونون كتلة متماسكة من خمسة واربّعين مليوناً. ورغم ذلك فقد كانت دوماً تحت رحمة جيرانه. ومن اسباب الاحوال القائمة في اورّبا آنذاك، تلك العداوة بين الدولتين الكبيرتين: النمسا وبرُوسيا. ولكي تكسر المانيا نير القيود التي تضغط بشدة على مصائرها، فكان على احدى الدولتين ان تترك المجال للاخرى. وتحت شعار المنتصر الذي يُثقل بسيفه كفة الميزان يمكن لالمانيا فقط ان يتم توحيد نفسها. وحققت تلك المهمة بَرُوسيا؛ التي استطاعت ان تنتزع السيادة والتفوق من أيدي النمسا، ورفعت بذلك المانيا إلى مصاف الدول الاورّبية الكبرى واجلستها في المقاعد الاولى داخل المحكمة العليا Are`opage* الاورّبية.

وجاء انتصار ذلك المفهوم بنتيجة غير متوقعة، ولكنه ملائم جداً لانه عمل على احلال التوازن الذي كانت حرّب القرم قد اطاحت به. وبعد معركة سادُوا Sadowa ها هي دولة قد انبثقت واخذت تنازع فرنسا في حق السيادة كما طالبت بحقها في المساواة: المانيا.

---

* Are`opage محكمة عُليا في اثينا تأسست قديماً وهي مسؤولة عن محاكمة الجريمة الخطيرة. وتمنع المرافعات الرنانة في المحكمة حتى لاتتأثر مشاعر القضاة ويُستدر عطفها. ودخل الاسم في اللغة ليعني الحياد والقيام بالواجب. وانها مُحايدة مستقلة وذات سيادة. وذلك يعني ان المانيا اصبحت ذات مكانة كبيرة. [المترجمة]

وقد عمل ذلك الحدث على تغيير العلاقات بين الدول، وأقامت في وسط اوربّا قوة تعمل على تخفيف حدة الطموحات القتالية لفرنسا من جهة في حين انها كانت من جانب آخر حاجزاً أمام التقدّم المتسارع لروسيا. وتنقص كفتي الميزان المهدئ. وها هي بُرُوسيا التي تلعب ذلك الدور المهم للمهدئ في مواجهة الدولتين الكبيرتين في القارة. وكانت نتيجة واقع الامور الجديد تلك، ظهور رهان اضافي يعمل على الحفاظ على السلم في اوربّا. وهكذا يتعزز التوازن، الذي لن يعود بعد ذلك ليكون تحت رحمة التذبذب الذي يعانيه أمام اقل حدث يمكن ان يحدث.

وكانت نتيجة واقع الامور الجديدة ذاك، وجود رهان اضافي يعمل على الحفاظ على السلم في اوربّا. وهكذا يتعزز التوازن ولن يعود بعد ذلك ليكون تحت رحمة التذبذب الذي يعانيه أمام اقل احداث. وبالمثل جاء التوازن في وسط اوربّا ليستقر على اساس صلب، علماً ان كل ازمة في اوربّا تتوقف تماماً عن ان تصبح موضوع قلق او انذار بالخطر. ويجب ان يتم تغيير السياسة الاوربّية تجاه الشرق وتحويل تركيا إلى مملكة جديدة دون أية مخاطرة ودون وجود اي خطر وذلك بسبب النفوذ المنظم لبروسيا. انها وبوضوح يقل اهتمامها بالمسألة الشرقية كثيراً عن غيرها. ولهذا وبسبب موقعها تسيطر على الاندفاع، ولجم هيجان الشعوب المجاورة الذين يودون بسط تفوقهم في الشرق.

ولنفترض وجود حالة يودون فيها إرسال حملة جديدة للقرم مثلاً. وفي فرضية كتلك سنرى ان الموقف الذي تتخذه بروسيا على نهر الاودر او على نهر الراين، يمكنه ان يوقف نزيف الدم المجاني، والقضية المعلقة يمكن ايجاد حل لها دون ان تدخل الدول المُعتربّة ان تدخل في مغامرات جديدة[٥٥] على البوسفور في تراس. ومنذ حرّب القرم، فأن التحالف الانكلو-الفرنسي كان، كما أتضح الأمر سابقاً، الطريقة الوحيدة التي تملكها الدول لخلق عقبة أمام انتصار التفوق الحصري لروسيا. واليوم، فان التحالف الانكلو- فرنسي يقدّم مزايا لاتُحصى للحفاظ على التوازن في الشرق، منها عدم اجبارنا على ان نكون شركاء في التوسع الاوربّي او السلافي. وتتطلب مصالح انكلترا في المسألة الشرقية مناهضة التوجهات الخطيرة لكل دولة اجنبية تجاه الشرق. وفي نفس الوقت من العدل والانصاف ان نقبل بالمزايا المشروعة التي تقدّمها لنا علاقاتنا التجارية. ويجب التخلي تماماً عن التفوق الشمولي.

وبتطوير اهتمام المانيا بتطوير قوتها البحرية، يُضاف اليها نفوذها في الشرق الاقصى، ستجد انكلترا في الامبراطورية الجرمانية حليفاً -كما كان حديثنا عن فرنسا- يمكن ان تكون له نفس المصلحة كما الآخرين في حماية موقع القسطنطينية ضد اي خطر، وكذلك بخصوص المسألة الشرقية، حيث ستعمل الشعوب المسيحية على تأمين وتعزيز مستقبل الشرق.

---

[٥٥] تلك المغامرات تكلف الكثير. حرّب القرم كلفت المتحاربّين ستة مليارات ونصف واربّعمائة الف نسمة زهرة شباب اوربّا.

رجال الدولة الغربيين يتفهمون جيداً النفوذ الكبير الاكيد الذي ستمارسه المانيا الجديدة على مستقبل اوربا وينسحب في النهاية على مستقبل المسألة الشرقية. وزيارات الدبلوماسيين وكبار الشخصيات المتكررة للعاصمة الالمانية خير مؤشِر للدول التي اخذت تلعبه في السياسة الاوربية. وصرح دبلوماسي ضليع في المسألة الشرقية ويمارس فيها سلطة الاعجاز، صرَّح بأن مفاتيح القسطنطينية توجد في وارشو ورغم احترامنا العميق للمعارف الكثيرة التي يملكها ذلك الشخص، ستسمح لنا مع ذلك باعلان رأي مخالف في الواقع. للبحث عن مفاتيح القسطنطينية، يجب الذهاب إلى الشمال. ولكن الادارة التي اختارها ذلك الدبلوماسي يبدو لنا امراً شاذاً. يمكن ان يكون لوارشو صفات كثيرة، والكثير من الالق، ويمكنها ان تؤثر على عقلية ذلك الدبلوماسي، في اثناء بحثه عن مفاتيح العاصمة الشرقية: ومع ذلك، يجب التوجه إلى برلين للبحث فيها للتمكن من اكتشاف تلك الفروة الذهبية في العصور الحديثة. وهي ارادة المانيا، ومعجزة بسمارك اللتان تقدّمان الاستشارة قبل القيام بالبحث في مصير تركيا المستقبلي.

وبعد ان استعرضت احوال تركيا، ماذا سيكون مصيرها؟ وما هو الوضع الحالي في اوربا نفسها وتجاه الشرق؟ لم يتبق لي الا القليل لاقواله. ووجدنا عبر الكتاب، الرغبة في الابقاء على الشرق في نفس النظام البائد، اذ سوف يتساوى ذلك بخيانة لقوانين الطبيعة المقدسة ولمباديء القرن التاسع عشر، ولروح المسيحية ولحقوق الانسان. وقد وضحنا بالمثل كيف ان تخلف الامبراطورية الهللينية، الامبراطورية العثمانية ستكون الوسيلة العملية لايجاد حل لقضية الشرق، بأيجاد طريقة تعمل على ارضاء تلك الشعوب بل واوربا كذلك. ثم وضحنا بعد ذلك ان عصر السياسة الجديدة الذي تدشنه اوربا يتطلب تغييراً جذرياً في علاقات الدول الاوربية بالشرق. وسأتوقف هنا اذن وانا الجأ لصوت العقل، والبصيرة وذكاء واخلاص رجالات الدولة في كل بلد ليبذلوا الجهود العامة المشتركة لتحاشي اضرار سيكون من الصعب جداً تقدير أبعادها.

ملحق ١
صورة تحليلية للجيش التركي

سوف يشكرنا القاريء لأننا قدّمنا له هنا صورة واضحة للجيش العثماني الذي يمكننا ان نستقي منها صفات حميدة وخطايا يتمتع بها افراده في مختلف فروع المؤسسة العسكرية. يفضل المختصون دون شك عرضاً كهذا اكثر من أية صورة أخرى، وحيث المعطيات الصادقة بهذا الشكل او ذاك، لاتعطي مجالاً لتقديم اية صورة حقيقية للقوة الفاعلة للقوات التي تمتلكها الامبراطورية التركية.

المشاة:

تعرض تسليح المشاة في تركيا لتقلبات كثيرة نتيجة ظهور الاختراعات الحديثة في الجيوش الاوربّية ومع ذلك يكمن الاختلاف في تركيا لان ماليتها المنهارة لم تستطيع ان تواجه متطلبات الخطة. وعملية التسليح نتيجة ذلك تتم في فوضى شاملة. فاذا كانت تركيا تقف على عتبة حرّب وتزيد استدعاء الاحتياطي فانك سترى من بين الاسلحة بنادق الحجارة. وتسليح الاحتياطي في مجمله مُتسلح ببنادق ذخيرة، عتيقة. وفي مدة حرّب القرم انتشرت الغدارات بين المشاة. وقامت تركيا بمشتريات كبيرة من الاسلحة من مصادر مختلفة: من بلجيكا، فرنسا، وقام بعمليات الشراء فؤاد باشا. حيث تم شراء اربعين الف بندقيثة موديل انفيلد Enfield عام ١٨٦٣ وزادت كمياتها بشراء Sniders وبنادق Chassepots [كانت تستخدم في فرنسا في حرّب السبعين. المترجمة]. ومهما كان نظام التسليح الذي يتبعونه، فأن انتظام التنظيم من اوائل شروط قوة جيش ما. وتمتلك المشاة اسلحة مختلفة تأتي من مختلف المصادر وهي اسلحة متنوعة العيار ومديات المرمى.

واصبحت ملابس المشاة افضل مما كانت عليه في السابق. ومع ذلك فكانوا يرتدون بنطلونات كاكي مما كان يرتديه الجندي الفرنسي قديماً ولا تُريح الجندي في تحركاته. اما الاحذية فقد كانت معيبة وغير متينة. وكانت تدريبات الفيلق الاول والثاني على إستخدام الاسلحة جيدة فهناك الكليات العسكرية. ولكننا نرى في غيرهما من الفيالق إفتقاد للتعليم العسكري النظامي وادى ذلك إلى تخلف المعارف التكتيكية. وعمل جهل الضباط على الا يتم بنجاح تطور افراد الجيش. ويمكن لكل ضابط عالي الرتبة ان يدير بعض الكتائب في الساحة ولكننا نشك في وجود ضابطين حتى في كل مراتب الجيش التركي يتمكنان من تطبيق التكتيك المدروس على متطلبات الطوبوغرافيا.

الخيالة:

كانت خيول فرق سلاح الخيالة صغيرة القامة، ولكنها متعودة على التعب. وحول هذه النقطة يمكن تفضيلها على خيول العواصم الاوربّية. اما اسرجة الخيول المعيبة فلاتبقى طويلة. وينقص لباسهم الكثير. ونرى الخيالة في اكثر الاحيان في اسمال بالية، في حين ترقد ملابسهم الجديدة في

المخازن. اما مسدساتهم وبنادقهم فهي قديمة الطراز. وسيوفهم تحسنت. والجندي التركي ولد خيالاً. ومع انه لايمكن مقارنته باجداده. فانه ينتشر بين ضباط ذلك السلاح الفساد والجُبن والجهل.

المدفعية:

التجهيزات، والخيل واسرجتها في حالة ممتازة. ورجل المدفعية التركي رام جيد، ومخلص لسلاحه. وخبرة ضابط المدفعية في العمل تأتي من كثرة العمل وليس من العلم. ووضع ذلك السلاح مريح، علماً ان التجهيزات الهائلة متراكمة في الترسانة ويعود ذلك الى جهود وحماس خليل باشا، والضباط البروسيين الذين نظموا ويديرون حالياً ذلك الجهاز.

سلاح الهندسة:

في تركيا، توجد كتيبة واحدة من ذلك السلاح. وفي بلد يحتاج إلى عمل كل شيء، وحيث الجيوش ووجود كتيبة واحدة من هذا النوع، يعد اقل كثيراً من المستويات المعقولة. ومن النادر إرسال مفرزة من ذلك السلاح إلى اي مكان. وهناك قيادات عليا عامة لاتعرف بوجود ذلك السلاح. وضباط ونواب ضباط ذلك السلاح تنقصهم الخبرة. وهم يقومون فقط بردم حقول بيرا Pera [منطقة في تركيا، يقيم فيها الاجانب. المترجمة]، او تسوية حدائق السلطان الاعظم.

الشرطة العسكرية الجندرمة:

لم يتكون ذلك السلاح الا مؤخراً. وتتركز خدماته في مراقبة المدن والقرى بافضل مايستطيعون سواء في زمن السلم او الحرّب، وتستطيع الجيوش ان تستغني عنهم وتتصرف بدونهم.

القيادة العليا:

يتكون ذلك الجهاز من مجموعة من الضباط الذين تلقوا تعليما بهذا الشكل او ذاك، وعلى رأسهم عقيد في سن العشرين وجنرالات في سن الثانية والعشرين دون خبرة او كفاءة. ولم يمارسوا الخدمة العسكرية ابداً. ولا يعرفون ما هي الروح العسكرية، وتنتشر بينهم المحسوبية والمعاناة وعدم الانضباط وعدم التشجيع للضباط وإحباطهم. في حين ان شباب الضباط الاكفاء وخريجي الكلية العسكرية، يرون ان مستقبلهم يضيع في هذا الجهاز. وهم انهم لايتمتعون باي تقدير او احترام في الجيش. ويغار الباشوات وكبار السن في الاتراك، يغارون من معارفهم ولاينظرون اليهم بعين الرضا. فاذا وجد ضابط وتلقي دراسة في اوربا ويود ان يتحاشى الاحتقار والمطاردة، تراه بدلاً من ان يقوم بواجباته وانجاز مايراد منه، يتقرّب إلى الباشوات.

في حين ان الخدمات التي يقدّمونها للجيش لاتكاد تُذكر. ولايملك ذلك الجهاز موظفين ولاقوات ولا مهندسين ولا تجهيزات ولا أُمناء ومخازن ولا شاحنات تحت تصرفهم انهم حتى لايتمتعون بثقة الباشوات الذين يحرصون على ان يقوم بمراسلاتهم سكرتيرون قادرون على كل طرق الخداع والابتزاز والتجاوز.

الادارة العسكرية:

تتكون ادارة ذلك الصنف من كتاب الباب العالي، وهؤلاء يشاركون الكتاب والعملاء في ادارتها. ومهمة هؤلاء التجسس على الجنرالات وعرقلة تصرفاتهم. وعليهم ان يظهروا حماسهم واخلاصهم وذلك بنهب مايستطيعون نهبه. ان تلك الادارة اسطبل حقيقي، وتستخدم بقوة بالعمل على شلّ تحركات باقي الجيوش العثمانية.

التشريع العسكري:

لايوجد قانون. اما المحاكم الابتدائية، والاستئناف ومجالس التحقيق، والقضاة، والمحامون والمدعون العامون،...الخ، اشياء يجهلها كل من يعمل في الجيش التركي من الجندي إلى الجنرال.

المستشفيات وسيارات الاسعاف:

وتقام المستشفيات بالقرّب من مراكز قيادة الاركان العامة. ويقومون على خدمتها جيداً ايام السلم. ولكنها في اوقات الحروب، تصبح تلك المؤسسات فريسة الفوضى والنهب والسلب. وخدمة سيارات الاسعاف سيئة جداً، حيث يبقى الجرحى مدة طويلة بدون نجدة او رعاية، وينقلونهم إلى المستشفيات على الخيل او غصون الاشجار والبنادق او على ظهور رفاقهم.

سلاح التموين:

فيالق خاصة مسؤولة عن نقل المؤن والذخيرة وتجهيزات الحرّب التي تفتقدها الجيوش تفتقد بدورها التنظيم. فهم ينقلون مثلاً الذخيرة على ظهور الخيل او البغال. وعند ما تحتاج الادارة إلى الحصول على دواب النقل، فالإجراءات التي تتخذها اشبه بالجملة. وتقوم بالاستيلاء على الكثير من تلك الحيوانات من البلدان المجاورة التي يجب تَوفرها. ويضعون الفلاحين أمام خيار، اما قيادة دوابهم او المغامرة بفقدانها إلى الابد. واحياناً مايقدّمون اجوراً لذلك على شكل سندات على الخزينة التي تقوم بدورها بتسديدها بالطبع. ويساهم ذلك النظام بالطبع على تدمير دواب النقل في المناطق حيث تمر الجيوش. وعند ترتيب إرسال تلك التوريدات، لايتخذ القائمون عليها وعلى قيادتها اية تدابير تنظيمية لذلك، وعند اول بادرة خطر، نعم الفوضى ويبدأ الهرّب. وتوضح تلك الحقيقة بطء تحركات الجيش وفشل جميع العمليات التي يقوم بها.

ملحق ٢

فيمايأتي ترجمة نص التحقيق مع قتلة التاجر اليهودي موشي، الذي عقدته اللجنة العسكرية في قوتور في السادس من مارس ١٨٦٣

أول تحقيق

يدور مع القاتل حسُّو، المعروف بگيڤنجي- اوغلو Guievendji- oghlou من سكنة قرية گيڤران التابعة لمقاطعة قوتور

س: ما هو عملك وماهي مهنتك؟

ج: انا احرث ارضي واقيم في منزلي دائماً.

س: هل تعرف اللصوص ومن يفسد في البلاد؟

ج: لا اعرف احداً.

س: هل انت الشخص الذي باع منذ اربعة أيام اثنين من جلود الثعلب لصاحب احد المحلات في قوتور ويدعى سيمو؟

ج: لست أنا البائع، انه رفيقي موخو.

س: من اين وممن اشتريتم تلك الجلود؟

ج: اشتريت احدهما من شخص يدعى چاين Chain، اوغلو،هاكو Hako، من سكنة قرية چليك Tchelik، والآخر من حاجي خان من سكنة قرية تارسوڤا.

س: وما هو الثمن الذي دفعتموه؟

ج: لقد أشتريت جلدين من حاجي خان، ودفعت سبعة عشر قرشاً ثمناً لكل جلد، وهو مبلغ مناسب لي، وذلك الذي اشتريته في حاكو، فقد دفعت ثمنه.

س: ومنذ متى اشتريتم تلك الجلود؟

ج: اشتريتهما منذ يومين فقط من بيعهما.

س: هذا الشخص الذي يُدعى موخو هل هو احد معارفك وصديقك؟

ج: نعم، انه صديقي، يزورني غالباً وانا بدوري ازوره كذلك.

س: منذ متى تعرف موخو؟

ج: نحن نعرف بعضاً من خمس إلى عشر سنوات.

س: من اي نوع من الرجال موخو؟

ج: انه رجل مستقيم، انه رجل كما يجب.

س: موخو احد رجال قبيلة الشكاك، فمن الذي ارسله لقرية تارسوڤا ومنذ متى هاجر اليها؟

ج: على الرغم من انني لا اعرف منذ متى استقر في ذلك البلد، فانني اعرف ان المدير احمد آغا الزمه بذلك.

س: هل كان موخو خادماً لدى المدير احمد اغا، وما الذي كان يقوم به؟

ج: كان يستخدمه رسولاً ينبئ ويرسل الاخبار وكذلك في مجالات اخرى.

س: هل رأيت، او هل تعرف اليهودي من باشقلا الذي اختفى مؤخراً؟

ج: مطلقاً، لم اره في حياتي، ولا اعرفه، مع انني اعرف مع ذلك رفاقه، اما بالنسبة له فلا انا ولا اخي نعرف عنه شيئاً.

التحقيق الثاني

للقاتل حسُّو، المعروف بگيڤنجي اوغلو

س: حسُّو، هل حقيقة ان اليهودي الذي اختفى مؤخراً قد إئتُمنك على حماره لتعتني به، وانك قمت ببيع الحمار اليهودي، وانك استُدعيت بعد ذلك للمساءلة أمام المدير الذي اجبرك على دفع غرامة لليهودي؟

ج: كانت هناك قضية، وقمت بدفع كل مايجب ان ادفع له.

س: في المرة السابقة، قلت انك لاتعرف اليهودي موشي، فهل من المعقول الآ تعرف ذلك الشخص الذي كان بينك وبينه منازعات وقضايا انك تعرف موشي اذن؟

ورفض القاتل الاجابة، وامتنع تماماً عن الرّد، بشكل يستحيل معه مواصلة التحقيق.

التحقيق الثالث:

مع القاتل حسُّو المعروف باسم گيڤنجي اوغلو

س: هل تعرف شخصاً اسمه حسُّو، من سكان قرية گيڤرليك Guierlevik؟

ج: نعم، اعرفه انه احد رجالنا.

س: اي نوع من الرجال هو؟

ج: الكل يعرف انه لص.

س: حسُّو من گيڤرليك، قد شهد بانه بعد ان خرج من قرية گيڤرليك، وسار بعض الطريق مع اليهودي، تركه وتوجه إلى هناك، هل ذهب حقيقة إلى هناك؟ هل تعرف؟

ج: لا، ولكن يُقال انه ذهب إلى هناك.

س: حسُّو من گيڤرليك يقول انه قطع بعض الطريق سائراً مع اليهودي ودافعاً أمامه حمار اليهودي، وانه التحق بك وعندما رآك لسبقه، طلب منك اين تذهب وانك اجبت على ذلك بقولك انك ذاهب إلى قرية كيراتور حيث لديك هناك بعض الشؤون؟

وقد انكر القاتل تماماً تلك الحقائق، حينذاك طلبت المحكمة عن حسُّو الآخر من گيڤرليك والذي كان مختبئاً طيلة التحقيق ولكن بطريقة ان يتواجه الاثنان وجهاً لوجه بعد ظهوره وكان منظراً، ظهر فيه حسُّو القاتل، الذي قام بإتهام حسُّو المختبيء بانه هو القاتل الحقيقي، ومؤكداً على ان لديه البراهين، وطلب ضرورة الاستماع لشهادة شمسكلي اندي و هانيكلي نيبو، وأمام ذلك التأكيد طلب حسُّو من گيڤرليك اوغلو، القرآن لكي يقسم عليه، كما لو ان كل ما قاله بحق حسُّو القاتل هي الحقيقة.

تحقيق:

مع القاتل عبدالله، شقيق حسُّو، الشهير بگيڤنجي اوغلو

س: ماهي مهنة وعمل شقيقك حسُّو؟

ج: انا الذي اقوم بالعناية بالقطعان وبشؤون العائلة، واخي يقوم فقط بالذهاب هنا وهناك.

س: هل تعرف احداً باسم موخو؟ ما هو نوعه من الرجال؟ وهل يزوركم غالباً ف يمنزلكم؟

ج: نعم. نحن نعرفه رجلاً شجاعاً، ويزورنا عندما تكون لديه بعض الأعمال.

س: هل تعرف ان موخو يعرف اللصوص والقتلة في هذا الجوار؟

ج: نعم. انه يقوم بمثل تلك الأعمال، انه يعرفهم جيداً.

س: هل تعرف ان الجلدين اللذين بيعا إلى سيمو يعودان لاخيك او موخو؟

ج: انهما يعودان للاثنين وباعاهما معاً.

س: ممن اشترى اخوك هذين الجلدين؟

ج: اشترى منهما واحدة من حاجي خان رئيس القرية، حيث يقيم موخو، والآخر من حاكو فلاح من چليك.

س: منذ متى اشترى اخوك هذين الجلدين قبل بيعهما؟

ج: قبل ثلاثة ايام.

س: هل يملك موخو ممتلكات او بيتاً في قريته؟

ج: لا. لايمتلك بيتاً ولا ممتلكات، ولا اي شيء تماماً. كان يقيم لدى عمه، وقبل سنتين اقام في قبيلة، عمر كؤر ومن هناك عاد واقام في تلك القرية والذي استدعاه هو احمد آغا.

س: هل حقيقة، انه في اليوم الذي دخلتما فيه قوتور لبيع الجلود وانه حينما كنتما تتنزهان في السوق مع موخو، وجه لكما احمد اغا الحديث قائلاً: يا موخو، ويا حسُّو، ادينكما بمقتل اليهودي؟

ج: نعم. ذلك حقيقي، ولكننا اجبناه بقولنا باننا لانعرف أيا او شيئاً عن هذا الموضوع، واننا ندعوا الله له بطول العمر.

س: هل أعلمت اخاك حسُّو بما قاله المدير للتو؟

ج: لا. انا لم اقل شيئاً لاخي، انه المدير نفسه الذي قابله بعد ذلك، وكرر عليه بالمثل تلك الاقوال.

اول تحقيق

مع القاتل موخو من قبيلة الشكاك

س: ما هو اسمك، ومن اين اتيت؟

ج: اسمي موخو، احد رجال علي آغا رئيس قبيلة الشكاك.

س: كم من الوقت قد مرّ منذ تركت علي آغا؟

ج: منذ خمس سنوات فقط.

س: لِمَ تركته؟

ج: ظلم علي اغا اخبرني على ترك قبيلتي.

س: عندما تركت القبيلة، هل كانت رغبتك الذهاب للاقامة في قوتور، او ان هناك شخص اخر كان السبب في ذلك.

ج: نعم انه المدير احمد آغا الذي دعاني للعيش فيها.

س: هل جئت وحدك للاقامة في هذه المقاطعة، ام جلبت عائلتك معك؟

ج: اولاً، جئت وحدي، وبعد ذلك دعوت عمي وبعض رجال القبيلة للاقامة فيها.

س: ماذا تعمل؟

ج: اقوم ببيع البضائع من مكان إلى آخر.

س: اين تقيم؟

ج: اقيم في قرية گيڤيران Gueiveran.

س: هل لديك منزل في هذه القرية تقيم فيه، او انك تقيم لدى شخص آخر؟

ج: اقيم في منزل گيڤنجي اوغلو.

س: من هو من الرجال صديقك هذا گيڤنجي اوغلو؟

ج: ليذهب إلى الجحيم، انه شخص شيء.

س: لماذا بقيت تقيم لدى حسُّو، بدلاً من ان تقيم مع عمك في تارسوظا؟

ج: عندما طردني عمي من المنزل، دعاني حسُّو للاقامة معه، قائلاً: لي انه سوف يتقاسم معي كل شيء كأخ، وانا ذهبت اليه.

س: منذ ان اقمت في ذلك البلد، هل ترى دائماً المدير احمد آغا؟

ج: نعم. أذهب اليه في كل مرة اذهبت فيها إلى قوتور.

س: هل انت و حسُّو من بعتما الجلدين لصاحب المحل حسُّو في قوتور؟

ج: نعم. انا الذي بعثتهما بصحبة اخيه.

س: ماهو الثمن الذي دفعه حسُّو لشراء جلود الثعالب تلك، وما هو الثمن الذي اخذتموه لقاء البيع؟

ج: اشتراهما حسُّو مقابل خمسة وثلاثين قرشاً، وبعتهما مقابل سبعة وثلاثين قرشاً ونصف القرش.

س: عندما وصل الجيش إلى قرية گيڤيران، لمَ هرّبت؟

ج: قيل لي ان العثملي وقد جاءوا للقبض علي، ولذلك هرّبت.

س: في اليوم الذي جئت فيه إلى قوتور مع عبدالله شقيق حسُّو، لبيع الجلود، هل قابلتما المدير احمد آغا في السوق، وفي هذه الحالة قل لي ماذا قال لكما وانتم تمرون أمام المحلات؟

ج: نعم. قابلنا وقال لنا: نفترض انكما قتلة اليهودي، قلنا له: نحن لانعرف مثل تلك الاشياء، ولتكن قوتك قد دامت طويلاً، فان ذلك لايخصنا باي حال.

س: بعد ان سمعتما تلك الاشياء من فم المدير نفسه، هل اوصلتما ذلك الحديث إلى حسُّو؟

ج: لا. لم تكن هناك حاجة ان نقول له ذلك، لاننا كنا نحن الثلاثة معاً.

س: هل كانت هناك قضية منذ عام ضد رفيقك حسُّو اقامها اليهودي بخصوص حمار؟

ج: كان اليهودي قد ائتمن حسُّو على حماره ليعتني به، وبما ان حسُّو باع الحمار اصبحت لهما قضية أمام المدير.

س: منذ خمسين يوماً، عندما جاء اليهودي إلى قوتور هل التقيت به انت وحسُّو ورأيتماه، ام انكما لم تكن لكما علاقة به آنذاك؟

ج: نعم. كنا نراه غالباً، ولكن لم تكن معه اية علاقة.

التحقيق الثاني:

مع القاتل موخو من قبيلة شكاك

س: هل لاحظت مؤخراً، ان حسُّو لديه الكثير من المال اكثر من الاعتيادي؟

ج: رأيت ثلاثة جنيهات مجيدية من الذهب معه.

س: الم يقل لك حسُّو ابداً انه قتل اليهودي، او انك سمعت ذلك من آخرين؟

رفض موخو تماماً ان يجيب باي شيء بخصوص ذلك.

س: في الوقت التي قُتل فيها اليهودي، اي الخمسين يوماً السابقة، هل ذهب حسُّو إلى قرية كولوك؟

ج: نعم. ذهبت الها ليشتري بعض الخراف.

س: كم من الوقت قضاها حسُّو غائباً عن المنزل عندما ذهب إلى كولوك؟

ج: بقى هناك ثلاثة ايام.

س: هل تعرف ان حسُّو هو قاتل اليهودي؟

ج: انا لا اتنزه ابداً معه، وانا ليس لدى معه اية علاقة.

اضطر المحقق ان يضع حداً في ذلك اليوم لذلك التحقيق على ان يستأنف في الغد ولكن لسوء الحظ، نجح القاتل في الهرّب اثناء الليل ولجأ إلى الاراضي الإيرانية.

اول تحقيق:

مع حسُّو من گيرليڤيك هكاري اليهودي موشو

س: هل انت من سَكَنة گيرليڤيك، او من مدينة أخرى؟

ج: لا. انا من سكان مدينة هارتوش، وأقيم في گيرليڤيك، منذ ثلاث سنوات.

س: هل لديك منزل وعائلة في تلك القرية؟

ج: لا. ليست لدي اسرة وأعيش مع شقيقي الاكبر ووالدتي.

س: ماذا تعمل؟

ج: انا فلاح مزارع.

س: هل تذهب غالباً إلى قوتور؟

ج: نعم. للقيام ببعض الشؤون، ولذلك اذهب دائماً إلى هناك.

س: كيف حدث ان أقمت في مقاطعة قوتور؟ هل دفعك احد للاقامة هناك؟

ج: قدّمتُ خمسة اغنام هدية إلى احمد آغا المدير، ولهذا قدّم لي مكاناً اقيم فيه.

س: هل كنت تعرف تاجراً يهودياً اسمه موشي؟

ج: نعم. اعرفه جيداً كما اعرف ابي وامي.

س: هل رأيت اليهودي آخر مرة عندما مرّ بقريتكم في طريقه إلى باشقلا؟

ج: نعم. قضى الليلة في قريتنا. وكان هناك شخصان احدهما يدعى حاجي، والآخر سالاش كان قد خطف نسيبه احد سكان هانك، يدعى رجب وطلب مني رئيس قريتنا الذهاب إلى هانك من اجل تلك القضية. ونحو الظهر، وبالقرب من الجبل الواقع بين گيرليڤيك و كاتشكول والتقيت باليهود الاربعة الذين تركوا قريتنا في الصباح.

س: هل تحدثوا معك عندما التقيتهم؟

ج: قال موشي لي. حسُّو انت احد اصدقائي القدامى، وانا احبك، لو سمحت خذ حماري وسر به على طول الطريق، لانني سأذهب مع رفاقي إلى قرية كاتشكول حيث لدي بعض الأعمال. واستطيع ان القاك قبل ان تصل إلى منعطف الطريق. اخذت الحصان وذهبت به إلى المكان المذكور. وبعد نصف ساعة من ترك اليهود، رأيت حسُّو الملقب بگيڤنجي اوغلو، وهو من سكنة قرية گيڤران يأتي خلفي مسرعاً ومعه خنجر في حزامه، وبندقية ومسدس. وسألني وهو يقترّب الي اين سأذهب؟ اجبته آنذاك انني ذاهب إلى كيراتور؛ ومن ثم، تقدّم حسُّو أمامي، دون ان يقول شيئاً وهو يستكشف باهتمام البلد المحيط بنا.

التحقيق الثاني

مع حسُّو من گيڤرليك

س: عندما ذهبت إلى هانيك، هل كانت لديك بندقية؟

ج: نعم. معي سيفي وبندقيتي.

س: بعد ان استطاع حسُّو گيڤنچي اوغلو وصل إلى اليهودي في الطريق، هل ذهبت إلى هانيك.

ج: نعم. ذهبت مباشرة إلى هانك.

س: في التحقيقات السابقة، كيف انك واليهودي قد لحق بكما حسُّو گيڤنچي اوغلو. فهل كان هناك من يرافق حسُّو؟

ج: بعد ان تركنا قرية كيراتور، فان حسُّو وموخو وشقيقه عبدالله، ثلاثتهم خرجوا من الحقول التي تحيط الشاعر. وسألتهم إلى اين يذهبون، اجابوني انهم ذهبوا إلى عم موخو، الذي يقيم في قرية كولوك، ولكن ما ان انهوا هذه الكلمات هجم حسُّو ورفاقه الاثنان علي وقيدوا يديّ ورجليّ ورموني ارضاً وقالوا: هذا ما كان يجب ان نفعله في قوتور. وبعد ان نقتل صديقك اليهودي سنقتلك بدورنا. وبعد ان انهوا ذلك الكلام، ذهبوا ليبحثوا عن اليهودي.

س: اين كان اليهودي في ذلك الوقت التي قيدوك فيها؟

ج: في اللحظة التي كان القتلة يقيدونني، كان اليهودي قد بقى في قرية كيراتور. وحين رآني في ملقى على الارض بجانب اغراضه وحماره، ترك طريقه وهرّب إلى النهر وهو يصيح بأعلى صوته: حسُّو! سوف يقتلني. ولم يكد يُنْهى كلامه حتى قطع گيڤنچي اوغلو عليه الطريق في الوقت الذي امسك به موخو وعبدالله من ظهره في الوقت الذي قيدوه فيه، ثم احضروه بجواري. وانتظر القتلة غروب الشمس، وفي هذه الاثناء كان اليهودي يتوسلهم في الابقاء على حياته وسيتنازل لهم عن كل مايمكن ولم تكن لديهم سوى إجابة واحدة، سنقتلكما انتما الاثنين. ولم تجد توسلاته نفعاً، وبعد ان كمموا فمه كذلك ساروا به إلى نهاية المنحدر.

س: الم تسمع شيئاً بعد ان قال القتلة ما قالا وهم يأخذون اليهودي؟

ج: قال موخو لحسُّو، يجب ان نقيد ايدي اليهودي، هذا كل ما سمعته.

س: كم من الوقت انقضى مابين ذهاب اليهودي والقتلة وعودة القتلة؟

ج: عند عودتهم كان الوقت اكثر من منتصف الليل.

س: وعند عودتهم، الم يقل لك القتلة شيئاً؟

ج: احدهما قال لي، ونهاية السيف تضغط على صدري والآخر بخنجره والثالث موجها غدارته نحو رأسي فقلت لهم: لقد قتلتم اليهودي، وانا مسلم. يجب ان تأخذكم بي الشفقة، واقسمت لهم انني لن اكشف مطلقاً هذا الأمر لاى كان.

س: كيف عاملوك بعد ذلك اذن؟

ج: بعد ان فكوا قيود قدّميّ قادوني إلى قريتي مغلول اليدين، إلى گيڤرليك، واثناء الطريق توقفوا خمس مرات او ست ووعدتهم بانهم حتى لو قطعوني ارّباً، لن اقول شيئاً وما عانيته لا إلى قاض او وزير، وفي النهاية وبالقرّب من القرية تركوني وذهبوا مباشرة إلى الجبال.

س: وفي تلك الاثناء ماذا حدث لامتعة اليهودي وحماره؟

ج: لقد اخذوا متاعه وحماره وهم يبتعدون به، وعند عودتهم لم يكن لديهم اي شيء.

س: ان هؤلاء الخارجين على القانون يلوثون هذه البلاد ويهاجمون دوماً قُراكم وممتلكاتكم. انني اعرف انكم يجب ان تجبروا الجميع على احترام ممتلكاتكم وانتم تعرفون هؤلاء الناس؟

ج: ان المجرمين الذين يفسدون في هذه المقاطعة هم هؤلاء الثلاثة فقط: انهم الذين ينهبون ما نملك، وهم ليسوا سوى عملاء المدير احمد آغا.

س: كيف عرفت انهم عملاء احمد آغا؟

ج: اذا ما رأينا انه على بعد عشرين فرسخاً، نتعرف على جرائم هؤلاء، فكيف يبقون طلقاء على بعد مسيرة نصف ساعة من منزل احمد اغا، ان ذلك يدلل بوضوح على ان المدير متداخل في القضية وانه شريك لهم.

التحقيق

مع محمد من گيڤرليك

س: في الوقت الذي كان فيه اليهودي متوجهاً إلى باشقلا، ومرّ في طريقه بقرية گيڤرليك هل رأيت حسُّو گيفنجي اوغلو في القرية او في محيطها؟

ج: نعم. ذلك اليوم الذي كان فيه في گيڤرليك، كان يتجسس على اليهودي ويراقب تحركات اليهود.

س: وهل كان مسلحاً؟

ج: كانت لديه بندقية وفي يده خنجر بمسك ابيض.

س: إلى متى ظل حسُّو في القرية؟

ج: قال لنا انه سوف يذهب إلى كاتشكول، ومن ثم إلى هانك.

س: هل كان موخو برفقة حسُّو ذلك اليوم وهو عائدٌ إلى القرية؟

ج: نعم. حسُّو وموخو لايفترقان ابداً، وفي ذلك اليوم كانا معاً في قريتنا.

س: ماذا كانوا يرتدون؟

ج: كلاهما كان يضع على رأسه طاقية يحيطها منديل كبير، وكانوا يرتدون ملابسهم مقلوبة.

س: ماذا كان حسُّو من گيرلفيك مرتدياً عندما خرج من القرية وطارد اليهودي؟

ج: كان على كتفه بندقية وسيف ودرع. وكان يرتدي بنطالاً اسود واسعاً. ولكن يجب معرفة اذا كان السلاح الذي أخذناه يعود اليه، ولا ادري اين خبأ اسلحته هو؟

التحقيق

مع الملا جبرائيل كبير السن، الذي يقيم في قرية هاراڤا

س: اي بلد تقيم؟

ج: انا من سكنة قرية سِيّار في منطقة گڤر Guiever، ولكن ومنذ خمسة اشهر فقط اقيم مع اسرتي في قرية هارو Haraux.

س: هل تتذكر ان قابلت رجلاً منذ خمسين يوماً، على الطريق بين قُرى البيس و كيراتور.

ج: نعم وانا خارج من قرية البيسه Elbisse، ومتوجهاً إلى كيراتور، وقبل الغروب بساعتين او بساعتين ونصف، قابلت كردياً، بندقيته على كتفه، ويقود حماراً عليه احمال. وبعد ان عبرت النهير، رأيت ان الكُردي بدلاً من ان يتابع الطريق المؤدي إلى البيس، توجه نحو الجانب الايمن من الطريق، وبعد نصف ساعة، قابلت كردياً، ذا لحية بنيّة، يجري احياناً واحياناً يحُث الخطى.

س: هل تحدثت معه عند ما اقتربت منه؟

ج: نعم. سألني اليهودي: هل قابلت رجلاً يحمل بندقية على كتفه ويسوق حِماراً؟ وبعد ان اجبته ايجاباً استأنف قائلاً: هل استطع ان اصل اليه؟ وما ان اجابني هكذا، تركني وأستأنف الركض من جديد.

س: هل ذكرت لليهودي ان الكُردي، بعد ان عبر النهر ترك الطريق وغير اتجاهه إلى اليمين؟

ج: لا. لم اقل له ان الكُردي قد غير اتجاهه إلى اليمين او إلى اليسار؟

س: بعد ان تَركتَ اليهودي، هل قابلت ايّ كردي سواء على الطريق او على جانبيه من الطريق المؤدي إلى كيراتور؟

ج: لا، سيدي! لم اتعرف على احد ولم آرَ احداً.

س: هل تستطيع ان تتعرف إلى الكُردي الذي كان يسوق الحمار عندما تراه؟

ج: كان بعيداً عني، ولن استطيع التعرف عليه.

س: اين كنت ذاهباً ذلك اليوم؟

ج: كنت قادماً من قرية الدور Dour، وذهبنا بعد ذلك إلى كاتشكول.

التحقيق

مع رئاسة وسكان هانك

س: ايها الاعضاء، وايها القرويون! هل جاء الشخص المدعو: حسُّو من گيرلفيك إلى هانك يوم هروب نسيبه السيد رجب؟

ج: لم نرَ مطلقاً حسُّو من گيڤرليك في قريتنا، ولا في ذلك اليوم ولا في اي وقت آخر.

التحقيق

مع رئيس الجندرمة مهدي بك

س: هل جاء حسُّو من گيفرليك اليكم بخصوص قصة الفتاة التي هرّبت؟

ج: لم ارَ حسُّو مطلقاً، ولم يأت مطلقاً إلى هذه القرية.

بدأت التحقيقات التي دارت بأمر من القائد عثمان سيفي بك، وبتوجيه من نائب الضابط خليل آغا، قائد المجموعة المسؤولة عن احضار القتلة إلى مدينة باشقلا وتسليمهم إلى السلطات المدنية، بدأت في نفس الوقت الذي عاد فيه القتلة إلى مسرح الجريمة.

س: حسُّو من گيڤندي اوغلو، ولم يُخْفِ شيئاً من الحقيقة.

ج: استدعانا المدير إلى منزله وقدّم لنا القرآن وطلب من ثلاثتنا ان نقسم، وبعدها قال لنا اذهبوا واحضروا اليهودي وسلموه لرجالي. حينذاك ذهبنا والقينا القبض على اليهودي واخذنا حماره ومتاعه ونقوده وسلمناه مُعَاقٌ إلى رجال احمد اغا الذين كانوا ينتظروننا في مكان يدعى شكفتي آغلي. وفي اليوم التالي عُدنا إلى قريتنا. وبعد عشرين يوماً مرت على وفاة اليهودي كنا في قوتور. واستدعانا المدير وادخلنا حديقة منزله. وقال لنا لاتخافوا شيئاً، سوف اساعدكم وادفع عنكم بكل ما املك ومن صميم القلب. وحتى اذا ارسلوكم إلى باشقلا، فانني استطيع ايضاً انقاذكم.

وظن الموقعون ان من واجبهم تقديم جميع المعلومات إلى المجلس الاداري ومحكمة مقاطعة هكاري، هذا إلى جانب الدلائل التي حصلوا عليها من المواقع ذاتها والمتعلقة بمقتل موشي الأسرائيلي، وعرضوا هكذا وبواسطة الوثيقة الموجودة الان جميع نتائج الجلسات التي عُقدت بحضورهم.

عثمان سيفي بك محمود آغا

قائد الكتيبة الثالثة، من الفرقة الرابعة كابتن اللواء الثاني/ الكتيبة الثالثة

علي آغا خليل آغا

كابتن اللواء الاول/ الكتيبة الثالثة نائب ضابط اللواء الثالث/ الكتيبة الثالثة

محمد افندي خورشيد افندي

كبير عرفاء اللواء الرابع/الكتيبة الثالثة اللواء الاول/ الكتيبة الثالثة

الملحق ٣

الرسالة الاولى:

إلى: الأمر عثمان بك

سيدي،

بعد علمنا بان فصيلاً من الفرق الاربع من القوات تحت امرتكم، وسوف يتم نقلها إلى قرية الملا حسن، والآن تلك القرية تقع على مسافة ثلاث ساعات من السراي وحيث لايوجد سوى خمسة عشر مترلاً، بدلاً من وجودهم في ذلك السراي الكبير الواسع، ومع كل ذلك، ولما انني لم اتلق معلومات بهذا الخصوص، اود من سيادتكم اعلامي على الفور عندما تستلم هذه الرسالة، واود ان تضيف تلك القوات إلى قوات السراي فمن الافضل ان تبقى القوات مجتمعة.

جنرال قائد فرقة في جيش الاناضول

ختم عزمي

الاول من سبتمبر انظر اعلاه

ملحوظة: تجب ملاحظة ان الباشا وسكرتيره قد اغفلا التأريخ الهجري واليوناني على السواء. فهل كان ذلك من اجل انكار صدق الرسالة؟

الرسالة الثانية:

يعلن الموقعون ادناه، انه في المدة التي ذهب فيها العقيد مصطفى بك من قوتور إلى وان، قام بزيارة اللواء الرابع من الكتيبة الثالثة للفرقة الرابعة في الخدمة، والتي تعود إلى جيش الاناضول. وفتش عليها، حيث لواء منها في قرية شرفهانه والتعداد الكلي للفرقة المعنية خمسة وسبعون الف جندي. وقع خمسة عشر جندياً صريع مرض التيفوئيد أُرسل منهم خمسة إلى مستشفى وان؛ وقد توفي احدهم عند زيارة العقيد. ورأينا من واجبنا عرض احوال الجنود أمام العقيد الذي وعدنا واكد علينا انه سوف يبذل قصارى الجهد حتى تذهب تلك الفرقة إلى وان حيث تنتهي جميع معاناتهم وعذاباتهم،

ختم ختم ختم

الملازم اول شابان آغا ملازم ثاني علي آغا كبير عرفاء ڤيلي

الوثيقة الثالثة:

لاتوجد وثيقة ثالثة والسبب هو: قبل ان يصيب المرض الجنود ويصل إلى نسب تثير القلق، تصرفت كباقي زملائي ولم احفظ وثيقة او رسالة او كتاب، وكنت اتعامل كل يوم مع ادارة الكتيبة. ومع ذلك ومع تغير موقف الضباط في وان نتيجة حتمية لما حدث، وبدأت بالاحتفاظ برسائلي و

وثائقي وفق الاستخدامات في جميع الادارات النظامية، وحرصاً على تقديم تقريري الاول المفيد. وكان ذلك في التقرير الرابع الثاني الذي ارسلته إلى عزمي باشا كما ذكرت في الوثيقة الرابعة.

التقرير الرابع:

إلى: صاحب السعادة عزمي باشا جنرال الفرقة

صاحب السعادة

لي الشرف ان اخبر سعادتكم في رسالتي الاخيرة في تشرين الثاني بأن حمى التيفوئيد قد انتشرت بين القوات الامبراطورية في حامية قوتور. واجد نفسي ملزماً ان اقول لكم انه في الايام الاخيرة تأسف لوفاة ثماني جنود إلى جانب ستة وثلاثين مُصاباً بالمرض في مستشفى وان، حيث يعالجون، وهم في حال من الضيق والبؤس الكاملين.

وثقتي كاملة في مشاعركم الانسانية المعروفة عن سعادتكم بانكم سوف تتخذون الإجراءات الكفيلة بوقف انتشار ذلك الوباء بين جنودنا... الخ.

خادمكم،

آمر الكتيبة الثالثة من الفرقة الرابعة

ختم عثمان سيفي

٢٤ كانون الاول انظر اعلاه ٦ يناير ١٨٦٣

الوثيقة الخامسة:

إلى: صاحب السعادة المشير قائد جيش الاناضول

صاحب السعادة

... ارى من واجبي ان اعرض لسيادتكم اوضاع قوات الامبراطورية تحت قيادتي. ويؤلمني ان اقدّم فيمايأتي تقريراً مؤلماً مثيراً عن واقعهم المحزن.

في هذا الفصل الشديد البرودة، وحتى نهاية كانون الاول، ظلت القوات الامبراطورية محرومة من الملابس الداخلية. ومع ذلك فان قيادة وان، تقوم بمحادثات حادة لذلك الموضوع.

ولم يرسلوا بعد ملابس الشتاء، ويجد قسم كبير من القوات ارتداء اسمالٍ بالية وبناطيل مهلهلة. ولكي تصل الامور إلى ذروتها انتشرت حمى التيفوئيد بين الجنود، فإلى جانب وجود اربعين مريضاً في المستشفى، نأسف لوجود تسع وفيات.

ورغم محاولاتي مع السلطات المقيمة في وان، رفضوا تلبية اية نجدة او طلب ولم يرسلوا اسِرة ولا ادوية ولا اطباء او كل ماله فائدة مطلقة.

واستطيع ان اعرض لسعادتكم وبالتفصيل اسباب تلك المآسي، وسوف اؤجل ذلك إلى الوقت الذي سأكون في القيادة العامة وبشكل رسمي وأقدم جميع البراهين على المعلومات وعلى شكواى وانتهز تلك الفرصة.. الخ.

آمر الكتيبة الثالثة من الفرقة الرابعة ختم

عثمان سيفي

٢٧ ديسمبر انظر اعلاه، إلى ٩ يناير ١٩٦٣

الوثيقة السادسة:

إلى: سعادة عزمي باشا، جنرال الفرقة

صاحب السعادة،

وفقاً لتقريري المرسل في ٢٤ ديسمبر ١٨٧٢ انظر اعلاه، وبرقم ٧، كان لدى شرف ابلاغ سيادتكم بوفاة ثمانية جنود من حامية قوتور صرعى المرض التيفوئيد. وفي نفس الوقت هناك ستة وثلاثون مريضاً في المستشفى، يعيشون في ضيق وضنك شديدين، وكذلك نفتقر لوجود طبيب وكذلك فقدان تام للادوية.

لقد اخذ الوباء نسباً مرتفعة مخيفة وتبلغ خسائرنا اليومية وفاتين، لذلك اجد نفسي مجبراً ان اعلم سيادتكم بذلك وتفضلوا سيادتكم بقبول مشاعر تقديري العظيم،... الخ.

آمر الكتيبة الثالثة للفرقة الرابعة

ختم عثمان سيفي

الوثيقة السابعة:

إلى: الأمر عثمان بيك

سيدي،

لقد ارسلت مساعدي كامل افندي خصيصاً لتفتيش القوات غير النظامية التي تم إرسالها إلى قوتور واسيتران. وبعد ان انجز مهمته يرافقه عدد من الضباط، سوف يقومون بتفتيش القوات غير النظامية في قوتور، ومن ثم ترسلهم القيادة بسرعة إلى استيران. وبعد ان قام بذلك يرافقه عدد من الضباط، في حين تذهب قوات استيران إلى قوتور. ويتم التفتيش بنفس الطريقة. وبعد انتهاء تلك المهمة ارسل مساعدي إلى.

جنرال فرقة في جيش الاناضول

ختم عزمي

٩ نوفمبر انظر اعلاه ٢١ يناير ١٨٦٣

الوثيقة الثامنة:

إلى: الآمر، عثمان بيك

سيدي،

عاد مساعدي كامل افندي بعد ان ادى مهمته بنجاح، في نفس اللحظة التي علمت فيها بالتقرير الشفوي الذي قدّمه ذلك الضابط حول الاحتياجات والأدوية وخلافه وارسلتُ عشرة اسرة وادوية سريعة.وسوف نرسل تلك الاحتياجات من وان بعد يوم من تأريخ رسالتي تلك.

اما بالنسبة للطبيب، وبما ان ذلك الموظف يوجد الآن في قوتور يمكنك ان ترسل رسالة بالفرنسية لاعلامه بأن مساعد جنرال الغرفة قد اتى للتفتيش على القوات الامبراطورية. وعند عودة القوات إلى وان، ارسلنا الأدوية من وان وكل ما تحتاجونه. وان الأمر قد أمر بقدومك مباشرة إلى قوتور دون العودة إلى وان، لذلك ادعوك للمجيء قبل الوقت بمدة.

وبعد ان علمت، انه بسبب المياه الغزيرة التي تتراكم وتتداخل في جدران المعسكر وغرفه انتشرت الرطوبة. واعتقد انه سيكون من الافضل حفر حُفرٍ حول المعسكر بشكل لايسمح للمياه بان تتجمع وتبقى في المعسكر.

جنرال فرقة في جيش الاناضول

ختم عزمي

٢١ يناير انظر اعلاه، ٢ فبراير ١٨٦٣

الوثيقة التاسعة:

إلى: الآمر، عثمان بك

سيدي،

على الرغم من انني قد طلبت منك استدعاء الدكتور سافيني إلى قوتور، ارتأيت انه من المناسب ان ارسل اليه امراً سريعاً للذهاب مباشرة دون ان يَضيع ولا لحظة من الوقت. ولدى وصول الدكتور، أبذلوا كل الجهود الممكنة لرعاية وعلاج المرضى بشكل فعال.

جنرال فرقة في جيش الاناضول

ختم عزمي

٢٣ يناير انظر اعلاه، ٤ يناير ١٨٦٣

الوثيقة العاشرة:

إلى: الآمر، عثمان سيفي بك

سيدي،

من التوصل إلى القضاء نهائياً على مرض التيفوئيد المتفشي بين القوات الامبراطورية والذين تحت امرتك، رأيت من الضروري والمفيد إرسال لجنة خاصة، من واجبها اتخاذ جميع الإجراءات والاحتياطات التي تراها جيدة وفعالة لتحقيق ذلك الهدف. ولذلك ادعوك ان تضيف جهودك في هذا العمل وان تحضروا مع ضباطك في الكتيبة للمحاضرات والجلسات التي سوف تقوم بها تلك اللجنة.. الخ.

جنرال فرقة في جيش الاناضول

ختم عزمي

١٣ فبراير انظر اعلاه إلى ٢٥ فبراير ١٨٦٣

الوثيقة الحادية عشرة:

إلى: عثمان سيفي بك، آمر القوات الامبراطورية في قوتور

سيدي،

بعد اختفاء الأسرائيلي موشو، من باشقلا، تم القيام بالبحث عنه، ظهر ان الأسرائيلي قد قُتل وسُلبت امواله وممتلكاته وامتعته. والمتهم بذلك حسُّو واخرون من رفاقه. وعلمت ان الاشخاص المذكورين قد تم القاء القبض عليهم والقاؤهم في السجن وفقاً لاوامرك. واستناداً إلى القوانين السائدة فان الجرائم تُعرض على المحاكم المدنية، ادعوك بتسليم القتلة المذكورين اعلاه إلى الجندرمة حاملي تلك الرسالة واتخاذ جميع الإجراءات الضرورية الكفيلة حتى لايتعرض اقل شيء يعود للمجرمين لاى فقدان او تحطيم. وبهذا الخصوص، ادعوك ان ترسل لي قائمة بكل مايعود إلى هؤلاء الافراد وكذلك اريد عرضاً وافياً لتلك القضية موقعاً منك ومن اعضاء مجلس ادارة المقاطعة.

حاكم مقاطعة هكاري

ختم ناظم

١١ آذار/ مارس انظر اعلاه- إلى ٢٣ آذار ١٨٦٣

الوثيقة الحادية عشرة:

إلى: عثمان سيفي بك، آمر القوات الامبراطورية في قوتور

سيدي،

بعد اختفاء الأسرائيلي موشو، من باشقلا، تم القيام بالبحث عته، ظهرَ ان الأسرائيلي قد قُتِل وسُلبت امواله وممتلكاته وامتعته. والمتهم بذلك حسُّو وآخرون من رفاقه. وعلمت ان الاشخاص المذكورين قد تم القاء القبض عليهم والقاؤهم في السجن وفقاً لاوامرك. واستناداً إلى القوانين السائدة فان الجرائم تُعرض على المحاكم المدنية: ادعوك بتسليم القتلة المذكورين اعلاه إلى الجندرمة حاملي تلك الرسالة وإتخاذ جميع الإجراءات الضرورية الكفيلة حتى لايتعرض اقل شيء يعود للمجرمين لاى فقدان او تحطيم. وبهاذا الخصوص، ادعوك ان ترسل لي قائمة بكل

مايعود إلى هؤلاء الافراد وكذلك اريد عرضاً وافياً لتلك القضية موقعاً من لدنك ومن اعضاء مجلس ادارة المقاطعة.

حاكم مقاطعة هكاري

ختم ناظم

١١ آذار/ مارس انظر اعلاه، إلى ٢٣ آذار ١٨٦٣

الوثيقة الثانية عشرة:

إلى:عثمان سيفي بك، آمر القوات الامبراطورية في قوتور

سيدي،

تم إرسال اوامر إلى المدير احمد آغا، واعضاء مجلسه بالحضور سريعاً إلى باشقلا، وحيث ان حضورهم ضروري بخصوص مقتل التاجر موشو. وتم إرسال امر مماثل لاحمد آغا طالبين منه ان يُحضر معه إلى باشقلا اربعة من خدمه. ذُكرت اسماؤهم في المذكرة المرفقة. فارجوك ان تجبر المدير على التصرف وفقاً للاوامر الصادرة اليه.. الخ.

حاكم مقاطعة هكاري

ختم ناظم

١٦ مارس انظر اعلاه إلى ٢٨ مارس ١٨٦٣

اسماء الرجال المطلوبين: لشكو، ابن اوزو، سيمو، سيمو ابن كافسم [قاسم؟]، بدر اوغلو عبدالله.

الوثيقة الثالثة عشرة:

إلى: عثمان بك، آمر القوات الامبراطورية في قوتور

سيدي،

وصل السجناء المشاركون في مقتل موشو إلى باشقلا استجابة لاوامر الملازم ثاني خليل آغا. وعرضت قضيتهم في نفس يوم وصولهم. وبخصوص تلك القضية لن نتستطيع ابداً ايفاء حقك بالشكر على جهودكم وسلوككم.

ومن اليوم ولعدة ايام، سيتم إرسال القتلة المذكورين اعلاه وكذلك المدير احمد اغا إلى وان، حيث ان حضورهم ضروري كما قدرت المحكمة.. الخ.

حاكم مقاطعة هكاري

ختم ناظم

٢١ مارس-٢ ابريل ١٨٦٥ انظر اعلاه

الوثيقة الرابعة عشرة:

إلى: عثمان سيفي بك، آمر القوات الامبراطورية في قوتور

سيدي،

خلال التحقيقات التي دارت مع الذين شاركوا في مقتل اليهودي موشو، اعلن احدهم ويُدعى: حسُّو گيرلڤيك، ان المدير احمد اغا قد ارسل اليه رسولاً مسيحياً يقول له انه اذا لزم الصمت حول ذلك الموضوع فسوف يزوجه ابنته. ولهذا كان ينفي دائماً معرفته باسم ذلك الرسول قائلاً انه لايتذكر اسمه. ولكنه يظن مع ذلك ان الشاب المسيحي رّبما يكون احدى ابناء رؤساء الجاليات المسيحية في قوتور.

وظهور مثل ذلك الشخص أمام المحكمة ستكون له تداعيات كبيرة. وانني ادعوك اذن ان ترسل لي ابن رئيس الجالية الأرمنية تانري ظردي و هاتشو ابن ايكو وكذلك جميع الابناء صغاراً وكباراً، ابناء جميع رؤساء الجاليات المسيحية.

حاكم مقاطعة هكاري

ختم ناظم باشا

٢١ مارس- ٢ ابريل ١٨٦٥

الوثيقة الخامسة عشرة:

نحن الموقعون ادناه، اعضاء مجلس ادارة قوتور وغيرهم من الموظفين العامين، نعلن ونشهد في الوثيقة الحالية ان الملا حاجي وابنه الاكبر محمد وولديه الاصغرين: موسى وكوللو، وكذلك ابن اخته موخو، انهم جميعاً لصوص. وهناك ثلاثة احداث تؤيد شهادتنا:

١. عدوان على قافلة فارسية منذ سنتين، كانت ذاهبة من سلماس إلى وان وضرّبوا وجرحوا المسافرين ومن يقودها ونهبوا امتعتهم واموالهم وبضاعتهم.

٢. قاموا بحماية موخو الذي لجأ اليهم، كما انه احد قتلة التاجر الأسرائيلي موشو وابعدوا عنه كل بحث في الوقت الذي هرّب فيه من سجن قوتور.

٣. الحدث القريب جداً حيث قاموا بنهب محمد علي وشيمو وهما إيرانيان بالقرّب من ضواحي نهر النت، واستولوا على ثلاثة خيول وكمية من المال وغيرها من الامتعة.

هيرد آغا	كابتن صغار الجنود	قاضي مدينة قوتور
عم المدير احمد اغا	سعيد آغا	عبدالفتاح

الوثيقة السادسة عشرة:

تلك البرقية المؤرخة في الخامس والعشرين من مارس انظر اعلاه قدّمتها بنفسي إلى مجلس ادارة الفيلق الرابع عندما كنت آنذاك في أرضروم. وبقيت تلك الوثيقة، وبالنسيان، بين يدي سعادة حسين دايم باشا، جنرال الفرقة، وفي ذلك الوقت كان رئيس مايسمى بالمجلس الاداري. وكان سندي الوحيد شرفُ ذلك الضابط الذي استطيع ان اقدّمه بخصوص وجود وثيقة كتلك وكذلك على صحة ماعرضته.

كاتب الكتاب

الوثيقة السابعة عشرة:

إلى: سعادة ملمني مصطفى باشا، المشير

آمر الجيش الامبراطوري في الاناضول

صاحب السعادة،

لقد ذهبت جميع الجهود التي بذلتها من اجل الحصول على السماح لي بالمجيء إلى أرضروم، ذهبت هباءً ولم يهتم بها احد، وذلك بفضل مساعي جنرال الفرقة عزمي باشا. واجد نفسي مجبراً على مناشدة عواطفكم السامية رجاء السماح لي بالظهور في مقر القيادة العامة للدفاع عن قضيتي أمام محكمة عادلة محايدة، ولتقديم حقائق دامغة ذات اهمية كبيرة في نفس الوقت،.. الخ.

خادمكم

آمر الكتيبة الثالثة من الفرقة الرابعة

ختم عثمان سيفي بك

١٠ ابريل/ ٢٨ ابريل ١٨٦٣ انظر اعلاه

الوثيقة الثامنة عشرة:

مذكرة مقدّمة إلى صاحب السعادة المشير آمر الفيلق الرابع، ثم قدّمت بعد ذلك إلى صاحب المعالي فؤاد باشا، رئيس الوزراء.

خلال شتاء السنوات ١٢٧٢/١٢٧٩ ١٨٦٢-١٨٦٣ ومن بدايات شهر نوفمبر تشرين الثاني وحتى نهاية مارس/آذار، وقع جريح مرض التيفوئيد مايقرّب من ٢٨٧ جندياً من مجموع عدد جنود الفرق الاربع من الكتيبة الثانية من الفرقة الرابعة التابعة للفيلق الرابع التي كانت تحت امرتي. وقد فقدنا منهم اربعة وخمسين جندياً صرعى ذلك الوباء. ان ذلك الرقم الكبير للوفيات تعود اسبابه لسوء تصرف وسوء ادارة جنرال الفرقة عزمي باشا. الذي رغم التقارير الرسمية والمطالب الملحة المرسلة بهذا الخصوص، رفض دائماً تقديم اية مساعدة لجنودي او إتخاذ اجراءات كفيلة ضرورية للتخفيف من عذاب الجنود ووضع حد للوفيات. رفض رفضاً باتاً.

المادة الثانية:

في مرحلة اجتياح الوباء للقوات، ارتأى عزمي باشا ان يرسل طبيب كتيبتي الدكتور لافيينيlavini إلى باشقلا ليقيم فيها مدة شهر. وهدفه من القيام بذلك تحقيق مناوراته وخدمة مصالحه. عزمي باشا، هو المسؤول عن إرسال طبيب قواتي إلى ناظم باشا في مهمة خاصة، ذلك الطبيب الذي يتناول اجره من الدولة لغرض واحد وهو رعاية ومعالجة جنود الفرقة.

المادة الثالثة:

الاشخاص الذين تم التعاقد معهم لجلب المؤن والذخائر للفرقة، كانوا مُلزمين بنقلها إلى المخازن، حيث يستقبلون تلك البضائع ويتم تخزينها، لكنهم المفضلين لدى عزمي باشا. ووضع عزمي باشا تحت تصرفهم امكانيات كبيرة حيث كانوا ينقلون الجزء الاكبر من بضائعهم عن طريق الجنود والضباط وخيول المدفعية وسلاح الفرسان وكله تحت تصرفهم بأمر من عزمي باشا. وكم كان مهيناً ان نرى القوات الامبراطورية تخدم بعضاً من المتعاقدين وتجدر الاشارة هنا إلى ان هؤلاء المتعاقدين لايساوون شيئاً ولايملكون رأس المال ولا الضمانات الضرورية التي تؤمن انجاز وتحقيق عقودهم. ويجب ان نلاحظ ان من نتائج ادارة كهذه، ان الجنود تحت امرتي لا يجدون الخبز لثمانية ايام متواصلة اي من ٢٦ فبراير وحتى السادس من مارس.

المادة الرابعة:

في المدة، حيث كنت آمراً لقوتور، هاجر علي آغا رئيس قبيلة الشكاك إلى بلاد فارس هادفاً لاثارة المشاكل، وكان متواصلاً وباستمرار مع قبيلته المقيمة في تركيا. واذا استطاعت الامساك بعملائه والحصول على احدى رسائله، اعتقدت انه من واجبي إرسال نسخ من تلك الوثيقة إلى عزمي باشا حاكم وان وناظم باشا حاكم هكاري. ولان عزمي باشا كان معادياً لحاكم وان، ظن انه طُعن في كرامته بتقريري وبدلاً من ان يعلن عن رضاه لتلك الخدمة، ارسل لي رسالة مشينة يسألني فيها. ويلقبني بانني ضيزوبنتي. ولانني فخور برتبتي ومكانتي العسكرية، القيت الرسالة إحتقار وطلبت بشكل رسمي ضرورة تصحيح مثل تلك الاهانة.

المادة الخامسة:

وقعت جريمة اغتيال تاجر اسرائيلي في ضواحي قوتور. ولاسباب استثنائية جداً وجدتُ نفسي مضطراً للتدخل والقبض على القتلة. وبرهنت التحقيقات التي تمت على ان مدير جريمة الاغتيال تلك هو احمد آغا، مدير المقاطعة. ومع ذلك ومع نقل القضية أمام محكمة وان، تم اخلاء سبيل احمد آغا، والسماح له بالعودة لإحتلال منصبه. ساعده في ذلك واحد ممن يحْمُونه. ولدى عودته إلى قوتور، اراد ان ينتقم لتدخلي في الكشف عن القتلة، فارسل رسالة مشينة ضدي اخترع فيها كل ما يمكن من

اتهامات واهانة. ورسالة من هذا النوع تثير الشك والظن رغم انها خاطئة، اهتم بها عزمي باشا وامر بتعليق جميع اعمالي ووظيفتي إلى جانب بعض المعاملات المهينة لشخصي.

المادة السادسة:

ان السلوك المشين غير المشروع والاتهامات التي كالها إلى عزمي باشا، جنرال الفرقة التابعة للفيلق الاول والمقيمة في وان، الذي كنت قد ابلغت سيادتكم بها آنذاك، في ٢٧ ديسمبر ١٢٧٨ و ١٦ ابريل ١٢٧٩. وقد عرضت لسيادتكم في المواد السابقة تفاصيل اتهامي ضد عزمي باشا ولثقتي التامة بان سيادتكم ستأخذ بعين الاعتبار وبجدية شكواى وتمنحني بعض الرضا عما لحقني من كذب وافتراء واتهامات مفتعلة ومطاردات كنت مع الاسف ضحية لها.

امر الكتيبة الثالثة، من الفرقة الرابعة

ختم، عثمان سيفي بك

الوثيقة التاسعة عشرة:

القسطنطينية في الثاني والعشرين من فبراير/شباط ١٨٦٤

إلى: جلالة فؤاد باشا رئيس الوزراء

جلالتكم،

الموقع ادناه كان له شرف الخدمة العسكرية في الجيش الامبراطوري العثماني في السنوات من ١٨٥٣-١٨٦٤، حيث كنت قائد كتيبة. وخلال سنوات خدمتي العشر، انجزت واجباتي بصرامة تامة كما تقضي بذلك نظم الجيش الصارمة السائدة، وكان سلوكي يتوافق ومقتضيات الشرف العسكري: تلك كانت دائماً المسيرة التي تميز بها الموقع ادنا، والذي الزم دائماً في مختلف الظروف والمهمات التي شرفته حكومة الامبراطورية بالقيام بها. فقد قام بحملة ١٨٥٤، في جورجيا، وتم تعيينه عام ١٨٥٧ عضواً للجنة الدولية المسؤولة عن ترسيم الحدود بين تركيا ومونتينيغرو، وفي تلك المناسبة ساهم بلقب التبعات السيئة لتلك الحملة المميتة. وفي عام ١٨٥٨، التحق في القيادة العليا برئاسة المرحوم اسماعيل باشا، حيث عمل في معسكر المراقبة المقام في كوسوفو، وتبع الجنرال كذلك في مهمته في الهرسك. وعند العودة للقسطنطينية اقيمت اصلاحات في القيادة العليا، وتم تعيين الموقع ادناه آمراً للكتيبة الثالثة في الفرقة الرابعة التابعة للفيلق الرابع، التي تعمل في حامية قوتور على الحدود الفارسية. وهناك ايضاً ظهر اخلاصه في انجاز واجبه، وهذا ما دفعهم بتعيينه في قيادة القوات التي عاملها بعدالة واخلاص للواحب بما يتلاءم وعلمه واهتمامه.

وإيماناً بالمسؤولية الكبيرة المُلقاة على عاتقه تجاه الله وتجاه مليكه وبضرورة الانجاز الدقيق لواجباته فقد دفعه ذلك لملاقاة المشير مصطفى باشا من الفيلق الرابع لكي يعرض أمامه الحالة المأساوية التي تعيشها القوات تحت قيادته واسباب الوفيات التي اصابتها. وبعد القيام بعدة خطوات

كانت عبثية بلا فائدة، ولمدة ثلاثة أشهر، وجد نفسه مضطراً للمجيء إلى القسطنطينية ليكشف لجلالتكم تلك الاحداث المؤسفة، موضوع شكواه. ومضت ستة شهور ولم يتلق اية اجابة شافية. ولكنه تلقى أمراً بالمثول سريعاً أمام قيادة الأركان العامة لكي يقدّم البراهين على التهم التي وجّهها.

وفيما عدا ذلك، واثناء اقامته في القسطنطينية ليكشف لجلالتكم عن تلك الاحداث، تم اهماله تماماً وشعر بالقهر ولم يبق له الا أن يشحذ ليقيم اوده ووجوده، وانها جزاء عادل على الاخلاص لمليكه. وأخيراً، وبعد هذا الكم الهائل من العذابات والاهانات والسباب المهين لشرفه ولمهنته، قرر الموقع ادناه بعواطفه الصادقة تجاهكم ضرورة تقديم استقالته رسمياً من الخدمة العسكرية الامبراطورية بمقتضى المذكرة بين ايدي جلالتكم.

خادمكم المطيع
فردريك ميللنجن، عثمان سيفي بك
رئيس الكتيبة

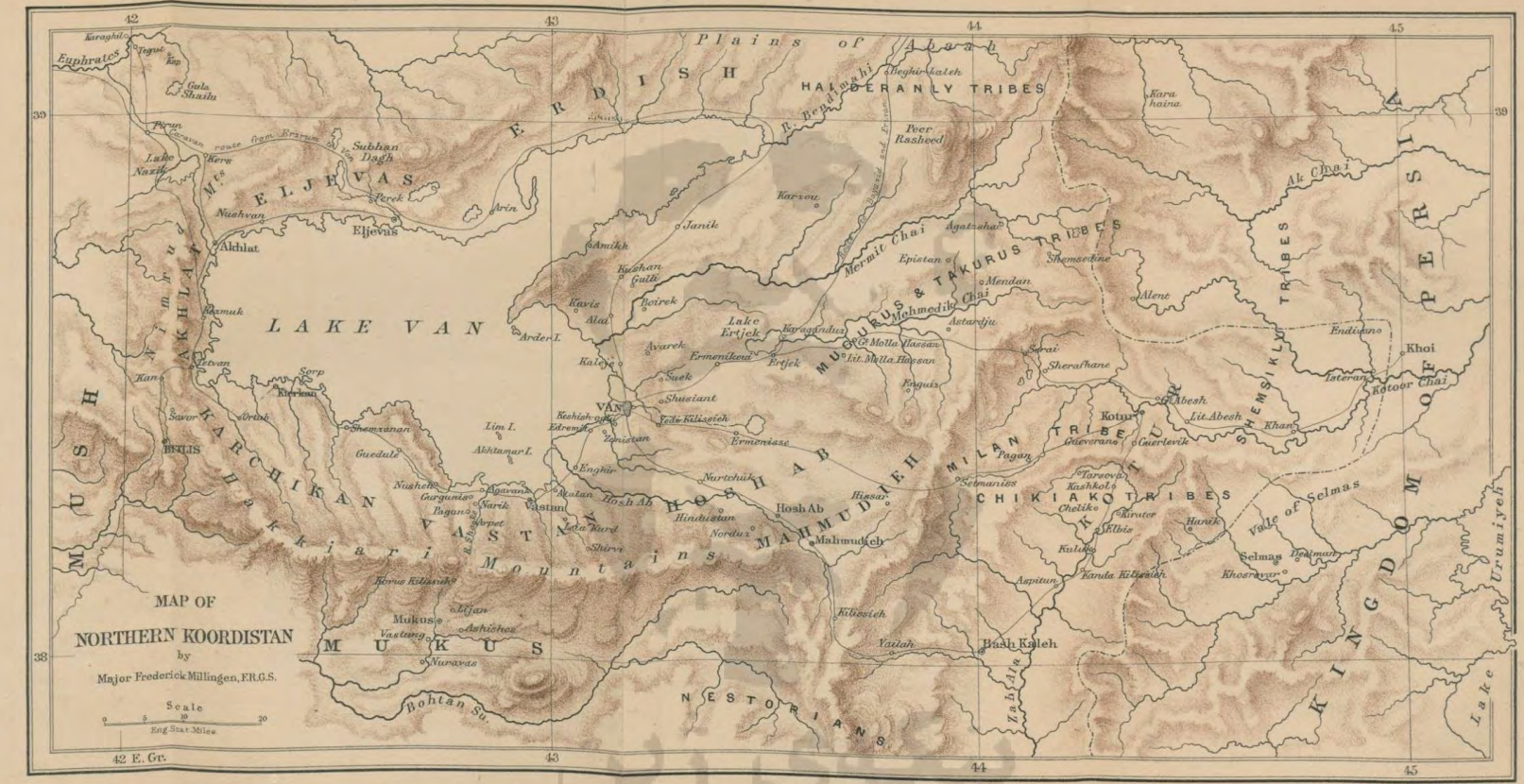
MAP OF
NORTHERN KOORDISTAN
by
Major Frederick Millingen, F.R.G.S.
Scale
Eng Stat Miles
LAKE VAN
MUSH
AKHLAT
HARCHIKAN
Harkiari Mountains
VASTAN
MUKUS
ERDISH
ELJEVAS
Plains of Abaad
HAIDERANLY TRIBES
MUSURUS & TAKURUS TRIBES
MILAN TRIBES
CHIKIAKO TRIBES
SHEMSIKLY TRIBES
KINGDOM OF PERSIA
NESTORIANS
Lake Urumiyeh
Valley of Selmas
Akhlat
Eljevas
Mukus
VAN
BITLIS
Khoi
Selmas
Mahmudieh
Hosh Ab
Bash Kaleh
Yailah
Kibissieh
Nurtchuk
Ermenisse
Shusiant
Ardor I.
Lim I.
Akhtamar I.
Bohtan Su.
Zab Su.
Euphrates
Karaghul
Tegut
Kop
Gula Shaitu
Piran
Caravan route from Erzerum
Lake Nazik
Kara Kilissieh
Subhan Dagh
Nushvan
Arin
Janik
Amikh
Karzou
Poer Rasheed
Begir-kaleh
Kara hairu
Ak Chai
Agatzshar
Mermir Chai
Epistan
Shemsedine
Mendan
Alent
Endizano
Isteran
Kotoor Chai
Khan
Lit. Abesh
Abesh
Kotur
Guerverane
Guertevik
Sherafhane
Suraï
Astardju
Mohmedik Chai
Karagundus
Gt. Molla Hassan
Lit. Molla Hassan
Ermenikeui
Ertjek
Lake Ertjek
Kaleje
Suek
Avarek
Karis
Alaz
Boirek
Kuchan Gulik
Finguiz
Kelish-agha
Edremit
Tedz Kilisseh
Tenistan
Shemxanan
Gueduk
Nushebe
Gargunsa
Pagans
Varck
Agavan
Nutan
Vastan
Arpet
Zetta Kurd
Hinchistan
Norduz
Hosh Ab
Hussar
Shirvi
Pagan
Selmanisse
Tarsevan
Kashkol
Chelik
Kirater
Elbis
Hanik
Kulidge
Kanda Kilissieh
Aspitun
Khosrevar
Heidman
Asheitez
Vastuvg
Nuravas
Liyan
Korna Kilissieh
Stanford's Geographical Estabt Charing Cross